المرجع الديني
آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

الفكر الإسلامي

مواجهة حضارية

Π

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

صدق الله العلي العظيم

الممتحنة 4

كلمة في البدء

تعيش الأمة الإسـلامية اليوم تحديا حضـاريا كبيراً من جميع الجهات.

وبالرغم من أن التحدي الحضاري ظاهرة لازمة في الأمة وأنه لم يأت حين على المسلمين إستراحوا فيه من تحديات حضـارية، فإن التحدي الجديد يتخذ طابعا مختلفا يكمن في تحوله التدريجي إلى مواجهة حضـارية شـاملة للجوانب الأيديولوجية والإقتصـادية والسياسية والعسكرية وهي مصيرية لأنها تعتزم اكتساح الحضارة الإسلامية حتى لا تعود قادرة على النهوض مرة أخرى.

والمواجهة الحضـارية تبرز من خلال مظاهر مختلفة، بيد أن نقطة واحدة تقرر مصيرها النهائي لصـالح الأمة أو في صـالح أعدائها، تلك هي جدارة (الفكرة الحضـارية) بالبقاء. فبقدر ما تكون الفكرة مليئة بركائز التقدم والنصـر، وبقدر ما تبعثه في الإنسـان المتقمص لها من الإيمان والمعرفة، سـيكون تقدم الأمة وإنتصارها.

ولن تغني الفكرة الحضـارية شيئاً لو لم تملك الأصـالة والواقعية ، ولم تكن قادرة على تحميل نفسـها على كتف الحياة حتى تصـنع رجالا، وتصنع بهم بطولات وتصنع بها حضـارة متفوقة. إذ بدون التفاعل بين الإنسـان والفكرة كيف يتمكن الإنسـان من تغيير واقع

وبناء حياة! فهل تتقدم أمة تملك تراثا ضخما من الفكرة الحضارية لو لم تتحول فعلا إلى عطاء وعمل؟

ومن هنا فإن الإسلام لن يغني الأمة شيئا ما دام فكرا تاريخيا في ذهنية المسلمين، دون أن يتحول إلى مادة حضارية تتفاعل مع الإنسان في واقعه الخارجي. ولن يقع هذا التحول دون ظهور الإسلام على المسرح بكل قوة حتى يقوم بدوره كفكرة حضارية.

ذلك لان الإسلام كدين، والإسلام كتاريخ يختلف كثيرا عن الإسلام كإيمان وعمل وبالتالي كفكرة حضارية.

إذ الدين بمفهومه الشائع إنتماء وطقوس، والتاريخ عبر وحكم. أما الإيمان، فهو أصالة وكينونة. أما الحضارة فهي حركة وحياة. وبين القسمين فاصل كبير.

فالمسلمون، كانوا أمة، وكانوا خير أمة أخرجت للناس، وكوّنوا حضارة لا مثيل لها؛ كل هذا تاريخ لا يمكن أن يحقق شيئا. ولنا أن نتساءل عن انه هل عاد المسلمون أمة، وهل هم اليوم خير أمة، وهل انهم بناة حضارة، بل هل هم حماة حضارة؟ وبكل أسف يجب أن نجيب كلا أننا لم نعد أمة لأننا اليوم نفقد الوحدة والتعاون. ولم نعد خير أمة، لأننا لا نملك كفايتنا من العلم والإيمان. ولم نعد نبني ولا نحمي حضارة، لأننا وبكل أسف، نعاني نكبات سياسية وعسكرية، وتخلفا اجتماعيا علميا اقتصاديا. و.. و.. وبالتالي: ان اسلام أمس لا يغني عن إسلامنا اليوم.

والسؤال هنا كيف نحول أمسنا إلى اليوم؟ والجواب بسيط: لا بد من طي الفترة التي تفصل اليوم عن أمس ليتصل يومنا بيوم تقدمنا، ونبدأ منه المسير.

ذلك لأننا بحاجة إلى واقعين: قاعدة بناء ومنطلق مسيرة هما في الواقع أصالة وتفتح. فدون واحد منهما نخسر المعركة الحضارية.

والإستلهام من الدين الصحيح يشكل القاعدة والمنطلق والأصالة، والتفتح على الحياة يشكل المسير والتفاعل.

فنحن إذا بحاجة إلى (تأصل) و(تفتح) ولابد أن نحققهما عبر مراحل ثلاثة:

1- مرحلة التأصل، وفيها نحاول استيعاب الفكرة الحضارية التي تتمثل في الدين الإسلامي إيمانا وعلما.

2- مرحلة البعث، وفيها نتحسس بالتخلف ونستيقظ من سباتنا العميق، ونريد ان نحيى.

3- مرحلة التفتح، وفيها نحاول الاستفادة من معطيات العلم الحديث.

ان هذا هو الخط الواضح القويم الذي لا يمكننا ان ننجح دون الإلتزام به والوفاء بمتطلباته.

بيد أن هناك عقبة تعترض الطريق، وبمدى قدرتنا على تحديها يكون مدى جدارتنا بحماية حضارتنا التليدة وبنائنا للحضارة الجديدة. وهي التطرفات اليمينية واليسارية التي تريد بالمسيرة الإنحراف عن خطها المستقيم. فاليمين يحاول تجميدنا على الأوضاع الفاسدة، واليسار يريد تمييعنا في بوتقة الحضارات المعاصرة. اليمين يرفض الأخذ بأي جديد ويحاول بنا الانطواء على شكليات القديم المهترئة والتقوقع في توابيته الفكرية المحنطة، ويرضى لنفسه أن يكون تابعا أعمى للفلسفة الإغريقية والبرهمية ولا يقبل الانفتاح على معطيات الحضارة الحديثة

العلمية، بل ولا على معارف الدين الإســـلامي الحق. ولذلك لا يزال يعتكف على منطق ارسطو وهيئة بطليموس وطب جالينوس في عصـر المناهج العلمية الدقيقة، حيث يرتاد الفضـاء وتسـتخدم الذرة وتستعمل الأشعة في شفاء الأمراض.

والـذي لا ريـب فيـه أن اليمين بعيد عن روح الإســـلام بعد المشـرقين، ذلك لان الإسـلام فلسفة شـاملة أصـيلة متفاوتة كلياً مع فلسفات الإغريق والبراهمة ـــ الوثنية المشركة ـــ والاسلام منفتح كليا علـى معطيات العقل والعلم ولا يرضـى التقوقع ضـمن توابيت القديم.

ولا ريب كذلك أن اليمين عقبة دون بناء الحضــــارة، لابد من تجاوزها.

والتطرف اليســاري هو الآخر عقبة كؤدة يشـكلها الانهزاميون الذين منعتهم التيارات الغربية الشـعور بأنفســهم فراحوا ينظرون إلى واقعهم وكيـانهم بعيون مســـتعارة، فلا يرون الا مصـــــالح الآخرين. فهم يريـدون أن نرفض كل أصـــيـل لأنـه في زعمهم الســـبب المباشـــر لتخلفنا. والمســـلمون ظلوا بين تزمّت اليمين وميوعة اليســار لا يسـتطيعون حيلة ولا يهتدون سـبيلا، ذلك لأن المنحرفين راحوا يشـكـكون في قدرة الإســلام أن يبني حضـــارة المســـلمين الحديثة الأصــيلة. وبما أن الدين لا يزال يتمتع بقاعدة شـعبية واسـعة وراسـخة، فإن المنحرفين لم يقدروا على الهجوم على صـلاحية الإسـلام أو إمكانية المسـلمين للقيام ببناء حضــارة حديثة، بل راحوا ينافقون ـــ كل حسب اتجاهه المتطرف ـــ أيما نفاق.

فالمتزمتون حاولوا أن يحصـــروا الدين عند الناس في حدود معينـة من الســـلوك الفردي وبعض النظم الاجتماعيـة، أمـا في المناهج العلمية والأفكار الفلسفية والقواعد الخلقية فلابد أن يصبح تابعا متواضعا للفلسفة التي يختارونها كل حسب هواه.

ومن هنا قالوا: ان الإسلام يشجعهم على اتباع الفلسفة الاغريقية وذهب الخيال ببعضـــهم حد القول بأن أفكار الفلســـفة القديمة هي بالذات معطيات الإســـلام، فالمنطق الشــكلي ونظرية القوة والفعل وهيئة بطليموس وما أشبه هي عندهم نظريات إسلامية.

وكانت نســـبتهم هذه إلى الإســـلام أشـــبه شـــيء بنســـبة رجال الكهنوت خرافات العصـور الوسـطى إلى المسـيحية، مما أدت إلى إرتداد العلماء عن الدين في أوروبا.

أما النصـوص الشرعية المخالفة لهم في نسبتهم هذه فكانت في أيديهم ألين من الحديد بين أصـــابع داود عليه الســـلام، حيث أخذوا يـأوِّلون فيهـا ويحرفونهـا ويفترون على الله الكـذب وهم هـادئون مطمئنون.

وفي الطرف المعـاكس تمـامـا كـان الإنهزاميون يقومون بـدور ممـاثـل للمتزمتين ولكن من منطلق مختلف، إذ كـانوا يحـاولون تجريد الإســـلام من روحه الناصـــعة، ومبادئه الفطرية الصـــائبة، وتمييع أحكامه المحددة وتوجيه نصـوصـه وفق (فلسـفات الغرب الحديثة) ناســين أو متناســين كل ما في هذه الأخيرة من ســلبيات وتناقضات.

وقد بلغ الجهد ببعضـــــهم حدا دعى المســـلمين إلى تبني فكرة مناهضـــة للإســـلام تماماً، وبإســـم الإســـلام ذاته، وقالوا لا يعدو الإسلام أن يكون إنتماء قوميا أو قبليا أو عائليا، فهو ينسجم ـــــ أو

بالأحرى لابد ان نجعله بحيث ينسجم ـ مع كل جديد يقتضيه اتجاه الحضارة الحديثة. ولم يعلموا أنهم بعملهم هذا انتزعوا عن الإسلام أهم ما فيه، وهي الروح المبدعة المغيرة والثائرة.

وضـــاعت الأمة الإســلامية المرتقبة والحضـــارة الإســـلامية المأمولة، ضـــاعت في زحمة هذه الاتجاهات المتطرفة. وأصـــبح الإسـلام كلمة جوفاء مطاطية كأنها ضـباب السـواحل تشـمل جميع المتناقضـات، وليس أبداً ذلك الدين الواحد الذي جاء من رب واحد لتكوين أمـة واحـدة، بـل انـه ألف دين وألف مـذهـب وألف أمـة.. وكانت هذه عقبة تعترض مسـيرة المسـلمين الحضـارية وكان لابد لنا من تحديها بأمرين:

1- تجريد الإسلام من الفلسفات الجاهلية التي نسبها المنحرفون إلى الدين حتى يعود الدين كما هبط من الله ســـبحانه فكرة رائعة تحمل نفســها على كتف الحياة، وتنســجم وتتفاعل معها. ولا يمكن ذلك دون العودة إلى ذات النصوص الشرعية ومحاولة التسليم لها والتفتح عليها، دون التأويل فيها والتحريف لكلماتها.

2- تجريد الحضـــــارة الحديثة عما شـــابت بها من ســـلبيات الإنسـان الأوروبي ونظراته الضيقة المحدودة، وذلك بدراستها في ضــــوء العقل وهدى القرآن دون تقليد منا أو انغلاق عنها. وعلينا بعد ذلك الاعتماد على أصالتنا في بناء حضارة قوية وسليمة.

وليس الكتـاب الـذي بين أيـدينـا الا محـاولـة متواضـــعـة تهـدف تحقيق هذه الغاية، والله الموفق وهو المستعان.

مـحـمـد تـقـي المدرسي

العراق - كربلاء

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

إن لم تتح لي فرصة تصدير الطبعة الثالثة التي تمت في الكويت، فإني أجدني مسؤولا عن بيان رأيي في الكتاب بعد خمسة عشر عاما من تأليفه، وذلك عبر تقديم الطبعة الرابعة.

ويختص هذا الرأي بموضوعات العقائد الإسلامية من الكتاب فحسب، ويتلخص فيما يلي:

بالرغم من ان العقيدة الإسلامية هي التي تتحدى ضغط الشهوات، والأهواء، وسلبيات المجتمع الفاسد، وهي التي تتفرع عنها العبادات والأخلاق.

الا ان مشكلة البشر فيها ليست عقلية، إذ انها من ضرورات العقل، التي فطر الله الناس جميعا عليها.

بل هي مشكلة نفسية، نابعة عن ضعف الإرادة أمام تحديات المجتمع وضغوط الشهوة؛ المجتمع الذي تحيط به اجهزة الطاغوت الإرهابية، كيف يمكن ان يعبد الله وحده دون ان يتسلح بإرادة يقهر بها ضعفه البشري؟

والشاب الذي تعصف به رياح الشهوة العاتية، كيف يتحدى إغراء الحياة، ويعبد الله وحده دون إرادة قاهرة؟

وهكذا الفرد المليء بالعقد، لا يمكنه فهم الحياة بفطرته الطاهرة دون خرق حجاب العقد بعزم إيماني راسخ.

وربما تشـــير إلى هذه الحقيقة، الأحاديث التي تؤكد ان الإيمان روح، وتبين ان الإيمان عمل، وان على كل جارحة مســـؤولية إيمانية خاصة بها:

جاء في حديث شريف[1] عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) ، يقول الراوي (قلت له: ايها العالم! أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟

قال: ما لا يقبل الله شيئا الاّ به.

قلت: وما هو؟

قال: الإيمان بالله الذي لا إله الا هو، أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة واسناها حظاً.

قلت: الا تخبرني عن الإيمان، أقول هو وعمل، ام قول بلا عمل؟

فقال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّن في كتابه، واضــح نوره، ثابتة حجته، يشــهد له به الكتاب ويدعوه إليه.

ثم يضيف الحديث قائلا:

قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسَّـــمه عليها، فليس من جوارحه جارحة الا وقد وكلت من الإيمان بغيرما وكلت به اختها..)

ومن هنا يبدو لي ان المنهج الإلهي في تذكرة الناس بربهم واعدادهم لإســـتقبال روح الإيمان، والبدء بالعمل بمســـؤولياته،

1- الكافي، الجزء 2، ص 33،34 .

يختلف عن منهج دراســة العقائد في كتب الكلام، أو بالأســلوب المتبع مثلا في هذا الكتاب. وبالرغم من ان هذا الأسلوب قد يكون نافعا، ونجد في كتب الإحتجاج ان الأئمة عليهم السلام استخدموه أيضا[1].

الا انــه ليس المنهج الأمثـل الـذي نجـده في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

ونحن نبين باختصار شديد بعض جوانب المنهج القرآني الأمثل لعل الاخوة الذين يدرّسون هذا الكتاب لطلبة العلوم الدينية، حفظهم الله، يستفيدون منه في أسلوب التدريس ويحوّلون حلقات الدرس إلى منابر توجيهية هدفها إثارة دفائن الفطرة وغرس مكارم الأخلاق، وتبصير الطلبة بحقائق انفسهم والحياة من حولهم.

ان العقائد ليســت مادة دراســية بقدر ماهي تذكرة إلهية هدفها إيقاظ العقل من سباته، وجلاء الروح بعد تراكم الرين عليها، وبث الخشـوع في القلب بعد قسـوته. ومعلم درس العقائد لابد ان يزكي نفسه، لكي يتحول إلى قدوة في تصرفاته، ويكون في نبرات حديثه وقســمات وجهه تذكرة بالله، وترهيب من عذابه، وترغيب في عظيم ثوابه.

المنهج القرآني

هناك خطان نشـير اليهما في المنهج القرآني؛ خط في أسـلوب التذكرة بالله، وخط في ربط ذلك بالعمل.

بالنسبة إلى الخط الأول لابد ان نقول:

1- في الكتاب الذي بين يديك أمثلة عديدة على ذلك خصوصاً في أبواب التوحيد.

بصائر القرآن لمعرفة ربّ العالمين

ان المنهج القرآني يذكر الناس بربهم من خلال الحياة، وليس بعيدا ولا مجردا عنها، حتى تتذكر ربك كلّما عشت ظاهرة طبيعية؛ فالشمس والقمر والنجوم آيات مسخرات بأمره ، والسماوات والجبال يسبحن بحمد ربهن، وان من شيء الا يسبح بحمد ربه..

ويقول ربنا سبحانه، وهو يلفت إنتباهنا إلى السموات التي رفعها بغير عمد نراها:

[اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ](الرعد 2) .

ويذكرنا بما في الأرض من آيات لعلنا نعرف ربنا من خلال النظر إليها، والإعتبار بما فيها من إختلاف وتشابه، والتذكر لما فيها من علامات الحكمة والقوة:

[وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ](الرعد 3).

ويلامس السياق القرآني فطرة الإنسان ويهزها عندما يقول:

[هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ](الرعد 12-13).

عندما تدك جبال السـحب بعضـها بعضـاً، فتحدث دوي الرعد وتختلط عندك الرغبة بالرهبة، والطمع بالخوف، وتأتي الصواعق وهي مرسـلة من لدن حكيم قدير، والأهداف مرسـومة لها سـلفا. عندئذ تذكر ربك وعقوبته الشـديدة، فلا تجادل فيه، بل أسـلم له وجهك حنيفا مسلما.

بلى ان هذا المنهج القرآني الذي يفسر ظواهر الكون وسنن الله فيه تفسيرا إلهيا، انه يجعل المؤمنين يتذكرون ربهم كلما غشيتهم ظاهرة كونية أو أعقبتهم سنة إلهية.

يقول ربنا سبحانه عنهم:

[إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ](آل عمران 190- 191).

ان منهج القرآن يربي مثـل هؤلاء المؤمنين، لأنـه يعطيهم بصـيرة إلهية ينظرون من خلالها إلى العالم المحيط بهم، وكلما توغلوا فيه، كلما ازدادوا ايماناً وتسليماً.

بصائر القرآن في معرفة التاريخ

ويعطي القرآن الحكيم المؤمنين البصـيرة الإلهية في التاريخ لينظروا من خلالها إلى الغابرين ويعتبروا بمصـيرهم. ذلك بأن الإنسـان تشـده حوادث التاريخ بقدرما تسـتثيره ظواهر الحياة الراهنة، وهو مفطور على النظر إلى الماضي. إذا فلينظر إليه من

خلال بصيرة إلهية ليزداد إيمانا بربه وتسليما لسننه وشرائعه كلما نظر في أحوال الغابرين.

يقول ربنا سبحانه:

[أَوَلَمْ يَسِـــيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَــــدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ](الروم 9).

وقد يذكرنا ربنا بمصـــير قوم نعرفهم في التاريخ، ويعطي تفسيرا إلهيا للتطورات التاريخية العظيمة لما تسمى بالحضارات التي ســادت ثم دمرت بســبب تخلفهم عن واجب التوحيد ومعرفة الخالق العظيم:

[وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَبَيَّنَ لَكُم مِن مَسَـــاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـــيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ](العنكبوت 38-39).

ثم يذكرنا بعاقبتهم ، وهي - بالطبع - عبرة لكل ملحد لا يؤمن بربه ويستكبر في الأرض بغير حق. يقول ربنا سبحانه:

[فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَنْ أَرْسَـــلْنَا عَلَيْهِ حَاصِــباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا انفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ](العنكبوت 40).

بصائر القرآن في معرفة النفس

ويتعرض البشـــر لحالات الشـــدة والرخاء، المرض والعافية، الفقر والغنى، ويعطيه المنهج القرآني في التوحيد البصـائر الكافية لتفســير هذه الحالات المختلفة، ليريه الله آياته في نفســه وليتذكر ربه العظيم ويقنت له ويتضرع إليه فيكشف ما به من ضر ويهديه

إلى صـــراط مســتقيم. وهكذا تتحول الحالات المختلفة للنفس البشـــرية إلى مدرســـة إلهية تعلم طلابها التوحيد بفضـــل منهج القرآن، لهذا يقول ربنا سبحانه:

[وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُـرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ](الروم 33).

من خلال تبصير الإنسان بمواقع ضعفه وعجزه، وتذكيره بأيام تضـرعه إلى ربه، يثير القرآن فطرة التوحيد في النفس البشـرية، ويقول ربنا سبحانه:

[قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَـرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِن هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْـــرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَـــكُمْ شِـــيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَـــكُم بَـأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَـــرِّفُ الآيَـاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ](الأنعام 63-65).

وهكـذا نرى المنهج القرآني الأمثـل يـذكرنـا بـالله من خلال بصـــائره في فهم المخلوقات، وفي وعي التـاريخ، وفي معرفة النفس.

وهكذا يحيط بالمؤمن نور التوحيد عبر كل أفق، فيقول ربنا:

[سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ](فصلت 53).

المنهج القرآني

وحين يذكر المنهج القرآني برب العالمين يبصـــرنا بأنه الإله ولا معبود سواه وان له ــ وليس لطغاة السلطة أو المال أو أدعياء الدين ـ الولاية على الناس.

وهكذا يربي المنهج الإلهي المؤمن الحنيف الذي يكفر بجبت الشيطان والهوى والخرافة، كما يكفر بطاغوت السياسة والرأسمال والدعاية، ويأمر بالصلاح والمعروف وينهى عن الفساد والمنكر.

المنهج القرآني يربط بين التذكرة بالتوحيد وبين مسؤوليات المؤمن بالله في حقل الثقافة والإجتماع والأخلاق والعبادات. وفيما يلي نستعرض أمثلة على هذا المنهج:

في حقل الثقافة

يقول ربنا:

[وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَآ إِلَهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلآءِ مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلى الْعَالَمِينَ](الأعراف 138-140).

وآيات الذكر التي تبين جهاد الموحدين ضد الأصنام كثيرة، وهي ـــ على أي حال ـــ تكشف عن هوية الموحدين الجهادية في حقل الثقافة، وتطهير القلوب عن رجس الشك والخرافة والجهل والتبرير.

ويبدو ان هذا كان هو الجهاد الأعظم الذي رافق مسيرة الموحدين في التاريخ، سواءً قبل أو بعد إنتصارهم على الكفار سياسيا وعسكريا، وسيبقى هو الجهاد المرير الذي يخوضه الموحدون طوال الوقت.

في حقل الإجتماع

في حقل الاجتماع يذكر المنهج القرآني بالله في إطار الجهاد ضـــد العنصـــرية، والطبقية، والإرهاب الفكري، والإســـتكبار، والطغيان. لنســـتمع إلى القرآن الحكيم وهو يذكرنا بجهاد الموحد العظيم سيدنا شعيب ضد كفار قومه. قال ربنا:

[قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ](هود 91-93).

ويقول عن التمييز الطبقي الذي جاهد ضـــده الأنبياء عليهم السلام لتكريس قيم التوحيد:

[وَبَرَزُوا لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيءٍ قَالُوا لَو هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَحِيصٍ](ابراهيم 21).

وعن قيمة التوحيد في مواجهة أصـــحاب المال، يقول ربنا سبحانه:

[إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ](القصص 76).

إلى ان يقول ربنا:

[فَخَسَـفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الاَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُـرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ](القصص 81).

ويذكرنا القرآن الكريم بمصـــير المســتضـــعفين الذين أطاعوا أصحاب النفوذ والسيادة من دون الله فيقول سبحانه:

[إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَـــعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِـــيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُـــولاَ * وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَـــادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبيلاَ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً](الأحزاب 64-68).

وهكذا تـأتي قيمـة التوحيد لتفك أغلال المجتمع الجـاهلي عن الناس، غلا بعد غل، وتشـــد الناس ببعضـــهم برابطة إلهية لتهدم المؤسسات القائمة على أساس الشرك، وتكفر بالشركاء من دون الله - اصـــحاب الثروة والقوة والشـــرف المزيف - وليقوم مقامها تجمعات الإيمان والتقوى والجهاد، وقد قال ربنا سبحانه:

[يَآ أَيُّهَا النَّـاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـــعُوباً وَقَبَـآئِـلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ](الحجرات 13).

في حقل السياسة:

حينما بعث النبي إبراهيم برســـالات الله، توجه تلقاء نمرود، طاغوت عصره، يأمره بالتوحيد، وقال ربنا:

[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ اِبْرَاهِيمُ

فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ](البقرة 258).

وأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون، طاغوت عصره، ويأمره بعبادة الله، فقال:

[اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى](طه 43-44).

وقال ربنا سبحانه لداود صراحة:

[يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ اِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ](ص 26).

وبصفة عامة قال ربنا سبحانه:

[وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً * فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً](النساء 64-65).

وفي آية قرآنية أخرى يقارن المنهج التوحيدي بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، حيث قال ربنا:

[فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَانفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ](البقرة 256)

هكذا المنهج القرآني في التذكرة بالله ينمي روح الإيمان في مواجهة الطاغوت، وليس إيمانا مجردا عن واقع السياسة.

الإيمان بالله يساوي الكفر بطاغوت عصرك، من يسعى لإستعبادك، أنى كان شخصه وإسمه ووسائله. وهكذا بهذه القوة وبهذه الشمولية ينبغي ان يدرس التوحيد.

في حقل الأخلاق

من هم عباد الرحمن؟ وما هي شخصية المؤمن؟ و بالتالي ما هو الإيمان الذي يربي عباد الرحمن؟ وهل هو إيمان بالله، ذلك الذي لا يعطيك سلاحا ضد العقد النفسية والأهواء والتأثر بالظروف الخارجية؟ وهل هو إيمان بالله ذلك الذي لا يعطيك البصيرة في الحياة؟

القرآن الحكيم يقول:

[وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ اَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً](الفرقان 63-69).

ان المنهج القرآني يعرِّف لنا الإيمان بالله، انه نور يمشي الإنسان به في الناس. يقول ربنا سبحانه عن الإيمان:

[مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً](الشورى 52).

[أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَاَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ](الأنعام 122).

وعندما يقص علينا القرآن سيرة شعيب، تراه يجعل الإيمان بالله في مواجهة فساد أخلاقي كان شائعا في ذلك المجتمع، وهو النقص في المكيال والميزان. يقول ربنا سبحانه: [وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ](هود 84-85).

وهكذا تكون التذكرة بالله في المنهج القرآني، سبيلا لإصلاح المجتمع والأخلاق الفاسدة التي فيه.

في العبادات والآداب

المنهج الإلهي في التذكرة بالله يوصل البشر بربه عبر العبادات؛ عبر الصلاة والدعاء والحج و..لأنه يربط بين التذكرة بالله وبين السلوك الشخصي. يقول ربنا سبحانه: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ](المؤمنون 1-6).

ان هؤلاء الذين يدّعون الإيمان وهم يسهون عن صلاتهم وعباداتهم، فهم بعيدون عن الله وعن رحمته. يقول ربنا سبحانه:

[فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ](الماعون 4-7).

وبإختصــار: المنهج القرآني يسـعى نحو تنمية روح الإيمان في النفس البشــرية القادر على تحدي الضـــعف البشــري، وذلك بعد تجاوز مرحلة الإثبات بالأدلة العقلية التي لا تقاوم الحجب النفسـية في حالة وجودها. فشـخص مثل فرعون اسـتبد به حب الرئاسـة، كيف يمكنه ان يسلم وجهه لله بمجرد سرد أدلة عقلية؟

أما إذا انقشعت عنه الحجب، فإن فطرة البشر تكفي شهادة على الحقيقة.

ان البشـــر يعاني من ضـــعف إرادي لابد ان ينجبر بالمنهج القرآني، حتى يؤمن بالله ذلك الإيمان الذي يتحمل مســـؤولياته العظيمة.

وفي الختام نستبصر بهدى السنة عبر حديث مفصل نرويه عن الامام الصــادق عليه السـلام، يبين الامام فيه ان الإيمان مجموعة فرائض ومسؤوليات مبثوثة على جوانح البشر وجوارحه:

(فـأمـا مـا فرض على القلـب من الايمـان فـالإقرار والمعرفـة والعقد والرضـا والتسـليم بأن لا إله الا الله وحده لا شـريك له إلها واحدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وان محمدا عبده ورسوله صلوات الله عليه وآله، والإقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب.

فـذلـك مـا فرض الله على القلـب من الإقرار والمعرفـة، وهو عمله، وهو قول الله عز وجل: [إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً](النحل 106).

وقال: [أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ](الرعد 28).

وقال: [الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ](المائدة 41)

وقال: [وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ](البقرة 284).

وفرض الله تعالى على اللسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقر به. قال الله تبارك وتعالى: [وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً](البقرة 83).

وقال: [وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ](العنكبوت 46).

فهذا ما فرض الله على اللسان وهو عمله.

وفرض على السمع ان ينزه عن الاستماع إلى ما حرم الله وان يعرض عمّا لا يحل له مما نهى الله عز وجل عنه، والإصغاء إلى ما أسخط الله عز وجل، فقال في ذلك:

[وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ اَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ](النساء 140).

ثم استثنى الله عز وجل موضع النسيان، فقال:

[وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ](الأنعام 68).

وقال: [فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُواْ الألْبَابِ](الزمر 17-18).

وقال عز وجل: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ](المؤمنون1-4).

وقال: [وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ](القصص 55).

وقال: [وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً](الفرقان 72).

فهذا ما فرض الله على السمع من الإيمان ان لا يصغى إلى ما لا يحل له، وهو عمله، وهو من الإيمان.

وفرض الله على البصر ان لا ينظر إلى ما حرم الله عليه، وان يعرض عما نهى الله عنه مما لا يحل له، وهو عمله وهو من الإيمان. فقال تبارك وتعالى:

[قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يُغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ](النور 30).

فنهاهم من أن ينظروا إلى عوراتهم، وان ينظر المرء إلى فرج أخيه، ويحفظ فرجه من أن ينظر إليه.

وقال:[وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ](النور31)

من أن تنظر أحداهن إلى فرج أختها، وتحفظ فرجها من أن ينظر إليها.[1])

كيف ندرس العقائد؟

لكي نستوحي من المنهج القرآني في تدريس العقائد، نوصي بملاحظة النقاط التالية:

ألف: أن نبدأ بالفات نظر الطلبة إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم مع التركيز على تلك الآيات الأقرب إلى إثارة عقولهم

1 - بحار الانوار ،ج 66 ،كتاب الايمان و الكفر، باب 30، ج6،ص 24-26.

وتجلية فطرة الإيمان فيهم، ومع التذكرة بما في الخلق من روعة الجمال ولطف الصنع ودقة الحكمة. ان كل شيء من حولنا يسبح بحمد الله، ولكن السؤال: لماذا لا نفقه تسبيحهم، وما هو مفتاح فهم لغتهم؟ لماذا نحن محجوبون عن رؤية ضياء الشمس الذي يسجد الله، ويسبح بحمد الله، ويدعونا إلى ربنا؟ المعلم التوحيدي الناجح هو الذي يعطي الطالب منهجا للتفكر في المخلوقات، ومفتاحا لفهم لغة الحياة التي تعتبر أكبر مدرسة لمن يعرف لغتها.

وعلينا أن نبدأ مع الفرد من حيث هو، أي من النقطة التي هو فيها. فقد يثير فردا مظاهر الطبيعة، من تعاقب الليل والنهار، ونظام السموات والأرض، والرعد والبرق والعواصف..وقد يعيش الفرد أزمة نفسية أو وضعا إقتصاديا سيئا، أو مرضا، أو علاقات إجتماعية شاذة.. وهكذا فيثيره ما يتناسب مع وضعه الخاص.

وعالم الرياضيات الذي تعجبه الحسابات الدقيقة، وعالم الفضاء الذي تهزه عظمة المجرات السابحة في العالم اللامتناهي، وعالم الطب والأحياء و.. و..

لكل واحد منهم مفتاح يفض عقد نفسه، ويفتح آفاق معارفه، وعلى المعلم أن يبدأ من هناك، ويستمر معه حتى يطوف به على سائر آيات الله في الخليقة وفي النفس البشرية.

يأتي طبيب إلى الإمام الصادق عليه السلام يهتم بالعقاقير وبيده عقار يسمى بـــ(الأهليلجة) وسيأل الامام عما يثبت به الصانع؟

فيجيبه الإمام عليه السـلام و. بهذه الأهليلجة[1] ويبدأ معه حوارا وجدانيا بناءً ينتهي بتسليمه أمام وضوح الحجة وفطرة المعرفة.

ويأتي سـائح يجوب البحار فيقول: دلني على ربي؟ فيجيبه من حيث هو، إذ يسأله: هل انكسرت بك السفينة في البحر وتعلق قلبك هناك بمن يقدر على انقاذه؟ فلما قال بلى، قال انه ربك.

ان تدريس العقائد يتم عبر التفاعل الوجداني بين النفس والحياة، بين العقل والطبيعة، وهذا لا يكون إلاّ عبر المعاناة والتفاعل بين المعلم والطالب، أكثر من أي درس آخر.

باء: أن يُستوحى من الآيات القرآنية، وخطب نهج البلاغة التوحيدية، وأدعية الصحيفة السجادية، وأيضا من سائر الأدعية المأثورة في التذكر بالله.

ويستفاد وبغزارة من شـواهد الطبيعة، وإختلافها ودقتها وعظمتها وحكمة تدبيرها، وبالذات من مكتشفات العلم الحديث.

جيم: ان التوحيد ليس مادة دراسية، بل بصيرة لفهم أية مادة دراسية أخرى، انه صبغة الله، انه برنامج المعرفة، إطار التفكر، سبيل إلى العلم بالحقائق، هدى ونور وضياء. ولذلك لا ينبغي حشر موضوع التوحيد في زاوية وفصله عن غيره من الموضوعات، بل لابد من بسطه على كل موضوع دراسي، وجعل كل شيء يعرف بالله، لأنه ليس أي شيء أظهر من الله.

جاء في الدعاء المأثور عن الإمام الحسين عليه السلام، والمعروف بـ(دعاء عرفة): (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو

1- بحار الانوار ، ج3 ،ص 152 ، ب5

المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصـــل اليك. عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخســـرت صـــفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً).

الله نور السـموات والأرض، إذاً، فهو الشـاهد على السـموات والأرض، وبه نعرف السموات والأرض وليس العكس.

لابد ان نرفع السـتار حتى تسـتقبل أفئدتنا أنوار معرفته.. ليدلنا إلى ذاته بذاته، لابد ان نرفع عن أعيننا غشاوة الظنون والشهوات، لابد ان نطهر قلوبنا من رجس الذنوب ورين الأماني.

وهكذا ينبغي أن يفعل معلم العقائد، وعليه أن يســتعين بالله، ويتوكل عليه في عمله. وأخيرا أســأل الله ان ينفعني بهذا الكتاب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

محمد تقي المدرسي

3/رجب الحرام/ 1404هـ

الفكر الإسلامي مواجهة حضارية

<u>القسم الأول عن:</u>

العلم والفلسفة

المعرفة بين الإسلام والتصورات البشرية

نقد التصورات البشرية

العالم بين الإسلام والتصورات البشرية

القسم الأول عن العلم والفلسفة

<u>البحث الأول عن:</u>

المعرفة بين الإسلام والتصورات البشرية

منهج البحث

العقل وتقييم الأفكار

العقل ومصادر الفكرة

منهج البحث

كمن يدخل بيتا يكتنفه الظلام فيتحسس قبل كل شيء عن المصباح، فإذا وجده استضاء به في اكتشاف سائر الأشياء، كذلك حاول الإنسان: أن يجد في البدء مصباحا للحياة، فإتجه قبل كل شيء ناحية نفسه ليجد فيها العلم والعقل فأولاهما كل اهتمامه.

والإسلام بدء يذكر الإنسان بعقله، ليتخذه مصباحا يكشف به غيب الحياة، وتماما كما أن كل شيء في البيت المظلم ينكشف بالمصباح الا أن المصباح ذاته لا يُعرف الا بنفسه بعد التوجه إليه، فإن الإسلام يعتبر العقل أول ما يُعرف، بيد ان معرفته لن تكون الا بذاته. إذ ان الإنسان كيف يكشف العقل وهو لا يملكه؟ بل كيف يكون العقل كاشفا للإنسان عن كل شيء ولا يكون كاشفاً عن ذاته؟

وهكذا يبدء الإسلام معالجة أعقد مشكلة عند البشر من زاوية جديدة وبمنهج جديد، وذلك حين يأمر الإنسان بألاّ يحاول معرفة العقل الا بالعقل ذاته، إذ انه سيُلحد عن المنهج القويم إذا أراد معرفته بالتوصيف أو بالتصورات والتحليلات البعيدة، ذلك لانه سيبعده عن العقل تماماً مثل الذي يحاول التعرف على المصباح في الليل المظلم بتوصيفه أو تصوره.. يقول الإسلام: ليس العقل شيئا بعيدا عن الإنسان، ولذا فلابد الاّ يحاول معرفته الا بكشف

ذاتي وتنبه ذاتي. ومن هنا فإنه يُذكِّر البشـــر بأن العقل ذلك النور الذي يجده كل عاقل في نفســه بعد ان لم يكن، وحين يجده يشــرع بمعرفة الحســن والقبح والخير والشــر.. الخ. وربما يفقد الإنســان عقله في سورة الغضب فيرتكب عملا فإذا أفاق لام نفسه، وتحسر عما فعلت.. هكذا توجيه إلى الداخل، عودة إلى الذات، عودة إلى الشعور.

إن الكشف الذاتي الذي يملكه العقل، نابع من أن كل شيء ظاهر بسببه، فكل ما هو منكشف للبشر وظاهر ، له آية من آيات وجوده. ومن هنا كان على الإنســان الغافل عن عقله أن يســتثير أكبر كمية ممكنة من معارفه، ليجد انه لم يكن يحيط بها لولا وجود طاقة لديه تكشـــف الحقائق وهي (العقل). ولهذا فإن التوجيه إلى آثار العقل وآياته هو الدليل القريب إلى حقيقته وإذا وجده الإنســـان وعرف حقيقته وميزه عن الجهل، وفرق بين أحكامه الصـــائبة وخيالات النفس، وأخيرا إذا اســتيقظ العقل داخل الذات بالتذكرة به والتوجيه إليه استطاع الإنسان أن يسكن إلى نفسه ويثق بفكره ويهتدي إلى السبيل إلى كل علم وكل خير.

هذا هو المنهج الإسلامي الفريد.. ويتخلص في ثلاث نقاط:

1- التذكرة بأن معرفة العقل بداية كل معرفة ومنطلق كل بحث.

2- التذكرة بأن معرفة العقل لن تكون الا بالعقل ذاته، أو بآثاره وآياته وذلك بمقارنة حالتي وجوده وعدمه ببعضهما.

3- التذكرة بأن وجدان العقل، هو الطريق إلى وجدان الحقيقة وتميزها عن الباطل. من هنا نجد النصـــوص الإســـلامية تتظافر

بالتذكرة إلى العقل في محاولة لا يقاظه داخل النفس ووجدان الحقائق به. جاء في الحديث:

- قال الامام الصادق عليه السلام : إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد فحدثة في خلال حديثك بما لا يكون، فإن أنكره فهو عاقل وان صدقه فهو أحمق[1]. هذه تذكرة إلى آيات العقل وإلفات النظر إلى أثر من آثار العقل، وهي معرفة المستحيل وإنكاره رأسا.
- وسئل الحسن بن علي عليهما السلام فقيل له ما العقل؟ قال: التجرع للغصة حتى تنال الفرصة[2] ..

هذه آية أخرى من آيات العقل يكتشف بها الإنسان وجوده.

- وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: صفة العاقل أن يحلم عمّن جهل عليه، ويتجاوز عمّن ظلمه، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق من فوقه في طلب البر، وإذا أراد أن يتكلم تدبر، فإن كان خيرا تكلم فغنم، وان كان شرا سكت فسلم، وإذا عرضت له فتنة إستعصم بالله، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلة انتهزها لا يفارقه الحياء، ولا يبدو منه الحرص. فتلك عشر خصال يُعرف بها العاقل[3].

هكذا تتظافر النصوص الإسلامية على بيان آيات العقل وآثاره لكي تكون تذكرة إليه ويقظة له من الداخل، لانه ليس هناك أي حقيقة يمكنها ان تكشف العقل لنا دون العقل ذاته، والعقل لا يمكن معرفته الا بالتذكرة إلى آثاره..

---

1 - بحار الانوار ، ج1 ، ص131 ،ح28 .
2 - بحار الانوار ، ج1 ، ص116 ،ح9 .
3 - بحار الانوار ، ج1 ، ص129 ، ح12 .

بين العقل والعلم

وحيث يتعرف الإنسـان على العقل يسـتطيع أن يميز العلم عن الخيال. فالعقل يحكم بإسـتحالة التناقض والتضـاد، وقبح الشـر والظلم، وبصحة محسوسات الجوارح، وانه يقدر على أن يرد كل حادث إلى سببه وكل هاجس ـــ في النفس ـــ إلى علته، يقدر على تمييز كل فكرة صـحيحة عن الخاطئة بعد التأكد من سـببها، وهو يحكم بأنه لو انكشـف الواقع أمام الإنسـان انكشـافاً واضـحا، بحيث لا يمكن للنفس التشكيك فيه ،فلا يكون ذلك الا علما صحيحا، وأما لو أحب المرء أن يعتقد بفكرة لمصـلحة أو هوى في نفسـه فلا يمكن أن تكون تلك الفكرة الا باطلة.

فمثلا: قد تهجم على شـاشـة النفس تصـورات متفاوتة من واقع واحد، فيرى المرء أن جاره رجل طيب، ثم يرى في الوقت ذاته أنـه شـرير، ويرى أن القيام بـأذاه قبيح ولكنـه في ذات اللحظـة يتراءى له انه عمل شـريف وواجب.. هنا تتداخل التصـورات وتتوتر النفس، ويحتـار الإنسـان فيتـدخـل العقـل ليبرز العلم الصحيح، ذلك الذي يكشف فعلا عن الواقع الخارجي ويميزه عن الخيـال، فيقول محللا بـأنـاة: كيف عرفت أن جـاري رجـل طيـب؟ أبقول النـاس أم بقيـاس أعمـالـه، أم بطيبـة أبيـه؟؟ فـإذا وجـد أن مـا دعاه إلى تصور الجار رجلا طيبا كان قول الناس ـ مثلا ـ إذا وجد ذلك وقف ليوجه إلى نفسـه سـؤالاً ثانيا: هل يمكن للناس أن يكذبوا وليسـت لديهم أية مصـلحة في القول بصـلاح جاره؟ فيحكم ويقول كلا.. ثم يحاول التعرف على السبب الذي دعاه إلى تصوره رجلا خبيثا، فيجد أن جاره طالبه بحقه الذي لا يمكنه الا الاعتراف بـه، وهنا يعلم أن السـبب في هذا التصـور المشـوه عن جاره الطيب

يكمن في مصـــلحته وهواه الذاتي، والعقل يحكم بأنه لا يمكن أن يكون هذا دليلا على أنه رجل شـــرير.. بهذا يفرق بين تصـــور خاطئ وتصــور صــحيح، والأمر لا يعدو أن يجري خلال لحظة واحدة الا انه ينطوي على مجموعة أحكام عقلية صائبة.

وهكذا يميز العقل بين حسٍّ باطل وحسٍّ صحيح.. فحين يصاب المرء بالدوار ويزعم أن الكون يدور من حوله، لا يشك العقل في أن حسه باطل لأنه يخالف سائر أحاسيسه من جهة وأحاسيس ســـائر الناس من جهة ثانية. وحين يغمس يدين في ماء واحد، فتحس أحداهما بأن الماء حار والثانية بأنه بارد، فإن العقل لا يتردد أن يحكم فورا بأن اليد تتأثر بحالتها الســـابقة، فحيث كانت احدى اليدين في الماء الحار-ســـابقا- شــعرت بأن هذا الماء بارد، وحيث كانت الأخرى – ســابقا - في الماء البارد شــعرت بأن هذا الماء حار. والماء على هذا ماء فاتر، فهو بالنسبة إلى الحار بارد، وبالنســبة إلى البارد حار. وحين نســمع أخبارا متناقضــة، فالعقل يحكم بأنها لا يمكن أن تكون جميعها صـــحيحة، بل يبحث عما ينبغي أن يطمئن إليه، ولذلك يقوم بتحليل الدوافع التي دعت أصــحابها لنقل الأخبار المتناقضــة، لأن العقل يحكم بأن وراء كل عمل دافعا نفسيا معينا، فإذا وجد ان دافع أحد ناقلي الأخبار سليم، حكم بصــحة خبره. ومعرفة الدافع أيضــا تدور على محور أحكام عقلية، فلا يمكن أن يكون دافع الرجل الصـــالح، الذي عُرِفَ منه الصدق والوفاء والأمانة والتضحية والشجاعة والشهامة و.. و.. الا دافعا ســـليما. ولا يمكن أن يكون دافع من يكون الخبر ضـــد مصلحته واعترافا منه على نفسه الا دافعا سليما و.. و..

هكذا يصبح العقل امام العلم حسبما جاء في حكمة رشيدة للإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال فيها: (نصب الخلق لطاعة الله ولا نجاة الا بالطاعة. والطاعة بالعلم والعلم بالتعلم والتعلم بالعقل يعتقد، ولا علم الا من عالم رباني ومعرفة العالم بالعقل[1])... وفي حكمة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء[2])... أليست الأفكار فوضى لا تقيد الا بهدى العقل، وبمسبقاته الصائبة؟ أو ليست القلوب ـ أي النفوس ـ لا يمكنها أن تهتدي بدون الأفكار الصائبة، واذا كانت الحواس تعمل وفق إرادة الإنسان فإن إرادة الإنسان نابعة من نفسه ـــ أي قلبه ـــ فتكون القلوب إذن أئمة الحواس وهداتها.

---

1 – بحار الانوار ، ج1 ، ص 138 (من وصية الامام موسى بن جعفر عليهما السلام لهشام بن الحكم حول العقل) .

2 – بحار الانوار ، ج1 ، ص96 ، ح40 .

العقل وتقييم الأفكار..

ملاحظات أولية

1- إن أول ما نستكشفه لدى السير في ضوء المنهج الجديد، هو أن للإنسان نورا يستطيع به تقييم أفكاره. وهذا ما يفرقنا عن الحسيين والتجريبيين الذين رفضوا الاعتراف بوجود مسبقات ثابتة تقيّم بها النفس أفكارها المختلفة.

2- الأحكام العقلية لا تكون موجودة عند الإنسان منذ ولادته. قال الله سبحانه: [والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا[1]] والآية لا تعدو أن تكون تنبيها إلى واقع العقل والعلم، وانهما هما النوران الكاشفان اللذان لم يكن أحد منا يملكهما حينما أخرج من بطن أمه، ثم أصبح الآن يملكهما. فلابد إذا أن يعترف أنهما من الله، لانه لو كان من نفسه إذا لكان لديه منذ الطفولة. وليست الآية تنفي وجود نور في النفس بصورة مجردة عن المادة المحسوسة، فهي لا تتنافى مع وجداننا هذا النور بصورة فجائية عند البلوغ. ذلك لأنه حسب النظرة الإسلامية انما يوهب العقل للنفس بعد البلوغ حيث يقوم الإنسان بالحكم على الأعمال والأفكار بالصحة والفساد، وهي الحالة التي ترافق التمذهب عند الأفراد

1 – النحل 78

أيضا.. وجاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (فإذا بلغ المولود حد الرجال أو حد النساء، كشف ذلك الستر، فيقع في قلب هذا الإنسان نور، فيفهم الفريضة والسنة والجيد والرديء. ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت[1]).

وليست هذه الأحكام العقلية حسبما تظهر لمن تذكر بها، ليست بمختصة بما يحتاج إليه الإنسان في حياته العملية من نقد الأفكار المتناقضة التي تستقبلها أجهزة الإحساس وتبتدعها تصورات النفس. بل ان العقل يهدي النفس إلى كل حسن وكل قبح وكل محال وكل ممكن ومن كل المستويات، على مستوى الأعمال الشخصية، وعلى مستوى الأعمال الاجتماعية، وعلى مستوى الكون أيضا حيث يهدي البشر إلى الحقيقة الكبرى في الكون؛ حقيقة الخلق والتقدير وتتجه به إلى الإيمان بالله الخالق المدبر، ذلك لأن هذه الحقائق كلها في صف واحد، والعقل هو العقل. فمثلا حين يبصر العقل حسن الخير وقبح الشر، فلن يفرق في رؤيته هذه بين الخير الضئيل والخير الجليل، والشر القليل والشر المستطير، لأن كله ينطوي على طبيعة الخير وطبيعة الشر. وحين يرى الإنسان بعقله ان فاعل الخير يُشكر، فلن يفرق بين أن يكون فاعل الخير العبد أم المعبود.. ان واجب الشكر يشمل كلا منهما بذات الرؤية الواحدة والحكم الواحد.

والخلاصة: ان العقل يكشف الحقيقة. وكما ان الكبير حقيقة، فالصغير أيضا حقيقة، تماما كما تبصر العين المرئيات، ولا فرق فيها بين أن تكون صغيرة أو كبيرة.

---

1 - بحار الانوار ،ج1 ،ص99 ،ح14 .

وبهذا تتبين ان النظرة الإسلامية حول العقل نابعة من إعطائه الثقة الكاملة في كشف الحقائق الغيبية، خلافا لتلك النظريات التي تحدد العقل بالشؤون المادية وتنتزع منه حق الحكم في الأمور الغيبية، وتجعل الدين هو الحاكم المطلق في تلك الحقائق. ومن هنا جاء في الحديث: عن الامام الصادق عليه السلام : (من كان عاقلاً كان له دين[1]) و عن الامام علي عليه السلام : (لا دين لمن لا عقل له[2]) .. وخلافا أيضا للحسيين والتجريبيين الذين حددوا العقل بحدود المادة المحسوسة.. إذ ليست الأحكام العقلية حسب هذه الرؤية نابعة من مقتضيات التجربة الخاصة أو الحس المادي حتى تختص بالعالم المحسوس، بل انها نابعة من النور الذي يجد الإنسان كل شيء به، حتى ان التجربة ذاتها والحس نفسه لن يفيدان شيئا دون وجود ذلك النور حسبما يأتي تفصيل القول فيه بإذن الله.

بين العقل والسابقيات العلمية

وللعلم : إن السابقيات الفكرية التي تملكها النفس البشرية، مثل: العلم بإستحالة التناقض والصدفة، وقبح الظلم والشر، وإمكان الخلق والإبداع، وحسن العدل والخير.. ان هذه السابقيات ليست ذاتها العقل، بل انها حقائق يكشفها نور العقل للنفس كما يكشف ضوء الشمس ألوان الحقول.. وكان خطأ الإنسان الأكبر غفلته عن مصدر النور وتوجهه إلى الأحكام زاعما أنها هي حقيقة النور، فراح يبحث عن مصدر يقيّم بها تلك الأحكام. ولو كان

---

1 - الكافي ،ج1 ،ص11 .
2 - غرر الحكم

الإنسان قد تذكر بأن الذي يساعده على البحث ليس الا هذا النور، وانه لو افتقده أصبح كالمجنون والنائم حيث لا يفهمان أمرا ولا يعلمان شيئا، وانه أشبه شيء بنور الإرادة ونور الحرية الذين تملكهما النفس البشرية، وتملك بهما القدرة على الاختيار وهي بذاتها قدرة ذاتية لا تعلل.. أقول لو فعل الإنسان ذلك إذا لتخلص عن سلسلة لا تنتهي من المشاكل العلمية التي أحاطت بنظرية المعرفة. ذلك لأنه حينذاك يجد ان البحث عنه ـ كما سلف ـ ضرب من الإسراف والترف الفكري. إذ ما من بحث الا وهو يؤكد على وجود قوة للإنسان تساعده على البحث، وهي بالتالي تنير طريقه إلى الحقيقة، وتلك القوة هي العقل، وهو نور مقدس عن الإحاطة به من لدن الذات.. من هنا كانت عملية (كانت) النقدية التي سيأتي التفصيل عنها إن شاء الله، ــ والتي استهدفت نقد العقل ــ كانت عملية موغلة في الجهل إذ ان الغفلة عن نور العقل، ذلك النور الذي لم يستطع (كانت) ذاته القيام بعملية النقد بدون وجوده لديه، ان الغفلة عنه فقط كان السبب في التوجه إلى السابقيات الذهنية، كتصور الزمان والمكان والعلة و.. و.. لينقدها وينتهي بالتالي إلى نظرية النسبية ومنطقه الوضعي. ولو ان (كانت) كان يتذكر بوجود نور يجعله يقيم الأشياء ويعتمد على تقييمه هذا، وان ذلك النور هو الذي يكشف له عن الزمان والمكان والعلة والسبب، إذا لنقد الأشياء به، ولم يزعم انه استطاع نقده هو، غافلا عن ان العقل لا يمكن الإحاطة به فكيف يتاح له نقده، وبأي شيء ينقد الإنسان عقله؟ أبعقله ام بجهله؟ والعقل لا يشكك في ذاته والجهل لا يمكنه نقد العقل..

ومن هنا أيضا أصاب (ديكارت) دوار عنيف في مسيرته عبر العقول إذ انه شكك نفسه في معلوماته النظرية. وحين زعم انه تخلص منها قام ليبني صرح العلم على قواعد جديدة فلم ير تحت رجليه حجرا ثابتا، وجر إليه إنتقادات كبيرة من لدن معارضيه من الحسيين. ورغم ان (ديكارت) عقلي التفكير فإنه أيضا مخطئ في منهجه، وينشأ خطئه من أمرين:

الأول: تشكيكه في أن تكون سابقياته الفطرية ناشئة من النفس أو من قوة شيطانية داخلها. ولم يعلم ان تشكيكه انما هو في التصورات الغامضة التي لم تتنور بعلم الإنسان. أما الحقائق الواضحة التي أحاط به علم البشر فلم يمكن التشكيك فيها أبدا. ولهذا عاد (ديكارت) نفسه فاعترف بالنفس، وعلل إعترافه بأنه يجدها ظاهرة مميزة أمامه بحيث لا يمكنه الا الإعتراف بها.

الثاني: غفلته عن حقيقة النور الذي كان معه في لحظة تشكيكه في العقل، وإلا فكيف استطاع أن يبلغ بالتشكيك مرحلة متقدمة منه بترتيب النتائج على الأسباب. كيف استطاع ان يقول: يمكن ان يكون هناك شيطان مضلل للفكر؟.. مع أن علمه بإستلزام سبب للأفكار الخاطئة انما هو ناشيء من حكم عقلي مسبق وهو: (لا بدية السبب لكل شيء) وان علمه بأن الشيطان يقوم بالإضلال، يقوم على أساس وجود ضلالة وهداية، وقبح الضلالة وحسن الهداية. وكل هذه الأحكام عقلية. وكان مثل (ديكارت) في ذلك مثل الذي يشكك في وجود الشمس ثم يرينا الحقول والواحات المضاءة بالشمس ويقول لو كانت الشمس موجودة لما كانت لها ظلال وارفة. ان مجرد رؤية الحقول والواحات دليل على وجود

الشـمس، وان ذات الظلال الوارفة لهي دليل على وجودها. فكيف يستدل بهما على عدم وجود الشمس؟ وهكذا القدرة على التشكيك نوع من إثبات نور العقل.

والواقع: إن (ديكارت) لم يحاول التشكيك في عقله، انما شكك في ركام الجهل الذي تجمع فوق النفس البشــرية وزعم الإنســان انها علم وعقل. لذلك فإن تصــوره للعقل يختلف عن العقل الذي أرشــد إليه الدين، فإنه زعم ان العقل انما هو كل ما في النفس البشرية من تصورات، أما الإسلام فيرى ان التصورات ليست الا معقولات يكتشفها نور العقل وينقدها.

فمرة أخرى رأينا كيف اضـطربت وتناقضـت مقاييس البشــر حين زعمت ان المســبقات ذاتها العقل، بينما العقل هو: ما ينور للنفس تلك المسبقات العلمية.

خصائص الأحكام العقلية

وحين نتذكر العقل ونكتشــف أن حقيقته نور مقدس عن إحاطة الأذهان وانه الذي يكشف لنا الحقائق الأخرى بصورة ذاتية وغير ممكنة التعليل، حينذاك نجد ان الأحكام العقلية تتميز:

1- بأنها ثابتة جازمة لا تقبل الريب إذ ان ذاتها الكشــف، والكشف يعني ملامسة الواقع وشهوده. فكيف يجد الانسان الواقع ثم يشــكك فيه؟ ومن هنا فإن الحكم بقبح الظلم وحســن التضــحية وجمال الآداب ليســت أحكاما تقبل الريب، والذي يرتاب فيها يحاول الفرار عنها بتغيير موضــوعاتها بحيث تصــبح الأحكام ليســت هي التي تغيرت بل موضــوعاتها فقط تبدلت، فمثلا: الذي

يقول: ان الظلم حسن يغير معنى الظلم حتى يجعله يساوي معنى العدل ثم يقول بأنه حسن.

2- وأن أحكام العقل شاملة لا تخصص، فإذا كانت الرذيلة قبيحة فليس هناك فرق ان تكون صادرة من كبير أو صغير، وفي أي عصر وأي زمان. واذا كانت الحادثة بحاجة إلى علة محدثة وسبب موجد، فلا فرق بين ان تكون الحادثة رمي كرة القدم أم وجود كرة الأرض. واذا كانت الصدفة محالة في وجود ساعة يد، فإنها محالة أيضا في صنع مخ الإنسان. وإذا كانت معادلة 5×5=25 صحيحة، فلا فرق ان تكون في أي وقت وأي مكان.

3- ان أحكام العقل تتفق عليها عقول البشر، فالعقل هو العقل في أي رأس عاش وفي أي مخ سكن. وما هي فضيلة أو رذيلة هنا فهي في كل مكان ولدى كل إنسان فضيلة أو رذيلة، ولذلك كانت الحجة بين العباد العقل ـ حسبما جاء في الحديث[1] ـ فلنذهب انى شئنا فسوف لا نجد الفضيلة في الخيانة والنفاق وبيع الأوطان وايثار النفس على الآخرين.. وسوف لا نجد معاني التضحية والفداء والشجاعة والإباء من معاني الرذيلة. ومن هنا فإن الامم تتبارى بهذه القيم، وتجعل منها مقياسا يحتجون به وينتهون إليه، وترتكز أجهزة إعلامهم على الإدعاء بأنهم يمثلون الفضيلة والعدل وأن أعداءهم يمثلون الزيف والباطل. وهكذا أصبح العقل حجة بين الأفراد ومقياسا لكل أحكامهم، فلا يمكن مثلا أن نتصور رجلا عاقلا في الأرض يحكم عقله بإمكان الصدفة أو صحة

1 - جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام : (حجّة الله على العباد النبي ، والحجة فيما بين العباد و بين الله العقل) الكافي ، ج1 ، ص25 .

التناقض (تواجد الوجود والعدم في لحظة) والتشـــكيك في وجود الذات و.. و..

4- ان أحكام العقل لا تتطور حسب تطور الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفسيولوجية وما أشبه، لأنها تكشف عن الحقائق الخارجية. تماما كما لا تتغير المرآة وهي تعكس صـــور الحياة الناشـطة الحركات.. وهنا تختلف الرؤية الإســلامية في المعرفة عن النظريات الذاتية والديالكتيكية التي ســـنتناولها بالبحث بإذن الله. ذلك ان تلك النظريات حســـبت العقل وليدة لنفس المادة المتطورة، فادعت انها تتطور أيضـــا. ولم تسـتطع تلك الفلسـفات اكتشـــاف حقيقة العقل التي لا تعدو ان تكون طاقة من نور زودت بها النفس للكشف عن الحقائق بصورة مباشرة. ولذلك فإن حكمه مشهود متيقن ثابت وان أي حكم يتغير أو يتصور فيه التغيير لهو ليس بحكم العقل ومن هنا لا يمكن القول: بأن 2×2=4 انما هو صـــحيح اليوم ويمكن ان يتطور غدا حســـب تطور الاوضــــاع السـياسـية فيصـبح 2×2=5 إذ هذا القول مضـحك بذاته لدى كل نفس عاقلة. وأيضـا كان الزعم بأن القول (أن الحادث بحاجة إلى ســـبب) صـــحيح اليوم أما غدا فحيث يحكم البلاد نظم جديدة في الاقتصـــاد، فإن الحادث يمكن ان يحدث بلا سـبب، كان هذا الزعم قولا مرفوضا بذاته، وهكذا.

ان هـذه الميزات الأربعـة تبعـد عن مجـال حكم العقـل ركـام التصـورات التي حسـبها الجاهلون عقلا، فخلطوا بها أحكام العقل الصحيحة، ووقعوا في فوضى لا نهاية لها.

خلاصة القول:

1- ان للعقل أحكاما سابقة ــ لم تجرب ــ تكون مقياسا للإنسان في معرفة الفكر الصحيح.

2- وبالرغم من أن هذه الأحكام لم تلد مع الإنسان فإنها ليست أيضا وليدة تطور ذاتي له، أو مؤثرات مادية فيه، بل انما هي موهوبة له في فترة البلوغ.

3- وان الأحكام ليست ذات العقل، بل العقل هو الذي يكتشف تلك الأحكام للذات، وقد نتج من الجهل بهذه الحقيقة ان أخذ (كانت) و(ديكارت) وكثيرون آخرون أخذوا ينقدون الأفكار النفسية ظنا منهم أنهم ينقدون العقل وقد كانوا محتاجين إلى نور العقل في كل خطوة خطوة من نقدهم هذا. ولذا فإن نقدهم لتلك الأفكار، كان اعترافا منهم بصحة العقل.

4- ان للأحكام العقلية أربعة ميزات؛ انها جازمة لا ريب فيها، وشاملة لا تقييد فيها، وواحدة عند كل عاقل، وثابتة لا تطور فيها. وسنرى بإذن الله كيف تكون هذه الخصائص بعض القيم التي يستند اليها النفس في نقد أفكارها.

العقل ومصادر الفكرة

بعد ان يجد الإنســـان موقع قدم ثابت يســـتقيم عليه وهو تذكرة العقل، يشرع في بناء صرح معرفته على أسس رصينة متماسكة متوازنة، وأول ما يقوم به الفرد اعتمادا على عقله في هذا المجال هو عملية جرد الأفكار، وهي تنطلق من القاعدة التالية: إذا كانت الحادثة بحاجة إلى المصدر، فكل فكرة حادثة بحاجة هي الأخرى إلى المصدر؟ فما هي مصدر الفكرة الحادثة؟

وبكشف ذاتي للأفكار، يصنف العقل مصدرها في ثلاثة أنواع:

1- العقل ذاته، أو بتعبير أدق الأحكام العقلية والمســـبقات الفكرية.

2- النفس وما تنطوي عليه من هوى وجهل.

3- الحس بألوانه المختلفة.

وفيما يلي نقوم بالبحث عن كل واحد من هذه الأنواع وكيفية نقد العقل لها، لكي نتعرف على العلاقة الوثيقة بين العقل والعلم.

يمكن للإنســـان تجنب الخطأ إذا التفت إلى عقله وميزه عما قد يلصق به من الجهل والضلالة.

ألف: الفكرة و عقل الانسان

في البدء لابد أن نثبت ملاحظة عن معنى الفكرة وانها تعني هاجسة النفس، وهي لا تعدو أن تكون استعادة لمحفوظات أو معلومات سابقة. وبالتالي فهي من عمل النفس ونحن انما نريد هذا المفهوم حينما نعبر هنا بالفكرة، لكي نستطيع أن نميزها عن حكم العقل. ان حكم العقل يعني كشف الذات للواقع الخارجي كشفا واضحا شاملا وثابتا. والفكرة لا يجب ان تكون دائما واضحة شاملة ثابتة، بل قد تكون كذلك وقد لا تكون، والسبب في ذلك ان الفكرة من عمل النفس، وتكون خاضعة لإرادة الإنسان، فهي بحاجة إلى (الإنضباط المنهجي) حتى تكون صحيحة صائبة، وإلاّ تأثرت بالمؤثرات المادية كما تتأثر إرادة الإنسان بها. وبتعبير آخر؛ بما أن الفكرة عمل من أعمال النفس البشرية، وبما أن كل عمل بحاجة إلى الإرادة، فإن الفكرة خاضعة لإرادة الإنسان، وأي ميوعة في إرادة الإنسان تعني عدم توجيه الفكرة وبالتالي عدم صحتها. و السؤال : كيف تصدر الفكرة عن العقل؟ الجواب: ان النفس قد تستغل الأحكام العقلية في استخراج أحكام أخرى، فإذا كان هذا الاستغلال موضوعيا كانت تلك الأفكار المستخرجة مثل حكم العقل تماما واضحة شاملة ثابتة، وإلاّ تعرضت للخطأ.. فمثلا قد نستخرج الفكرة التالية من حكم العقل: (الشيء لا يمكن أن يخلق ذاته) ونستطيع أن ندلل عليها بإستحالة التناقض إذ يجب أن يكون الشيء موجودا قبل وجوده وهذا يعني أن يكون موجودا وغير موجود في لحظة واحدة. وبتعبير آخر؛ كيف يمكن أن يخلق العدم شيئا، مع ان الخلق عمل والعمل لا يصدر الا من شيء موجود؟ فإذاً: الشيء لا يمكن أن يخلق ذاته.

ففي مثل هذا النوع من الأفكار لا تكون عملية التفكير الا إستجلاء للمعلومات السابقة، واستيضاحا للأحكام العقلية

الموجودة. وحسب تعبير بعض المفكرين: ان التفكير المعتمد على المعلومات العقلية الســـابقة ان هو الا فض الفكر ذاته.. ولهذا جاء في الحديث المروي عن الصـــادق عليه الســـلام: (كثرة النظر في العلم يفتح العقل[1]).. فالعقل إذا موجود ولكنه منغلق ويحتاج إلى عملية الفض. وعملية فض العقل، وفتح نوافذه على العالم على نوعين:

1- قد يكون الإنســـان غافلا تماماً عن نور عقله متوجها إلى معلوماتـه، بـاحثـا فيهـا عن الحقيقـة دون الرجوع إلى عقلـه والإســتضـاءة به، ويكون مثله كمن يغفل عن الشـمس وينشـغل بالموجودات المضـاءة بها. وهنا يحتاج الإنسـان إلى من ينبهه إلى ضـلالته عن النور الذي يملكه هو لاكتشـاف الحقيقة، ويقوم فعلا باكتشاف بعض الحقائق به. ولقد ابتعث الله الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ــ لكي يذكروا البشر بما يملكه من نور العقل، وان يقولوا للإنسـان: ارجع إلى نفسـك وعد إلى عقلك لتجد فيه الحل السـريع لكل مشـــاكلك. إذ أن الإنســـان لا يمكنه تذكّر عقله مع انه أقرب الحقائق إلى نفسـه، لا يمكنه ذلك وهو يسترسل في طريق الهبوط مع طبيعته الجاهلة الضـالة ويزعم بأن المعلومات المضـاءة بنور العلم والعقل هي حقيقتهما! ان هذا الإنســـان لا يمكنه أن يتنبه إلى عقله الا بهاد مؤيد بالغيب يهز فيه الفكر، ويوقظ بداخله العقل. وهذا أولى وأسمى آيات رسالة كل رسول، والتي يلخصها الإمام أمير المؤمنين بالقول: (فبعث فيهم رســـله ، وواتر إليهم انبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته...و يثيروا لهم دفائن العقول[2]..).

---

1 - بحار الانوار ،ج1 ، ص 159 ، ح 32 .
2 - نهج البلاغة ، الخطبة رقم 1 .

وهكذا ينعت القرآن ـــ وهو جملة رسالة النبي (ص) ـــ ينعت القرآن نفســـه بأنه تذكرة فيقول: [طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْـقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَـى](طه 1-3). ويجعل غاية التذكرة عودة الإنســـان إلى عقله فيقول: [لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ](الأنبياء 10) ويجعل آياته نورا، لانه يهدي الإنســـان إلى العقل الذي يكشـــف لـه الحقائق الكبيرة في العالم، ويجعلـه مقياسا ثابتا ومبينا لانه يضع للإنسان منهجا فريدا للمعرفة ويجعله هاديا إلى ســبل الســلام، وناقلا للإنســان من ظلمات الجهل حيث يغفل الإنســان عن عقله ويتيه في الضــلالات، فيقول سـبحانه: [يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُــولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَـابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَـدْ جَـآءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَـابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِــرَاطٍ مُسْــتَقِيمٍ](المائدة 15-16).. وهذا النوع من التـذكرة وظيفـة الهداة إلى الله الـذين لا يريـدون فرض عقيدة على الإنســـان، بل انما يريدون توجيهه إلى الحقيقة ليراها بعقله، ولن يمكنهم ذلك دون إعادة إيمانه بعقله، واســـترداد ثقته بتفكيره.

2- وقد تكون النفس واعية لما تملكه من نور العقل، ولكنها تتردد في بعض الموارد بســبب تشــابه الموضــوع على العقل ، فمثلا: لا ريب لدى النفس ان الظلم منكر عظيم، ولكنه قد يشك في أن ســـلب النملـة رزقهـا ظلم ليكون منكرا، أم ليس بظلم فليس بمنكر.. وهذا بدوره على نوعين:

أ- إذ قد ينشــأ هذا الريب من جهل البشــر بطبيعة النملة ومدى ضــرورة وجودها لحياة الإنســان. فلابد لكشــف ذلك من التفكير المنهجي، والتذرع بالوســـائل العلمية. وهنا يحكم العقل عليه بأن يتثبت ولا يعجل في الحكم، ذلك أن العجلة من الجهل، فالتســـرع يجر إلى مجموعة كبيرة من الأخطاء. وقد جاء في النصـــوص القرآنية توجيه بالغ الوضــوح إلى التثبت، فقال الله ســبحانه: [وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الْسَّــمْعَ وَالْبَصَــرَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً](الإسراء 36).. وبحكم العقل بضرورة التثبت الكامل قبل الحكم على أي شــيء يحرز العاقل العلم الصــحيح ولا يتورط في أخطاء التسرع، ولقد جاء في الحديث عن الامام علي عليه السلام: (التثبت رأس العقل[1]).

ب- والقسم الثاني من تردد النفس في الأحكام العقلية، ينشأ من تناقض الحكم العقلي مع المصـــالح الآنية للإنســـان. ولذلك يبدو الحكم الواضح غامضا بينما هو في الواقع ليس بغامض، انما يريد الإنســان أن يتصــوره كذلك ليتخلص من مســؤولية الاعتراف به. فالرجل القوي الذي يعيش على حساب المستضعفين يحاول تبرير ظلمه بما يبعده عن توجيه نور العقل.

ان هذا النوع من التردد هو الذي يقضــي على طائفة ضــخمة من الأحكام الصائبة عند النفس البشرية. وعلى الإنسان أن يناضل مع ذاته أبدا ليبعده عن التأثر بالاهواء والشـــهوات، وقد جاء في الحديث: (زوال العقل بين دواعي الشــهوة والغضــب[2]). و(ذهاب

---

1 - بحار الانوار ، ج1 ، ص160 ، ح 42 .

2 و 3- مستدرك الوسائل ، ابواب جهاد النفس، باب 9 ، ح2 .

العقل بين الهوى والشـــهوة[1]).. وســيتضـــح لدينا قريبا دور هوى النفس وشـــهواتها في طمس نور العقل، والذي قد يقضـــي على العقل كله، ويدع النفس في ظلمات ما فوقها ظلمات.

ومن كل ما سبق نكتشف الجواب الصحيح عن نوعية نقد العقل للأفكار الصـادرة عن المسـبقات العقلية، وكيف تتمكن الذات من الثقة بنوع منها بعد ان تكتشف زيف النوع الآخر.

ب: دور الهوى في تضليل الإنسان

والمصـــدر الثـاني للفكرة هو مـا بـالنفس من الجهل والغفلـة والركون إلى الشـهوات.. وينبغي لنا ان نقدم عدة ملاحظات أولية لكي نعرف بوضـــوح تام كيف ينقد العقل الفكرة الصـــادرة عن المصدر الثاني (النفس).

1- بين العلم والحب

ان المعرفة هي النور الكاشـــف للحقيقة. ومعنى ذلك انها لا تتأثر بالواقع المادي، ولا تتطور حســب تطوره. ولقد قلنا آنفا: ان الأحكام العقلية جازمة شـاملة ثابتة وواحدة عند كل العقلاء، وهي ـــ بهذه الصفات ـــ بعيدة عن التأثر بالواقع المادي. ولهذا تمثل المعرفة جانب القوة في النفس؛ أي جانب الكشف والاستجلاء، لا جانب الضـعف الذي يتلخص في التأثر والتطور والاسـتسـلام لمقتضيات الظروف. فالمعرفة تعطي الإنسان قوة كبيرة لإخضاع الظروف المحيطة به، وإنما قام الإنسان بإنجازاته الباهرة بعلمه.

والإنســـان يشــعر عندما يكشــف الحقيقة انه أوتي قوة كبيرة.. وجاء في الحديث عن الامام الصـادق عليه السـلام (خلق الله العقل من أربعة أشـــياء ، من العلم و القدرة و النور و المشــية بالأمر[1] ..). وبالمقابل فإن للنفس البشـــرية جانبا آخر هو جانب التأثر والإنفعال، جانب الضعف والسلبية. انه جانب الهوى والشهوات، جانب الحب والرغبات. لأن هذا الجانب هو الذي يدع الإنســـان يخضع للظروف ويتطور حسبها.

ذلك لأنه متى ما أحب الإنســـان شــيئا تأثر به بقدر حبه له، ووجب عليه ان يعطي من ذاته تنازلاً له.

إذن، فإن طبيعة الحب تختلف عن المعرفة، لانهما يمثلان جانبين مختلفين في النفس. صحيح ان الإنسان لا يقدر على تمييز ذلك في كل وقت، وصـــحيح أن ذلك بحاجة إلى أنواع من التجرد الموضــوعي والنقد الذاتي، كما انه بحاجة إلى التفكر الممنهج. إلا أنه لدى ممارســة التمييز فترة طويلة يســهل ذلك على النفس حتى يبدو العلم والحب بعيدين عن أحدهما، مميزين عن بعضـــهما.. وفي الأمثال التالية بعض الفوارق العملية التي تعتبر نوعا من التجربة الذاتية في حقل التمييز بين الحب والعقل:

أ- تفترق المعرفة عن الحب في اننا نحب كثيرا من الأشـــياء ونعلم انها غير موجودة فعلا. اننا نحب الخلود حتى انه قد يطغى علينا هذا الحب فينسينا العلم بالموت، ونعمل كما اننا نعلم بالخلود. واننا نحب الســـيطرة ونعمل في كثير من الحالات مدفوعين بهذا الحب، بل زاعمين اننا نملك الســـيطرة فعلا، ولكن العلم الحقيقي يكشف لنا خلاف هذا الواقع.

---

1 - بحار الانوار ،ج1 ، ص98 ، ح12.

ب- وتفترق المعرفة عن الحب أيضــا حينما نحب ان تكون كل معارفنا صحيحة وكل عقائدنا موافقة للحق. بيد انا نواجه في كثير من الأوقات حقائق تكرهنا على إعاة النظر في معارفنا وعقائدنا والإعتراف بخطأها كليا أو جزئيا.

ج- وتفترق مرة ثالثة المعرفة عن الحب، عندما نحب ان تكون كل أمم الأرض تخدم مصــالحنا الخاصــة. في حين نعلم أن طائفة كبيرة منها تخالفها تماما!..

إن هذه الأمثلة توضـــح الفارق الكبير بين الحب والمعرفة، إلا أنه رغم وجود هذا الفارق يواجه الفرد غموضــا بالغا في التمييز بينهما. فمثلا حين يحب الإنسـان ذاته يخادع نفسـه عن نقائصـها، ويحاول ايجاد تبريرات لأخطائها ويريد ان يوقع مســؤولية ما تصــدر عنها على الآخرين. وحين يحب المرء أبناءه يغمض عينا عن كل ما فيهم من سـيئات حتى يصـبحوا مجموعة حسـنات في عينيه!.. وهكذا حينما يحب الإنسـان مبدأ يركز نظره إلى محاسنه حتى يحذف دور عقله كليا في نقد المبدأ أو حتى في تطويره وينقلب إلى إنســان ممســوخ.. ونعرف من ذلك كله: ان الإنســان يسـتطيع ان يميز الفكرة النابعة من كشـف الواقع، والفكرة النابعة من حب النفس وهواها. لأن الأولى تمثل جانب القوة والثانية جانب الضعف في الإنسان.

2- بين العقل والإرادة

ان العقل بمثابة مصـباح منير تملكه النفس البشـرية وتتصـرف فيه لرؤية الحقائق وكشــفها؛ متى ما تريد وكيف ما تريد؟ فإذا لم يرد الإنســان رؤية جمال العدل، وحســن الآداب، واســتحالة

التناقض. يمكنه الا يعرف ذلك فعلا، بأن لا يستعمل المصباح الذي أوتيه أو يدسه تحت التراب.

وهذه حقيقة قد تخفى علينا، إلاّ أن من المؤكد عمليا اننا لسنا في كل لحظة نعلم جميع أحكام العقل. وإننا في أي لحظة نريد التعرف عليها فهي لا تعصى علينا. وهذه حجة كافية على ان العقل يدخل ضمن حرية الفرد واختياره فيستخدمه حينا لمعرفة الحقائق ويدعه عاطلا حينا آخر..

ألست ترى انك قادر في كل لحظة وفي كل مكان ان تفكر فيما حولك من الأشياء والأشخاص بصورة منهجية، وتستعمل في تفكيرك مقاييسك العقلية الثابتة؟ كما ان بإمكانك ان تتوجه إلى أمور أخرى ولا تفكر منهجيا وعقلانيا في أي شيء.. نعم، إن هناك لحظات لا يمكننا إلا أن نعرف أحكام العقل، كتلك اللحظات التي نقع فيها تحت تأثير موجِّه روحي قوي، أو نشاهد تجربة عملية حادة. الا اننا سرعان ما نعود إلى حالتنا السابقة حيث يخضع العقل لتصرفنا وإرادتنا من جديد.

3- الإرادة تقرر المصير

ان إرادة الإنسان قد تتجه بمحض حريته نحو الخير والحق والخلق الرفيع، وقد تتجه نحو الذات والمصلحة والسجايا السيئة. ومن هنا تأتي حرية الإنسان التامة في اختيار طريقه في الحياة. قال الله سبحانه [إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً](الإنسان 3) .

والله سبحانه لم يشأ أن يفرض على البشر إتجاها خاصا إكراما وتفضيلا له، بل أتاح له كل الفرص لكي يختار بذاته ما يشاء. وجاء في الحديث في سياق قصة آدم وحواء حين اختارت

الأخيرة الأكل من الشـــجرة المنهية عنها، فأرادت الملائكة أن تمنعها عنها بحرابها، فأوحى الله تعالى إليهم : (انما تدفعون بحرابكم من لا عقل له يزجره. فأما من جعلته ممكّناً مميزا مختارا فكلوه إلى عقله الذي جعلته حجة عليه، فإن اطاع استحق ثوابي، وإن عصـــى وخالف امري اســـتحق عقابي وجزائي.) فتركوها[1].

4- النفس البشرية والقدرة على التمويه

وللنفس البشـــرية مقدرة تمويهية كبيرة، تقوم بتهدئة النفس وتسكينها حين تهجم عليها المصائب. إن هذه القوة تحاول التخفيف عن النفس بما يدعى في علم النفس (بأحلام اليقظة) فتسليها بآمال مستحيلة وأماني غير ممكنة الوقوع! وحين يحب الإنسان شيئا حبا جما تحاول هذه الطاقة تبرير كل الوســـائل المؤدية إليه، حتى تخترع النفس معلومات ليست واقعية، أو تفسير المعلومات التي لا تلائم بلوغ ما أحب بما يلائمها، وهكذا.. ويدعى هذا العمل في منطق القرآن (بالتسول[2]) وليس منا من لم تراوده حالات التسول أو أحلام اليقظة بين فترة وأخرى. فما يحب الإنســـان شـــيئا الا وتقوم هذه القوة بنسج أساطير غير صحيحة لتبرير ما يحب.

ولكن لا يعني كل هذا ان اشعاع العقل ينحسر عن مجال الذات في هذه الحالات، بل انما النفس لا تستخدم هذا الاشعاع عندها، إذ ان بقدرة النفس توجيه نور العقل بعيدا عن الذات حتى لا يكشـــف الخبايا البعيدة فيها ويقضي على الأساطير المبتدعة..

---

1 - مستدرك الوسائل ، ابواب جها النفس ، باب 8 ، ح7 .
2 - جاء ت الكلمة في : يوسف 18 و 83 ، و طه 96 ، و محمد 25 .

بعد هذه الملاحظات نعرف ان الحب قد يكون مصـــدراً للفكرة بفعل ما ســميناه بعملية التسـول، الا ان الإنســان لا يضــطر إلى الإنسياق مع هواه بل هو حر في اختيار طريقه. وهذه الحرية تحكم جميع قوى الإنسـان والتي منها قوة الكشـف عن الواقع (أي العقل) التي تتصـــرف النفس فيها متى شـــاءت وقد تتغافل عنها نهائيا، وبقدرة هذا النور يمكن كشف مصدر الفكرة هل هو العلم ام الحب؟

العقل يفضح الشهوات

بعد هذه الملاحظات التمهيدية التي سرعان ما يجد كل منا مثالا حيا منها في حالاته الخاصــة نسـتطيع أن نضــع أيدينا على رأس الخيط لعملية نقد الأفكار الذاتية، والتي تتلخص في توجيه ثلاثة أسئلة إلى النفس في محاولة لجرد الحقائق فيها عن الأهواء:

1- هل أحب الاعتقاد بهذه الفكرة؟ فلو لم تكن هذه الفكرة راسخة لدي منذ الطفولة، أو لم تكن تخدم مصلحة لي.. فهل كنت أعتقد بها؟

2- ما هي الأســباب التي حملتني على الاعتقاد بهذه الفكرة، وهل لو كانت هناك فكرة مشابهة لها في تلك الأسباب كنت أيضا أعتقد بها؟

3- هل ان الناس كلهم يرون مثل ما أرى؟ دعني أجعل نفســي مكانهم وأتصـــور ما إذا كانوا فعلا يعتقدون بما اعتقدت به وهم يعيشون في ظروف مختلفة..

وفي المثال التالي يتضـــح كيفية توجيه الأســئلة الثلاثة إلى النفس وكيفية استخلاص النتائج الصحيحة عنها:

رجل يعتقد بالثالوث المقدس ـ الأب والإبن وروح القدس ـ آلهة جميعا، يتنبه في لحظة حاسـمة، فيوجه السـؤال الأول إلى ذاته: إنني الآن اعتقد بتعدد الآلهة. حسـنا. هل أحب الاعتقاد بها؟ لافترض اني كنت في حضن أبوين ملحدين ولم اعتقد منذ الطفولة بالثالوث، فهل كنت فعلا اعتقد بها؟.. ولأقارن هل أعتقد أنا بجمال باريس إذا توفرت عندي ذات الأدلة المتوفرة في الثالوث المقدس ما دمت لم ألقن منذ الصـغر بأنها مدينة جميلة؟ كلا.. أفلا يكون هذا دليلا على ان الحب ــ حب الأفكار السابقة مثلا ــ وخدمة المصلحة الذاتية هما السببان الواقعيان للاعتقاد بالثالوث المقدس؟ أفلا أستطيع ان أتصور نفسي مصداقا لقول نبي الإسلام (ص): (كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه)[1]

ثم يسأل نفسه ثانية: بأية حجة نرى عيسى إلها؟ أفلا يمكن ان يكون البشر رسولا من الإله الواحد، فلا يكون إلها ولا إبن إله؟ ولنفترض: ان المصـدر لهذا الاعتقاد كان إيمانه بالكتاب المقدس وانه قد كتب فيه ان عيسـى ابن الله.. فيوجه السـؤال ويقول: هل انني اعتقد بكل ما في الكتاب المقدس أم انني أقوم بتأويل وتفسير طائفة منها وهي التي تخالف عقلي أو مصـلحتي، فلماذا لا أقوم بتأويل هذا النص؟

وأخيرا يتساءل ويقول: لأتصور نفسي مكان رجل محايد، هل كنت فعلا أرى كل أقوال الكنيسة علما يقينا؟

1 - بحار الانوار ،ج3 ، ص281 ، ح22 .

وبإستقامة هذا المنهج، نكتشف إنحرافات المناهج البشرية التي أبعدت عن حسابها نور العقل المبين، فمادت من تحت أرجلها كل القواعد الفكرية وتزلزلت صروحها زلزالا.

ان هذه المناهج لم تشـــأ ان تعترف بالعقل، زاعمة ان العقل لا يعدو ان يكون ـــ كما سبق القول فيه ـــ مجموعة أحكام سابقية، وليست قبسا من نور قادر على كشف الحقائق جميعا..

لم تشـــأ ان تعترف بهذا النور فزعمت ان النفس هي التي تفكر وتتصـــور، وبما ان انصـــار هذه المذاهب يعترفون بأن النفس البشـرية تتأثر بالشـهوات وتتطور حسـب الحالات، فإنهم يقولون: المعرفة أيضـا تتأثر بالشـهوات وتتطور حسـب الحالات، فكانت النتيجـة أن زعموا أن المعـارف تتغير وتتطور كمـا الشـــهوات بالضبط.

وانقسـمت هذه المناهج على نفسـها قسـمين: فطائفة آمنت بأن المعارف حينذاك لا تعكس الحقائق الموضـــوعية الا بصـــورة نسبية، وقالت: ما دامت النفس هي التي تعرف، وان المعرفة بنتها الذاتية؛ وما دامت هي في حالة متغيرة، فإن المعرفة تتغير. وبما ان الواقع الخارجي لا يماشـــي هذا التغير، فإن المعرفة لا تعكس سوى بعض الواقع فقط.

وفريق قالوا: ما دام الإنسان لا يدرك كل الواقع فما الذي يحملنا على الاعتراف بكل الواقع. بل نعكس ونقول ان ما لا يدرك فهو غير موجود. ولقد انطوت هذه الفلسفات التي سـنقوم بشـرحها إن شـاء الله، انطوت على ضـلالة بعيدة نشـأت عن الغفلة عن نور العقل الذي يفضح النفس ويكشف تأثراتها. ولذلك فهي لا تستطيع ان تحجب عن الإنسان، الحقيقة بسبب تأثراتها.

ومن هنا نعرف ان النظريات النسبية الذاتية، والنسبية الفردية، والنسبية التطورية، كلها نشأت من انحرافات كبيرة في المنهج ابتدأت من التركيز على جانب الانفعال في النفس؛ جانب الضعف والسلبية والتأثر، غافلةً عن جانب الفعل فيها؛ جانب القوة والإيجابية والكشف. ولقد استبعد هؤلاء عن حسابهم منذ البدء قدرة العقل على كشف التأثرات الداخلية. وهذا هو الضلال البعيد الذي قاد (فرويد) أيضا إلى صياغة نظريته عن اللاشعور حيث استبعد قدرة الإنسان على كشف ما في (لا شعوره) وجعله دائما يخضع لتأثرات ظروفه دون ان يعترف للعقل بقدرة الكشف عن تلك القدرة التي تفضح للإنسان هذه التأثرات.

وهذا الاختلاف في المنهج بين الإسلام والنظريات الحديثة حول العلم، يتبين في المثل التالي (علما بأنه مجرد مثل):

لنتصور ان رجلا ماركسيا نقابيا، اقتضت ظروفه المعاشية المتردية وانتماؤه الطبقي كعامل صغير؛ اقتضت انضمامه في الثورة ضد البرجوازية. هنا ـــ وعلى رأي كل المناهج البشرية ـ ينظر إلى الحقائق من الزاوية الخاصة به، ويدرك ان البرجوازية بناء استغلالي ماكر. فإذا تطورت ظروفه وأصبح مليونيرا.. أو كان من قادة الحزب وأصبح بيوقراطيا محترفا، فلابد انه ـ حسب هذه المناهج ـــ يتطور تفكيره، ويرى وجوب اتباع سياسة البرجوازيين بحق العمال والفلاحين. فماذا حدث بهذا الرجل؟ لا ريب انه تغيرت نفسيته، ولا ريب انه تطورت أهواؤه، ولكن هل المعرفة العقلية أيضا تطورت فيه؟ هل انه نسي معادلاته الرياضية؛ مثلا هل نسي ان $5 \times 5 = 25$؟ أم انه نسي نظرية فائض

القيمة الماركســـية بمجرد تطور حالته؟ أم انه لم يعد يتحســـس بجمال التضحية، وروعة الحق، وحسن العدل..؟؟

صـــحيح انه لا يريد ان يعرف كل ذلك، ولكن هل هو فعلا لا يســتطيع ان يعرفها، وهل انه افتقد ذلك النور الذي كان يعرف به تلك الحقائق؟ هناك فرق بين الاّ يريد والاّ يقدر، وكم من شــيء لا يريده المرء وهو قادر عليه..

ان هذه المناهج اشتبهت مرة واحدة فوقعت في سلسلة لا تنتهي من التناقضات، تلك المرة كانت حين وضعت النفس مكان العقل، وحسبت ان تأثر النفس يعني تأثر العقل أيضا. وكما سبق فنحن لا ننكر دور الحالات المؤثرة على طبيعة الإنســـان ولكن ننكر ان تكون هذه الطبيعة كل شـــيء عند الإنســـان. انما نؤكد أن وراءها شيء آخر هو نور العقل.

ولقد ذكَّر الإسلام بدور (الاهواء) في تضليل الإنسان ولكنه لم يغفل عن دور الإرادة والعقل ــ والذي يجب الاعتماد عليه ــ في صياغة الإنسان. قال سبحانه: [وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ].(الكهف 28).

في هذه الآية يبين القرآن وجود علاقة بين الغفلة واتباع الهوى، الا انه لا يجعل الهوى مؤثرا في النفس الا بإرادة الإنســـان حين يقول: (واتبع هواه). فالاتباع عمل ولا يحدث بدون إرادة.

ويقول: [بَلِ اتَّبَعَ الَّـذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ](الروم 29) في هذه الآية، يفصـــل القرآن بين العلم واتباع الهوى، ويجعلهما مختلفين. ويأمر في آية ثالثة المؤمن بمخالفة الهوى ويجعل له في

ذلك ثوابا عظيما، فيقول: [وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى](النازعات40-41).

ج- الفكرة بين العقل والإحساس

الإحساس هو المصدر الثالث والأخير من مصادر الفكرة، ودور الحس لا ينكر الا من قبل أولئك المثاليين الذين نسوا دور العقل في توجيه الحس، فأنكروا دور الحس أيضا. وسوف نلتقي بهم في فصول قادمة إن شاء الله.

والاسلام أولى جانب الحس أهمية مناسبة، حيث دعا إلى النظر والسير والتحرك والتثبت، في نصوص متظافرة.

الا انه أولى اهتماما اكبر لدور العقل الذي يوجه الحس ويمحص نتائجه، والذي لولاه يصاب الفكر بالشلل الكامل. ذلك لأنه لنفترض اننا أبعدنا العقل عن مجال الحس وأصبحنا مثل أولئك الحسيين الذين لم يعترفوا بدور العقل في توجيه الحس، فسوف نرى كيف نتخبط في الضلالات حتى لا نستطيع كشف أية حقيقة مهما ضؤلت بواسطة الحس. بل إن نكران العقل يدعونا إلى التشكيك في وجود أية حقيقة وراء الحس، وينتهي بالإنسان إلى المثالية أو التشكيك التام. أفليس من الممكن أن تكون رؤيتنا للأمور أشبه شيء برؤية الحالم في منامه، أوليس من الممكن أن يكون الإحساس نابعا من ذات الأعصاب وليس من الحقائق الخارجية؟ فإن لم يكن هناك نور لدى النفس يحكم بأن مصدر الإحساس حقيقة خارجية بصور جازمة، لو لم يكن هذا فأية حجة تقدر على اثبات الحقائق وراء الإحساس؟

والآن دعنا نسترسل مع هذا الافتراض لنرى نتائجه.

1- ان أول ما يصـــدمنا في هذا الطريق إيماننا الذاتي بعقولنا وكلنا يؤمن ذاتيا بطائفة من المعلومات المســبقة، ولا يمكنه أن ينفصل عنها مهما كلفه الأمر. نحن نؤمن مثلا: بأن الفضيلة حسنة ولم نحس بها، ونؤمن بأن التناقض (اجتماع العدم والوجود) محال ولم نره، ونؤمن بمبدأ العلية (كل حادث بحاجة إلى ســبب) ولم نشاهده.. صحيح اننا شاهدنا بأبصارنا الحجارة تقع على الأرض، ولكن ما الذي دعانا إلى البحث عن راميها؟ صــحيح أيضــا اننا رأينا الحرارة تندلع من النار، ولكن لم نشـــاهد ان النار هي التي أوجدت الحرارة. إذن فما الذي يدعونا إلى اعتبار النار ســببا للحرارة؟!

2- وصرح العلم الذي نفتخر به اليوم يقوم على أساس التجربة، والتجربة تقوم على قاعدتي الحس والعقل. ان الحيوان لا يمكنه ان يكتشف من تجاربه شيئا مع انه يحس، ربما أشد منا وأقوى. فالكلب ذو سمع شديد، والصقر ذو بصر نافذ، ولكنهما لا يملكان التجربة، لأنهما يحســان فقط دون ان يعقلا. بل حتى التجربة لا تشكل كل المعرفة البشرية. فإننا لا نملك في أي قانون من قوانيننا العلمية؛ لا نملك التجربة الشـــاملة لجميع جزئياتها. دعنا نفترض قانون التجاذب الذي بشـــر به (نيوتن)، هل جرب كل تجاذب في الكون؟ كلا هذا مســتحيل! ان ما فعله لم يعد إجراء التجربة على بضعة حوادث حتى حصلت له قناعة تامة بأن أي حادثة أخرى لا تعدو ان تكون مثل تلك التي جربها. وهذه القناعة من أين حصـل بها؟ من اين استطاع قياس ما يأتي بما مضـى؟ أفليس لحكم عقله بالمعادلة التالية:

ان التجربة الماضية دلت ـ بطريق الحس ـ على وجود تجاذب بين جسم وجسم مخصوصين، وان هذا التجاذب ليس صدفة وانما

هو بسـبب وجود علة في الأجسـام. وحسـب عدة ملاحظات على أنواع من الأجســام تبين انه لا فرق بين نوع الأجســام في وجود هذه العلة فيها، فدل على ان كل الأجسام ذات قوة تتجاذب بها.

ترى كم حكما عقليا اشــترك في اعطائنا هذا القانون العلمي ؟. ومع اننا لا نرتاب في هذه الأحكام ، فإن أحدا منا لا يدعي انه قد جربها هي الأخرى، وانه لولا التجربة لم يكن يعترف بها.

3- بل ومن حقنا ان نتســاءل عن قيمة التجربة ذاتها، كيف كانت لدينا قيمة للحس، وكيف آمنا بها، وكيف صــدقنا بأنها لا تخطئ؟ ليس لدينا الا الوجدان والحكم العقلي الذي لا ريب فيه، والا فهل من المعقول ان نقول: ان التجربة ذاتها دلت على قيمة التجربة؟

4- بعد كل هذا، ينبغي ان نعود إلى أنفسنا لنتعرف على نوعية الإنطلاق من الحس الجزئي إلى أبعاد أخرى. فكلنا يعرف ان الحس لا يعدو عملية انعكاس المؤثرات الخارجية على الأعصاب، ونقل الأعصــاب لها إلى المخ. وكلما تصــورنا حدوثه في المخ، فإنه لا يعدو أن يكون من نوع الإحســاس. فمثلا: الإحســاس بلون الشـجرة عن طريق انعكاس الضـوء على شـبكية العين، لا يحملنا أبدا على الإيمان بأن كل شجرة لها ذات اللون، ذلك لأن الإحساس مقدر بقدر الشـعاع المنعكس على العين، وليس بقادر على شـمول سـائر الأشـجار في العالم كله حتى يكون الإحســاس المباشـر هو الوســيلة لمعرفتنا بلونها الواحد في كل مكان. فإذا علمنا ذلك كان علينا ان نتساءل ما هو السبب لتعميم نتيجة الحس، والحكم بأن أي

إحســـاس آخر ســـوف تكون له من النتائج والأســـباب ما كان لهذا الإحساس، حتى يتم بناء قانون علمي شامل؟

وقبل ان نقول شيئا في هذا المجال لابد ان نفرق بين لونين من الامتداد في الإحســـاس؛ فقســـم نســـميه الامتداد الكاذب، والثاني ندعوه الامتداد الصحيح.

أ- الإمتداد الكاذب

الامتداد الكاذب، هو ان تقوم النفس بانتزاع صـــورة جديدة للحقائق التي أحســـت بها. فمثلا: يرى الإنســـان رجلين (لنفترض محمداً وعلياً)، ويعرف بالحس ان بينهما أمورا متشـابهة كالجسـم الأبيض والعينين الكبيرتين، والهيكل الضـخم، كما يبصـر بينهما أمورا مميزة كاختلاف السن والطول ولون الشعر.

هنا تقوم النفس بعملية التجريد وهي حصـر نظرها على الجوانب المتشـابهة وحذف غيرها. ونتصـور مثلا (كلي الجميل) الذي يشـمل محمدا كما يشمل عليا.

ومثل آخر: يبصـر الإنســـان تفاحة لها ميزاتها وخصـــائصـــها الوجودية، فهي تفاحة واحدة صـغيرة الحجم على الشجرة الفلانية. ولكن النفس تقوم بعملية التجريد وتنزع عن التفاحة خصـــائصـــها وتتصور (كلي التفاح) الذي يشمل كل تفاحة.

ان هذه العملية لا تعتمد على العقل، بل على النفس، وهي في الأســـاس لا تزيدنا الا تصـورا كاذبا لا وجود له. فالجميل (كفكرة كلية) لا وجود له الا ضـــمن محمد وعلي، وليس لدينا (كلي الجميل) ليشـمل كلا من محمد وعلي في الواقع الخارجي. كما ان التفاح الكلي لا وجود خارجي له.

إن القوة التي تخلق لنا هذا التصور تسمى بقوة التخيل، وهي لا تعدو ان تزيدنا بالتصور، ولذلك فهي لا تملك خاصية الكشف ولا تنتقل بنا عن مجال الذات إلى الواقع الخارجي. إذ ان وجود صورة متخيلة في مداركنا شيء ووجودها في الخارج شيء آخر. ومن هنا فنحن نتصور أمورا كثيرة ونؤمن أن لا وجود لها في الخارج أبدا. مثلا نتصور جبلا من عقيق، ونهرا من فضة، وحديقة من زبرجد، ونعلم أن لا واقع لها أبدا.

ولقد كانت فلسفة الحسيين ـــ بمختلف مدارسها ـــ تتهجم على صحة التعقل، لظنها انه لا يعدو ان يكون ركاما من التصورات الانتزاعية. والسبب انها ـــ أي مدارس الحسيين ـــ تكونت في جو مشبع بالنظريات الاغريقية وعلى رأسها نظرية أرسطو التي تعتمد على القول بأن أساس العلم التصورات الساذجة والمركبة، وان التعقل انما هو تركيب التصورات والإنتزاع منها. والذي يراجع بدقة نصوص الحسيين ينتبه إلى انها تنسف نظرية ارسطو التي سادت أوروبا قبل عهد الثورة.

ونحن نضم أصواتنا إلى أصواتهم، وننكر ان يكون مجرد الإنتزاع علما. والواضح ان الإنتزاع، عمل من أعمال النفس، لا يكشف الخارج أبدا. ولكنها بعيدة عن الامتداد الصحيح للمعلومات، الذي هو القسم الثاني، والذي لا يرتاب في صحته أحد حتى المنتمون إلى المدارس الحسية.

ب ـ الامتداد الصحيح

الامتداد الصحيح، هو الذي يكشف لنا السبب الواقعي لحادثة معينة. فمثلا: حين نجد موت حيوان بصورة فجائية، نقوم

بالتجربة ونرى انفجارا في مخه، ونقوم بعد هذه الملاحظة بعملية تفجيرية اصـــطناعية في مخ حيوان آخر، فإذا وجدنا موته هو الآخر، فلا نرتاب في أن أي حيوان في مثل هذه الحالة إذا حدث في مخه انفجار مثل هذا، فإنه ســيموت. ونجد ان هذا العلم لا يخضع للتصور الذهني بل هو انكشاف وشهود للنفس.

ان أديســون الذي قام بتجاربه المحســوســة في حقل الكهرباء وحفظ الضـــياء، عرف انه لا مناص له من العثور على خيط من الكربون، فكربن كل ما وقعت عليه يداه بغية الوصــــول إلى فتيل كربوني رفيع يصــلح للإضـــاءة العملية. وبعد تجربة 1200 مادة من أنواع المواد وجدها أنها كلها ليست من الصلابة بالقدر الكافي للبقاء أكثر من 8 دقائق، وإذا به فيما يقرب من اليأس جاء بخيط فكه من أحد أزراره وعندئذ ألهم ان يكربن هذا الخيط القطني التافه فإذا به يبرهن على انه أطول عمرا من كل ما جرب، فقد ظل مشـتعلا أربعين سـاعة قبل ان ينطفئ. ان هذه كانت خطوات أديســون لكشـــفه العظيم (المصـــباح الكهربائي). فإذا أردنا تتبع خطواته عرفنا ان الحس كان يلعب دورا ثانويا، وان كشــــفه الحقيقي انما كان لأن إحساسه دفع إلى معرفة السبب. فلو افترضنا ان أديســون لم يكن يملك العقل الكافي، فهل كان يعلم حين يجرب على خيط واحد ان كل ما يشابه هذا الخيط هو مثله ولو لم يكن قد رآه فعلا.

يقول الكسيس كاريل ـــــ وهو مكتشف قدير ــــ: جميع عظماء الرجال وهبهم الله بصــــيرة، فهم يعرفون دون تحليل أو تفكير ما هي الأشياء الهامة التي يجب عليهم ان يعرفوها. ولهذا فإن الزعيم

الحقيقي للرجـال لا يكون بحـاجـة إلى الاختبـارات النفســـيـة أو بطاقات التوصــــية، حينما يريد ان يختار مســـاعديه. كما ان في اســتطاعة القاضـــي الفذ ان يصـــدر حكما عادلا دون الدخول في تفاصـيل الحجج القانونية، بل حتى إذا بدأ بحثه بالمقدمات الخاطئة (كما قال كاردوزو). أما العالم النابغة فيســـلك بالغريزة الطريق المؤدي إلى الاكتشاف[1].

وكل من يقوم بدراســـة حالـة العظمـاء يعرف ان المعرفـة لم تحدث لديهم الا بشـــكل من الاكتشـــاف المفاجئ. ان هذا الامتداد يحدث بنور العقل الخالص دون أية دوافع نفســـية أو مصـــلحية، وهذا هو الـذي يميزه عن الإمتـداد الكـاذب. إذ ان ذلـك الامتـداد يحدث برغبة نفســـية معينة، اما هذا الامتداد فإنه هو الذي يقود البشر إلى الاعتراف بصورة جازمة دون أية دوافع.

والسـؤال هنا كيف يحدث هذا الإمتداد، وما هي الســبل الكفيلة لسلامته والمحافظة عليه دون دواعي الشهوة البشرية؟

جوابا على هذا التســـاؤل لابد ان نعلم ان العقل يقوم بدورين أساسيين في تحويل الإحساس إلى علم..

يتلخص الدور الأول في توجيه الجوارح، توجيها صـــحيحا، والتثبت في إحســاســها، والمقارنة بين الأحاسـيس المختلفة. بينما يتلخص الدور الثاني في المقارنة بين الإحســـاس والأحكام العقلية (الســابقية). كذلك المقارنة بينه وبين التجارب الماضـية. وبالتالي تأمين القفزة الصـائبة من الإحساس إلى العلم. وفيما يلي نشير إلى نوعية قيام العقل بهذه الأعمال..

---

1 - (الإنسان ذلك المجهول ص 146).

نقد العقل للإحساس

1- ان هناك شـــروطا تمهيدية للتجربة يبينها العقل. فمثلا لا يجرب الإنسان حقيقة تبدو له انها مفروغ من صحتها أو فسادها، انه لا يجرب مثلا: ثقل الحديد الذي يرســب به إلى قعر الماء. وبالفعل حين قال رجل لصاحبه تعال نجرب صنع سفينة من حديد استخف به ورمى بقطعة حديد في الماء وقال: أنظر يا غبي كيف رسبت؟ ولكن الواقع: ان السفينة قد تكون من حديد، وانها كانت من جهالة الرجل حين اعتقد انها مســتحيلة.. ولو امعنا النظر عرفنا ان الرجل كان غائب العقل حين قال بذلك، إذ ان العقل الصحيح لا يحكم باستحالة مثل ذلك.

من هنا نعلم ان هناك شــروطا لمرحلة ما قبل التجربة يجب توافرها ســلفا، من أهمها وجود مناخ فكري مناســب لها عند المجرب ذاته، وهو لا ينشأ دون وجود عقل منفتح.

ونستطيع تحديد هذا المناخ بالقول: ان الجهل والغفلة البشرية قد تطبع على عقل الإنســان بحيث لا يوجه إحســاســه إلى أقرب الأشــياء إليه ليعرف من خلاله الحقيقة، ولا يرضــى تجربة ما سواه.

ولذلك فإن الإســلام يوجب على المؤمن ان يظل منفتح الذهنية أبدا ولا يســارع بالنفي عند ســماع كل شــيء جديد، وانكر على أولئك الذين يرفضــون الاعتراف بالفكرة لمجرد انهم لم يجربوها من قبل. قال الله تعالى: [بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ](يونس39).

2- والـذين يحملون أوزارا فكريـة معينـة، لا ينظرون الا من زاوية قناعاتهم الخاصـــة ولهذا فإن تجاربهم تبدو ناقصـــة وغير مفيدة لأنها تفسر بعض الحقيقة فقط.

فمثلا: الذي يحمل عقيدة معينة بشأن شخصية تاريخية أو حدث تاريخي، فإنه يحاول دراســـة الكتب التي تؤيد وجهة نظره دون الكتب المخالفة لها.. ولذلك تصـــبح معلوماته ناقصـــة حتى حول عقيدته الخاصــة، لأنه لا يدرســها الا في حدود معينة وبترسـبات ســابقة. ومن هنا نكتشــف أن العقل ضــروري لتوجيه الحس إلى الإحاطة بالشيء، والتثبت من التجربة دون الحكم على الموضوع بسرعة وقبل اكتمال تجربته وتعميمها على جميع الحالات التي قد يكون لتغيرها نوع من التأثير في صحة التجربة.

وقد ســـبق القول منـا بـأن رأس العقل هو التثبت، ذلك لان الإنســـان جُبلَ على الثقة الســـاذجة بنفســـه، بحيث يصـــعب عليه الاعتراف بجهله، ولئن اعترف فإنه سرعان ما يعود فيدعي العلم.

والعقل المضـــيء هو الذي يحكم على الذات بـأنهـا جـاهلـة، ويكشف لها عن جهلها فتضطر إلى البحث عن المعرفة. وهنا فقط تتجرد عن ضـــلالتهـا الســـابقـة وتبـدء تجرب الحقـائق بروح موضوعية.

وهذا هو الشـــرط الثاني الذي يوفره العقل للحس حتى يكون موضوعيا. وقد أوحت إلى هذا الأمر آية قرآنية كريمة حين قالت: [وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الْسَّـمْعَ وَالْبَصَـرَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْـــؤُولاً](الأســـراء 36).. والملاحظ في هذه الآيـة ربط

الإحساس بالمسؤولية التامة، لكي لا يتسارع الإنسان في الحكم دون تثبت كامل وإحاطة تامة بمحتملاته، ولقد عبرت الآية بكلمة "تقف" الدالة على ان البشر يجب ان يقسم الأمور أمامه إلى خطوات، فلا يخطو خطوة إلى الأمام الا إذا قاده العلم الذي لا ريب فيه إليها، ولا يكون متسرعا فيعترف كليا أو يرفض كليا!!

3- اننا بسرعة نكوّن مفهوما خاصا وواحدا عن التفاحة، مع ان العملية بحاجة إلى معارف عقلية مسبقة تجمع شتات الأحاسيس وتقول لنا: ان الرؤية التي نقلت إلينا حجم التفاحة ولونها، وان اللمس الذي عَرّفنا وزنها وملاستها، وان الذوق أو الشم الذي عرفنا الطعم والرائحة.. كل هذه الأحاسيس انما هي تعبير عن شيء واحد هي (التفاحة).

ان هذه الوحدة النظرية لم نستطع الحصول عليها بدون وجود العقل الذي لم يكشف لنا عن وحدة السبب فحسب، بل وأيضا كشف عن ان كل عرض (اللون، الطعم، الرائحة و.. و..) لا يطرأ الا على شيء ما (هو الذات). وان لذات الشيء علاقة بعرضه وبالتالي يكشف لنا عن حقيقة التفاحة.

ان التفاحة ليست ـ لدى علمنا ـ مجموعة صور من الأحاسيس المتفرقة كما شاءت بعض الفلسفات الحسية ان تتصورها، بل هي حقيقة واحدة متكاملة، ذات خصائص متصورة. ومعرفتنا بهذه الوحدة انما هي بسبب نوع من المقارنة الإيجابية تكشف عن وحدة الأحاسيس.

هذه بعض الشروط التمهيدية للتجربة الحسية يوفرها العقل.

المقارنة وسيلة العقل

والى جانب هذه الشروط لدينا معارف عقلية ــ تقوم بمقارنات ـ نكشف بها خطأ بعض أحاسيسنا، وهي كالتالية:

أ- المصــاب بالدوار لا يشك في ان حسه هو مبعث الإحسـاس بحركة العالم، وذلك لدى مقارنة حســه بحس الآخرين. إذ ان لدى كل منا حكما عقليا لا نرتاب فيه، يتلخص في: ان الواقع يجب ان يحس به كل أحد. فما دام الآخرون لا يحسون به، نكتشف ان الذي يحس به وحده لابد ان يكون خاطئا. وهكذا كل إحســـاس خاطئ ينكشف زيفه فور مقارنته بإحساس الآخرين، أو بإحساس الرجل ذاته في سائر الأوقات..

ب- وقد تصــاب العين بالمرض فترى الأشــياء مقلوبة، ولكن اليد تكشــف زيف هذا الإحســاس، حين تلمس الأشــياء لتجدها ســـالمة. وهكذا يحكم العقل بين الأحاســيس المختلفة بمقارنتها ببعضها.

ج- وقد تبصر العين رجلا قزما فلا يتردد العقل من الحكم بأنه طويل القامة، لأنه يقارن المســافة بينه وبين الرجل، فيقول: إذا كانت الرؤية من بعد ميل تظهر الشخص بهذا الطول ـ نصف متر ـــ فلابد انه إذا اقترب يظهر ذو طول قد يتجاوز المترين. وهكذا يقدر العقل دور المسـافة في العين والأذن وسـائر الأعضــاء، بل هكذا يقدر ســائر القوانين الفيزيائية كوزن الشــيء في الماء. فإن الإحسـاس البسـيط يزعم انه خفيف مثل ما يتصـور، الا ان العقل سرعان ما يحكم بخلاف ذلك.

د- مقارنة سـائر العوارض الداخلية، فقد تشـعر جميع أعضــاء الجسـم بالبرودة أو بالحرارة الشـديدة، ولكن العقل لا يتردد في ان ذلك احســـاس باطل لانه يتقارن مع عوارض المرض، مما يدل

على زيف الإحســـاس. وهكذا في كل مرض، كفقدان التوازن والذوق والشم و.. و..

وتتشابه الأخطاء الحسية الناجمة من العقاقير المخدرة كالأفيون والهروبين و.. و.. بالأخطاء المرضـــية التي لا يلبث العقل حتى يفضحها.

وهناك عدة أنواع أخرى من المقارنة لا نذكرها لأنها متشــابهة ومعروفة ويقوم كل واحد منا بتجربتها يوميا وبصـورة عفوية، الا انه ينبغي ان نبين هنا حقيقة المقارنة ونقول:

ان كل مقارنة تنطوي على مجموعة من الأحكام العقلية التي لم نعد نلتفت اليها لسرعة تحققها وشدة وضوحها. فمثلا: ان المقارنة بين ما نحس به وأحاســـيس الآخرين، انها تنطوي على الحكم الواضح الذي لا نرتاب فيه، وهو ان ما أحس به ان كان هو الواقع وجب الا يختلف فيه حس الآخرين لانهما من طبيعة واحدة، وتكشــفان عن حقيقة واحدة. فلابد ان يكون الاختلاف بســبب آخر هو المرض والخطأ وما أشـــبه. ودون العقل من أين نعرف ان الحقيقة واحدة، أو ان الحقيقة الواحدة لا تبث الا لونا واحدا من الإحســـاس عندي وعند الآخرين، أو ان للإختلاف ســببا خارجيا. فلماذا لا يكون الشيء بلا سبب؟

وبهذا كله نتمكن من فضـــح المغالطة الكبيرة التي اســتند إليها النســبيون حين قالوا: ان الإحســـاس يتأثر بالظروف الفيزيولوجية فلهذا لا تعكس الا ذاتها. ونحن نعترف انها تتأثر حينا، ولكن لا يحملنا هذا التأثر إلى التشـــكيك في نتائجه كل مرة. إذ ان العقل

سيحكم بما إذا كان الحس متأثرا بعوامل خارجية ام بعوامل داخلية فيزيولوجية.

تمحيص النتائج

ثم يقوم العقل بدوره الثاني في توجيه الإحســاس وهو تمحيص النتـائج. وتختلف النفوس في المواهب العقليـة، من هذه النـاحيـة. ولذلك فإن قليلا من الناس فقط يتمكنون من الإسـتنتاجات الصـائبة من تجارب متشابهة. وهذا الدور معقد، ولذلك فلا يمكننا الا التنبيه بالقواعد العامة، التي تفيدنا في هذا المجال:

1- الإحساس في محك السابقيات العقلية

حينمـا ترى العين أجنحـة المروحـة وهي تـدور ، تزعم العين بادئ النظر انها: (صــــحن مدور) ولكن العقل يقوم بتخطئة هذه النتيجة، ويقول: ان الصـحن لا يحرك الهواء. وهذا المثال البسـيط يدل علـى ان الإحسـاس يقارن بالأحكام العقلية المسبقة. فمثلا لدينا حكم عقلي جازم هو: ان الحدث لابد وان يأتي بعد سـبب مناسـب، ولذلك فإن الأحداث الواحدة ذات أسـباب متشـابهة. ومن هنا فنحن لا نرتاب في قانون التجاذب، لانه حصــيلة تجاربنا المحســوســة مضــــافة إلى أحكامنا العقلية. اننا نرى ان الطير عندما يموت يقع على الأرض، ونعرف ان رفع الحجر على الظهر أصــــعب من رفع القطن ويتطلـب جهـدا، ونلاحظ ان القمر يـدور في الفلـك، ونعلم ان الصـعود إلى الجبل أشق من النزول منه. ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرا، ثم نتعرف على حقيقـة اســــتنبـاطيـة هي قـانون الجـاذبيـة، وهنـا ترتبط جميع هذه

الحقائق فنعرف للمرة الأولى انها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى إرتباطا كاملا داخل النظام، وكذلك الحال لو طالعنا الحقائق المحســوســة مجردة فلن نجد بينها أي ترتيب فهي متفرقة وغير مرتبطة، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فسنستنتج صورة منظمة للحقائق[1].

ونرى كيف قام العقل بربط نتائج الإحســاس بعضــها ببعض حتى حصــل منها على قانون علمي ســمي بقانون التجاذب. ان الإنسان توسل لإستنباط هذا القانون بعدة أحكام عقلية والتي كان أهمها الحكم بضرورة وجود السبب لكل حادث، وضرورة تناسبه مع المسبب، وأن الأحداث المتشابهة ذات سبب واحد وأخيرا ربط نتائج الأحاسيس المختلفة ببعضها لصياغة قانون عام منها. وهذه الأخيرة كانت السلسلة التي لولاها لما استطاع البشر من استنباط قانون موحد... ولنلاحظ تجربة أخرى هي تجربة ديزل الذي ســميت بإســمه محركات ديزل الضــخمة. فإن الشــاب الألماني (دولف ديزل) دأب على كبس الهواء حتى وصــل ضــغطه في النهاية إلى (500) رطل للبوصــة المربعة، ورفع هذا الضــغط درجة حرارة الهواء إلى (1000). وربط هذه العملية بقانون عقلي آخر هو أنه: إذا كان الوقود عادة يبدأ في الاحتراق عند درجة (450) فلابد ان يكون كل ما نحتاج إليه لكي نحصــل على الاشتعال بدون شرارات الاشتعال، هو حقن الوقود إلى خزانة بها هواء مضغوط ضغطا مفرطا لكي يشتعل في الحال كما يشتعل الدهن في المقلاة!..

1 - الإسلام يتحدى ص 65 عن (Cleaver Thin ding) لمؤلفه مانديز.

وهكذا فعل ولكنه حين اختبر محركه لأول مرة انفجر كله وطرح الشاب أرضا فاقد الشعور. بيد إنه تصور بإستخدامه الحكم العقلي انه لو استعمل اسطوانات أقوى وصمامات أضبط فإنه لن ينفجر إذ انه عرف بحكم عقلي ان الانفجار كان نتيجة سبب، وان السبب لابد ان يكون قوة الانفجار ورخاوة الاسطوانات. فلما اتقن اسطواناته لم ينفجر المحرك هذه المرة بل أعطى الصناعة دفعا جديدا إلى الأمام بمحركه.

وماذا لو فقد ديزل مساعدة عقله، هل كان بإمكانه متابعة تجاربه؟ ومن هنا نعرف ان العقل ضرورة لتمحيص التجربة بعرض الملاحظة على الأحكام العقلية الثابتة. وهذا أهم القواعد التي تساعد البشر على استنباط الحقائق من الإحساس.

2- الإحساس والتجارب السابقة

لدى أبسط التجارب يحتاج الإنسان إلى إدخال مجموعة كبيرة من تجاربه الشخصية الأخرى ومعلوماته الصحيحة عن تجارب الآخرين لكي يوازن بينها ويحصل على فكرة صائبة عن تجربته. فنحن حين نستعمل الترمومتر (درجة الحرارة)، لا نعلم كم تجربة نستخدم من تجاربنا الماضية أو تجارب الآخرين، ولكننا نستطيع ان نقول بأنها تجارب لا تحصى عدا.

فمثلا اننا بدون تجارب المصريين في الهندسة ونظام العد الإسلامي واكتشافات أوروبا الرياضية لم نكن نستطيع ان نعرف أي شيء عن قياس الحرارة.. ولهذا فإن أية تجربة جديدة لا تنمو الا في مناخ صالح. ونعني بالمناخ الصالح وجود عدد كبير من

التجارب البشرية في سائر الحقول تساندها وتخلق فكرة صائبة عنها.

فمثلا: جابر بن حيان الأنصاري ـــ تلميذ الإمام الصادق عليه السلام ـــ قام بصنع طائرة لم يذكر المؤرخون صفاتها بالضبط لأنها دفنت تحت ركام الجهالات التي كانت تسود عصره، ولذلك فإن العصر الذي تلى عصر جابر لم ينتج تجارب جديدة لأنها كانت تفقد مناخها المساعد.

أما حين بدأ أخوان رايت (Wright Brothers) تجاربهما بالطائرات الشراعية على كثيبات الرمل في (كتي هوك) لمجرد التمرن على كيفية التحكم في الأجنحة أثناء الطيران، وطورا تجاربهما ـــ حينذاك ـــ ساعدهما وجود المحرك ثم وجود المواد الخفيفة الصلبة البناء (التي حصلت البشرية منها على قدرة حصان واحد مقابل كل رطل واحد من وزن المحرك)، ان هذه التجارب المتنوعة التي سبقت تجربة أخوان رايت، أعطت الطائرة مناخا مناسبا للظهور، فأصبحت ميزة العصر الحديث. وهذا يهدينا إلى ان العقل يعرض نتيجة الحس على التجارب الماضية ليمحصها.

ولولا وجود عقل موازن عند الإنسان لما استطاع أن يستغل تجارب غيره أبدا. ان العقل الموازن يحكم بأن ما فشل فيه إنسان واحد فإنه يستحيل ان ينجح فيه الآخرون، وبالعكس ما نجح فيه هو فسوف ينجح فيه كل إنسان. ولذلك فإن العالم الخبير يقوم بعد كل ملاحظة بطرد آلاف الإحتمالات التي تتراءى أمامه، لمعرفته المسبقة بأنه قد ثبت بطلانها في تجارب غيره... ونستطيع

تلخيص المهمة الثانية التي يقوم بها العقل عند تمحيصـــــه نتائج الحس بأنها:

(موازنة الحس بتراث البشرية العلمي).

ان العقل هو الذي يهدي إلى ضـــرورة هذه الموازنة وهو الذي يدلنا على نوع التجارب التي ينبغي ان توازن بها التجربة الجديدة. وأخيرا هو الذي يعطينا حاســـة الكشـــف عن أقرب التجارب إلى الحقيقة لدى اختلاف التجارب. ترى ماذا يفسر كل ذلك الحسيون؟ من هنا جاء في الحديث عن امير المؤمنين عليه الســـلام : (العقل حفظ التجارب[1]).

3- القفزة العلمية

أهم ما يحصل بالعقل هي ـــــ القفزة العلمية ـــــ والمثال التالي يوضحها:

يقوم الطفل بطرح فلز في الماء، فيســـتقر في القاع، ورأســـا يتنبه إلى ان مطلق الفلز لا يستقر فوق الماء ـ أي ماء كان ـ. هذه هي القفزة العلمية حيث استنبط الطفل من تجربته حكما عاما.

ونحن لم نجرب طيلة حياتنا الا بعض التجارب البســيطة، بيد اننا نملك عدة قوانين عقلية لأن تلك التجارب قفزت بنا إلى مســتوى معرفة قوانين عامة بحيث لا نرتاب في صـــحتها. وهذه العملية، التي لا تخضـــع لحســـاب، هي التي زودت البشـــرية بالكميات الضـــخمة التي تملكها من المعلومات عن الكون. ونحن نضحك حتى الأعماق حينما تروى لنا قصة جحا الشـهيرة: حين

---

1 - بحار الانوار ،ج74 ،ص208 ، في وصيته لإبنه الحسن عليهما السلام .

كان جالسا فوق غصن شجرة وينشر اصله، فقال له عابر سبيل انك ستقع. فقال مستهزءاً: من أين عرفت؟ هل أنت عالم غيب؟ ولكنه سرعان ما سقط على الأرض، وتهشمت أعضاؤه. فتعقب الرجل وقال: حقا أنت نبي. نحن نضحك من هذا الكلام لأنه مغرق في السذاجة. ولكن ماذا لو قال طائفة من المنتمين إلى الفلسفة بهذا القول منكرين مصدرا للمعرفة لا يوزايه مصدر آخر أبدا. قالوا: انك لا تستطيع ان تعرف (كل رجل يموت) لأنك لم تعلم الا بموت فريق من الناس، ولعل الفريق الآخر لا يموتون!! وهكذا في سائر الحقائق.

ان الطفرة العلمية التي لم نستطع نحن البشر ان نعرف عنها شيئا كثيرا تشكل أقوى الأدلة على وجود عقل يكشف لنا عن أبعاد الحقائق، والا فما الذي يدعونا إلى القول بأن كل إنسان يموت، مع أننا لم نشاهد الا بعض الأموات.. يقول البروفيسور (مانديز):

ان الحقائق التي نتعرف عليها مباشرة تسمى (الحقائق المحسوسة Facts Received) بيد ان الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في الحقائق المحسوسة. فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا عليها على كل حال. ووسيلتنا في هذا السبيل هي الإستنباط. فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة Inferred Facts) والأهم هنا ان نفهم ان لا فرق بين الحقيقتين، وانما الفرق هو في التسمية من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة، وعلى الثانية بالواسطة.

والحقيقـة دائمـا هي الحقيقـة ســـواء عرفنـاهـا بـالملاحظـة أو بالاستنباط[1] .

والعقل هو الذي يميز بين الطفرة العلمية (الاســتنباط) وعملية (انتزاع النفس) أو الخيال ووســـيلته إلى ذلك تجنب أية رغبة في التســـرع أو في ترجيح جانب على جانب آخر. بل لابد ان يدع الإنسـان نفسـه مسـلما بنتيجة تجاربه، تقوده كيف شـاءت لا كيف يشاء هو.

1 - (الإسلام يتحدى ص 64).

القسم الأول عن العلم والفلسفة

<u>البحث الثاني</u>

نقد التصورات البشرية

آراء في المعرفة

آراء في قيمة المعرفة

(كانت) والنسبية الذاتية

النسبية التطورية

أ- آراء في المعرفة

أمامنا الآن مجموعة من التصورات البشرية حول المعرفة، لا يخلو كل واحدة منها عن جوانب إيجابية، الا انها بصفة عامة لم تحط خبرا بواقع العقل والعلم والفكر. ولعل السبب الوحيد لهذا العجز البشري عن معرفة أقرب الحقائق إلى الإنسان – أي العلم- ان الإنسان حاول معرفة العلم عن طريق الجهل؛ أي عن غير طريق العلم ذاته، وهو نوع من الإنحراف في المنهج، سبق البحث فيه.

لقد حاول البشر قياس العلم والعقل بركام التصورات والتعاريف، فما زاده الا بعدا عن حقيقته ومزيدا من الانحراف عنه، تماما كمن حاول قياس الوجع بالمتر أو الحرارة بالكيلو. وقد سبق القول في ان شأن العلم شأن الإرادة وسائر ما يرتبط بالنفس حيث لا يمكن قياسها الا بآثارها.

ونحن حين نجد في العصر الحديث انتشار قياس حقائق النفس بآثارها، بعد ان عجزوا عن قياسها بالطرق المادية. فما الذي يمنعنا من تطوير منهجنا في معرفة العلم والعقل إلى النظر إلى آثارهما كما صنع الإسلام.

ان هذا المنهج يجعل كل فرد يكتشــف النور في داخل نفســه، وهناك فقط يتبين ان تصــورات البشــر حوله انما كانت انحرافات بعيدة عن الواقع.

نظرية أفلاطون

تتلخص نظرية أفلاطون في النقاط التالية:

1- تماما كالصـــورة التي تنعكس على المرآة، لها حدود وليس لها جرم وكثافة، كذلك يوجد عالم يدعى بعالَم المُثُل، كل حقائقها ذات حدود ولكن دون كثافة. وهذه المثل هي صـــور الحقائق الأرضية جميعا، فالإنسان مثلا: يعيش على الأرض أفراده أما هو فإنه واحد يعيش في عالم المُثُل، وهو (أي حقيقة الإنســان) شــبح هناك يمثل كل الناس في كل العصور.

2- والإنسان كان قبل تنزله إلى الأرض يسرح في عالم المثل، ولذلك فقد أحاط علما بكل الصــور (أو المثل) التي كانت موجودة فيه، ولكنه نسيها عندما تقولب بالمادة وهبط إلى عالم الجسد.

3- الا ان أقل تنبه يكفي الإنسان لتذكر ما كان قد نسيه في عالم الدنيا، فيعود يعرف الحقائق التي عرفها في عالم المثل.. ولذلك سميت نظريته بــ (النظرية الإستذكارية) لأن الفكر، حسب هذه النظرية، ليس سوى إستعادة المعلومات، والعلم ليس الا إستعادة المحفوظات المنسية.

4- ان العقل البشري أسمى من ان يعرف الحقائق الجزئية، بل انه يعرف الكليات؛ أي المثل العامة فقط. فمثلا: حينما يعرف رجل زيدا فإنه لا يعرف بعقله الرجل المســمى بزيد، انما يعرف بعقله كلي الإنسان، أو صورة الإنسان بصفة عامة.

وترتكز هذه النظرية فيما يخص موضوعنا على أمرين؛ الأول: الاعتقاد بوجود الأرواح بصفة مستقلة عن الأجسام قبل خلق الأجسام. والثاني: ان العلم صفة أصيلة في ذات الإنسان ولسيت صفة طارئة على الإنسان.

والإسلام يقول بوجود الأرواح قبل الأبدان بفترة طويلة، حيث جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله: (خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام[1]).

أما ان العلم صفة ذاتية للإنسان، فهذا ما يرفضه الإسلام، والسبب:

أ- لو كان العلم صفة الذات لم يجز ان يتخلف في لحظة عن الذات، ذلك ان الذات لا يفقد نفسه الا ساعة انعدامه. أترى ،هل يمكن ان يجهل الله سبحانه شيئا وهو يملك العلم بصفة ذاتية، أم ان النور يمكنه ان يتخلف عن الحركة والإشراق وذاته الحركة والإشراق؟ هذا مع اننا نلاحظ: ان الإنسان لا يعلم ثم يعلم ثم ينسى ما علم. قال الله سبحانه، وهو يذكِّر بهذه الحقيقة الواضحة:

[وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَي لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً](النحل70).

ونحن نعلم من أنفسنا صفة الجهل الذاتية، لان العلم لا يحصل لنا الا بتعب وإرهاق، ثم يزول بسرعة مع هبوب عاصفة النسيان التي تتناوب على أنفسنا فتكنس معها معلوماتنا.

ب- إن ذاتي الشيء لا يحدد.. ان الجهل والعدم والعجز من ذاتنا، ولذلك فهي غير محدودة، لأنها إذا كانت محدودة إذن لم

---

1 - بحار الانوار ،ج58 ،ص132 ،ح4 .

تكن ذاتية لنا. أما العلم والإرادة والوجود والقوة فهي مواهب أو مكاسب، ولذلك فهي محدودة.

وبتعبير آخر؛ ان التحديد يعني العدم في بعض الجوانب. فلو حددنا علم رجل ببلده مثلا فذلك يعني انه لا يعلم عن البلاد الأخرى شيئا، وإذا كان ذات الرجل عالما فكيف لا يعلم شيئا عن البلاد الأخرى؟ أفلا يعني ذلك ان هذا الرجل عالم وجاهل في لحظة؟ وهو تناقض مرفوض.

وهل يصح ان نقول: ان ذات الحرارة هي الحركة (أي لا يمكن ان توجد حرارة ولا توجد حركة أو العكس بأن توجد حركة ولا توجد حرارة) ثم نقول ان الحرارة يمكنها ان لا توجد في وقت أو في حالة مع وجود الحركة؟!

إذن فنظرية أفلاطون الإستذكارية مرفوضة بسبب واحد وهو انها تدَّعي ان العلم من ذات الإنسان. ولو فسرنا هذه النقطة منها، إذا استطعنا القبول بها فيما يخص العلم، فسرناها بالقول: ان الله سبحانه وهب الإنسان العقل، ولكن هذا العقل محتجب بالنسيان وان التذكر به يرجعه إليه.

نظرية الإنتزاع

وهي التي ذهب إليها فريق من الفلاسفة الإغريق وفي طليعتهم أرسطوطاليس واتبعهم فريق من فلاسفة المسلمين، وهي تذهب إلى: ان للذهن البشري نوعين من التصورات، تصورات أولية، كتصور اللون والحجم والطعم والرائحة، وما إلى ذلك مما يتصوره الذهن عن طريق الحواس. وتصورات ثانوية، وهي التصورات التي يولدها الذهن البشري منتزعة إياها عن

التصـــورات الأولية، وذلك مثل الكليات المجردة، وتصـــور العلة والمعلول وما أشبه.

وتقول النظرية: ان التصورات الأولية هي الأساس للتصورات الثانوية، وانه يستحيل على الذهن القيام بأي تصـور ثانوي بدون التصورات الأولية. وبتعبير آخر؛ الإحساس أساس العلم. وتقول: ان الذهن يقوم بنمو ذاتي متى ما يدخل حريمه تصـــور أولي، فيتمخض عن تصور ثانوي.. ونستطيع تمثيله بالأرض الصالحة التي تنمي أشجارا كثيرة بعد ان تزرع فيها النواة.

والملاحظ: ان هذه النظرية تتنافى وما ســبق ان ذكَّر بها الدين الإسلامي من الحقائق، ونضيف إليها ما يلي:

1- ان الإنســان لا يمكنه الإيمان بالحس دون وجود عقل يحكم بصدق الإحساس، وقد سبق ان أكدنا ذلك بأكثر من بينة. ومن هنا فإن العقل (وهو ما تسميه النظرية بالتصور الثانوي) هو الأساس للإحساس. وقد عكست النظرية فقالت ان الإحساس هو السبب في وجود العقل. ولست أدري كيف يمكن ان يكون الإحساس بشيء وســيلة إلى الاعتراف بوجود علته، لو لم تكن في النفس نور يكشف عن حقيقة العلة؟

2- ان النظرية تعتقد ان النفس تسير في نمو ذاتي حتى تصل إلى العلم، وهذا يشبهها بنظرية أفلاطون في أنها تجعل العقل وليدا طبيعيا للنفس ضمن حركة جوهرية تكاملية. ومن حقنا ان نسأل إذا كانت حركة النفس إلى أعلى بصـــورة مســتمرة فكيف تنتكس حتى لا تعلم بعد علم شيئا، وكيف ينســى البشــر أشياء عرفها، وكيف لا يعلم أشياء يجهلها بصورة طبيعية، بل يكون محتاجا إلى المعلم؟

والواقع ان نظرية أرســـطو الإنتزاعية لم تثبت للنقد بعد ان تعرضـــت له من قبل الفلاســـفة الغربيين، منذ روجر بيكن وإلى جون لوك. ونحن بغنى عن استعراض إنتقاداتهم بعد ما سبق وأن أشرنا إليه في تقرير النظرة الإسلامية المتوازنة الشاملة.

النظرية الحسية التجريبية

(النظرية الحســية التجريبية) هي النظرية الســائدة على العالم المادي المعاصــر، وكان أول مبشــر بها في الفترة الأخيرة (جون لوك) الفيلســـوف الإنجليزي الذي ظهر في جو مشـــبع بالأفكار الديكارتية العقلية.

ثم تبنتها فلســفات أخرى، وبينها النظرية المثالية والماركســية. يقول جورج بوليتيريز:

(ما هي نقطة البدء في الشعور أو الفكر؟ ان مصدر الإحساسات ما يعالجها الإنسان بدافع من احتياجاتها الطبيعية). ويقول ماوتسي تونغ:

(ان مصـــدر كل معرفة يكمن في إحســـاســـات أعضـــاء الحس الجسمية في الإنسان، للعالم الموضوعي الذي يحيطه).

وهذه النظرية تتلخص في نقطتين:

1- ليس للذهن البشـــري من ممون ســـوى الإحســـاس، فهو المصــدر الوحيد لكل المفاهيم والتصــورات. ومن هنا فليس للذهن إبداع تصورات جديدة.

2- وان التجربة ،وهي نوع من الإحساس، هي المصدر الوحيد للعلوم الإنسانية، وأنه لو تجرد الانسان عن الاحساس لتجرد عن كل معارفه.

ومن هنا: تنفي هذه النظرية وجود معلومات ســـابقة (أو ما نســـميه بالعقل)، ولذلك فهي تبعد عن ذاتها كل محاولة لمعرفة ما وراء المادة (الغيب).. وتزعم هذه النظرية: ان الإنســـان لا يمكنه ان يعرف حقيقة الا بتجربتها مباشـــرة، فليســـت هناك حقيقة اســـتنباطية يســـير فيها الفكر من الحقائق العامة إلى الحقائق الجزئية. فالمثل التالي مســـتبعد كليا عن المنهج التجريبي: كل فلز يمتد بالحرارة والحديد فلز فلابد ان يمتد بالحرارة. بل يجب ان نجرب الإمتداد على الحديد بالذات حتى يمكننا ان نقول: (الحديد يمتد بالحرارة). وهكذا يبعد هذا المنهج كل مثل متشـابه، ذلك لأنه يسـتبعد العلم الكلي (كل فلز يمتد بالحرارة) ويقول: من أين عرفنا هذا العموم، هل من التجربة على الحديد التي كانت بين التجارب التي أجريت على كل فلز؟ وإذا فلا نستفيد من الكلي (كل فلز يمتد بالتجربة) لأنه لا يعدو ان يكون تكرارا للمفهوم الســـابق، ام بدون التجربة على الحديد بين الفلزات. فمن أين حصـــلنا على هذا المفهوم، ان لم نكن قد جربنا كل الفلزات؟ والعلم لا يحصـل بدون التجربة.

الماركسية تتناقض:

لقد سبق القول في نقد النظرية الحسية، ونلخصه فيما يلي:

1- ان قيمة الحس والتجربة لا يمكن ان تثبت الا بوجود شـــيء عند النفس يُمكِّنها ان تقيّم الحس والتجربة. وذلك ما نسميه بالعقل. ولو افترضنا عدم وجودها فما الذي تفيدنا قيمة الحس والتجربة؟.. قال فريق منهم: ان التجربة ذاتها دليل تقييمها.. حســـنا؛ فتلك التجربة التي تقيم التجارب الأخرى، هل هي ذات قيمة أم لا؟ إذا كان لها قيمة فمن أين عرفنا قيمتها؟

والواقع اننا نؤمن بقيمة التجربة، وهذا الإيمان نابع من عقولنا التي تحكم بذلك.

2- كيف يمكننا تفسير العلة والمعلول، والحسن والقُبح، والخير والشر؟ هل هذه الحقائق تدرك أيضا بالتجربة؟ وكيف مع انها معلومات لها من القيمة لدينا كقيمة التجربة، ولها من الوضوح كوضوحها؟

3- ولدى شيء من التحليل نكتشف ان التجربة ذاتها تعتمد على مجموعة أحكام عقلية، كالحكم بإستحالة التناقض والصدفة. ولو تصورنا العلم بدونها تبخرت معلوماتنا في لحظة واحدة.

4- نحن نؤمن بحقائق غير مجربة ونعلم ان مصدر إيماننا ليست هي التجربة. ولا نؤمن بحقائق مجربة لأنها تخالف حكم عقولنا. فمثلا نرى أجنحة المروحة متلاصقة، ولا نؤمن بذلك. ولا نرى دوران البروتن في الذرة، بيد أننا نؤمن بها إيماننا بضوء الشمس.

وتتناقض الماركسية مع نفسها في تفسير حقيقة المعرفة فتقول ـ على لسان ماوتسي تونغ : (الخطوة الأولى في عملية اكتساب المعرفة هي الإتصال بالمحيط الخارجي.. الخطوة الثانية هي جمع المعلومات التي نحصلها من المعلومات الحسية وتنسيقها وترتيبها- مرحلة المفاهيم والأحكام والإستنتاجات- وبالحصول على معلومات كافية كاملة من الإدراكات الحسية (لا جزئية ولا ناقصة) ومطابقة هذه المعلومات للوضع الحقيقي (لا مفاهيم خاطئة) عند هذا فقط يصبح في المستطاع ان نصوغ على أساس هذه المعلومات مفهوما ومنطقا صحيحين).

وتنطوي هذه النظرية على الاعتراف بدور العقل الذي يقوم بتنسيق المعلومات وترتيبها. إذ من الواضح انه لولا وجود نور يكشف عن طبيعة المعلومات وموضعها من جدول الأفكار كيف يمكن للنفس ان تقوم بعملية التنسيق والترتيب. فلو إفترضنا عاملا لا يعرف شيئا عن الحساب هل يمكنه تنسيق معلومات وزارة الدفاع أو المخابرات المعقدة؟ ونحن نجد ان التنسيق يستنزف جهدا عظيما منا، وفي خلاله نستخدم مئات الأحكام العقلية، فكيف ننكر فضلها في توجيه معارفنا؟

هكذا اعترفت الماركسية من حيث لا تشعر بدور العقل، ولكنها أنكرته في مواضع أخرى من فلسفتها، وهذا هو التناقض.

وقد أكدت الماركسية هنا ما تبنته من تفاعل الإحساس والتنسيق، والعمل والعلم. ونحن لا ننكر ذلك، بل ان الإسلام أول من بشر بالتأثير الكبير الذي يخلفه العمل على الفكر، والإحساس في العقل. ان العلم ضوء في القلب، ينمو بإستخدامه كما تنمو كل أعضاء الإنسان بتربيتها وإستعمالها. والعقل نور في النفس يزداد بطاعته كما تزداد الفضيلة أو الرذيلة بممارستها.. وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه و آله: (إن العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلاّ إرتحل عنه[1]) !

1 - بحار الانوار ،ج2 ،ص33 ،ح29 .

آراء في قيمة المعرفة

العقل حيث يكشـــف شـــيئا، لا يتردد فيه ولا يقبل أي نوع من التشكيك حوله لأنه يراه واضحا مميزا مشهودا.

ومن هنا لا يصـــدر العقل حكما الا إذا كان موثوقا به 100 % ، وهناك يصح الإطمئنان به كاملا، ويحصل القلب على السكينة. والعلم بعض من العقل وهو الشـهود المباشـر، والكشـف الواضـح للأشـــياء. ولأنه كذلك فإنه يقيم ذاته، ويعطي للنفس الســـكينة والإطمئنان وبصـورة لا تقبل الشـك. ونحن إذا أردنا ان نقيم العلم فهل نقيم بغير العلم ام بالعلم ذاته؟ والعلم إذا تشـــككت فيه لا يقيم نفسه، والجهل - بالطبع- لا يقيم العلم.

عندما بحثنا عن المعرفة في منهج القرآن، بينا بأن العقل نور هاد يكتشف ذاته بذاته، والعلم ـ لأنه وليد العقل ـ فإنه يقيم بالعقل، والتقييم بالنســـبة إليه خطأ، لأنه لا يكون الا به ولكن الإنســـان أعرض بوجهه عن عقله، وحاول إعطاء قيمة للمعرفة بعيدا عنه.

ولتقييم المعرفة تاريخ طويل؛ ففي اليونان إجتاحت الفكر موجة عارمة من الســفسـطة في القرن الخامس الميلادي، كان مبدعوها ومغذوها طائفة من السياسيين المحترفين، جمعوا كل من فشل في

حياته الشـــخصـــية ليعلموه طريقة الجدل، ويقحموا به في حقل السياسة. وهكذا أصبحت المناقشات اللاعقلانية سيدة الموقف في اليونان.

وتطورت هذه الحالة حتى أدت إلى مبدأ غورغياس الذي ألف كتابا في (عدم الوجود) وحاول البرهنة على عدم وجود شـــيء. وحتى لو إفترض وجود شــيء فإن الإنســان قاصــر عن معرفته، ولو حصل ـ فرضا ـ على معرفته فإنه يستحيل ان يعلمها غيره.

وأخذ الفكر الفلســفي ينهار لولا تحدي ســقراط الذي ضـــحى بحياته في ســـبيل إعادة الناس إلى توازنهم الفكري، ثم أفلاطون تلميذه الذي اتبع سـبيل الحوار لاسـتعادة ثقة الفكر بنفسـه، وأخيرا ارسـطو الذي وضـع اصـول منطقه القائل بوجود مسـبقات عقلية هي الركيزة الأولى لتقييم المعارف البشـرية، وان كانت تنشـأ من الإحســاس بعملية الانتزاع. واتجه بيرون ـــــ وهو احد فلاســفة اليونان ــ اتجه ناحية التوفيق بين انكار الحقيقة واثباتها، فدعا إلى الشـك واتبعه فريق كبير. الا انه قدر لمذهب الشـك ان يختفي عن مســرح الفكر حتى ابتداء القرن الســادس، حين عاد بفعل الثورة الثقافية التي عصفت بمسلمات القرون الوسطى وجعلتها خرافات لا قيمة لها.

ديكارت

ولعب ديكارت دور ارســطو في إعادة الناس إلى أفكارهم وتماشـى معهم في فلسـفته حتى شـكك نفسـه في معلومات قطعية.. وفلســفة ديكارت عقلية تعتمد على وجود أحكام جازمة للنفس

يستطيع الإنسان ان يحكم بها على سائر معلوماته، وتعتمد فلسفته حول قيمة المعرفة على الحقيقة التالية:

ان أية فكرة واضحة ومميزة لدى النفس بحيث لا يمكن التشكيك فيها بأية حجة، فإنها فكرة صحيحة وذات قيمة. ويرى ديكارت: ان قيمة المعرفة، الإيمان الثابت بها. فما وجد فيها هذا الإيمان أثبت لها القيمة. ومثل لها (فكر الإنسان) فإنه لا يزداد مع الشك الا وضوحا. و(ذات الإنسان)، و(الله) سبحانه، و(الحركة)، و(الامتداد)، و(النفس). وتنطوي فلسفة ديكارت على أخطاء منهجية لا يفيدنا انتقادها الآن[1]. الا انه بوجه عام استطاع بها ان يقيم المعرفة بوجود العقل الذي لا يحتاج إلى تقييم، فذاته قيمة. هكذا أراد، أو - لا اقل- هكذا يبدو انه أراد ان يعمل.

جون لوك

وسار لوك في ذات المسيرة التي سار فيها ديكارت، عندما أراد تقييم المعرفة البشرية. وقال: ان المعرفة قد تكون وجدانية، كالعلم بأن الواحد أقل من اثنين. وقد تكون تأملية وهي التي لا تحصل دون الاستعانة بمعلومات وجدانية. وهذان النوعان من المعرفة، ذات قيمة واقعية. أما الإحساس فإنه لا قيمة له في حقل الفلسفة، ذلك لأنه ناشيء من انعكاسات قد لا تتفق مع طبيعة الأشياء، بل يحتمل ان تكون انفعالات ذاتية.

ونظرية لوك هذه لا تتوافق مع منطلقه الفلسفي الذي ينادي بالحسية، والا فما هو الممون للفكر غير الحس؟ وبعد هذه

1 - بحثنا منطق ديكارت مفصلا في كتاب (المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه).

الملاحظة نتمكن من القول بأن المعارف العقلية التي قسمها لوك إلى نوعين: الفطرية والتأملية، وقسمناها نحن إلى نوعين: الأحكام العقلية وما يصدر منها من أفكار؛ ان هذه الأحكام ذات قيمة لا ريب فيها وهي دالة على نفسها، ولكن إذا ميزت عن شوائب الهوى والغضب.

وأما الحس، فإن التعقل سيحكم على نتيجته. فإن كان متأثرا بالذاتية، رفضه والا اطمأن إليه حسب ما سبق في حديثنا عن المعرفة في الرؤية الإسلامية.

ولذلك فنحن متفقون مع لوك في وجود نوع من الذاتية في الإحساس، ولكننا لا نتفق معه في عجزنا عن ايجاد مقياس يجرد الحقيقة المشوبة بالذاتية!

المثالية الحديثة

بعد ان عرفنا قيمة العلم عند المذهب الإسلامي ومذهب ديكارت ولوك، يجدر بنا ان نبحث عن المدارس الفلسفية التي أنكرت هذه القيمة، وهي تتنوع إلى أربعة أقسام:

الأول: المثالية، التي انكرت وجود واقع خارج الشعور. وكان إنكارها معتمدا على انكار أية قيمة للمعرفة التي تثبت وجود هذا الواقع.

الثاني: مذهب الشك، الذي أنكر ان تكون المعرفة مضمونة الخطأ، ولم ينكر وجود واقع خارج الشعور الا انه لم يستطع إثباته أيضا.

الثالث: المذاهب النسـبية، التي آمنت بصـحة المعرفة، ولكن بصـورة جزئية. فليسـت الحقيقة كما ندركها، ولكن ما ندرك لا يعدو كليا جوهر الحقيقة.

الرابع: النسـبية التطورية، التي لم تنكر قيمة المعرفة، ولكن أنكرت ثبوت المعرفة على حالة واحدة، وقالت: بأنها تتكامل شيئا فشيئا..

والمثالية التي تناولها في البدء بالدراسـة هي الأخرى ذات أنواع: المثـاليـة الفلسـفيـة، والمثـاليـة الفيزيـائيـة، والمثـاليـة الفسيولوجية.

ألف : المثالية الفلسفية

ان هذه المثالية اسـتندت على قواعد فلسـفية تتلخص في ان الوجود لا يعني سوى التصور، وان يوجد شيء عبارة أخرى عن ان يدرَك أو ان يدرِك.

وبطل هذه المثالية: باركلي، الذي ادعى انه لا ينكر العالم، ولا أي حقيقة موضـوعية فيه، الا ان جوهر فلسـفته هو الكشـف عن حقيقة الكون.. الناس يزعمون ان حقيقة الأشـياء هي الوجودات المسـتقلة عنا، القائمة بذاتها. ولكن هذا خطأ إذ ان حقيقتها لا تعدو ان تكون مجموعة تصورات تتفاعل داخل شعور كل منا. وكل ما يقول الناس عن العلم والصناعة والتاريخ والاكتشافات والنشاطات المادية حقيقة لا ريب فيها، ولكن نسـأل عن معنى الحقيقة؟ انهم يحسبون ان معناها الوجود المادي الكثيف، ولكني أقول ان معناها الوجود الذهني اللطيف.

ومن هنا، فلم يكن يجدي باركلي حجج الماركسـية التي زعمت ان تكثيف كلمات علمية وتسطيرها وتكديسـها على بعضـها، تكفي للقضـاء على أية نظرية تريد تحطيمها، فقامت بسـرد اكتشـافات العلم وحوادث التاريخ في محاولة لدحض المثالية، ولكنها غفلت عن ان المسـألة أعمق مما تتصـورها. ان المسـألة انما هي في وجود أي واقع خارج المادة. باركلي يقول: كل ذلك صـحيح، ولكنه لا يعني وجود واقع خارج الشـعور، بل يدعم القول بأنها كلها تصورات شعورية محضة.

باركلي يرفض الاعتراف بشـخص ماركس وهيجل، بل يقول قد يكونان مجرد شـبحين في تصـوري، فكيف أؤمن بأفكارهما؟ وحتى إذا آمن بهما فإنه لا يؤمن بما يريانه ويرويانه من وقائع الوجود الخارجي الا بعد تفسير الوجود بالشعور.

باركلي يشكك

وقد أخذ باركلي يشكك نفسه بالواقع الخارجي عن طريق وجود تناقض في الإحساس أو في المعلومات. فقال:

ان كل ما يدركه البشر يرتكز على الحس، وإذا اختبرنا الحس وجدناه مليئا بالمتناقضـات. فالبصـر يرى الشـيء القريب كبيرا، وإذا ابتعد عنه حسبه صـغيرا. والأُذن تسمع الصـوت ضـعيفا إذا كان بعيدا عنها، وإذا اقترب اليها سمعته عاليا ـ أو بالأحرى اعتقد انه يسمعه عاليا ـ وهكذا اليد تلمس الشيء الواحد حارا مرة وباردا أخرى. فمثلا؛ ان أخرجت يديك عن مائين ـــــ بارد وحار ـ وأغمسـتهما في ماء دافئ شـعرت كل واحدة بعكس ما كانت فيه، والماء واحد.

فإذا كان الإحساس يتناقض فكيف نطمئن إليه؟

ثم يتابع استدلاله قائلا:

ثم لدى تحليل الإحساس نجده ليس سوى التصور، والتصور لا يعدو ان يكون فكرة تعيش داخل الشـــعور، ولكن لدى التعمق نجد ان هذه الفكرة قد لا تكون وليدة واقع موضـــوعي. بل وليدة هاجســة نفســية أو قوة علوية تبعثها في نفوســنا.. ألســتم أيها الواقعيون تعترفون بوجود أفكار لا واقع لها. فلماذا لا تجعلون كل الأفكار بعيدة عن الواقع؟

وأضاف يقول:

ولندع التصـورات الســاذجة، لندرس المعارف البشـرية، هل هي ذات قيمة بعد التناقض الذي نجده بينها؟ فهي لا تقوم الا لكي تنهار. فكم من قضية كانت من المسلمات، أصبحت من الخرافات. وكم من فكرة أجمع عليها المفكرون، ولم تمض عليها فترة حتى اصبحت مهجورة.

فالواقعيون لا يتمكنون من ادعاء الصـــحة في أي جزء من معلوماتهم ما دامت سائر الاجزاء قد تبخرت مع حرارة الزمن!

هكذا استدل باركلي.. وتابعه الفريق الذي يدعى بأنصار الشك الحديث الذي قاده (دافيد هيوم)، وكونوا فلســفة لا أدرية. قالوا ما بأيدينا من وسائل العلم لا تكفي للتثبت عن الحقيقة، فالأولى الشك فيها. ولكنه لم يزد على أدلة باركلي شــيئا. فجوهر أدلته التناقض البادي بين المعارف والأحاسيس على غرار ما استعرضناه من حجج باركلي.

نقد النظرية

والنظرية تنطوي على التباسات عديدة:

فأولا؛ إن معرفة أخطاء الحس وتناقضـــاته بســـيطة لمن أوتي نور العقل. وما دمنا آمنا بدور العقل الذي لا يخضــع للحس وانما بالعكس يخضــع الحس له، فإن بمقدورنا كشـف تناقضــات الحس ببســـاطة متناهية. ولقد ســـبق أن بَيّنا كيف ينقد العقل مدركات الحس. فالعقل ـ كما قلنا آنفا ـ نور يكشف الواقع الخارجي ويجعل النفس تطل عليه وتشــاهده مباشــرة. وليس العلم تصــورا تنطوي عليه النفس ـ كما زعم ارسطو ـ حتى يزعم باركلي: ان ليس لدينا ضمان كاف لتطابق الصورة مع الواقع الخارجي.

إذاً فإنتقادات باركلي وتشــكيكاته مركزة ضــد نظرية ارســطو التقليدية التي زعمت ان المعرفة ليســت ســوى صــور في النفس منعكسة عن الأشياء فأنكرها، وقال: من يقول بوجود حقائق وراء الصـور؟ أما حسـب تذكرة الإسـلام لواقع المعرفة التي كشـفت لنا ســابقا من أنها نور كاشــف للواقع مباشــرة، فإن انتقادات باركلي تذهب هباء. وقد نوه باركلي ذاته بهذا الأمر حيث يظهر من أقواله انه لو كانت المعرفة شـهودا للواقع مباشـرة كانت صـحيحة ولكنها ليست كذلك.

كذلك حجة باركلي الثالثة المرتكزة على ان المعارف البشــرية قـد تخطئ، فـإنهـا نوع من الخلط بين المعرفـة والجهـل، لأن المعارف لن تخطئ لأنها مشــاهدات مباشــرة للواقع. وهناك فرق كبير بين تبين خطـأ عقيـدة، وبين تبين خطـأ علم. العلم لا يخطئ، بينما تخطئ العقيدة إذ ان الثانية تخضـــع للشـــهوات والتطورات المادية بيد ان العلم النابع من العقل ليس كذلك.

ويكفينا حجة: تلك المجموعة الضـــخمة من المعلومات التي لا يتردد أحد فيها ولا يحتمل انها قد تخطئ في يوم ما إطلاقا. مثلا: الإيمـان بوجود حقيقـة الكون والســـنن العـامـة فيـه، والقوانين الرياضــية التي تحكمه، لا يمكن ولا نحتمل ان تخطئ في يوم من الأيام. وباركلي لم يزد على الإدعاء بوجود الأخطاء في الحس أو في المعلومات. وهذا لا يكون دليلا على عدم وجود واقع خارج الشـعور، انما هو دليل على مذهب الشـك، الذي يقول انه لا يمكن ان نعترف بكل مفاهيمنا الواردة علينا من قبل الحس. ونحن لا ننكر وجوب التشـكيك في طائفة من الأفكار الا اننا حتى في حالة التشكيك هذه نستعين بعقولنا، كما فعل باركلي نفسه. فكيف نشكك أنفسنا دون القول بإستحالة التناقض التي جعلها باركلي نفسه دليلا على بطلان الإحسـاس مع انه لو لم نسـلم سـلفا بهذا المبدأ لم يكن لنا ان نســـتدل بأي دليل أبدا. إذ يمكن لأي معترض ان يفحمنا بالقول: بأنه ما هو المانع من تناقض الإحســـاس وصـــحة هذا التناقض، وبالتالي صحة المعلومات المنبثقة عنها؟

ب - المثالية الفيزيائية

ما هي طبيعة المادة؟ قال علم الميكانيك التقليدي انها مجموعة جزئيات أصـــلية لا تتجزأ. وكان يبدو ان ذلك أمر لا مرد منه، وواقع لا ريب فيه. ولهذا قابل التلاميذ اســـتاذهم الفيزيائي في إحدى جامعات المانيا الذي نادى بإمكانية تفجير الذرة (اوالجزء الذي لا يتجزأ)، قابلوه بالإنكار الشـديد حتى لم يعد يتابع كشـوفاته الذرية، ولو فعل لكان زمن ظهورها العشرينات.

وحين تقدم العلم وفجرت الذرة تفجيرا، تفجرت في الوقت ذاته ثقة الإنسان بعلمه الميكانيكي وذهبت مسلماته هباء.

فأصـابت الأزمة النفسـية بعض العلماء، وقالوا: ما دامت المادة لم تكن حجرا ثابتا لبناء صـرح العلم عليه بينما كنا نعتقد نحن انها كذلك فمن يضــمن لنا ان تثبت الذرة مكانها. أليس من الممكن ان يـأتي العلم ليقول لنـا يومـا ان الـذرة أيضـــا وهم تقليـدي؟ وهكذا اندفعوا إلى المثالية. فقال (اوزوالد): ان العصـــا التي تضـــرب (سكايان) لا تنهض على وجود العالم الخارجي. هذه العصا ليست موجودة، وليس موجودا الا طاقاتها الحركية.

نقد النظرية

اننا حين نعلم شــيئا، فلابد ان نســتند على مجموعة كبيرة من الأحكام العقلية. فالعلم بنواة الذرة ـــ مثلا ـــ مبني على صـحة التجربة وهي مســتندة على حكم العقل. فإذا كانت عملية تفجير الذرة أمرا واقعيا، فلا داعي إلى القول بأنه لا واقع أمامنا؟

والحقيقـة ان المثـاليـة الفيزيـائيـة لا تنكر وجود العلم ولا وجود المـادة التي يكشـــف عنها العلم، وانما تنكر فقط ان تكون المـادة مجموعة جزئيات أصـلية. بل تقول ان التصـور الجامد عن المادة غير صـحيح. بل انها حركة وطاقة في جوهرها. وهذه حجة قوية على وجود شـيء وراء الشعور، وهو ما أنكرته المثالية الفلسـفية. فاللفظ فقط قاسـم مشـترك بين المثالية الفلسـفية والمثالية الفيزيائية والا فهما متباعدتان جدا.

ج - المثالية الفيزيولوجية

وتتلخص هذه النظرية في ان الإحساس، وهو المصدر الوحيد للمعرفة لدى هذه الدراسة، عملية فيزيولوجية ترتبط بالأعصاب وبناء المخ وشروط الزمان والمكان. ولقد اكتشف العلم، ان حقيقة الكون التي تحس بالأجهزة العلمية تختلف جدا عما نحس به بدونها. ولذلك فإنهم قالوا: ان الإحساس ليس أداة أمينة لنقل المؤثرات الخارجية، وان الحقائق تقوم بالنسبة إليها بدور المنبه فقط.

وهذه المثالية لها واجهتان: الأولى علمية، والثانية فلسفية. فالواجهة العلمية هي ان الأحاسيس لا تنقل إلينا كل الحقائق المرتبطة بها، فلذلك يحتاج البشر في سبيل الحصول على معلومات أدق عن الكون، ان يخترع أجهزة جديدة لكشف أكبر قدر ممكن من الحقائق. وهذه الواجهة تزيد من ثقة الإنسان بعقله.

والواجهة الفلسفية تهدف عدم الثقة بالمحسوسات بحجة انها تتعرض لمؤثرات ذاتية.

أما الواجهة الأولى فإنها صحيحة؛ أي ان العلم يكشف لنا عن حقائق في محسوساتنا لا تبلغها حواسنا الإعتيادية.. الا انها كما نعلم تفيدنا ثقة بمعارفنا وبما تكشفه لنا من حقائق.

اما الواجهة الثانية (أي الفلسفية) فإنها تقوم على أساس خاطئ هو ان الإحساس هو المصدر الوحيد لمعارفنا، أو هو المصدر الأول والأهم. أما لو قلنا بأن العقل هو المصدر الوحيد أو الأهم الذي يزودنا بالمعارف الصحيحة التي لا ريب فيها، فإن هذه المثالية ستفقد قاعدتها. وقد قلنا ــ عندما تحدثنا عن دور العقل في نقد المعلومات الواردة عن طريق الإحساس ــ قلنا ان المقارنة بين

الأحاســـيس المختلفة للشـــخص نفســـه في أوقات متفاوتة أو بين أشخاص متعددين ذوي اتجاهات متعارضة.. ان هذه المقارنة من جهة، ومن جهة ثانية المقارنة بين المحسـوسـات والأحكام العقلية القاطعة، ســـتكون المقياس الذي نقيم به الأحاســـيس ونعرف الصحيحة منها عن الباطلة.

كانت والنسبية الذاتية

انطلق (كانت) في مســـيرته الجديدة من قاعدة (القلب والنظر إلى الحقيقة) قال: حينما رأيت مشاكل عديدة تمنع عن بلوغ حقيقة المعرفة، فعلت ما فعل غاليلو بالنســـبة إلى الهيئة؛ فبدلا من ان يقول الأرض مركز العالم والشمس تدور حولها، قال ان الشمس هي المركز والأرض تدور حولها، فنجح وحلت مشـــاكله العلمية. وكذلك نجحت حين قلت: الناس حتى اللحظة كانوا يحســـبون ان الحقائق هي المركز والفكر يدور حولها. ولكن بدأت أقول: الفكر هو المركز والحقائق تدور حوله، وأبسط الحقائق هو الإحساس.. فما يزعمه الناس حول الإحســـاس؟ انه انعكاس الحقيقة على الذهن، ولكن أقول بل هو صبغة الذهن للحقائق. انا أقول: صحيح ان هناك حقائق نحس بها، ولكن لم يكن من الممكن الإحساس بها الا في حدود الزمان والمكان. ولدى التعمق أكثر من هذا، نرى ان الزمان لا يعني سوى نسبة الإنسان إلى الأحداث. وأما المكان فهو نســبة الإنســان (ونعني به هنا الفكر) إلى الأشــياء. فاليوم يعني: تقارن إحســاســي مع دورة الشمس، والمكان القريب يعني: قربي إليه. ونستطيع تشبيه الزمان والمكان بظرف بلور نضع فيه الماء فيصطبغ الماء بلون الظرف فنعتقد نحن ان اللون من الماء، ولكن الظرف فقط واهب اللون. وكذلك نحن نزعم الحقيقة في الزمان

والمكـان، والواقع هو اننـا نحن نعيش عبر المحـدوديـة الزمـانيـة والمكانية، لا أن الحقائق هي التي تعيش.

من هنـا كـان منطق (كـانـت) مزج الحقيقـة البســيطـة وهي الإحســـاس (بصـــبغة ذاتية) هي صـــبغة الزمان والمكان. فقال: نستنتج من هذا ان الحقيقة كما هي في واقعها –أو بتعبير آخر كما هي في ذاتهـا - لا يمكن ان تعرف لأننـا نملـك الا أداة محـدودة للمعرفة وهي أداة الذهن التي تعيش ضمن وقت ومحل محدودين. فالحقيقة انما تعرف بنســـبة معينة وهكذا كانت النظرية نســـبية وتفرق بين (الشـيء لذاته) و(الشـيء لذاتنا). فالشـيء لذاته أو كما هو في ذاته يختلف عن (الشيء لذاتنا) أو الشيء كما نتصوره. ثم اسـترسـل قائلا: ولذلك فإن بحوث الميتافيزيقيا (الغيب) بعيدة عن إحاطـة الإنســـان لأنها مجردة عن الزمان والمكان.. اما بحوث الرياضـيات فإنها أيضـا لا تعكس الحقائق ولكنها صـحيحة حسـب أفكارنا إذ انها تكرير لحقيقتي الزمان والمكان. فالحساب مجموعة أعداد، والعدد ليس الا انعكاس الذهن على شـاشـة الأشـياء. فأنا، يعني عندي واحد. وأتصور مثلين لـــ(أنا) فأكوّن فكرة(2) وهكذا. وكذلك الهندسة تحديد للأماكن القريبة والبعيدة ونوع قربها وبعدها عني. واستخلص (كانت) من منهجه ان العلوم على أقسام:

1- الطبيعيات؛ وهي التي تحتوي على مادة هي الإحســاســات وصورة هي الزمان والمكان.

2- الرياضيات؛ وهي التي تحتوي على صورة ـــ وهي الزمان والمكان ـ ولكن بدون مادة.

3- الإلهيات (الميتافيزيقيا)؛ وهي التي لا تحتوي موضـوعاتها على صورة ولا على مادة.

ويقول ان معـارفنـا عن الطبيعيـات مزيجـة من الـذاتيـة والموضـوعية وهي لذلك لا تمثل الا بعض الحقيقة. ومعارفنا عن الرياضـيات ذاتية بحتة ورغم اننا نعتقد بها لانها جزء من تركيب أذهاننا فإنها لا تعكس حقيقة وراءها... وأما معارفنا عن الغيب (ميتافيزيقيا) فإنها لا ذاتية ولا موضوعية.

نقد النسبية الذاتية

1- لكي نكون واقعيين ينبغي ان نتسـاءل ما هي الوسـيلة التي عرف بها كانت، ان الزمان والمكان عرضـان ذاتيان؟ أهي المعرفة أم هي الجهالة؟ إنَّ (كانت) لا يتردد عن القول بأنه اكتشـف بصـورة جازمة طبيعة الزمان والمكان. وهذا يعني انه عالم بحقيقة الزمان والمكان، وهو يعني بدوره ان لـ(كانت) كإنسان نورا كاشفا يستطيع ان يسلطه على نفسه ويكشف فيها حقيقة الزمان والمكان. ونحن إذ عرفنا هذه الحقيقة وهي: وجود نور في النفس يكشف الحقائق ورأينا أنفسنا نملك أشد القناعات بنتائج هذا النور نعلم بأن البشر قادر على كشف الأشياء، ومقدار ما يكتشف منها يكون واضحا أمامه وذا قيمة تامة لديه.

وهذا ذات ما اسـتهدفناه بالمذهب العقلي، وهو ينطوي على رد النسبية الذاتية. إذ ان الذات (ونعني به هنا ما بالنفس من عوارض الجهل والهوى) خاضع لنور العقل الموجود فيه ومنكشف به. وإذاً فهو يفتضـح لدى ادخال جهالات باطلة ضـمن المعلومات الصحيحة.

2- والزمان والمكان منكشفان بالعلم، ذلك ان التعاقب بين حدثين (وهو مفهوم الزمان عند كانت)، أو بين شيئين (وهو مفهوم المكان عند كانت)، ان هذا التعاقب لا يمكن الاحساس به، فكيف اعتقدنا به؟ يقول(كانت) لانه يستحيل العلم بشيء لا زمان له. وهذا خطأ، فالمستحيل مثلا نعلم به بعيدا عن قالبي الزمان والمكان وكذلك الخير والشر والقبح والحسن والفضيلة والرذيلة.

ومن هنا نعلم ان موضوعات المعارف الغيبية (ميتافيزيقيا) معلومات لا ريب فيها بالرغم من أنها لا تخضع لظرفي الزمان والمكان لأنها أولا: معلومات قناعتنا بها قد تكون أشد من قناعتنا بنتائج الحس. فكيف نؤمن بهذه ونكفر بتلك؟ ولأنها ثانيا: تضاهي تلك المعارف التي نؤمن بها وليست خاضعة لظرفي الزمان والمكان مثل المعلومات العقلية التي آمن بها (كانت) أيضا، كإستحالة التناقض.. ولأنها ثالثا وأخيرا: هي النتيجة الطبيعية للإيمان برابطة العلة والمعلول التي آمن بها (كانت) نفسه.

والواقع ان (كانت) أبعد عن منطقه الوضعي الحقائق الغيبية لأنها لا تخضع لمفهومي (الزمان) و(المكان). وهو لم يأت بدليل مقنع في ان يتخذ من علمنا اليقين بالغيبيات، حجة على ان الزمان والمكان لا يعدوان حقيقتين منكشفتين بالعقل، وليسا أمرين ذاتيين - كما زعم -.

وبعد فنحن لا ننكر ان هناك مجموعة من الحقائق لا يمكننا الإحاطة بها علما. فحقيقة الوجود –مثلا- حقيقة بعيدة عن الزمان والمكان ولكننا بعيدين عن معرفتها، لأننا نعيش في إطار الزمان والمكان ومن المستصعب عمليا التجرد عنهما للاطلال على

جوهر الأشـــياء.ولكن هذا لا يزيدنا الا ثقة بعقولنا التي هدتنا إلى ان هناك حقائق نجهلها وإلا فكيف عرفنا ان هناك حقائق وراء مشاعرنا؟!

النسبية الفردية

كان (كانت) يذهب إلى النســبية الذاتية التي تهدف إلى اثبات وجود إضـــافة من ذات البشـــر على المعلومات التي تعتبر عنده إضافة المحسوسات إلى ما بالذات من قالبي الزمان والمكان.

وكانت تلك النســـبية ترى: ان الذات البشـــرية واحدة في كل إنسان، وان الناس سواسية في تفهم الحقائق.

وكانت تعترف أيضا بصحة المعارف الرياضية لأنها نابعة من أصل ثابت عند الناس جميعا وهو الزمان والمكان.

الا انها تطورت لدى النسبية الفردية، فقالت:

1- ما دامت الذات البشـــرية تخلق أثرا غير واقعي على المعارف كقالبي الزمان والمكان، ولا يملك الإنســان نورا يكشـف به زيف هذه الزيادة وبُعدها عن الحقيقة، ما دام الأمر كذلك فإن القول بأن الناس سواسية في الإضافات قول باطل، لأن لكل إنسان شروطا خاصة بالإدراك ليست للفرد الآخر. ومن هنا فله إضافات ذاتية مخصوصة به، فكل بشر يدرك على شاكلته. ولهذا قالت هذه النسبية: لكل شخص حقيقة تخصه.

2- وعلى هذا فليس من الصحيح الإيمان بصحة الرياضيات إذ انها غير ثابتة هي الأخرى. بل قد تكون 2×2=4 عندي، ولكن عند غيري يســاوي خمســة، لماذا؟ لأنه لا يملك أحد مقياســا ثابتا

للمعرفة إذ يحتمل فســاد معلوماته بإقحام التصــورات النابعة عن شروطه الخاصة للإدراك.

هذه هي النسبية الفردية، وقد فضلنا ان نسميها بالفردية مع ان المشــهور تسـميتها بالذاتية إنطلاقا من قاعدتها: ان لكل فرد نوعا خاصا من الإدراك.

وهذه النسبية ليست الا البنت الشرعية لنسبية (كانت)، بل هي وليدة الكفر بنور العقل الكاشـــف لغياهب الذات، والناقد للحس بطرقه الخاصة.

وقد ســبق القول منا في الفصـــل الأول، كيف ان العقل يحكم أحكاما ثابتة لا ريب فيها ولا تتفاوت بين شـــخص وآخر، وقلنا كيف ان الذات منكشـــفة هي الأخرى وما تحس به لهذا النور المبين.

وبناء على تلك الحقائق التي ذكرنا بها في ذلك الفصـــل يبدو التشكيك في المعرفة البشرية ـــ غير المتأثرة بالهوى والغضب والتسرع ـ تافها. إذ ان الإدراك العلمي لا يخضع لشروط شخصية، وبالتالي فهو يثبت صامدا أمام مؤثرات المادة.

والواقع ان جذر الخطأ في جميع مذاهب الشك والنسبية كامن في أمر واحد هو الخلط بين دور العقل ودور الجهل اللـذين يتنازعان النفس البشرية.. الجهل (أي الذاتية والمصلحية والغفلة وما إلى ذلك) يضــغط على الإنســان لكي يعتقد بفكرة ولكن العقل يحكم على زيفها أو صـــحتها ثم يكون للإنســـان كامل الحرية في اختيار أي الطرفين.. وحين يصفو العقل (باختيار الإنسان له) فإنه

يكشـف عن الواقع. واذا كشـف فإن أي شـيئ لا يتمكن من تشـكيك صاحبه في حكمه الذي يعتبره هو الحق.

النسبية التطورية

وتابعت النســبية مســيرتها، منطلقة من قاعدة واحدة هي الغفلة عن نور العقل، الذي زودت النفس البشرية به حتى جاءت النسبية التطورية النهاية الحتمية لها. وذلك لأنه إذا كانت المادة حقيقة الإحســاس، والإحســاس حقيقة المعرفة أو أهم مصــادرها، واذا كانت المادة في حالة تطور دائم، فلماذا لا تكون المعرفة هي أيضا متطورة ولا تمثل الا بعض واجهات الحقيقة؟

ولكي نعرف حقيقة النســبية التطورية يجب ان نلقي بعض الأضــواء على ديالكتيك الفكر التي هي جزء من المادية الديالكتيكية.

ان للمادية الديالكتيكية جانبا إيجابيا وآخر ســلبيا. في الجانب الأول تحاول الديالكتيكية اثبات معرفة حقة للإنسان بإزاء المثالية والتشــكيكية.. وتحاول في الجانب الثاني، اثبات صــفة التطور للمعرفة.

والحقيقة ان المحاولتين متباعدتان. يظهر ذلك ببيان كلا الجانبين وما قد يتعرضان له من انتقاد.

1- الجانب الإيجابي

تقيم المادية الديالكتيكية عدة أدلة على تطابق المعرفة مع الواقع الخارجي. وينبغي ان نتذكر في البدء ان طبيعة الأدلة علمية وغير مرتبطة بمسألتنا الفلسفية.. ذلك لأن النظرية المثالية والتشكيكية التي تحاول النسبية التطورية تفنيدها، نظرية فلسفية تستند إلى التشكيك في كل علم، بل في كل شيء وراء عالم المادة. وان أية حقيقة علمية لا تفيدها لأنها لا تشك في تلك الحقيقة العلمية التي احتج بها فقط، بل وحتى في وجود قائلها، ويكون أشبه بإستدلال النائم ــ وهو يحلم ــ بصحة علمه على انه يسمع ويرى ويتحرك في حين لا يعترف الواعي بسماعه ورؤيته وتحركه. بعد هذه الملاحظة دعنا نستعرض أدلة الديالكتيك:

الدليل الأول:

ان الفكرة ليست الا نتاجا أعلى للمادة، حيث انها تتحول في عملية فيزيائية من الكتلة إلى الطاقة، وتتحول بعد ذلك من الطاقة إلى الأعصاب في عملية فيزيولوجية، وتتحول بعدئذ إلى عملية سيكلوجية.

فمسيرة الفكرة كالتالية:

المادة ⟸ الإحساس ⟸ الإحساس ⟸ المعرفة..

وبتعبير آخر:

المادة ⟸ الفيزياء ⟸ الفيزلوجي ⟸ السيكلوجي.

فإذا كانت المادة لونا من ألوان الحركة، فإن ذات الحركة بصفاتها تحولت إلى حركة نفسية عبر حركة في الأعصاب.

فلذلك لا نستطيع ان نقول، ان الإحساس يختلف عن الواقع الموضوعي.

ونحن واقعيون ونعترف بتوافق الإحساس والواقع الموضوعي أولا أقل إمكان هذا التوافق. ولكننا مع التجرد عن هذه الصفة، وافتراض كوننا مثالين جدلاً لا نستطيع ان نقتنع بهذا الدليل، لماذا؟ ينبغي توضيح نقطتين لمعرفة السبب الذي حملنا على رفض هذا الدليل!

بين التحويل والتنبيه

لابد من الفرق بين مفهومي التحول والتنبه. ففي الميكانيك: البنزين يتحول إلى طاقة محركة، أما الضغط الذي يولد الانفجار في عبوات الطاقة فإنه ليس الا منبها؛ أي ليس هو الذي يحرك السيارة، وانما هو الذي ينبه الطاقة، ويشعلها.. ومثل آخر عن الكهرباء: الطاقة تتكون في مركز توليد الطاقة، وتسير عبر الاسلاك حتى تبلغ قريب المصباح حيث ينقطع السير في الزر المختص، ويأتي الإنسان ليضغط على (الزر) فيشتعل المصباح.. طاقة الإنسان تحولت فعلا إلى الزر ولكنها ليست هي التي أعطت المصباح الضياء، بل كانت بالنسبة إليها منبها فقط.

فتحويل الطاقة يعني إنتهاء الطاقة من شيء ووجودها في شيء آخر لم تكن فيها أية طاقة. أما التنبيه فإن الطاقة لا تتحول من الشيء الأول إلى الشيء الثاني، بل ان الشيء الثاني يملك طاقة من ذاتها أو من مكان آخر، ولكنها تنتظر المنبه.

وهنا نستطيع التفرقة بين عملية الإحساس وعملية الهضم. فالأولى منبهة والثانية محولة. الإحساس لا يحول الطاقة من

الشــــيء الخارجي بكاملها إلى الأعصــــاب، بل حين أحس بالنور يبقى النور في مكانه، ولا يتحول كله إلى الأعصاب. والأعصاب هي بذاتها حية فيها الحركة والطاقة تماما كما هو موجود في أسلاك الكهرباء، والإثارة الخارجية لا تعدو ان تكون محركة لتلك الطاقة الموجودة.

ولمزيد من التوضيح نقارن المنبهات بالإرادة. فنحن جميعا نعلم بوجود خطين في الأعصــــاب؛ خط الاســـتقبال، وخط التوجيه. فالمنبهات بالنســبة إلى خط الاســتقبال تؤثر على الأعصــــاب حتى تحمل الإحســـاس إلى الدماغ. أما خط التوجيه فإنه يرســـل بســـببه الأوامر من الدماغ إلى الأعضــاء. فالإرادة تبعث في الأعصــاب ما تبعثه المؤثرات الخارجية فيها لكن بإتجاه معاكس.. وبما ان عملية التوجيه ليســـت بتحويل الطاقة إلى الأعصــــاب إذ ان الإرادة باقية محلها، فإن عكســـه وهو خط الاســتقبال لا يحول الطاقة من الخارج إلى الأعصــــاب. وهي بالتالي تشـــبه المنبهات الآلية الموجودة في الطائرات المزودة بالرادار، حيث انها هي التي تنبه بالمؤثرات وليســـت عملية تحويل الطاقة تجري فيه كما تجري في محركاتها ونفاثاتها.

وهذا لا يجعلنا ننكر أي تحويل. فبالدقة ان هناك جزءاً قليلا من الطاقة تتحول من المنبهات إلى الأعصــــاب (كالجزء القليل من الأشـــعة التي تنعكس على شـــبكة العين)، ولكن لا يعني هذا (التحويل المطلق) كما لا يعني تفسير الإحساس بعملية التحويل.

وقد خلطت المادية الديالكتيكية بين التحويل والتنبيه هذه مفارقة.

و مفارقة اخرى: لم تفسـر لنا المادية هنا كيف تتم عملية تحول الطاقة من فيزيولوجيا إلى سـيكلوجيا؛ أي كيف يعرف الإنســان؟ وهذا هو السؤال الأهم في مشكلة المعرفة، والا فتحويل الطاقة من الخارج إلى الأعصاب أمر يفهمه الأطفال إذا حدد بالإثارة والتنبيه فقط كما فعلنا آنفا.

وهكذا ســقطت الحجة عن قيمتها في مشــكلة المعرفة وكانت أشبه بالفرار من الإجابة عن شيء إلى الإجابة عن شيء آخر.

وبعد هاتين المفارقتين نقول:

المشـكلة في تقييم المعرفة ومطابقتها للواقع الخارجي تبدأ أولا: -وعند المثاليّن- بالســؤال عن هذه المعلومات (تحويل الطاقة و.. و.. و..) ذاتها فالمثاليون ينكرونها رأســا فما هو الدليل على صحتها؟

ولو افترضنا ــ جدلاً ــ صحة عملية التحويل هذه، فهل في هذا أي دليل على المطابقة بين الفكرة والحقيقة الخارجية.. مع أنهما شيئان حسب اعتراف المادية الديالكتيكية ذاتها، وهل ان الأسلاك تعلم بماهية توليد الطاقة حينما تتحول اليها هذه الطاقة؟

ولنفترض انها تعلم، ولكن العلم ليس مجرد الإحساس البسيط ـ كما يعترف بذلك الديالكتيك ـ فهناك حسب نظريته المفاهيم العامة. فكيف يمكن تفســير تكوّن المفاهيم العامة؟ مع انه يشــبه تكون طاقات كهربائية مضــاعفة في ذات الأســلاك فهل تســمي ذلك تحويل طاقة أيضا؟

الدليل الثاني:

وقال الديالكتيك:

ان الفكر يســـتطيع ان يعرف الطبيعة معرفة تامة، ذلك لأنه يؤلف جزءا منها وهو نتاجها والتعبير الأعلى. فليس الفكر ســوى الطبيعة، تعي ذاتها في ضمير الإنسان. يقول لينين: (ان الكون هو حركة للمادة تخضــع لقوانين، ولما لم تكن معرفتنا الا نتاجا أعلى للطبيعة لا يســعها الا ان تعكس هذه القوانين). ان هذا الدليل ليس الا ترديدا خطابيا لذات الدعوى فهي مصـــادرة حســـب تعبير الفلاســفة. ان المثالية تقول: حســناً، ما معنى التعبير؟ وما معنى الوعي؟ اللون تعبير عن نور الشـــمس، يعني انه يعيه ويفهمه ويشــعر به. الكلمة تعبير عن الواقع الموضــوعي، يعني انها تعيه وتفهمه وتشـــعر به. ثم ماذا يعني وعي الطبيعة لذاتها؟ هل يعني هذا ان هناك تمازجا بين المخ والمادة؟ فلنســأل أيهما أشـد تمازجا المعدة أم الدماغ، بل أيهما أشـــد تمازجا البنزين في محركات الطائرة أم الإثارات في عملية المخ؟ ان التشويش يبدو واضحا في نصـــوص المادية الديالكتيكية التي تبغي اثبات قيمة للمعرفة وهو اكبر دليل على فشـــل أية حجة تريد إثبات أية قيمة للعقل دون التوسـل إلى ذاته والتنور به، لا الإنحراف عنه إلى المادة لتفسـير العقل بما لا يغني عن الحق شيئا.

الدليل الثالث:

وفي النص التالي يحاول الديالكتيك اثبات قيمة تامة للمعرفة عن طريق علم الحياة فيقول:

(ان الفكرة لا تستطيع ان تكون ـــ وهي في مستوى الاحساس ـ نـافعـة بيولوجيـا في حفظ الحيـاة، الا إذا كـانـت تعكس الواقع الموضـوعي. فإذا كان صـحيحا: ان الإحسـاس ليس الا رمزا دون أيما شـــبه بالشـــيء، واذا كان يمكن بالتالي تطابق أشـــياء عديدة

متغايرة أو أشــياء وهمية ومثلها تماما أشـياء واقعية عندئذ يكون التعوّد البيولوجي على البيئة مستحيلا. إذ افترضـنا ان الحواس لا تتيح لنا تعيين اتجاهنا بيقين وسط الأشياء).

ولكن هذا الدليل هو الآخر يسقط منهارا أمام تساؤلات المثالية والنســبية الفيزيولوجية والفردية أو .. أو.. التي تقول: أفليس من الممكن ان يكون الرمز كافيا لتحديد اتجاه البشر في وسط الأشياء، ثم لا يكون كاشـفا عما وراءه من حقيقة موضـوعية. أفليس النبات أيضا يكيف ذاته وسط الحياة بالرموز ولكنه لا يعلم شيئا، أوليست الطبيعة كلها تجري وفق رموز متبادلة، بل أليست الماكنة الحديثة تسير وفق رموز ولكنها لا تعي الحقيقة؟

من هنا نعلم ان المادية الديالكتيكية عاجزة عن اثبات أية قيمة ثابتة للمعرفة. والواقع ان أية نظرية تنحرف عن منهج الحق، وتبتغي السبل الملتوية لا يقدر لها النجاح.

2- الجانب السلبي

تعتقد الديالكتيكية بالنســبية التطورية التي تعني ان الفكر الإنساني لا يستطيع الا معرفة بعض الحقائق، ولكن لا بمعنى ان الحقيقة التي تحس وتدرك لا تمثل الواقع وتمثل الذات الشـــاعرة كما زعمها النســبية الذاتية والنســبية الفردية؛ لا بهذا المعنى، بل بمعنى ان المعرفة ذاتها تنمو وتتكامل كأي شــــيء مادي آخر في الكون. ومن هنا يقول لينين:

(نسـتطيع بإنطلاقنا من المذهب النسـبي البحت تبرير كل نوع من أنواع السفسطة). ويقول كيدروف: (ولكن قد توجد ثمة نزعة ذاتية ليس فقط حينما نعمل على أســاس المنطق الشـكلي بمقولاته

الساكنة الجامدة وإنما أيضا حينما نعمل بواسطة مقولاته المرنة والمتحركة. ففي الحالة الأولى نصل إلى الغيبية وفي الثانية نصل إلى المذهب النسبي والسفسطائية والإنتقائية). يقول كيدروف أيضا: (أما المنطق الديالكتيكي فهو لا يواجه هذا الحكم بأنه شيء مكتمل، بل بوصفه تعبيراً عن فكرة قادرة على ان تنمو وتتحرك، ومهما كانت بساطة حكم ما ومهما بدا عاديا هذا الحكم فهو يحتوي على بذور أو عناصر ديالكتيكية تتحرك وتنمو - داخل نطاقها - المعرفة البشرية كلها).

وتذهب الديالكتيكية في المعرفة بعيدا لتجعل الحقيقة مزيجة دائما من الصحيح والباطل ومن السلب والإيجاب. فلو عرفنا مثلا: وجود ظاهرة حسب الرأي الشكلي، قلنا انها موجودة. ولكن الديالكتيك لا تقول أبدا ان هذا الشيء موجود وكفى. بل تقول انها موجودة في لحظة. فلنستمع إلى مثال كيدروف: (هل الدائرة المربعة موجودة؟ في المنطق الشكلي يقف الإنسان عند حد إجابات بسيطة جدا (نعم) أو (لا)؛ أي عند حد تمييز نهائي بين الحقيقة والخطأ لهذا السبب تواجه الحقيقة بإعتبارها شيئا معطى ساكنا ثابتا نهائيا ومتعارضا تعارضا مطلقا مع الخطأ ولكن المادية الديالكتيكية تقول نعم ولا في لحظة..).

خلاصة النظرية: انها تدور في ثلاث نقاط:

1- ان الحقيقة ذاتها تتطور.

2- ان الحقيقة دائما مشوبة بالباطل.

3- ان تنامي الحقيقة انما هي خاضعة لوجود التناقض الداخلي فيها.

مفارقات في النظرية النسبية

ولكي نتعرف على واقع هذه النظرية يجب ان نمهد لها بعدة نقاط:

1- في أكثر الأوقات تتجه النفس البشـرية إلى جانب واحد فقط من الأشياء وتعتقد انه يمثل كل الجوانب.

وهذا الاعتقاد ينشـأ من اسـتكبار النفس عن الحقيقة وتجبّرها عليها، حيث تدعي علم كل شـيء. وعلى الإنسـان ان يكتشـف في ذاته هذه الصفة الناقصـة ويحاول إزالتها بالإيحاء الدائم إليها. انها لم تبلغ من العلم الا شـيئاً قليلا.. ويوجه الإسـلام الإنسـان إلى هذه الناحية ويقول: [وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً] (الاسراء 85).

وقد يفترض الإنسـان ان هذا الجانب الذي يشـاهده لا يمثل الحقيقة كلها. ولو كان واثقا من انها الحقيقة وثوقا، قد يفترض ذلك لكي يكشـف السلبيات الذاتية التي تمتزج مع الحقيقة في كثير من الأوقات. وقد يكون السبيل إلى ذلك افتراض وجود التناقضات في الحقائق المادية شـريطة ان تفسر كلمة التناقض، بالتقابل. مثل تقابل (البيضـة) و(الفروجة) في محاولة لكشف تطورات المستقبل وحوادث الماضـي إلى جانب الإحاطة بحالات الحاضـر التي تكتنف الحقيقة الواحدة. فمثلا في الفرضـية السـابقة ينبغي لمن شـاهد شكلا مربعا الا يثق مبدئيا بهذه المشـاهدة، بل يغير زاويته، فلعله يكتشـف ان مقامه هو الذي أوحى إليه انه يرى مربعا بينما هو مستطيل.

ولقد كانت نظرية هيجل فيما يتبين بالدراسـة العميقة لا تعدو حوارا مع الذات، لمحاولة كشـف الحقيقة كاملة. أو حسـب تعبير بعض الناقدين العرب عن هذه النظرية انها كانت محاولة لفض

الفكر ذاته إنطلاقا من ان الدراســـة العلمية الناجحة تعتمد على تكثيف الإحتمالات العقلية حول الموضـــوع. فلعل في واحدة منها ما يكشف عن سنة فطرية هامة. هكذا كانت نظرية هيجل.

الا ان ظروفاً سـياسـية سـيئة حالت دون قيام هذا المنطق بدوره الإيجابي وطورته إلى أداة إعلامية ضـــد فئات وأفكار وقيم معينة. وفيما يلي نعرف بعض السبب.

2- ما هو التناقض؟ شـــأن كل الألفاظ يختلف معناه الأدبي المشــتهر عن معناه في مصــطلح المناطقة والفلاســفة الأقدمين. التناقض في الأدب العربي يعني (مطلق المقابلة) فالوجود والعدم متناقضـــان لأنهما متقابلان، وزيد وعمر متناقضـــان لأنهما متقـــابلان في الرأي، ودارنـــا ودار من يقابلنا أيضا متناقضتان ـ هذا في الأدب العربي ـ.

ولكن المنطق والفلسفة يحصران معنى التناقض في التقابل بين الوجود والعدم في لحظة واحدة. وهو ـ بالطبع ـ يختلف كثيرا عن المعنى العام الشائع في الأدب.

وهذا الفرق سـبب اختلافا ليس وراءه الا جهل بمراد الأطراف من اللفظ.. وقد كان نصـــيب الكتب المترجمة كبيرا جدا من هذا الاختلاف ولاســيما ان المترجمين لم يكونوا دائما فلاســـفة حتى يتقيدوا بإصــطلاحات الفلســفة. ومنطق هيجل، شــأنه شــأن أكثر المذاهب الفلســفية كان ذا حظ وافر من أخطاء الترجمة أو أخطاء الخلط بين ترجمة أدبية وأخرى علمية.

وواحد من أبرز الأمثلة على ذلك، مســـرحية القول بإمكانية التناقض. لقد قالوا: بإمكان التناقض ولكنهم انما عنوا به (كل تقابل...).

وقلنا: بإستحالة التناقض وقصدنا ما يكون منه (اجتماع الوجود والعدم) فقط. والبون بعيد، ولكن الاختلاف قائم على أشده.

هيجل ومن ورائه الماركســـيون قالوا بإمكانية التناقض وكل أمثلتهم تدل على انهم أرادوا منه مطلق تقابل شيء مع شيء آخر. فقالوا:

أ : الدجاجة تتناقض مع الفروجة، وهي تتناقض مع البيضة!

ب : وان الهزيمة والإنتصار وهما تتعاقبان في الجيش نوع من اجتماع النقيضين!

ج : وان الثمرة تتناقض مع الشجرة!

واضح ان المقصود في كل ذلك مجرد نوع من التقابل الذي لم ينكره أحد من الفلاسـفة، وليس معنى التناقض لدى هيجل اجتماع الوجود والعدم في شـــيء واحد ووقت واحد. وهل يمكن ان يكون هناك عاقل يعترف بإمكانية اجتماع وجود زيد وعدمه في ذات الزمان؟ وإمكانية صحة قانون وبطلانه؟ وإمكانية ان يكون الجيش في معركة واحدة منتصرا ومنهزما؟!

ومن هنا فإن جانبا كبيرا من الخلافات يتهافت بســـبب تفســـير اللفظ تفســـيرا مناســـبا.. والجدير بالذكر ان هناك فريقا من الغوغائيين اسـتغلوا لفظة التناقض المشـتركة في المعنى لأهدافهم الإعلامية، فشرعوا يشنون حربا غير شريفة ضد المنطق الشكلي، زاعمين انه جامد وغير معترف بالفوارق الموجودة في الطبيعة. هذا عن التناقض، اما عن التطور؟ فنتابع الحديث:

3- لنفترض مرآة صـــافية إلى جنب نهر جار، الماء يتدفق وصـورته تنعكس على الشـاشـة الصـافية. ان ثبات المرآة شـرط

ضـروري لأمانة الصـور المنعكسـة فيها. فلو جاء شـخص وأخذ يهزالمرآة، فإنها تتعرض آنذاك للتشويش.. ولو فرض ان شخصا قام فأخذ لقطة عن النهر أو عن المرآة، فلابد ان تمثل لقطته لحظة معينه من تدفق الماء. ولكنها صـــورة أمينة للغاية، لتلك اللحظة فقط.

ان هذه هي حقيقة المعرفة التي لا اعتقد أحدا ينكرها لو قدرت له التذكرة بها، فالمرآة هي المعرفة، تعكس واقع الأشياء المتطورة (كأنها نهر لا يتوقف إنســـيابه). ولكن لولا ثبات النفس وهدوئها، لما كان الإنعكاس سليما. ومن هنا فإن النفوس المتوترة لا تستطيع إحراز معرفة صادقة.

وفيما لو إلتقطنا صـــورة علمية عن لحظة معينة، مثلا أردنا التركيز على معرفة حالة النهر في وقت معين (أو قل حالة القمر في ليلة الخسوف ساعة معينة)، فإن هذه المعرفة لا ترتبط بجريان النهر أو دوران القمر، بل هي أشـبه شـيء بلقطة فتوغرافية عن حالة السـيل المتدفق تعكس حالة معينة، ولكنها تعكسـها بصـورة ثابتة لا تتغير.

ولو أردنا التقاط صـورة معينة عن وضـع تاريخي معين، مثلا عن حوادث النصـف الأول من القرن العشـرين، فماذا كان يعني هذا؟ يعني تقدم البشرية في غزو الفضاء، واستغلال الذرة لشؤون السلم وتلاشي الحياد الإيجابي وبروز الصين كقوة عالمية و.. و.. ان هذه اللقطة جامدة رغم ان الحياة ســتتطور، ولا يمكن لهذه اللقطة ان تتغير ان كانت صحيحة وأمينة. هل يمكن مثلا ان يكون هبوط أول إنســان على سـطح القمر عام 1969 حقيقة ثم لا تلبث

ان تصـــبح باطلة؟ كلا لأنها لقطة عن لحظة معينة من تاريخ هذا النهر الجاري، وهل يمكن ان يكون عودة لونا 16 من رحلته القمرية صحيحة اليوم، ولكنها تتطور ــ كعلم وكحقيقة ــ فتصبح باطلة غدا؟ كلا لأنها أيضا لقطة فهي لا تتطور وان كان الإنسان يتطور إلى مرحلة أبولو أو ساليوت؟!

والقول بأن المعرفة تنمو وتتكامل ســـخيف تماما كالقول بأن المرآة هي التي تتحرك وان الصـــورة الفتوغرافية خاطئة لانها لا تعكس جميع الحالات!

نقد النسبية التطورية

بعد هذه الملاحظات التمهيدية ينبغي ان ننقد النسبية التطورية:

المفهوم الأول منها يقول: الحقيقة تتطور، و في ســـبيل نقد هذه الفكرة، نسأل: ماذا تعني هذه اللفظة؟ انها أمام شقوق مختلفة:

أ : هل تعني ان الحقيقة هي معرفة الواقع الموضـــوعي، وبما ان الواقع الموضوعي يتطور فالمعرفة لابد ان تتطور وفقه، لأنها أمينة في إرائتها.. فمثلا نحن نعلم الآن بأن الوقت نهار، وفي الليل لابد ان نعلم ـــ ان كنا حقيقيين ـــ ان الوقت الآن هو ليل. فالحقيقة تطورت حســـب تطور الواقع.. وهذا أمر موغل في البساطة يعرفه الأطفال ولا داعي لذكره في كتاب فلسفي.

ب : أو انها تعني: ان الحقيقة تتكامل مع ذاتها. بمعنى ان البشر يستطيع بجمع معلوماته وتنسيقها كسب معلومات جديدة، فمثلا: نحن نعلم بأن القمر في كبد السماء، ونعلم من جهة ثانية بأنه متى كان القمر في كبد الســـماء فإن ماء البحر في المد. فبجمع هاتين المعلومتين نتعرف على حقيقة ثالثة هي ان الآن يزامن مد البحر.

هذا أمر واقع. بيد ان المعرفة لا تنمو بذاتها، بل لابد ان يســـبقها التركيز والتمنهج. أرأيت مثلا: ان الإنســان يتمكن من العلم بنتيجة عملية حسابية بسيطة 15×7= مثلا بدون التمنهج والتركيز.

ان الحاجـة إلى المنهجـة والتركيز تحملنـا على الاعتراف بـدور العقل والإرادة في اســـتنباط معلومـات جديدة ورفض القول بـأن طبيعة المعلومات هي التصـــاعد والقفز وذلك بســبب التناقضـــات الداخلية التي فيها. والاسلام ذكّر الإنسان بإمكانية تنمية المعلومات بالعمل والتفكير (الإرادة والعقل) فجاء في الحديث عن الامام علي عليه الســـلام : (إذا رمتم الانتفاع بالعلم فاعملوا به او اكثروا الفكر في معانيه تعه القلوب[1]). وقد جاء في الحديث أيضـــا: (الفكر مرآة صافية[2]).

ج- واذا كـان تطور الحقيقـة تعني ان 2×2=4 اليوم وأمـا غدا فـإنهـا تنقلـب إلى (5)، أو ان العلم بوجود اليونـان في التـاريخ ســـينقلب في يوم إلى العلم بعدمهم، دون أيـة مفاجـآت علميـة بل بصـــورة آلية داخل الذات، فإن هذا القول ليس ســخيفا فقط، وانما أيضا لا نتصور ان أحدا قد تفوه به، أو زعم بإمكان الذهاب إليه.

ذلك لأن العلم شـهود وكشـف مباشـر، والكشـف والشـهود ذاتيان له ولا يمكن للشـيء ان يفقد ذاته. فلا يمكن ان ينقلب العلم الحقيقي الصادق إلى الجهل التام.

وإذا كانت الحركة تنخر في ذات العقل والعلم والفكرة والمذهب فإن نظرية (النســبية التطورية) نفســـها عرضـــة للإنهيار لأنها تحتوي على شـــيء كبير من البطلان. ومن هنا فليس لنا الاعتماد

1 - غرر الحكم ،ص45 ، باب : ثمرة العلم و العمل به، ح155 .

2 - بحار الانوار ،ج68 ، ص328 .

عليهـا، وبـالتـالي فـإنهـا تتهـاوى أمـامنـا صـــريعـة، مع ان قـادة الماركسية يبالغون في صحتها وحتميتها وبقائها إلى الأبد!

<u>البحث الثالث عن:</u>

العالم
بين الرؤية الإسلامية
والتصورات البشرية

المدخل.....
الديالكتيك فلسفة عامة
الفلسفة الميكانيكية
الإسلام وفلسفة النور

المدخل

تكوين مفهوم عام عن الكون أو في تعبير أفضـــل عن العالم (وهو كل حقيقة وراء الشعور)، ليس من اختصاصات العلم بمعناه الضيق بل هو موضوع الفلسفة بالمعنى الشامل.

فإذا ســـألت أي عالم فيزيائي أو كيميائي أو اجتماعي عن هذا العالم ما هو؟ لأخذ يحلل لك مواده ويشـــرح لك ســـننه وغرائبه.. ولكنك ترى هذه الأجوبة ضـــئيلة لا تكفي حاجتك الملحة إلى تفهم حقيقة العالم ككل وتكوين نظرة عامة عنه.

ان المفهوم العام، هي القيمة الأســـاســـية التي تقوم عليها قائمة العلوم البشـــرية جميعا، وهي الركيزة الأولى التي تدور حولها النظم والقيم والنشـــاطات كلها، وهي الأطر الكبيرة التي تتحرك ضـــمنها جزئيات الكون، وهي الروح التي تعيش خلف العالم وتحركه انى شـــاءت. ولذلك فإن العلوم التي تبحث في بعض الجوانب الظاهرية من الكون لا يمكنها إعطاء مفهوم عام عن العالم. ان الإنســـان بحث عن المفهوم العام قبل بحثه عن الخصـــائص الجزئية بكثير ولا يزال يبحث عنه رغم توســـعه في حقول العلم جميعا. فتاريخ الأديان والفلســـفات يســـبق أبدا تاريخ العلوم ويحظى عبر جميع الأجيال بأكبر الاهتمام.

وظل الإنســـان يبحث عن هذا المفهوم حتى اليوم، وغدا حتى الأبد. لأن في الإنسـان نهم بالغ يدعوه إلى هذا البحث أشـد من أي نهم آخر.

من هنا نرى في كل أمة نهضة فلسفية تعيد إلى الناس شعورهم بمفاهيم عامة مســـتقيمة، ثم تبتدئ مســـيرتها العلمية. كذلك في اليونان، وكذلك في أرض الإســـلام، وكذلك في أوروبا، ســـبقت كلمة الفلسفة منطق العلم..

وتتلخص عناصـــر المفهوم العام عن العالم في بضـــعة أســـئلة يوجهها الإنسان إلى نفسه.

- ما هي الروح التي تدبر ظواهر العالم، أو بتعبير آخر: ما هو اله هذا الكون العميق الواسع؟
- وما هي القيم الأســـاســـية التي تعمل وفقها الحياة، أو بتعبير آخر: ما هي سنن الحياة العامة؟
- وما هي نســـبة الإنســـان إلى الكون، أو بتعبير آخر: ما هو الدين القويم للإنسان؟

وتصـدى لصـياغة مفهوم عام عن العالم، الإنسـان عبر الزمن. فلم يسـتطع التجنح فوق منطق الكثافة المادية القريبة.. وإبتعث الله رسله ليهدوا الناس إلى عالم الغيب، الذي يقيم عالم المادة ويدبره.

ومن هنا تنوع المفهوم العام إلى مفهوم مادي وآخر ســـماوي، والمفهوم المادي تشعب إلى ثلاث مدارس رئيسية:

1- المدرســـة المثالية، التي لم تبصـــر ســـوى النفس البشـــرية، فرفضـــت الإعتراف بحقيقة ما وراء الشـــعور-وقد بحثنا حول هذا المفهوم في الفصل السابق لدى بحثنا عن قيمة المعرفة-.

2- المدرسة المادية العقلانية، وتدخل ضمنها المدرسة المادية الوضعية، والمادية الميكانيكية، وفلسفة أرسطو الثنائية، وما أشبهها.. وتجمع بينها فكرة العقل المدبر، الذي يُسيِّر الكون، سواء كان العقل خارجا عنها أو داخلا فيها.

3- المدرسة المادية اللاعقلانية، وهي تنطوي على: المادية الديالكتيكية وبعض الفلسفات الرجعية التي تتوغل في عمق التاريخ السحيق.

4- المفهوم الإلهي، وهو الإسلام، الذي نزل به أنبياء الله أجمعين ـ صلوات الله عليهم ـ وأكملها النبي محمد (ص) وخلفاؤه المعصومون (ع).

ولنتحدث الآن عن هذه المدارس الأخيرة، ونحن نمهد لإستعراض العقائد الإسلامية، التي هي شرح وتبيين للمفهوم الإسلامي العام عن حقيقة الكون.

ونبدأ الحديث عن المادية اللاعقلانية (الديالكتيك) لنقترب شيئا فشيئا عن المفهوم الإسلامي.. ذلك ان المادية العقلانية تتوافق مع المفهوم الإسلامي في جانب كبير.

الديالكتيك فلسفة عامة

إلى جانب المنهج الديالكتيكي الذي نقدناه في فصـل سـابق عند الحديث عن النسـبية التطورية، إلى جانبه تسـتقر الفلسـفة الديالكتيكية، وهي وليدة حتمية لنظرية النسـبية التطورية التي تبنتها المادية الديالكتيكية.

وقد تبين سـابقا مدى التناقض المنطوي عليه منهج النسـبية التطورية، وبذلك ينهار بناء الفلسفة الديالكتيكية أيضا.

ومع ذلك فإنا نسـتعرض فيما يلي ملامح الديالكتيكية وما تعرضت لها من إنتقادات مباشرة .

تزعم الديالكتيكية الفلسفية:

1- ان كل شـيء في حالة تغير دائم، وليس له سـوى تاريخ مضـى ومسـتقبل يأتي، تماما كالنهر الذي نراه واحدا ولكنه في حالة تبدل مستمر.

2- كل شـيء يرتبط بكل شـيء. فلا يمكن ان نفقه حقيقة الكون الا بصورة شاملة؛ أي من زاوية التفاعل المستمر بين أجزائه.

3- كل شـيء يحتوي على نقيضـه (؟!). فالبيضـة تحتوي على الفروجة التي هي نقيضها، والفروجة بدورها تنطوي على نقيضها وهي الدجاجة. وعليه ففي كل شيء قوتان متضادتان؛ واحدة تجره إلى البقاء، والثانية تدفعه إلى الامام.

4- وبفعل هذا التناقض الداخلي، يحدث إنقلاب مفاجئ في كل شـيء، فالبيضـة مثلا: تتفاعل فيها القوى المتضـادة حتى إذا بلغت مرحلـة (القفز) انفلقت عن الفروجة، وهذا الإنفلاق يحدث فيها بصـــورة مفاجئة. والماء يوضـــع على النار، فينشـــأ فيه تناقض داخلي، ينقلب به بصورة مفاجئة إلى البخار.

وقبل البدء بنقد هذه النظرية لابد من عرض ملاحظتين:

1- ان هيجل كان أول فيلســـوف وضـــع المنطق الديالكتيكي وفلســـفته وقد هداه منطقه إلى الإيمان بالدين والدعوة الملحة إليه من جهة. ومن جهة أخرى إلى القول بالمثالية التي تعتبر الكون انعكاسـا للروح وليس العكس. وقد تبنت الماركسـية هذا المنطق ، وهي تعتقد انه لا وجود للروح وان كل شـــيء الذهن ليس الا انعكاسـا للمادة على النفس. وهنا لابد من التسـاؤل عن مدى قدرة هذه الفلســفة للبلوغ بنا إلى الحقيقة؟ فإذا كانت قدرة الفلســفة هذه كافية للكشــف عن العالم، فقد كان هيجل مؤســســها أحرى بهذا الكشــف. فكيف ذهب إلى المثالية؟ ام كيف تناقض معه تابعوه من أمثال ماركس وانجلز ومن أشــبه؟ فإذا بهؤلاء ينكرون وجود أية قيمة في الحياة ويجمدون أنفســهم في حدود المادة الكثيفة. والواقع ان الفلسفة الديالكتيكية أثبتت فشلها منذ البدء، حيث أنكر مؤسسها وجود الواقع الموضـــوعي الذي لا ريب فيه، وأنكر تابعوه حقيقة القيم التي لا تردد في وجودها.

2- هل الفلســـفة الديالكتيكية تعتبر نتيجة للتقدم العلمي الذي أحرزه الإنسان؟ هكذا تزعم أجهزة الإعلام الماركسية! ولكنه زعم ينطوي على الخلط بين الفلســـفة والعلم. هذا الخلط الذي تتعمده

الماركسية بصورة مستمرة مع أن موضوع العلم (بمفهومه الخاص الذي يعني كل ما هو خاضع للتجربة) يختلف عن موضوع الفلسفة الذي لا يخضع للتجربة. ولذلك فإن في فلاسفة القرن العشرين من ذهب إلى آراء فريق من فلاسفة القرن الرابع في الميلاد. ولذلك فإن أي ربط بين التقدم والفلسفة ينطوي على سذاجة بالغة في التفكير. أما بالنسبة إلى فلسفة هيجل الديالكتيكية فإن هيجل لم يكن له إلا دور المجدد لها وفيما يلي نثبت قائمة بأسماء أولئك الفلاسفة الذين سبقوا هيجل في آرائهم الديالكتيكية:

ألف: طالس (أو تالس) الملطي كان يعتقد بأصل التغير في الكون، وقد عاش في حوالي (400ق.م) ومثله في هذا الإعتقاد الفيلسوف (انكسيمانوس).

باء: هرقليط (500 ق.م) يمثل العالم بنهر جار ويرى العالم في تغير مستمر ، و يرى ان سبب التغير الدائم هو التناقض الداخلي في الأشياء. وقد قال عنه لينين: (كلامه شرح وتعبير كامل لأصول المادية الديالكتيكية).

جيم: ديمقراطيس، وابيقور، ولوكرس (341 ق. م.) كانوا يعتقدون بأصل التغير في الكون.

ان وجود رجل واحد من هؤلاء يكفي لإنتزاع صفة التقدم عن الفلسفة الديالكتيكية، بل وطبعها بصبغة (الرجعية السحيقة).

نقد النظرية الديالكتيكية

المبدأ الأول:

ماذا يعني التغير في الطبيعة؟ هل يعني ان المادة ذات المادة، والسنن التي تسيرها وتدبرها ذات السنن، وضمن هذه السنن سنة التطور في كل شيء؟!

ان هذا ليس فقط حقيقة واضـــحة، بل انها تكاملت في الفكر الإسلامي حتى أصبحت ركيزة البناء في صرح المعارف الإلهية، وسنبحث عنها مفصلا بإذن الله.

ام يعني ان كل شيء في الكون سائر نحو التغير، حتى القوانين الطبيعية والسنن الكونية والقيم العامة والمعرفة الصادقة؟

إذا كانت الماركسـية تعني من التغير هذا المفهوم الشـامل فإنها مخالفة لوجدان كل إنســان. إننا نعلم بوجودنا، وان ثلاثة في ثلاثة يساوي تسعة، وان الصدق حسن والعدل جميل والحق مرغوب فيه. ونعلم ان هذه حقائق لن تتغير.

ثم اننا لم نجرب التغير في الســنن الكونية. فكل القوانين ثابتة يقوم على أساس ثبوتها صرح العلم العظيم.

ولا تسع الديالكتيك الا ان تعترف بثبوت القوانين الكونية إذ ان البنود الأربعة للديالكتيك ليســت ســوى قوانين تدعي المادية الديالكتيكية بأنها لن تتغير أبدا. وإذا ســحبت فرضــية التغير إلى عالم السنن انهار بناء المادية الديالكتيكية قبل كل بناء.

وعالم المعارف هو الآخر، عالم ثابت موزون. وقد سبق القول منا في أن القول بتغير الحقيقة أشبه شـيء بالقول بتغير الصـورة التي تمثل لحظة معينة، وانه مغرق في السذاجة.

والقيم، كقيمة العدل والصــدق و الوفاء، هي الأخرى ثابتة، لوجدان كل بشــر انها كذلك.. أترى يأتي حين من الدهر ينقلب العدل قبيحا عند العقلاء والكذب حسنا والغدر خلقا طيبا؟

إذا فالمبدأ الأول، صـــحيح إذا وضــــع في إطار الطبيعة التي يُلاحظ فيها التطور، أما إذا ســحب إلى عالم الغيب (الميتافيزيقيا) فإنه يعود هراء لا يمجه الذوق الســليم والعقل الصــائب فقط، بل ويلفظه حتى أولئك الذين تشدقوا به.

وسنبحث قريبا، ان شاء الله، عن مبدأ التغير وانه ركيزة الفكر الإســلامي، وســتعرف هناك الكذبة الكبرى التي افتراها ســتالين حين قال:

(ان الديالكتيك ــــ خلافا للميتافيزيقية ــــ لا يعتبر الطبيعة حالة ســكون وجمود، حالة ركود واســتقرار، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان. ففيهما دائما شــــيء يولد ويتطور وشــــيء ينحل ويضــــمحل. ولهذا تريد الطريقة الديالكتيكية ان لا يُكتفى بالنظر إلى الحوادث من حيث علاقات بعضها ببعض، ومن حيث تكييف بعضها ببعض بصورة متقابلة، بل ان ينظر إليها أيضــــا من حيث حركتها، ومن حيث تغيرها وتطورها، ومن حيث ظهورها واختفائها).

وبعد، هل بـإمكـان ســـتـالين ان يقول: من هم أولئـك (الميتافيزيقيون) الذي اعتبروا الطبيعة جامدة؟ بل ســنعلم بإذن الله ان الديالكتيك هو الذي يمثل الجمود!!

المبدأ الثاني:

قاعدة التفاعل بين الأشياء سنّة في الخليقة معا. فكل شــيء يقع في حلقة معينة من سـلسـلة الأسـباب والحوادث.. وليس هناك من ينكر هذا الترابط. والاســـلام يرى ان الكون كله آية من آيات الله

العظيمة، وإسم من أسمائه الحسنى. فكل شيء يرتبط بكل شيء في ذات الخلقة وفي أصل الوجود.

ولكن من حقنا ان نسأل، هو يمكن للديالكتيك ان تؤمن بمبدأ الترابط العام؟! من اجل معرفة جواب ذلك، لا بد ان نعرف معنى الترابط والسبب الذي يدعونا إلى الإيمان به.

لا يعني الترابط، التلاصق والإصطفاف في مسيرة الوجود الصاعدة، بل يعني التأثير والإيجاد والتحول.

والذي يحملنا على الإعتقاد بالتأثير المتقابل في الأشياء هو العلم بأنه يجب ان تحدث الأمور بواحدة من ثلاث فرضيات:

1- بسبب خارج ذاته.

2- بالصدفة.

3-بالتفاعل الذاتي.

وبناء على الفرضية الأولى، لا بد لكل فعل يوجد من سبب خارجي له..

وعليه فلا بد من وجود الترابط والتفاعل بين أجزاء الكون ليكون بعضها لبعض سببا وعلة مغيرة.

ولكن الفرضية الثانية (الصدفة) والثالثة (التفاعل الذاتي) تمنع البحث عن سبب خارجي. فمثلا: لو رأينا انفلاق البيضة عن الدجاجة ذهبنا ـ نحن الإسلاميين ـ نبحث عن سبب خارج البيضة، وهي الحرارة المعينة التي سببت انفلاق البيضة، ثم نبحث عن سبب للحرارة وهو توليد طاقة الكهرباء، ونبحث عن سبب للتوليد. وهكذا نستمر في التدرج مع الأسباب وأسباب الأسباب إلى ان يحدث التفاعل بين أجزاء الكون. ولكن القائل بالصدفة

يريح نفسه منذ البداية ويقول: لسنا بحاجة إلى البحث عن سبب الانفلاق. وكذلك الديالكتيكي الذي يربط الانفلاق بالتناقض الداخلي ينهي الأمر أيضا، ولهذا يجمد العلاقات بين الأشياء بصورة نهائية!

والواقع ان هيجل كان يقصد بمبدأ التفاعل حقيقة أخرى سنتطرق اليها في المبدأ الثالث. أما الماركسيون فإنهم استغلوا هذا المبدأ لسحق الفرد بين فكي رحى المجتمع. فقال قائلهم (اميل برنز) بعد استعراض هذا المبدأ :

(وقد يبدو هذا الترابط بين الأشياء بديهيا إلى درجة يظهر معها أي سبب لالفات النظر إليه عبثا ولكن الحقيقة هي: ان الناس لا يدركون الترابط بين الأشياء دائما، ولا يدركون ان ما هو حقيقي في ظروف معينة قد لا يكون حقيقيا في ظروف أخرى.. وخير مثل يمكن ان يضرب في هذا الصدد هو وجهة النظر حول حرية الكلام. ان حرية الكلام بصورة عامة تحرم الديموقراطية وتقيد إرادة الشعب في التعبير عن نفسها ولذلك فهي غير مفيدة مطلقا لتطور المجتمع إذ انها توقف تطور المجتمع..).

وهكذا استغل الماركسيون هذا المبدأ بعد ان حرفوه، استغلوه في سبيل سحق حرية الفرد وجعله أداة في الجهاز الحكومي الذي يمثل المجتمع.

وبعد هذا، فهل من الإنصاف ان تنعت الماركسية الفكر الميتافيزيقي بأنه (يعتبر الطبيعة تراكما عرضيا للأشياء أو حوادث بعضها منفصل عن بعض أو أحدها منعزل ومستقل عن الآخر) كما قال ستالين، ام انه مجرد افتراء وخيانة لأمانة العلم؟

المبدأ الثالث:

مبدأ التفاعل الذاتي الذي ينشـــأ من وجود تناقض داخلي في الاشـياء بدفعها إلى التحول نحو الأعلى بصـور مسـتمرة. وينبغي توضيح عدة نقاط، لمعرفة حقيقة هذا المبدأ:

1- تحدثنا سابقا عن اختلاف معنى (التناقض) الأدبي عن معناه الفلسـفي وان الديالكتيك تسـتعمل اللفظ في مفهومه العام الذي يعبر عن مطلق التقابل حسبما يظهر من أمثلة فلاسفة الديالكتيك.

2- كيف تنشـأ الحركة؟ الجواب بسـيط: خذ قضـيبا ودحرج به حجرا تحدث حركة. ولكن لا ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل يبقى السـؤال: لماذا حين اصـطدم القضـيب بالحجر حَرَّكه؟ يقول الفيلسـوف الميتافيزيقي: ان السـبب هو التناقض. إذ ان القضـيب احتل مكان الحجر فلم يكن للحجر الا الفرار، إذ انه اسـتحال ان يجتمع ضـدان في موقع واحد. وحين نمعن النظر نرى ان كل حركة انما تحدث بهذا السـبب. فالحركة في البيضـة تبدأ بنمو أجزائها، وحين تكبر تضيق البيضة بها فتنفلق.

وهنا نضـع أيدينا على رمز عظيم، هو ان كل حركة تحدث بسـبب وجود تناقض ولكن لا بسـبب اجتماع نقيضـين. وجود تناقض بين المحرِّك والمتحرك، لا يمكن ان يجتمعا في مكان فيدفع الأقوى الأضـعف إلى الخارج. ولكن لا يعني هذا اجتماع نقيضـين أي احتواء المكان الواحد للمحرك والمتحرك في مكان وزمان معينين. وبتعبير آخر: هذا تناقض خارجي أي وجود شـيئين في مكان كل منهما يقتضـي أمرا مختلفا عن الآخر. فإذا حاول التجمع في مكان حدث التناقض، أي حدث تحكم مبدأ امتناع

وجود المتناقضـــين في مكان فحدثت حركة من هذا الأمر. وهذا أمر متفق عليه من قبل الديالكتيك والميتافيزيقيا، وهو دليل على ان اللفظ فقط كان الحاجز بين الفلسفتين.

3- ومبدأ عدم التناقض الذي تبناه الفلاسفة الشكليون يشترط ان يكون الإثبات والنفي في شيء واحد ووقت واحد وحالة واحدة..

ومن الطبيعي بعد هذا الا يبقى في الدنيا عاقل يصـــحح اجتماع النقيضـين ويقول: ان المثلث في الوقت الذي له ثلاثة أضـلاع فله أيضـــا أربعة أضـــلاع، وان أمة اليونان في الوقت الذي كانت موجودة في التاريخ كانت أيضـــا معدومة، وان الإســـلام حق كله وباطل كله في لحظة ومن جهة واحدة، وهكذا.. ومن هنا نعلم انه ليس من التناقض في شـيء، تعارض أجزاء الكون وتنازع أحيائه على البقاء.. فالفعل ورد الفعل في الميكانيك ليس بتناقض لأن زمان الفعل شـــيء يختلف عن زمان رد الفعل. صـــحيح (ان لكل فعل رد فعل يسـاويه في المقدار ويعاكسـه في الإتجاه) ولكن ليس من الصـــحيح ان هذا تناقض، إذ ان الفعل يســـبق رد الفعل فلا يجتمعان في الزمان. ولأن الفعل يعاكس رد الفعل في الإتجاه فليسا في مكان واحد.. بل كما سبق لو كان التناقض ممكنا لما كان لكل فعل رد فعل، إذ انهما إذاً جمدا في مكانهما.. وكذلك الخط السـالب والموجب في الكهرباء ليسـا متناقضـين، لأنهما – أولاً- ا يشغلان خطين مختلفين ومكانين فلا اجتماع في المكان، ولأنهما - ثانيا – يتحولان إلى الحركة لدى اجتماعهما ولا تتولد الحركة إلى دفعة، ولا يمكن ان تحدث الدفعة إلى الأمام لو لم يضـــق المكان بهما. وهذا دليل على عدم امكان اجتماع المتناقضـــين إذ لو أمكن

لما تصـــارعت القوتان على المكان وأحدثتا الحركة، بل كانتا تعيشان جنبا إلى جنب في سلام.

هذا من جهة ومن جهة ثانية كل شـــيء الآن شـــيء، وفي المستقبل قد يتحول إلى شيء آخر، ولا يتحول الا بعد إمكان هذا التحول. فمثلا: الطفل الآن بشر صغير، وهو في المستقبل إنسان كبير، ولا يصبح إنسانا كبيرا الا بعد وجود إمكانية ذلك له. ومن هنا فليس من الممكن ان تتحول البعوضـــة إلى حجم الفيلة لأنها تفقد إمكانية ذلك.

ويعبر عن هذه الحقيقة بلفظي (الفعل) و(القوة)[1]. فالشيئ بالفعل ذو حجم معين وبالقوة ذو حجم مختلف.. والأمثال على ذلك كثيرة فكل حركة في العالم تعني التحول من الواقع فعلا إلى ممكن مستقبلا.

وكل جسم حي يسير عبر التحول من الحياة الساذجة إلى الحياة التامة ومنها يتحول إلى الموت والسكون، وكذلك الإنسان يتحول من الواقع إلى المســـتقبل، من الفعل إلى القوة. فهو لا يعلم شـــيئاً بالفعل ولكنه يملك إمكانية التعلم وقوته.

بعد توضـــيح هذه النقاط نعرف حقيقة مبدأ التناقض، فهو عند الفلسفة الغيبية (الميتافيزيقيا) يختلف عنه في الفلسفة الديالكتيكية. فالأولى تشـترط لموضـوعة (مبدأ عدم التناقض) الوحدة الزمنية والمكانية والفعلية. فلو وجد شيئان مختلفان في زمانين أو مكانين أو في زمان ومكان، ولكن وجد الأول بالفعل والثاني بالقوة

---

1 - لا تعني لفظة القوة هنا وجود قوة داخلية في الشـــيء تدفعه إلى التحول . كلا، بل معنى القوة هنا: الامكانية، أي من الممكن ان يتحول إلى شـــيء آخر، ولو بعوامل خارجية؛ فالطفل لولا عوامل الغذاء والهواء لما انقلب إلى شاب.

(الوجود حالا وإمكانية الوجود مستقبلا) فهو ممكن... والفلسفة الغيبية ترى ان الحركة تنشأ بهذا السبب. فالتناقض الموجود بين شيئين في مكانين أو زمانين أو حالتين يكون سببا لدفع أحدهما للآخر إلى الخارج، والحياة كلها هي التحرك من المتحقق فعلا إلى الممكن مستقبلا.

أما الفلسفة الديالكتيكية فترى ان التناقض ممكن بين شيئين في مكانين متقاربين(مثل السالب والموجب في السلكين المتقاربين) أو في زمانين متقاربين (مثل البيضة والفروجة المتعاقبين، ومثل الهزيمة والإنتصار المتقاربين زمنيا) أو بين شيء موجود فعلا وإمكانية ان يكون شيئا آخر في المستقبل (مثل الجهل والعلم في الإنسان).

وترى الفلسفة الديالكتيكية ان التناقض هو سبب الحركة، عين ما تراه الفلسفة الغيبية كما سبقت، بيد ان اللغة تختلف. فالديالكتيكية تركز على الجانب الإيجابي منه وتقول: وجود تناقض بين شيئين (يعني في مكانين أو زمانين إذا حاولا الإقتراب من بعضهما) هو السبب الوحيد للحركة.

والفلسفة الغيبية تركز على ذات النقطة (أي امتناع اجتماع نقيضين مختلفين في شيء واحد في مكان واحد وحالة واحدة) وتقول انه هو الذي يسبب الحركة.

ولا ينكر صاحب الديالكتيك هذه الحقيقة ولا يمكنه ان ينكرها إذ لو أنكر امتناع اجتماع نقيضين في شيء واحد ومكان واحد، إذاً لما حدثت الحركة، بل جمدت الحياة إذ تعيش أجزاؤها المتناقضة في تحابب وتواد.

وهنا ينبغي الالتفات إلى نقطة وهي ان الديالكتيكية غيرت لفظة العلة إلى لفظة التناقض، فبدلا من ان تقول: ان المواد الغذائية تسبب نمو الجسم وان الحركة تسبب صرف المواد في الجسم تستعمل لفظة التناقض فتقول: تحليل المواد يتناقض مع النمو، ونحن في الفلسفة لا نبحث عن قائمة المصطلحات بل نبحث عن الحقيقة، وهي تقول لنا ان كل حركة تحدث بسبب تلاقي شيئين مختلفين في مكان واحد ووقت واحد. وهذا يدعونا إلى الاعتراف بوجود سبب للحركة، ووجود سبب لسببها، لأن التلاقي لا يحدث الا بسبب آخر، وذلك السبب بدوره نتيجة لسبب آخر، وهكذا..

وبهذا نعرف انه لا يمكن للمادية الديالكتيكية ان تفسر حقيقة الحركة في الكون بمبدأ التناقض إذ انه لا يعدو ان يبين لنا لماذا يتحرك الشيء بعد تلاقيه بنقيضه، ولكن لا يقول لنا لماذا يتلاقى الشيء بنقيضه.

فالمبدأ الديالكتيكي يفسر لنا حقيقة العلية الموجودة بين الأشياء، ولا يمكنه ان يفسر وجود العلة ويكون أشبه شيء بذلك الذي يسأل عن سبب الخسوف فيجيب بأنه يسبب الظلام في ليلة قمراء. أو يسأل عن سبب حركة السيارة، فيجيب عن وجود تناقض بين دفعة المحرك للإطار ودفعة الأرض للإطار إلى أعلى حسب مبدأ ان لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه.

ان مبدأ الفعل ورد الفعل لا يفسر لنا الا نوعية تسبب الضغط للحركة، دون سبب الضغط وهو وجود المحرك. وليتنا كنا نطلع على الجامعات العلمية في البلاد التي تتبنى الفلسفة الديالكتيكية لنعرف عن كثب ما إذا كانت تكتفي بذكر نوعية التسبب ام تتجاوز ذلك إلى معرفة (السبب). فحين تريد ان تدفع عجلة ألا

تفكر في وســـيلة لهذا الدفع بل تكتفي بمعرفة حقيقة الدفع. في الواقع؛ لا نظن بأحد يمكنه ان ينكر حاجة كل شـيء إلى سبب، أو يشك في أن مبدأ التناقض لا يشبع هذه الحاجة بل يفسرها فقط.

وبعيدا عن حقل الفلسفة يستغل بعض الأحزاب السياسية، مبدأ التناقض لشـن حملات دعائية مسـتمرة ضـد وجود البارئ للخليقة ووجود قيم ثابتة للحياة.

والحقيقة ان هذه الحملات أعطت الفلســـفة الديالكتيكية أبعادا خطيرة لأنها زعزعت ثقة الإنســان بفكره وحضــارته ومســتقبله، وجعلته طعمة ســائغة لجوعة الشــهوات الطائشــة وخلقت له جوا متوترا لا تهدأ ثائرته. ويذكرنا هذا الواقع بالوضـــع الخطير في نهاية أيام اليونان إذ ســادت بينهم الســفســطة والجدل واســتغلت الفلسفة أبشع استغلال.

المبدأ الرابع:

ماذا تعني قفزات التطور بصورة دقيقة؟ لمعرفة ذلك نرجع إلى نص ننقله عن ستالين يقول فيه:

(ان الديالكتيك خلافا للميتافيزيقية لا تعتبر حركة التطور حركة نمو بســيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيها إلى تغيرات كيفية، بل تعتبرها تطورا ينتقل من تغيرات كمية ضـئيلة وخفية إلى تغيرات ظاهرة وأســاســية أي إلى تغيرات كيفية، وهذه التغيرات الكيفية ليست تدريجية، بل هي سريعة فجائية وتحدث بقفزات).

في ظلال هذا النص نتســاءل: ما هو واقع المفاجأة، هل معناها اننا لم نعرفها، أو لم نتنبأ بها قبل وقوعها، أو لم نفهم ســـببها قبل ذلك حسبما يركز عليه النص بكلمتي الظاهرة والأساسية؟ إذا كان

هذا معنى المفاجأة اتفقنا ولم نختلف فيها إذ كثيرا ما نرى ان الماء يغلي ويغلي وفجأة يتبخر. فنحن قبل ان نكتشــف انه حين تصــل حرارة الماء إلى مئة درجة يتبخر لم نكن نتنبأ فعلا بإنقلاب الماء بخارا ولم نعرف سببه.

ام ان معناها انها تقع صدفة وبدون سبب، حسب ما يظهر من بعض إيحاءات النص أيضــا، إذا كان كذلك فإنه باطل ينشــز عنه العقل والعلم. إذ حين نرى تبخر الماء فإن العقل يهدينا إلى وجود ســـبب ما لهذا التبخر وان كنا نجهله تماما. كيف انقلبت المادة الميتة إلى خلية حية؟ اننا حتى اللحظة نجهل الســـبب، ولكن لا يعني هذا وقوع الأمر بدون سبب.

أم يعني ان القفزة تعتبر تطورا أساسيا؛ أي ان المادة تنقلب إلى حقيقة أخرى لها ميزات مختلفة عن الحقيقة الســابقة، فهذا أيضــا صــحيح. فللبخار مثلا خواص مختلفة عن الماء الذي يغلي، إذ ان امتداد البخار كاف لرفعه عن الأرض وإمتداد الماء المغلي يكفي لذلك.

والماركسية استغلت هذا المبدأ بعد ان فسرته تفسيرا بعيدا عن العقل والعلم، استغلته لاثبات بعض الأمور:

1- ان قفزات التطور تكون بصـــورة ديالكتيكية نابعة من تناقضات داخلية في الشيء!

ولكن سبق ان مبدأ التناقض الداخلي في الفلسفة الديالكتيكية لا ينافي وجود أســباب خارجية، بل انه لا يعدو ان يكون تفســيرا لحقيقة التسبب لا إغناء عن وجود سبب.

كما ان تطور الماء إلى بخار لم يكن دون ســبب خارجي وهي الحرارة التي سخنت الماء.

2- ان الحركــات الاجتمــاعيــة تحتوي على قفزات طبيعيــة صـــــاعدة يتطور المجتمع خلالها من الاقطاع فالرأســـمالية إلى الاشـــتراكية فالشـــيوعية، لأن المجتمع محكوم بقوانين الطبيعة تماما، بيد انه سيعلم، لدى الحديث عن المجتمع، سيعلم ان شاء الله عقم هذه النظرية التي تفسر المجتمع الإنساني بالتفسيرات المادية التي تحكمها قوانين الطبيعة العمياء.

مضافا إلى ذلك نقول: ان التطورات الاجتماعية لن تتحقق دون عوامل معينة، وان الإنســــان أوتي قدرة التحكم على تلك العوامل بقدر ما يتمكن من التحكم على الأسباب الطبيعية.

ثم ان التطورات الاجتماعية لن تكون صــــاعدة أبدا، بل قد تنتكس كما ينتكس خط الطبيعة. فالماء لا يتبدل إلى بخار دائما بل قد يتحول البخار إلى مطر غزير.

من هنا نعرف ان القواعد الأربعة للفلســفة الديالكتيكية لا تثبت أمام النقد الإيجابي الا إذا فسرت تفسيرات مناسبة.

الفلسفة الميكانيكية

تتلخص فلسفة المادية الميكانيكية في عبارة ديكارت: ان الكون مكينة كبيرة.. تفسيراً لهذه العبارة يجب ان نثبت عدة نقاط:

1- ان الميكانيكية ترى ضرورة سبب خارجي لأية حادثة، بل ان طبيعة هذه الفلسفة تقتضي وجود علة خارجية لكل أمر حادث، ولكل حركة حادثة، ولهذا تختلف الفلسفة الميكانيكية عن الفلسفة الديالكتيكية ـ بصياغتها الماركسية الأخيرة ـ في ان الميكانكي يعيد كل صيرورة إلى سبب خارج الذات، والديالكتيك يرجعها إلى داخل الذات.

وقد سبق القول في ان الديالكتيك لا تستطيع بل لا تريد في صياغتها الصحيحة نسف مبدأ السبب الخارجي، لأنه مبدأ فطري يؤمن به كل بشر حتى أولئك المنكرين يقيمون حياتهم العملية والعلمية على أساس هذا المبدأ.

2- ولا تنكر الميكانيكية طبيعة التغير المستمر في مواد الكون.

3- ولا تنكر أيضا وجود تفاعل كامل بين أجزاء الكون، بل هذا المبدأ ركيزة الميكانيكية حسبما يأتي إن شاء الله. لا تنكر كل ذلك كما اتهمتهما به بعض الفلسفات.

4- ولا تنكر الميكانيكية وجود تناقض ظاهر أو خفي بين عوامل الكون، ولكن تفسر التناقض حسب ما سبق في توضيح الديالكتيكية؛ تفسره بمعنى التقابل، وهو ان كل شيء لا يمكنه ان

يستقر في مكانه مع شيء آخر يتحول إلى وضع جديد. فالعصا الذي يضرب بها الفلاح الحجر لا يمكنها ان تجتمع مع الحجر في موقع واحد، فيتحرك الحجر ليعطي مكانه للعصا. ولو امعنّا النظر في التفاعلات الكيمياوية لأية خلية لوجدنا فيها هذه الحقيقة أيضا، فالمواد الداخلة تدفع بالمواد المتبقية لإفساح المجال لها ولولا التناقض لإستقرتا بأمان!

5- والنقطة الوحيدة التي نريد ان نركز عليها من الفلسفة الميكانيكية ـــــ والتي تعتبر جوهر الفلسفة فيما يرتبط بالثقافة البشرية ـــ يكمن في ان الحركة إذا وجدت دامت. وسنبين قريبا بإذن الله، علاقة هذه الفكرة بالثقافة، أما الآن فينبغي ان نعرف معنى هذه الفكرة وحجتها.

معنى هذا المبدأ، ان للكون خالقا قديرا أوجده وفصله أجزاء، ودبره بقوانين دقيقة ومتوازنة، والتي منها قوانين التفاعل المتبادل الذي يقضي بأن تكون مادة الكون خاضعة لعدة نظم دقيقة تنقل الطاقة من جزء إلى جزء ثم تعيدها إلى ذلك الجزء، وهكذا تتحرك في عمليات دورية مستمرة.

ومثل ظاهر لذلك، دورة (المياه) التي تتبخر من البحار بفعل الحرارة، وتتحول إلى أمطار، ثم تنتقل إلى أنهار، ثم وأخيرا تسيل راجعة إلى البحار، وهكذا.. وشَبَّهَ أحد الفلاسفة الميكانيك، الكون بساعة آلية الحركة، صنعها القدير وجعلها هكذا تتحرك.

واحتج هؤلاء لذلك بأمرين:

أ : ففي حقل الوجود خلق الله مادة الكون فلا زالت مستمرة موجودة إلى الأبد. وقالوا: ان تلك القوة التي حولت العدم إلى

وجود في عملية مهولة، جعلت منه حقيقة مســــتمرة لم نجد فيها حاجة إلى خلق مستمر.

وظواهر الكون تكشـــف لنا بوضــــوح عن ذلك، فالبناء الفخم يشـــيده البناؤون ثم يدعونه ويبقى. والســـيارة الضـــخمة يبدعها صـــانعوها وتبقى مســـتمرة، وهكذا غيرها.. وهذا دليل على استمرارية وجود الأشياء.

ب : وفي حقل الحركة التي تحكم مســـيرة الوجود، قالت الميكانيكية: ان الأجسام الساكنة والمتحركة تبقى على وضعها إلى ان تؤثر عليها قوة خارجية. والدليل على ذلك اننا نرى بقاء حركة إطار الســيارة الفارغ على أرض مســتوية، بقاء حركته بعد الدفع بضـــعة لحظات. ولدى تقليل وزن الإطار وإســـتواء الأرض وتخفيف الضـغط الخارجي أكثر فأكثر يتحرك الإطار مدة أطول. وربما نستطيع ان نحصل على حركة لا تنتهي في الإطار بتهيئة كل الوســـائل المســـاعدة للحركة وإزالة كل العوائق والضـــغوط المؤثرة فيها.

وتتصـــل هذه الفكرة الفلســـفية بعلاقة وثيقة بتاريخ الفلســـفة الأوروبية وليس من قبيل الصـــدفة ان نرى تقمص الحضـــارة الأوروبية لهذه الروح الميكانيكية، وإبعادها عن نفســـها أية فكرة فلسفية أخرى.

وفيما يلي تطبيق نظريتين في هذا المجال:

1- من واقع أوروبا الحديثة.. حيث طلع نيوتن على الحضـــارة بفكرة تثبت ان الكون مرتبط بقوانين ثابتة، تتحرك في نطاقها الاجرام الســماوية، ثم جاء بعده آخرون فاعطوا هذه الفكرة مجالا

علميا أوسع، حتى قيل ان كل ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم سموه (قانون الطبيعة) فلم يبق للعلماء ما يقولون بعد هذا الكشف غير ان الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون. وضرب واليث مثلا في هذا الصدد: (ان الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ثم تنقطع صلته بها). ثم جاء هيوم فتخلص من هذا الإله الميت وعلى حد قوله: (لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ولكننا لم نر الكون وهو يصنع فكيف نسلم بأن له صانعا؟!). هذه روح أوروبا الحديثة.

2- وأما أوروبا القديمة حيث افلاطون وارسطو وافلوطين، فانهم لا ينقصون قولا من أوروبا الحديثة. الوجود في مذهب افلاطون طبقتان متقابلتان، طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة الأولية (الهيولى). والقدرة كلها من العقل المطلق والعجز كله من الهيولى وبين ذلك كائنات على درجات.

ان الوجود هنا تعبير عن كلمة المادة ـــ التي عبر بها الفلسفة الحديثة ـ والعقل هو النظام الموجود فيها.

ويقول ارسطو: (فلابد لهذه المتحركات من محرك ولابد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه، وهكذا حتى ينتهي العقل إلى محرك بذاته أو محرك لا يتحرك لأن العقل لا يقبل التسلسل في الماضي إلى غير نهاية).

ولكن لا يعني ان يكون المحرك الأول دائما في تحريكه، بل قد يكون قد حرك الشيء ورفع يده عنه، بل هذا هو الواقع. إذ ان هذا المحرك سابق للعالم في وجوده سبق العلة لا سبق الزمان كما

تســبق المقدمات نتائجها في العقل ولكنها لا تســبقها في الترتيب الزمني.

وقد أفرط ارســطو، حتى قال: (ان الله جل وعلا لا يعلم الموجودات لأنها اقل من أن يعلمها وانما يعقل الله أفضــل المعقولات وليس أفضل من ذاته فهو يعقل ذاته وهو العاقل والعقل والمعقول وذلك أفضل ما يكون).

ويغلو افلاطون أحيانا فيقول: (ان الله لا يشعر بذاته لأنه لا يميز ذاته من ذاته فيعرفها، ولكنه لصــفاء وجوده يتنزه عن ذلك التمييز ويتنزه عن ذلك الشعور).

ان هذه الأفكار تصور الله سبحانه تصويراً سلبيا مطلقا، وتعتبر الوجود وما فيه من الحركة يجري بعيدا عن إرادة الله ســبحانه، وعن علمه وقدرته. ولقد صــور القرآن الكريم فلســفة هؤلاء، بالقول: [وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ](المائدة 64).

وفي فلاسفة المسلمين من اتبع افلوطين وعزل الحي القيوم عن مجال الكون ورأى ان الوجود حقيقة ثابتة والحركة جزء من طبيعته، وان هذه الحركة تســير قدما إلى أعلى بصــورة ذاتية جوهرية.

ومن نتائج هذه الفكرة عزل المبدأ عن الالوهية والهيمنة على الكون، وعزله عن التشريع للإنسان لانه ليس بقادر سبحانه ولا عالم بطبيعة ما خلق، تعالى الله عما يصفون!!

والمعجزة خرافة، والوحي ايحاء نفســي، والمعاد ليس كما تصفه ديانات السماء، وانما الرسل مصلحون. والدعاء والإنابة والمناجاة المباشــرة بين الإنســان وربه ضــرب من الرجعية

المنبوذة.. إلى آخر ما نجده لدى فلاســـفة الاغريق ومن اتبعهم وفلاسفة أوروبا ومن قلدهم من آراء تابعة لهذه الفلسفة!

نقد النظرية الميكانيكية

ونقد النظرية الميكانيكية، أو بتعبير أدق نقد نظرية (العزل) عزل الله عن الخلق، التي تكون جوهر الفلسفات الحديثة والقديمة.. ان نقدها لا يتطلب جهدا فكريا، بقدر ما يتطلب وجدانا ســـليما ووعيا شـــاملا. فليس من المعقول لمن اعتقد بالله انه أبدع هذا الكون العظيم وكان قادرا عليما، ان يحســـب انه تجدد له العجز والجهل سبحانه. ان الله لم يخلق الخلق الا لتمام قدرته عليه وعلمه به، فكيف فقدهما بعد ما خلقه؟!

واذا كانت الحركة بســـبب، فإن الحركة انما هي بقدر الدفع لها وذلك ليس لإننا نجد ذلك في كل ما نلامســـه فقط بل لأن من الطبيعي ان الشـــيء انما يسـكن بسـبب وجود عجز ذاتي فيه عن الحركة ولو كان قادرا عليها لتحرك. وبمقدار ما ينقص هذا العجز بالدفع توجد الحركة.

ومع ان لحظة من التفكير تكفي لمعرفة هذه الحقيقة، مع ذلك فالواجب ان نتصدى لها علميا وفلسفيا.

النقد العلمي للميكنة

ما هي حقيقة الموجودات؟ لقد ســـبق ان العلم اكتشـــف ان الموجودات لا تعدو ان تكون ذرات تتحرك، ولدى انفلاق الذرة فإذا بها لا تعدو ان تكون شـــحنة طاقة ودفعة نور. إذاً فالعلم أثبت ان حقيقة المادة هي الحركة.

وبثبوت حركية المادة تفتت الكتلة الكثيفة التي لو خلقت لدامت حسب رأي فلاسفة الميكانيك.

فإنما هي الحركة وهي ليســـت بدائمة علميا، إذ انها تنشـــأ من الطاقة، والطاقة تفقد حرارتها بصـــورة مســـتمرة حســـب قانون الطاقة المتاحة أو ضـابط التغير الذي يثبت ان الحرارة دائما تنتقل من وجود حراري إلى عدم حراري، والعكس غير ممكن وهو ان تنتقل هذه الحرارة من وجود حراري قليل أو عدم وجود حراري إلى وجود حراري أكثر، فإن قانون الطاقة المتاحة يخالف هذا الإنتقال ويقتضي التناسب بين الحرارة المتاحة وغير المتاحة.ومن هنا نثبت ان الحركة في الكون ليســـت أزلية ولا هي دائما بعيدة عن المؤثر إذ لو كانت الحركة غير محتاجة إلى دوام الســـبب إذا لكانت تســـتطيع ان تدوم إلى الأبد وهذا غير واقع حســـب هذا الكشف العلمي.

النقد الفلسفي

وفي ســـبيل الإحاطة بالنقد الفلســـفي لهذه النظرية لابد ان نذكر عدة نقاط:

1- مبدأ الذاتية:

أبسط المبادئ الفلسفية التي لا يرتاب فيها أحد ان كل شيء هو وليس بغيره.. الإنســـان إنســـان وليس بحجر، والجبل جبل وليس بشجر و.. و..

وهذا المبدأ يجعلنا نقول: لا يمكن ان يتخلف الشـــيء عن ذاته، فالذاتي لا يمكن تغييره.. فالنور مثلا: لا يمكن ان يتحول إلى (لا نور)، والحركة لا يمكن ان تتحول إلى (لا حركة) وهكذا..

2- مبدأ الوجود:

والوجود لا يمكن ان يتحول إلى عدم لأنه ذاته، والعدم لا يمكن ان يتحول إلى وجود لأنه ذاته.

وقد يبدو هذا المبدأ غريبا ولكن دعنا نفهم ما هو معنى الوجود؟ هل معناه الأرض والســـماء والجبال؟ هل معناه أنا أنت هو؟ هل معناه الحجر والشجر والحيوان؟

الفلاســـفة قالوا نعم ووقعوا في حلقة مفرغة، ولكن الرجل البسيط يقول بفطرته لا.. يقول: الكون موجود ولكنه ليس بوجود.. وهل الوجود شـــيء والموجود شـــيء؟.. ينبغي ان نرجع قليلا إلى ما سبق ونتساءل: هل العلم شـــيء والمعلوم شـــيء؟ ام هل العقل شـــيء والمعقول شـــيء؟ هناك قلنا نعم العلم هو الكشـف والمعلوم هو المنكشف. فالمعادلة (5×5=25) ليست بعلم انما هي معلوم، ولي (علم) بها وهكذا الوجود والموجود..

الكون له وجود هذا صحيح، وهو كما نقول ان الإنسان له علم، ولكنه ليس بوجود كما ان الإنسان ليس بعلم.

ولا يزال الأمر غامضـا فنقول إذا كان الكون هو الوجود فلماذا ينعدم، لماذا يكتنفه العدم، لماذا هو محدود، لماذا هو حادث، لماذا هو متناقض؟

يقرر علم الفلك مثلا: ان الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وان كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة بعضـــها عن بعض. ويمكن ان تفسـر هذه الحالة تفسـيرا جيدا إذا سلمنا بوقت للبدء كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة مع بعضـــها ثم بدأت الحركة والحرارة.. ويقدر العلماء ان هذا

الكون قد وجد نتيجة (لإنفجار) هائل وقع منذ (5000,000,000,000 سنة)[1].

هكذا تتباعد الاجرام وتدل على انها لم تكن ثم وجدت، والسؤال هنا انه ما دامت طبيعتها ليست بطبيعة الوجود والحركة، والدلالة على ذلك انها لم تكن ثم كانت، فليس من الممكن ان تعود طبيعتها إلى طبيعة الحركة. وهكذا نستدل على انها ليست بحقيقة الوجود!

وهنا يكمن سر الأمر، لو كانت حقيقة الكون هي الوجود لم يصح ان نقول ان الكون كان معدوما ثم وجد مع انه كذلك، فقد كان معدوما في بعض الأزمان، بل مجرد التغير فيه عدم من جهة ووجود من جهة أخرى.

وبتعبير موجز ومركز:

ان الكون كان عدما، فهو ذاتي العدم. ولا يمكن ان يتحول ذاتي العدم إلى ذاتي الوجود، فإنما تتحول الأشياء بالإبداع إلى عرضي الكيان يحتاج في بقائه إلى سبب كما يحتاج وجوده إلى سبب.

وان هيجل قد انحرف عن المنهج حينما تصور ان ما يراه حوله من سماء وأرض وبشر هو الوجود. ثم تصور انه ليس بوجود مطلق فقال انه معدوم. ثم رأى انه بعيد عن الفطرة (أي معدومية الكون) فقال: (انه صائر من الوجود إلى العدم ومن العدم إلى الوجود).

واذا كان هيجل قد أوتي قدرا أكبر من قوة الملاحظة لعرف ان الوجود لا يمكن ان يكون عدما، وان الكون موجود بالوجود؛ أي ان له قدرا من حقيقة الوجود. وبذلك كان ينفي مشكلته تماما.

---

1 - الإسلام يتحدى ص 78.

ولا نريد الاسترسال في بحث الوجود الذي يحتاج إلى سفر ضخم.. ولكن نريد ان نضع أيدينا على منطلق الخطأ في نظرية الميكنة الفلسفية، وهو بتطبيق مبدئي الذاتية والوجود في الكون وهو يعرف بالتدبر في حقيقة الخلق..

ما هو الخلق ؟

إذا كان الكون ليس بحقيقة الوجود وانه كان عدما، فكيف انقلب من العدم إلى الوجود؟ وهل يمكن ان يتحول الشيء عن طبيعته الذاتية، العدم يعني لا شيء فكيف ينقلب إلى شيء؟ هذا لا يتصور، فليس الكون قد انقلب من العدم إلى الوجود في عملية مجهولة.. كلا..

بل ان الله تعالى أعطى الكون الوجود، ويعطيه بصورة مستمرة. فالكون قائم بقيوم وموجود بنور الحي الذي لا يزول.. وعلى هذا فليس الكون الذي نشاهده ونلامسه موجودا بصورة مستقلة ودائمة بل هو موجود بنور الوجود الذي يحفظه عن الزوال.

ان الوجود، نور يرش على الكون فيصبح موجودا. وإذا أردنا ان نعبر عن هذا الواقع بتعبير علمي لقلنا: الكون حركة تستمر بمحرك خارجي، لو توقف عنه لتوقفت أي زالت.

وهنا لا تتبخر فكرة الكثافة في الوجود والإستمرارية في حركته فحسب، مما تنسف قاعدة الميكنة في الوجود، بل وتهدينا إلى الخطوط العريضة للفلسفة الواقعية التي تطابق معلوماتنا المتناثرة وهي الفلسفة الإسلامية.

الإسلام وفلسفة النور

تتلخص فلسفة الإسلام في كلمة واحدة هي: (الله نور السموات والأرض)، ونفصلها عبر النقاط التالية:

1- ليس في عالم التحقق الا الله وما خلق. فكل شيء ما سوى الله مخلوق له.

2- وهذا يعني ان الله سبحانه نور وكل شيء متنور به، وهو قيوم وكل شيء قائم به، وهو مدبر وكل شيء يجري بأمره. ذلك لأن كل شيء في الكون نراه خاضعا لقوة قاهرة وقدرة واسعة.. وفي ذلك آية على دوام التدبير له من مدبر عليم.

3- وهذا يقتضي الواقعية التامة للأشياء دون المثالية الافلاطونية التي قال فيها: (فكل شجرة مثلا فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية. فأين هي الشجرة التي لا نقيض فيها؟ هي في عقل الله منذ القدم). ولا المثالية الباركلية التي قال فيها: (الكون صورة الذهن الخارجي). ولا المثالية التي قال بها نيشته: (الموجود انا اما غير انا فهو وجهة أخرى لانا).

كلا؛ الكون موجود فعلا في دار التحقق.

4- ولكنه يقتضي من جهة أخرى، الغيرية في الكون؛ أي ان الكون موجود بالغير، قائم بالغير، متنور ومتحرك بالغير. خلافا لنظرية الديالكتيك التي تعتقد ان الكون متحرك بما في كل شيء

من تناقضـات ذاتية، أو مقالة الميكانيك التـي تزعم ان الكون سـاعة آلية كبيرة، ولا مقالة بعض الفلاسفة الاقدمين بالحركة الجوهرية.. كلا! انها واقعية الأشياء بالغير لما فيها من آيات الضعف والعجز.

5- ولا يعني هذا ان الكون يدبر بغير سنن فطر عليها. كلا؛ بل الغرائز موجودة وكل حادث له سبب، الا ان وجود السبب ووجود المسـبب بعده قائم بنور الله. فلو شـاء الله إذاً لإنتزع نور الوجود من السـبب فانعدم، أو انتزع نور الوجود من المسـبب فانعدم هو الآخر.

6- من هنا نعلم ان الله واسـع القدرة، واسـع العلم، وواسـع الرحمة. فكل شـيء تحت رحمته وتحت قدرته ومحيط به علمه. فالله قادر على المعجزة؛ أي خرق السنن لأن اجراء السنن ووجود السنن منه أيضا. وقادر على اعدام الكون في الساعة الرهيبة التي ترسـو في نهاية الوجود. وقادر على اعادته لأنه يملك قوة لا محدودة، والكون عاجز دون قوته عن أي شـيء.. وهو قادر على ان يبعث الرسل برحمته ويضع للناس الدين الخالص ويأمر الناس باتباعه، ويراقب بنفسـه مخالفتهم له أو اطاعتهم اياه فيثيب من يشاء برحمته، ويغفر لمن يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بنقمته.

7- والله ـــ الخالق المدبر ـــ رحمن لا تحد رحمته، رحيم لأنه خلق الأشـياء ولا يزال يهب لها الخلق والهدى دون ان يكون محتاجاً إليها أو مضطرا إلى خلقها.

وهنا تختلف النظرة الإسـلامية عن النظرة الاغريقية التي تتعامل مع الآلهة الشـهوانية المتعجرفة المتهورة الغارقة في الشهوات، مثل: (زيوس) و(جوبيتير) وغيرهما ممن كان يُتصور

لديهم حقودا لدودا مشـغولا بشـهوات الطعام، لا يبالي من شـؤون الأرباب والمخلوقات الا ما يعنيه على حفظ سـلطانه والتمادي في طغيانه، وكان يغضب على (اسقولاب) اله الطب ـ بزعمهم ـ لأنه يداوي المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية. وكان يغضـــب على (برومثيوس) اله المعرفة والصناعة ـ بزعمهم ـ لانه يعلم الإنسان ان يستخدم النار في الصـناعة وان يتخذ من المعرفة قوة تضـارع قوة الأرباب. الإسلام يخالف كل هذه الآراء جميعا.

هكذا تبين لنا النصـــوص الشـــرعية حقيقة الكون، فيقول الله سبحانه: [إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَـفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّـهُ يَبْـدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ لِيَجْزِيَ الَّـذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّـمْسَ ضِـيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسَـابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ](يونس 3-5).

فالله خالق السـموات، ولكنه غير عاجز منها، بل هو الآن قد استوى على عرش القدرة والعلم يدبر أمور الكون. والأرباب التي تصـورها الفلسـفات وسـائط بين الله والخليقة، والأرباب التي تصـورها الفلسـفة الأوروبية بإسـم القوانين الطبيعية قد تكون لها تـأثير في الحقـائق ولكنـه تـأثير مـأذون فيـه. وهو رحمن، خلق الأشياء في مصلحة الإنسان، لا لكي يضرر بهم. كذلك الله.

وفي آية أخرى، كل شـــيء ينسـب إلى الله حتى الحوادث التي تجري حسـب السـنن الكونية لأنها كلها تجري بأمر الله وبقدرته المباشـرة. قال الله سـبحانه: [وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِـيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَـيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْـتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِّن شَـيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَـلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّـمَآءِ مَآءً فَأَسْـقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ * وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ](الحجر 19-23).

وفي آية أخرى:

[إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ](فاطر 41).

والله يقوم بتدبير أمور الإنسـان أيضـا.. ففي آية كريمة: [وإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ](الأنعام 17). وهو رقيب شـديد الرقابة على عمل الإنسـان، ففي آية شـريفة: [مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَـةٍ إِلاَّ هُوَ سَـادِسُـهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَـا كَـانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَـا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَـامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ](المجادلة 7). فالخلق والتقدير والسـلطان والتدبير لله وحده لا شـريك له. والانسـان هو الآخر مراقب من قبل الله تعالى مجزي بعمله.

ولا يعني هذا إلصاق أية صفة مادية بالله سبحانه، إذ ان طبيعة الخلق تقتضـي المباينة التامة بين الخالق والمخلوق. هكذا جاء القرآن يصـف الله بأحسـن الصـفات وينفي عنه صـفة المخلوقين. فيقول [لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَـارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَـارَ](الانعام 103).

ويقول [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ](الشورى 11). [سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ](الصافات 180).

وفي تفسير الآيات، جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما عرف الله من شبهه بخلقه[1]).. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (مباين لجميع ما أحدث في الصفات... ليس بجنس فتعادله الأجناس، ولا بشبح فتضارعه الأشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات[2]). وقال عليه السلام: (توحيده تمييزه من خلقه، وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة[3]).

وقال صلوات الله عليه: (الحمد لله الذي لم تسبق له حال حالا فيكون أولا قبل ان يكون آخراً، ويكون ظاهرا قبل ان يكون باطنا. كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمّه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها، وكل بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان، و لطيف الأجسام، و كل ظاهر غيره باطن، و كل باطن غيره ظاهر، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوّف من عواقب زمان..[4]) كذلك الله رب العالمين.

---

1 - بحار الانوار ،ج3 ، ص297 ، ح23 .
2 - بحار الانوار ، ج4 ،ص221 ،ح2 .
3 - بخار الانوار ، ج4 ،ص253 ح7 .
4 - بحار الانوار ، ج4 ، ص308 ،ح37 .

تعاريف لابد منها

إذا كانت التعاريف في كل علم ذات اثر ثانوي، فإنها بالنسبة إلى المعارف الفلسفية بمثابة حجر الزاوية. ذلك لأنها ليست الا محاولة لتعريف الحقيقة الكبرى، التي تتفرع عنها حقائق الكون. فهي بذاتها مجموعة تعاريف. ومن هنا تكسب التعاريف أهميتها في الفلسفة. ولابد لنا ان نقول بأن تعاريفنا هذه مطابقة لوجهة نظر الإسلام التي قد عرفنا انها الحق.

1- العقل:

ذلك النور الذي يميز به الإنسان الرشد من الغي، والخير من الشر، والممكن من المستحيل، والحق من الباطل. ان ذلك النور هو العقل.. ويعرفه (الفيروز آبادي) في (القاموس): (انه نور روحاني تدرك به النفس العلوم. وجاء في حديث النبي (ص): ان العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب، فإن لم تعقل حارت).

ولا يمكننا معرفة العقل الا بذاته وبما له من آثار، أما حقيقته فإن القول فيها نوع من الغرور. وان من آثاره، توجيه الإنسان إلى الخير وتحبيذه له، وردعه عن الشر وترغيبه عنه. وبهذا فسره النبي (ص) إذ جعله عقالا للنفس البشرية التي شبهها بأخبث الدواب ان لم تعقل حارت.

2- العلم:

ذلك النور الذي تكشـــف النفس به الحقائق وقد كانت من قبله جاهلة بها غافلة عنها. وليس كل اعتقاد علما ــــــ في المنطق الإسلامي ـــ إذ ليس الاعتقاد دائما كشفا عن الواقع، بل قد تكون النفس مطمئنـة بعقيدة، دون ان يكون لها بها علم. بلى؛ كل علم عقيدة إذ لا تملك النفس التي تنكشف لها الحقيقة بصورة واضحة ودون أيـة ريبـة أو غموض، لا تملك إلاّ أن تطمئن بها وتعتقد بمضمونها.

3- المعرفة:

وأما المعرفة فإنها علم مستجد بالشيء.

4- اليقين:

بعدما يحصـل العلم، تنشـأ صـفة في النفس تدعى بـــــ(اليقين). فاليقين اطمئنان الذات بحصيلة كشفها عن الحقيقة، وأما القطع فإنه يعني جزم الذات بأمر ســـواء كان حقا أم باطلا. ورب قطع يوافق الواقع لا يكون علما، لأنه يفقد صـفة الكشـف عن الحقيقة. فلو قطع (وجزم) فرد بوجود الروح ـــ لا لأنه عرفها بعلم ـــ بل لأن القول بوجودها كان في مصـلحته أو صـادف هوى في نفسـه فذلك القطع ليس بعلم وان كان صحيحا، لأنه لا ينطوي على كشف الواقع كشفا يقينا.

5- الحق:

وحين يتصــــادق ما بنفس البشـــر مع ما في الواقع يكون هو (الحق) والحق في اللغة يعني الثبوت، والتقرر، والوجود. ولذلك

فإن للحق معنى آخر ـ غير تطابق الشعور وخارج الشعور ـ ذلك المعنى، هو الوجود ســـواء علم به أحد ام لم يعلم، اعتقد به ام لم يعتقد. فمثلا الجنة حق لأنها موجودة فعلا في الخارج فإذا علم بها أحد، كان علمه حقا أيضــا. ولو مات رجل في بيته ولم يعلم بموته أحد أبدا، فإن موته حق أي ثابت.. ولفظة الحقيقة تعطي ذات المفهوم.. انها تعكس الأمر الثابت في الواقع الخارجي.

6- الروح:

الروح هي النفس وهي التي تنطوي على نور الحياة، والعقل، والإرادة. وهي حقيقة ثابتة وراء الجســـد، وهي محددة بالطول والعرض مختلفة بالقوة والضـــعف، ومتفاوتة بالاهواء والرغبات. وبافتقادها يعود الجسم ميتا.. ولا يهمنا ـ بعد هذا التعريف ـ ان نعتبر الروح مادة لطيفة جدا، ام نقول انها مجردة عن المادة الكثيفة. فإن الهدف واحد هو تفسير حقيقة أرقى من المادة التي نحس بها، ولكنها ليست هي الحياة والعلم والإرادة، بل ان هذه الأنوار تنشأ فيها.. تزيد وتنقص وهي هي.

7- النفس:

أما النفس فهي كلمة تعكس لدى الإســـلام مفهوم الروح تماما، ويراد بها ما يســـاوي كلمة الذات والقلب أيضـــا. الا ان الأوســـع مفهومـا هو الروح ثم النفس لأن القلـب يوحي غـالبـا إلى مركز العواطف أكثر من إيحائه بمبعث نور العقل والإرادة. ويوضـــع القلب عادة بإزاء العقل.. وينســـب إليه العمى والطبع والختم لأنها رمز الشهوات في اللغة العربية، كما هي كذلك في سائر اللغات.

8- الشهوة:

ان الشــهوة هي انجذاب النفس إلى شـــيء أو شــخص، ومبعث الشهوات هي طبيعة الحياة. فالحياة تتطلب ضروراتها التي تشكل في الغالب شـــهوات الإنســـان. وقد يخطئ الإنســـان في تمييز الضـرورة عما سـواها فتحدث فيه الصـفات الرذيلة التي هي نوع من انحراف حب الحياة في النفس.. وغالبا تستعمل كلمة الشهوات في الصفات الرذيلة هذه.

9- الهوى:

ويعني الهوى الحب، ولكنه يسـتعمل في منطق القرآن عادة في حب الذات (هوى النفس)، ولقد جبل كل شخص على هوى النفس. وبـالعقل تتمكن الـذات من تحـديـد الحـب هـذا وتوجيهـه الوجهـة المستقيمة.

10- الجهل:

والجهل صـــفة في النفس تقابل صـــفة العقل، وتقابل آثاره كل آثـار العقـل. ولا يعني الجهـل في منطق الإســـلام مجرد افتقـاد المعرفة، فمثلا الجزع والظلم والحسد والحقد كلها من الجهل.

11- الفكر:

ان توجه النفس إلى المعلومات الســابقة التي احتفظ بها لديه في محاولة لإســتعادتها واســتثارتها ومنهجتها واســتخراج معلومات جديدة عنها يسمى بـ(الفكر).

فالفكر إذاً عمل من أعمال النفس البشـــرية.. هدفه اســـتخراج معلومات جديدة من إثارة المعلومات السابقة.

12- الخيال:

تحتفظ النفس البشرية بالصور التي تنعكس عليها ــــ من نافذة الحواس ــــ عن العالم الخارجي، تحتفظ بها ثم تبدأ تركب بعضها مع بعض وتجرد بعضــها من خصــائصــها لتصــنع منها صــورة جديدة وهذا يسمى خيالا. فالخيال إذا إبداع النفس لصور كاذبة.

13- الإنتزاع:

قد يعلم الإنســـان بوجود دار معينة. ثم يعلم بوجود دار أخرى وثـالثـة ورابعـة و.. و.. وهنـا تتعـب النفس عن الاحتفـاظ بعـدة معلومات عن الدور العديدة المتمايزة عن بعضـــها فتحاول ان تســـتريح وتجد مهربا في تجريد الدور عن صـــفاتها المميزة والتركيز على صــفتها الموحدة فتحتفظ الذاكرة بصــورة عن الدار بعيدة عن خصائص الدور التي عرفها الإنسان وتسمى هذه عملية الإنتزاع.

فالإنتزاع ـ إذا ـ توحيد المعلومات المختلفة بصبغة واحدة.

14- التصور:

حينما يحس الفرد بشيء تنعكس صورته على نفسه، وقد تعمل النفس عامدة لخلق مثيلها. وتذكر الصـــور النفســـية أو معرفتها يدعى بالتصور.

فالتصــور ــــ إذاً ــــ علم النفس بما فيها من صــور الحقائق الخارجية.

الفكر الإسلامي مواجهة حضارية

<u>القسم الثاني عن:</u>

العقيدة والإيمان

الدليل إلى الله
الرسالة
الولاية
الحياة بعد الموت

القسم الثاني: عن العقيدة والإيمان

<u>البحث الأول عن:</u>

الدليل إلى الله

كلمات في البدء
أي رب ندعو إليه
الدليل إلى الله
التذكرة بالله
مغالطات مفضوحة
الإيمان بالله
معطيات الإيمان

كلمات في البدء

لماذا ندرس العقائد؟

1- لأن العقائد تبين مبدأ الإنسـان ومصـيره وخط سـيره في الحياة الأولى والآخرة، فإن من لا يدرسها ببصيرة، سوف يحسب انه على صـراط النجاة.. بينما هو على صـراط الشـقاء في الدنيا وسبيل النار في الآخرة فيخسر نفسه في العالمين.. ومن هو أشقى ممن خسر نفسه في الدنيا والآخرة؟ قال الله تعالى: [قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَـرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً]، (الكهف 104/103).

2- من أوجده؟ إلى أين ينتهي؟ ولماذا جاء؟ وما هو سـبيله الأقوم؟ وكيف يسعد؟ ولماذا خلق الكون؟ وما هي الغاية من وجود البشر؟ ولماذا يسعد بعض ويشقى آخرون؟ أسئلة يطرحها كل فرد على نفسـه، ويسـعى لمعرفة الإجابة الصـحيحة. ذلك لأن هذه الأسئلة ترتبط بكافة نواحي حياته وبدون الإجابة عنها يفقد الرؤية السـليمة إلى الحياة فيقع في تناقضـات مسـتمرة وهنا إذا هو درس العقائد دراسـة عميقة عرف الإجابة الصـحيحة، والا فاما ان تبقى الأسئلة لديه بدون جواب فيصيبه الفراغ والضياع، أو يجيب عنها

إجابات مرتجلة فيضل، ويشقى! إذ انه راح يعتقد بأفكار خرافية مثل عبادة الأصنام والحيوانات والنجوم.

3- لقد بث أعداء الإسلام شبهات حول الدين فلقفتها الشبيبة لأنهم لم يكونوا قد درسوا بوعي ما كانوا يعتقدون به، فتمسكوا بالشبهات وتركوا حقائق الدين وأصبحوا دعاة للكفر وجنودا للأعداء، فكان لابد لنا من ان ندرس العقائد لنرجع هؤلاء إلى ما كانوا عليه من عقيدة بالدين والتزام بشرائعه.

4- والثقافة الإسلامية التي نزل بها الروح الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم تبق سليمة وذلك بفعل ما اختلط بها من اهواء وأساطير أملتها خرافات الإغريق قديما، وفلسفات الغرب حديثا. فلم يعد المسلم يبصر طريقه في الحياة، تلك الطريق التي ضاعت في زحمة الدعايات الأجنبية فأصبح متوتر الفكر، مشوه الكيان، مفقود الثقة بنفسه والأصالة في رأيه، مغرقا في بؤرة التناقضات.

ولكي نعيد المسلم إلى واقعه، وننقذه من سلبيته وتبعيته، لابد ان نعيد إليه الثقافة الإسلامية الحقة التي ترتكز على العقائد الإسلامية.

كيف ندرس العقائد؟

أمام دارس العقائد ثلاثة مناهج مختلفة:

1- منهج الفلسفة؛ ويعتمد على المنطق الأرسطي (الشكلي) وفلسفة الاغريق الالهيين، وعلم الكلام الإسلامي المقتبس منها وهو منهج شكلي تجريدي. ودراسة العقائد وفق هذا المنهج استعارة ناشزة للقالب الفلسفي في عرض العقائد الإسلامية حيث

تتلوث بتصـورات البشـر الوثنية، إذ ان الإسـلام مبدأ حنفي جديد على الإنسـان موحى إليه من الغيب، وله قالب يناسـبه، وأي اقحام لمفاهيم الفلسفة ومناهجها وألفاظها في بنائه الفكري يشوه صبغته ويخل بتوازنه ويقضي على وحدته العضوية الداخلية.

ومن هنا فقد أخطأ أولئك الذين حاولوا صـــياغة الإســـلام في قوالب أجنبية غريبة في مناهجها وألفاظها وإيحاءاتها عن روح الرســـالة الإســـلامية، كعلماء الكلام قديما ومقلدي الغرب حديثا.. وقد نعت الإمام أمير المؤمنين عليه الســـلام أول من قام بهذه المحاولة الخاطئة في المســلمين، نعته بأنه (ســامري هذه الأمة[1]) لأنه بدل عبادة الله الأحد بعبادة التوهمات الغريبة عندما أشـــاب نقاء الحنفية الإسلامية بوثنية الاغارقة المشركين!

2- المنهج الصـــوفي؛ وقد انبثق هذا المنهج من الاغراق في التقشـف وجعل الإنسـان رمز الشـرور والخطيئات الذاتية، وجعل فناء الإنسان في غياهب العدم والسلبية هو المنهج القويم الموصل بهم إلى الحقيقة. ونرى هذا التصـــور الخاطئ بارزا في الفلســـفة البرهمية والفلسفات الآسيوية البعيدة، وقد طرقت أبواب المسلمين في بداية القرن الثاني مع نشاط حركة الترجمة بين المسلمين.

وهذا المنهج ينكر دور العقل في معرفة حقائق الكون، ويدعو إلى الســـلبية ونبذ النظم الدينية والاكتفاء بالصـــفاء الروحي الذي يتحول شـــيئا فشـــيئا إلى الانطواء أو اللامبالاة. والواقع ان ابتعاد هذا المنهج عن روح الإسلام هو كبعد الإسلام عن روح الجاهلية. إذ ان هذا المنهج يعتمد على العمل أكثر من اعتماده على العقل! بل ويكفر بدور العقل والاســـتدلال النظري بتاتا، ويتصـــور ان

1 - بحار الانوار ،ج42 ، ص142 .

معرفة الله هي فوق مستوى العقل. وهذا قول مرفوض وباطل كما تحدثنا عنه في القسم الأول، من هذا الكتاب.

3- المنهج الإسلامي؛ ويستوحى من القرآن الحكيم ويقوم على أصول ثابتة من الفطريات المسلمة والمتميزة عن دواعي الهوى والغضب، وميزته الأساسية ايقاظ الوعي وإثارة العقل والدعوة إلى التدبر والتفكر والتوجيه إلى الانفتاح على الحياة لمعرفة أعماقها وملامسة أغوارها ومخاطبة روحها النقية الخالصة. ولا ينسى هذا المنهج دور العمل كما لا يجرد العقل عن العمل، وأسلوب الحديث في هذا المنهج التذكرة والتنبيه والابتعاد ابدا عن المراء والجدل والمكابرة على الحق.

وركيزة الحديث فيه التبشير والانذار وذكر الأمثال من الأمم السابقة، كيف نجى فيها من نجى وكيف هلك منها من هلك.

ونحن نتبع هذا المنهج لأن الإسلام لا يمكن فهمه الا من حيث المجموع لأنه بناء متين ينبغي ان يدخل فيه برفق وتدبر.. ولأنه طريق قريب، واضح المعالم، بليغ البينات، منسجم مع الفطرة، وضرورات الحياة.

ولقد استوحينا المنهج من هدى القرآن حين حاولنا التلمذة عليه دون ان نحاول التأويل فيه، أو مواجهته برواسب الثقافات الغريبة[1].

---

1 - راجع مقدمة الطبعة الرابعة .. في مطلع هذا الكتاب

أي رب ندعو إليه ؟

إلى أي اله ندعو الناس؟ لابد ان نوضـــح عدة نقاط مبدئية لكي لا تكون دعوتنا إلى الله مشـــوبة برواســـب الثقافات الأخرى، وبالتالي ترفض هذه الدعوة بسبب تلك الخرافات التي زعمها الآخرون ونحن منها براء. والواقع ان أكثر المشـــركين بالله هم الذين تصـــوروا الله بـأوهـام بعيـدة عن الحق فـأنكروا الله وهم لم ينكروه في الواقع بـل أنكروا من تصوروا انه الله والا فأي شيء أكبر شهادة من الله؟

القرآن نجاة من الأساطير

ولابد لنـا ان نتبع القرآن في التذكرة بـالله والدعوة إليـه، ويكمن الســبب في ان البشــر عاجزون عن بلوغ المعرفة الصــحيحة الا بســـبب من الله تعالى. ولذلك تخبط الإنســـان في ظلمات الاوهام حينمـا ترك الاهتداء بنور القرآن فاعتقد بـالخرافات وزعم: ان الله جسم لا نهايـة لـه أو انـه جسم محدود، وقد تنزل فأصبح الخلق، فإذا ارتفع النـاس أصـبحوا آلهة. وانه بعيد عن خلقه بمباينة، ويده عنهم مغلولة، وانه أولد عيســـى وعزير، وان اليهود أبنـاءه، وانه تعالى عاجز عن إزالة الشر، وانه يبغض البشر ولكن لا يقدر عليهم[1].

1- كانت هذه بعض خرافات الفلسفة وأسـاطير مشـركي أهل الكتاب، وقد سـبقت طائفة منها لدى بيان الفلسفة الإسلامية.

ولم يفضح هذه الخرافات الا القرآن وما صح من تفسيره على لســان نبي الاســلام و أهل بيته عليهم جميعا صــلوات الله ، فعلينا الاهتداء بهداه والاقتباس من نوره.

والواقع ان البشر أثبت عمليا عجزه عن بلوغ المعرفة الخالصة لله ســبحانه دون التنور بهدى الأنبياء عليهم الســلام.. إذ ان تاريخ الإيمان بالله يرشـــدنا إلى ان الإنســـان كان يتخبط، حين ابتعد عن منهج الله تعالى، في ظلمات الجهل والغفلة. فالناس كانوا بين من أنكر الله أو أثبته وأنكر صفاته الحسنى، ومن أثبت له صفة العجز والذل –سبحانه- أو بالغ في إلصاق الصفات البشرية حتى زعم انه مركب. ومن يطلع على ركام الجهالات البشـــرية هذه يعرف مدى الحاجة إلى الرجوع إلى الله في تعريفه لنفســـه، وذلك في كتابه الكريم الذي تجلى فيه لعباده لو انهم كانوا يبصرون. قال الله تعالى: [كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِـــرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ](ابراهيم 1-2).

أنواع المعرفة

وللإنســـان في المعرفة أحوال ثلاثة: المعرفة التامة، والجهل التام والمعرفة البسيطة.

1- فقد تعرف مثلا تفاصيل حدث كائن غدا.

2- وقد لا تعرف شيئا من ذلك.

3- وتارة تعرف ان شـــيئا ما كائن غدا، ولكن لا تعرف كيف هو وأنى هو؟

فهذه ثلاثة أحوال في المعرفة بصـــفة عامة، أما حول الله فليس لنا معرفة الله تفصـيلا ولسـنا عاجزين عن معرفته رأسـا، وان لنا بين ذلك ســبيلا وســطا وهو ان نعرفه بآياته دون ان نحيط علما بكنهه وذاته. وإليك مثالا نقدمه عن معرفة العلم (تعالى الله عن الأمثال): حينما ترى آيات العلم ترى أنك تحيط ببعض الأشـــياء علما وأنت على يقين بأن علمك هذا شيء غيرك. عند ذلك تصدق بواقع العلم، ولكن كيف عرفت العلم؟ ام كيف أحطت به؟ وبأي وســيلة؟ أبعلم أحطت به، ولا يحيط الشـــيء بنفســه؟ ام بالجهل عرفت العلم، وكيف يرشــدك الجهل إلى العلم؟ وهل يكون الظلام رائد النور؟ لابد لك من ان تصدق بوجود العلم وليس لك أمر فوق ذلك تصـــدق به، لأنك لا تســـتطيع ان تنكره بعد ان رأيت آياته الباهرات، ولا تحيط به لأنك لا تملك وسيلة إلى ذلك.

حتى ان العلم بوجود واقع العلم لا يعني اننا نثبت للعلم وجودا كما نثبت للمعلوم وجودا. ذلك لأنه ليس لنا طريق إلى اثبات وجود للعلم، بل كل ما يعني ذلك اننا نخرج العلم عن اطار العدم وننكر ان يكون معدوما.

فالمعرفة التي يمكننا تحصـيلها في هذا المجال هي التي تجعلنا بين النفي والاثبات، حيث ننفي العدم، ولا يمكننا ان نشـــير إلى الوجود. صـــحيح ان انكار العدم بذاته دليل الوجود إذ لا وســـيط بينهما، ولكن لا يمكننا الإثبات الصـــريح لأنه لم نؤت وســـيلة إلى ذلك. وهكذا تكون المعرفة بالله!

حينما نرى الســـماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات في غاية الدقة والنظام، لا نملك الا ان نعترف بأن موجدها وخالقها

ليس عدما. ولكن هيهات لنا ان ندعي له وجودا الا بقدر (ان كل ما ليس بمعدوم فهو موجود). وهذا يختلف عن القول بثبوت الوجود له على غرار (الوجود) الذي نعهده في الأشياء –سبحانه.

وحينما نرى في آيات الله آثار التدبير والتقدير نعلم بأن بارءها يتعالى عن الجهل والضعف. وهل يعني هذا اننا عرفنا (علم الله) واحطنا (بقدرة الله)؟ كلا! لا يعني هذا الا نفي الجهل والضعف عنه وان نقول تعالى الله عما هو صفة المخلوقين.. وما قولنا ان الله قدير عليم الا إشارة إلى نفي الضعف والجهل عنه، لا اننا علمنا منه (العلم والقدرة) لانه قد سبق ان عقولنا اعجز من ان تصل إلى مستوى الخالق. والى هذه الحقيقة تشير الأحاديث التالية:

سأل سائل الإمام الصادق (ع) عن الله؟ فقال: هو الرب وهو المعبود وهو الله، وليس قولي (الله) اثبات هذه الحروف (الألف واللام والهاء) ولكن أرجع إلى معنى هو شيء خالق الاشياء وصانعها، وهذه الحروف –المسمى به الله والرحمن الرحيم وأشباه ذلك- من أسمائه، وهو المعبود جل وعز.

قال السائل: فانا لم نجد موهوما الا مخلوقا؟ قال ابو عبد الله(ع): لو كان ذلك كما تقول لكان التوحيد عنا مرفوعا، لأنا لم نكلف ان نعتقد غير موهوم، ولكننا نقول كل موهوم بالحواس مدرك بها تحده الحواس وتمثله فهو مخلوق. ولابد من اثبات صانع للأشياء خارج من الجهتين المذمومتين؛ أحدهما النفي إذ كان النفي هو الإبطال والعدم، والجهة الثانية التشبيه من صفة المخلوق الظاهر التأليف والتركيب. فلم يكن بد من اثبات الصانع

لوجود المصنوعين، والاضطرار منهم إليه. فثبت انهم مصنوعون وان صانعهم غيرهم وليس مثلهم. إذ لو كان مثلهم لكان شبيها بهم في ظاهر التركيب والتأليف وفيما يجري عليهم من حدوثهم بعد ان لم يكونوا، وتنقلهم من صغر إلى كبر، وسواد إلى بياض، وقوة إلى ضعف، وأحوال موجودة لا حاجة لنا إلى تفسيرها لثبوتها.

قال السـائل: فقد حددته إذا أثبت وجوده. قال (ع): لم أحده ولن أثبته إذ لم يكن بين الإثبات والنفي منزلة. قال السـائل: فله إنيه ومائية[1]؟. قال الإمام (ع): نعم لا يثبت الشـيء الا بانية ومائية. قال السـائل: فله كيفية؟ قال(ع): لا لأن الكيفية جهة الصـفة والإحاطة ولكن لابد من الخروج من جهة التعطيل والتشـبيه، لأن من نفاه أنكره ورفع ربوبيته وأبطله، ومن شـبهه بغيره فقد اثبته بصـفة المخلوقين المصنوعين الذين لا يستحقون الربوبية، ولكن لابد من إثبات ذات بلا كيفية لا يسـتحقها غيره ولا يشـارك فيها ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره.

وسـئل ابو جعفر (ع): يجوز ان يقال لله انه شـيء؟ فقال: نعم يخرجه من الحدين؛ حد التعطيل وحد التشبيه.

وقال الصـادق (ع): ان العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ولا يعرفه بما يوجب الإحاطة بصـفته. فإن قالوا كيف يكلف العبد الضـعيف معرفته بالعقل اللطيف ولا يحيط به؟ قيل لهم انما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم ان يبلغوه وهو ان يوقنوا به ويقفوا عند أمره ونهيه ولم يكلفوا الإحاطة بصـفته.. (وذلك لأن الله لا يرى بعين الوهم).

1- أي هل ان الله شيء محقق له صفات خاصة؟ وكلمة انية مشتقة من حرف أنّ وهو للتحقق، وكلمة مائية مشتقة من لفظة: ما هو؟ وهي سؤال عن صفة الشيء.

المعرفة فطرة الإنسان:

الإنسـان جزء متفاعل مع العالم كله، يرتبط معه في كل شـيء؛ في مواد جسـمه وسـنن حياته ومعارف عقله وشـهوات قلبه. واي محاولة لفصـــله عن طبيعته المتفاعلة المنســجمة مع الكون تكون فاشلة. والمعارف البشرية سعي متواضع لكشف بعض مناحي هذا التفاعل الواسع بين البشر والكون من حوله.

والدين الحق تعبير صـحيح عن الكون؛ روحه وجسـمه، باطنه وظاهره. وفي الكون هذا الإنسان المتفاعل معه، والكون خليقة الله العظمى ومظهر اسـمائه الحسـنى فهو أبرز شـاهد وأكبر آية على الله تعالى. وبحكم تفاعل الإنســان مع هذا الكون، وبحكم ان الكون شـــاهد على الله فهو مفطور على الدين ليس في عقله وروحه فقط بل في كل شـيء منه، فهو مرتبط بأكثر من خيط بأصله وطبيعته. وشـعوره لا يعدو أن يكون مفطورا على معرفة الله وحبه والإنابة إليه، وهذا نوع من المعرفة الفطرية تأكدت بمعرفة أخرى عندما بدأ الله خلق الإنسان، حيث أشهده على نفسه وعرفه خلقه. وهنالك عرفنا ربنا معرفة تامة، وعلق بأنفســـنا ما يشـــبه الظل من تلك المعرفة، ذلك الظل الذي يدفعنا أبدا إلى البحث عن الله، فتارة نهتدي إليه وتارة نضـل عنه فنتخذ اندادا من دون الله ونزعم بأنها هو الذي عرفناه ســـابقا. ولولا هذه المعرفة الأولية التي تدغدغ ضـمير كل بشـر لما بحث الناس عن إله، ولما ابتغوا إليه الوسـيلة بشـتى الأسـباب. وهذه الفطرة تســاعد الإنســان على معرفة الله الحق. فليس أمامه سوى ان ينبه به ويذكر إليه فإذا بشعاع المعرفة يغمر فؤاده، الا ان يجحد عنادا وطغيانا.. قال تعالى: [وإِذْ أَخَذَ

رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ](الأعراف 172) وجاء في الحديث في تفسير هذه الآية [وإذ أخذ ربك من بني آدم...] انه سئل معاينة كان هذا؟ قال الإمام: نعم فثبتت المعرفة ونسوا الموقف، وسيذكرونه، ولولا ذلك لم يدر احد من خالقه ورازقه. وفي تفسير قوله (فطرة الله التي فطر الناس عليها) قال: فطرهم على التوحيد[1] .ان هذه الحقيقة لتهدينا إلى عدة حقائق:

أ- ان البشر لا يحتاج لمعرفة الله إلى أكثر من التوجيه والتذكير.

ب- ان ما قاله الماديون في تفسير توجه الناس إلى الدين ورغبتهم الملحة إلى معرفة الله ان ذلك من ضعفهم وجهلهم عن التفسير الصحيح للحوادث، انما هي ضلالة بعيدة، إذ لو لم يكن لديهم فطرة أولية تهديهم إلى الله لما أظهروا ضعفهم بهذا الشكل.

ج- انما السبب في توجه الناس إلى الله وترك ما كانوا يعبدون من الشركاء، وذلك حين تمسهم الضراء والبأساء، انما السبب في ذلك وجود معرفة فطرية لديهم بالله، إذ تنقشع عن أنفسهم آنئذ حجب الغفلة والمصلحة ويتوجهون إلى الله.

دور الأنبياء في المعرفة

1- هناك مجموعة ضخمة من الشواهد العلمية الحقيقية والأدلة الفلسفية تؤكد الحقيقة الا ان المجال لا يسع لذكرها لأننا لسنا الآن في معرض بيان هذه الحقيقة بل انما نريد هنا عرض الفكرة الإسلامية عن التوحيد وتفسير عدة ظواهر وجدانية عنها.

بما ان الإنســـان مفطور على المعرفة في عالم ســـابق على هذا العـالم، ولم يحـدث لـه إلا النســـيـان والغفلـة عن تلـك المعرفـة والاحتجاب عنها باتباع الشـهوات، فانه لا يحتاج الآن الا أن يلفت نظره إلى ما غفل عنه من المعرفة بعد أن ترفع عن وجهه غشـــاوة الحجب. ولم يكن من الممكن عودة الإنســـــان اللاصـــــق بالارض بمباهجها ومشـاكلها وأمانيها البعيدة الاّ برسول مبعوث من الله ، إذ أن هذه العودة تســـتوجب تناســـي الإنســـان لعالمه المادي القريب وتطلعه إلى الآفاق البعيدة حيث الغيب الذي يدبر أمور الحياة وذلك أمر مســـتصـــعب لا يلائم طبيعة الانســـان، ولهذا بالذات بعث الانبياء(ع) فقد جاءوا لكي ينذروا البشر عن التمادي في الغفلة عن معرفة الله تعالى ويذكروهم بربهم الذي أنعم عليهم بنعم لا تحصى.

ولقد كانت هذه ســنة الانبياء عليهم الســلام. فهذا القرآن تذكرة بالله ، فليس في القرآن سـورة، بل ولا آية الا وتذكر بالله بصـورة مباشرة أو غير مباشرة، ورفع حجب الغفلة من دونه. وهكذا كانوا يصــرحون للناس ان الهدف الرئيســي من بعثهم كان تذكرة العباد بربهم وتوجيههم إلى خالقهم. قال تعالى (فذكر انما أنت مذكر، لست عليه بمسيطر[1]). وفي الحديث: سئل الامام الصادق (ع) عن الناس: (أضـلالا كانوا قبل بعثة الانبياء (ع) أم على هدى؟) فقال: (لم يكونوا على هدى، بل كانوا على فطرة الله التي فطر النـاس عليها لا تبديل لخلق الله، ولم يكونوا ليهتدوا حتى يهديهم الله).

1 - الغاشية 22

الدليل إلى الله

آيات الله

أ-ما هو الدليل إلى الله؟.. تدبر في نفسك واسرح ببصرك في الآفاق فانظر ماذا ترى؟.. ألست ترى ما تعجز عن وصفه عالما متوازنا مبدعا مدبرا وأنت فيه صغير يدبر شؤونك مولى عطوف ويربيك طورا فطورا.

ب-ويقولون: ان الكون جاء صدفة ونظم صدفة ويسير بغير دليل. سبحان الله، ما هي الصدفة؟ هل يمكن تفسيرها؟ أو لا تعني الصدفة سوى أن حادثتين وقعتا في حالة واحدة، وكان لكل واحدة منهما سببها، الا انه كانت في وقوعهما معا حكمة جديدة؟ هذه هي الصدفة التي نعرفها، ولا نعرف الصدفة عملا بغير عامل، أو خلقا بدون خالق، أو حادثا بدون سبب.

ج- الكون لم يحدث بل كان أزليا. هل هذا صحيح؟ كلا! ان جميع شواهده يدل على حدوثه، تطوره، تناميه، تناقصه، تناقضه، حاجة بعضه إلى بعضه، تركيب أجزائه بدقة وتناسق. ان في هذه آيات الحدوث.. بل كل اكتشافات العلم تهدي إلى ان للوجود عمرا محدودا. فالحرارة المتاحة للحياة تتناقص، وعمر النجوم محسوب، والأرض لم تكن ثم كانت، والوجود كان مركزا ثم

حدث فيه انفجار هائل ثم أخذ يتباعد وانه سـيرسـو في نهاية محدودة[1].

[أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا](الأنبياء30) وهل هي بحاجة إلى أكثر من لفتة نظر، حتى نعرف ان هناك من نحتار في كنهه ولا نعرف الا انه شـيء فوق الأشياء، شيء لا يشبه الأشياء وهو قادر عليم وهو الذي أبدع الكون إبداعا.

د- يقولون: هي الصدفة التي نسقت علاقة الأشياء ببعضها. فصـدفة وبدون أية حكمة أو تدبير كانت حركة كوكبنا (الأرض) حول الشمس منضبطة تمام الانضباط بحيث لا يمكن ان يحدث أدنى تغير في سـرعة دورانها حتى بعد مرور قرن من الزمان، وصـدفة كان نظام القمر الذي يتبع في حركته الأرض يدور في فلك مقرر ومنضبط مع تفاوت يسير يتكرر بدقة فائقة.

هل هي صـدفة؟. نحن لا نفقه من لفظة الحكمة الا النظام الدقيق، فهل هم يفهمون منها ما يرادف كلمة الصدفة.. ان الفضاء الكوني فسـيح جدا تتحرك فيه كواكب لا حصـر لها[2]، بحيث لو أوتيت ــ فرضا ــ أجنحة من نور وسارت بك الف مليون سنة في سرعة الضوء لما قدرت ان تحيط بالكون، لأنه في توسع مستمر يسبق أجنحتك الخيالية السرعة.

ان دقة التنسـيق وروعته تبهران الإنسـان وهو يتدبر في آفاق السموات التي تهتف به انها تُدَبَّر من لدن حكيم عليم.

1- سبق الحديث حول ذلك عند الحديث عن طبيعة الوجود.

2- أقوى تلسكوب في العالم يستقر في (مأونت بالومار) في الولايات المتحدة ويشاهد بلايين النجوم.

هـــ - ان شواهد العمد والتصميم السابق متوافرة في كل حركة في الكون. فبالرغم من وجود ســنن كونية تجري عبرها الكواكب والمنظومات، فإنها ليست كآلة ميكانيكية، بل انما هي كسيارة في عراء قد استوى عليها صاحبها وسيرها بقدرة وخبرة بالغة.

فالآلة الميكانيكية تفترق عن السيارة في ان الآلة ذات محدودية ضـــيقة، وبرغم تحركها فهي لا تتطور ولا تتوســـع. وإن الكون يجري لمستقر معلوم. له بداية وله توسع وتناقص وله نهاية. ومن هنا فليســت المجرات وهي تتغير وتتطور كالســاعة الأوتوماتيكية التي صنعت ثم جعلت تتحرك بذاتها، بل هي كالساعة وهي تُصنع وتُكمل لحظة بعد لحظة، لأنها في صنع وتقدير مستمرين. فمثلا: مجرات الكون تسير حينا باتجاه بعضها ولكنها لا تتصادم أبدا، بل تتداخل ثم تتوادع وتتابع كل واحدة منها مسيرتها بسلام.

وهناك تكوّن جديد للنجوم ولكنه لا يتكون في أي موقع كان وفي أي زمان كان، بل يتكون في لحظة معينة وفي موقع معين ولهدف معين ليُعرف ان وراء الأمر حكيمٌ يدبره تدبيرا.

وان للصدف مجالا واسعا فيها ولكنها صدف مقصودة، الشهب تقاذفها الصــدف ولكنها في النهاية صــدف حكيمة تنطلق في وقت معين ولهدف معين. سبحان من يرصدها وسبحان من يرميها.

و - وحســب أحدث النظريات الكونية ان في آفاق الســماء خلقا مستجدا دائما ولكنه خلق مقصود ومتعمد.

والميكنة قد تفسر شكلا خاصــا من الأحداث، ولكن هل بإمكان المصــنع الذي ينتج الســيارة ان يصــنع الطائرة في لحظة معينة؟ كلا! لقد عبر عن هذه الحقيقة عالم كبير بطريقة لطيفة فقال: انه

يستحيل على مصنع يخرج منه الرجل ان يصنع المرأة لو لم تكن هناك حكمة بالغة تدبر الأمر بالغيب! وكذلك قال الله في كتابه: [وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّـــمَآءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ](الروم 25-27) وفي الأرض آيات للســـائلين. فكل ما في الأرض جاء لمصـــلحة كل فرد. وجدير بنا ان نســـأل كيف خلقت الصـــدفة كل شيء في صالح الإنسان؟ فحجم الأرض لو كان بحجم القمر، إذن لقلَّت جاذبيتها إلى الســـدس واشـــتدت البرودة فيها ليلا والحرارة نهارا ونقصــت مياهها، وانهار توازنها واستحالت فيها الحياة... ولو كان حجمها أكبر منها بضـــعف إذن لانكمش غلافها الجوي واشتد ضغط الهواء فيها وأثر في استمرار الحياة عليها.. والضغط الجوي لا يزيد عن 15 رطلا لكل بوصـــة مربعة لأن هذا القدر فقط يفيد حركة الإنسان ونشاطه.

والضغط من الجاذبية، وقد كشف نيوتن عن وجود تجاذب بين أي جسم وجسم وبقي متسائلا: كيف ينجذب جسم ميت إلى جسم ميت ان لم تكن لهما أهداف مشـــتركة وراءهما، وممســـك عظيم، وفي الأرض اختلاف الليل والنهار واختلاف المواســـم، ولم يكن ممكنا وجود هذا الاختلاف دون تدبير دقيق جعل الأرض تدور في زاوية 33 درجة. تصـور لو لم يكن فيها هذا التدبير، أفلم يكن قد غمر الظلام القطبين أبدا وما بقي على الارض غير جبال الثلج والفيافي الجرد واستحالت الحياة؟

فسبحان من علم وقدر وقضى ونفذ القضاء بقوة، بل يقولون صدفة، بئس ما يخدعون به أنفسهم.

ان سمك الأرض لو كان أكثر عشرة أقدام لامتصت الارض الأوكسجين واستحالت الحياة، ولو كانت البحار أعمق بضعة أقدام لاستحالت الحياة أيضا، ذلك لأنه كان قد انجذب ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين.

أكان كل ذلك صدفة؟ سبحان الله عما يصفون.

ز- ان منظر المطر رائع، وفيه منافع للناس جميعا. فلنتصور أي تدبير حكيم هذا الذي يجعل البحر يتبخر صاعداً ويأمر الرياح ان تحملها إلى حيث (يشاء هو) فيهطل عليهم بقدر ما يصلحهم، ويزيد لهم الرعد والبرق وهما ضرورتان للزراعة.

وتقول صدفة تمطر سنة هنا وسنة هناك؟! كلا انما هو وفق نظام دقيق يناسب تدبير الحياة والاحياء كما يناسب سائر قوانين الكون.

قال الله تعالى: [فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ](عبس 24-32). وقال: [وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً](الانعام 99).

ح- وحياتنا الشخصية هل تدبر بالصدفة؟ قليل من الناس يستطيع ان يقول ماذا سيصبح في المستقبل، بل ماذا يكسب غدا ومتى يموت. ولو تدبرت قليلا لوجدت ان صدفا ما غيرت مسيرة حياتك، وحوادث ما جعلتك تغير أفكارك، بل انك في لحظات

اضطررت ان تختار طريقا مختلفا عن آمالك، بل اخترته بصورة فجائية لم تسبقك إليه بادرة أبدا. ولقد عبرت عن هذه الحقيقة آية شريفة تعبيرا لطيفا، فقال: [أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ](الانفال 24). وانك تعلم كثيرا، ولكنك لا تختار بالضبط متى تعلم وكيف تعلم. وبالرغم من ان هناك أسباباً معينة للتعلم فإن يدا غيبية تنظم التعليم وتوجهه. وأكبر العلماء وأقدرهم يرى نفسه ـــــ حسب اعترافات فريق عظيم منهم ـ تلميذا متواضعا للغيب يفتح له أبواب العلم بقدر معلوم.

ولم تتم الاكتشافات العظيمة الا في حالات تشبه الغيبوبة والتنبه الخاطف. ونعلم أشياء ثم ننساها وصدفة نتذكرها وحين نتدبر لحظات نرى ان هناك مصالح عامة عملت في ذهولنا.. ولا نعلم أشياء، وصدفة نعرفها ويكون ذلك في صالحنا ونسميه الحس السادس. هكذا يتقلب البشر بين أصابع الله سبحانه. فإذا به يجد ذاته مدبرا محدود الاختيار. قال الله سبحانه: [إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ](لقمان 34).

وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) في جواب سؤال وجه إليه ان بما عرفت ربك قال: (الله بفسخ العزائم ونقض الهمم[1]) .

ط- وفي حالات عديدة يرتبط وجداننا بقوة غيبية فنسأل صاحبها (باسم أو بآخر) ونتضرع إليه بقلوبنا، فنجدها ذات اثر فعال في توجيه حياتنا نحو الأفضل، ونجد الحياة المستصعبة تيسرت، حتى نخال ان القدرة كانت من ذواتنا بصورة أصيلة..

---

1 - بحار الانوار ، ج3، ص42 ،ح 17 .

وعندما تهجم علينا المصـــائب تتوســـل قلوبنا بقوة غيبية قاهرة لا نعلم أين هي وكيف هي، بل لا نعرف عنها الا انها قادرة على انقاذنا. وقد تصـفو النفس إلى درجة تحسـب انها ترى الله، بل هو أشـد من الرؤية وضـوحا آنذاك، ولو يتذكر الإنسـان تلك اللحظات لعرف ان الله لا ريب فيه، فاطر السـموات والأرض الرؤوف الرحيم.

قال الله في كتابه الكريم: [هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ](يونس 22).

وجاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام يقول: يا ابن رسول الله! دلّني على الله ماهو؟ فقال له الامام عليه السـلام: يا عبد الله ، هل ركبت سـفينة قط؟. قال: نعم . قال: فهل كسـرت بك حيث لا سـفينة تنجيك ولا سـباحة تغنيك؟ قال: نعم. قال : فهل تعلّق قلبك هنالك أن شـيئاً من الاشـياء قادر على أن يخلّصـك من ورطتك؟ قال: نعم، فقال الصـادق عليه السـلام: فذلك الشـيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، و على الإغاثة حيث لا مغيث.)[1]

وهكذا يعرف الله نفسه للإنسـان مرة بعد أخرى ويظهر في كل شـيء ظهورا، لا تراه تلك العيون التي تعودت رؤية الفقاعات الصـغيرة دون ما وراءها وانما تراه القلوب البصـيرة النافذة التي

1 - بحار الانوار ،ج3 ، ص41 ، ح16 .

تخترق ظواهر الحياة إلى حقائقها [سَـنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ](فصلت 53).

أسماء الله الحسنى

1- اننا نجد في أنفسنا وفي الكون المحيط بنا نقطتين متقابلتين؛ نقطة الضعف ونقطة القوة. فإننا مثلا موجودون، الا ان وجودنا محدود بالزمان والمكان، واننا عالمون لكن علمنا محدود بالوقت والكمية، ومثل هذا كل شيء في العالم.

2- ليس لنا ان ندعي ان ما بنا من علم ووجود هو من معطيات ذواتنا الأولية، وان ذواتنا هي الوجود والعلم، إذ لو كنا نملك بذاتنا ان نوجد أنفسنا إذن لأوجدناها كبيرة قديرة كما نحب، باقية خالدة كما نأمل، كذلك لو كنا نملك العلم بذاتنا إذن لأعطينا أنفسنا علم كل شيء وبالتالي ما نسينا شيئا أبدا.

3- فإذا لم تكن ذاتنا بالعلم والوجود كما هي الحقيقة، فلا بد ان نهتدي إلى انها من طبيعة العدم والجهل. فنعرف ان ما بها من وجود وعلم هو من مصدر كامل الوجود وتام العلم، ذلك الذي لا نقص فيه ولا ضعف ولا عجز، وذلك الذي لا جهل معه ولا نضوب له، وان مالك الوجود الذي يعطينا منه قدرا مقدورا ومالك العلم الذي يفيض علينا منه قبسا محدودا، انه لا يمكن ان يُحدد وجوده بعجز أو فقر أو ضعف، ولا يجوز ان يُقدر علمه بنوع دون آخر وبكيف دون كيف أو بشيء دون شيء، وإلا لكان مثلنا مخلوقا مملوكا ويكون ذاته عدما وجهلا كما هي ذاتنا.

4- ان هذه الحقائق تهدينا إلى ان ما في الآفاق وما في أنفسنا من آيات الكمال والجمال فهي دالة على ما لواهبها من كمال ذاتي لا محدود وجمال تام لا متناهي، وان ما فيها من معالم الضعف والنقص فهي دالة على تعالي خالقها منها وتساميه عنها وبهذا نهتدي إلى ما لله من أسماء حسنى وما هو منزه عنها من صفات المخلوقين.

قال الله تعالى: [هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ](الحشر 22-24).

وقال امير المؤمنين عليه السلام: (الحمد لله الذي لا من شيء كان، ولا من شيء كُوّن ما قد كان، المستشهد بحدوث الأشياء على أزليته وبما وسمها به من العجز على قدرته وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه، لم يخل منه مكان فيدرك بأينية ولا له شبح مثال فيوصف بكيفية)[1].

الأحدية

الأحدية تعني أمرين؛ الأول ان الله تعالى صمد لا تركيب فيه، والثاني: ان الله واحد لا شريك له. والدليل على الأول:

أ- اننا نلاحظ ان المخلوق يحتاج بعضه إلى بعض ولا يتم بعضه الا ببعض، ونعلم من وجداننا ان هذه صفة الذل والعجز،

1 - بحار الانوار ، ج4 ،ص221 ،ح2 .

وان هذا يدل على أن المخلوق ضـــعيف و قدرته محدودة. وهذا يهدينا –بالوجدان- إلى ان خالقنا مقدس عن أن يشـــارك خلقه في الضعف والعجز، إذ ان الضعيف لو كان قادرا على الخلق لم نكن بحاجة إلى الخالق بل كنا نقول: ان كل شـــيء قد خلق نفســه، فإذا هدانا العقل إلى الحاجة للخلق، هدانا أيضـــا إلى أن الخالق لابد ان يكون منزها مما يجري فينا من الصفات الناقصة. وبما ان صفة التركيب صــفة من صــفات العجز والضــعف فإننا نعرف ان الله مقدس عنها وانه غير مركب.

جاء في الحديث: (مســـتشـــهد بكلية الأجناس على ربوبيته، وبعجزها على قدرته، وبفطورها على قدمه، وبزوالها على بقائه... تعالى عن ضـــرب الأمثال والصـــفات المخلوقة علوا كبيرا[1]).

ب- ان التركيب يعني وجود عنصـــرين خالدين يحتاج أحدهما إلى الآخر، وان هذا يعني عدم وجود اله أبدا، ذلك لأن الحاجة من صـــفة المخلوق والخالق غني بالذات عن غيره إذ لو لم يكن غنيا بالذات لم يمكن ان يكون أزليا دائما، بل كان يحتاج إلى خالق آخر غير محتاج.

هذا هو المعنى الأول للأحدية. ولمعرفة الدليل على المعنى الثاني لابد من عرض بعض النقاط التمهيدية:

التوحيد

1- قالت المجوس ان للكون إلهين اثنين أحدهما للخير والثاني للشر، ويسمون إله الخير بإله النور، وإله الشر بإله الظلمة. والذي

1 - بحار الانوار ، ج4 ،ص222 .

أضلهم هذا الضلال المبين هو جهلهم بطبيعة الشر وسبب وجوده في الحياة، فزعموا: انه لا يمكن ان يكون خالق النور هو خالق الظلمة ورب الخير هو رب الشر. ولقد أضلهم هذا الجهل إلى ان الإلهين لابد ان يكونا في صـــراع دائم يمثله في الخارج جنود الخير والشـــر، والنور والظلمة. ومن هنا فهم قائلون بتعدد الآلهة ليكون أحدهما ممثلا للخير وخالقا له والثاني ممثلا للشـــر وخالقا له، ولابد عندهم من ان يكون النزاع دائما بين الإلهين، والا فقد التعدد معناه.

ومن هنا فإنهم يزعمون: ان كلا من إله الخير وإله الشـــر عاجزين عن التغلب على الآخر. فإن أثبتنا ــ كما سيأتي ــ ان الله الخالق لا يمكن ان يكون عاجزا عرفنا ان الله أحد وهو إله الخير والشـــر، وجاعل النور والظلام، وانه لا يمكن ان يكون هناك إله آخر ليس لله تعالى طرده والإنتصار عليه.

2- ان الفلســـفة الاغريقية وروحها الســـارية في اليهودية والنصـــرانية زعمت بتعدد الآلهة بســـبب زعمهم بأن الله قد أولد الاشـياء، فأضـلهم جهلهم بطبيعة الخلق وزعموا ان طبيعة الخلق انما هي ولادة شيء عن الله ــ سبحانه ــ وصدوره عنه كما تفيض العيون بالماء.

فإذا ثبت لدينا ان خلق الله انما هو بنحو الابداع (يقول له كن فيكون) لأن قدرته ذاتية، وعرفنا انه إذا حُدِّدَ الذاتي انقلب إلى أمر عرضـي، إذ معنى ذاتية القدرة ان الذات لا يمكن ان يكون عاجزا بل انه كواقع العلم الذي لا يمكن ان ينقلب إلى الجهل بل العلم علم بالذات. أقول: إذا ثبت لدينا هذا ثبت ســـخافة الفلســـفة الاغريقية وتابعتها اليهودية والنصـــرانية في هذا المجال، وانهار بناء القول

بتعدد الآلهة، بناء الزردشتية الشرقية والاغريقية الغربية، هذه بعض النقاط التمهيدية، اما تفصيل الأدلة على التوحيد فهي:

1- لكل اثنين ثالث ولكل ثلاثة رابع، والسبب انه لابد لكل اثنين من عنصرين أحدهما يميزه عن الآخر والثاني يحقق وجوده، فزيد وعمر يشتركان بعنصر الرجولة ويفترقان بعنصر العمر والزمن أو الحالة والمكان وما أشبه.

ولو افترضنا إلها غير ذي العرش ـ تعالى ـ إذن لكان بينه وبين الله سبحانه فارقا يميزه عنه كالمكان والزمان و. و.. وإذن لكان الفاصل خالدا خلود الإلهين لأنه مقوم لهما محقق لوجودهما ولولاه لما تميز عن الإله الآخر، ثم يأتي الحديث عن هذا الفاصل الذي يميز بين الإلهين والذي افترض انه قديم فنقول انه لو كان قديما لكان وجوده من نفسه وإذا لكان غنيا عن الخلق. إذ كل شيء قديم لا يمكن ان يكون مخلوقا بل غنيا عن الخلق وبالتالي إلها، وإذا كان كذلك فلابد ان يكون بينه وبين الإلهين فارقان ولكان الفارقان إلهين أيضا ولكان يجري فيهما ما قد جرى في الآلهة السابقة من لزوم الفارق بينهما وبين غيرهما من الآلهة، وهذا لا يقف عند حد محدود، إذ كلما افترضنا إلهين قلنا فيهما انهما يحتاجان إلى ما يفرقهما عن بعضهما ولابد ان يكون الفارق إلها، وهكذا نستمر إلى ما لا نهاية. كل ذلك فيما لو افترضنا ان الإلهين بعيدين عن بعضهما اما لو قلنا ان أحد الإلهين يكون حاملا للآخر إذا لكان المحمول مخلوقا محتاجا، ولم يكن في الكون الا اله واحد.

2- ثم ان وجود إلهين اثنين لا يخلو من ان يكون واحدا من أمرين؛ اما ان يقدر أحدهما على دفع الآخر عن موضعه أو لا يقدر، فإن كان قادرا لم يكن ذاك الآخر إلها وان لم يكن قادرا لم

يكن هذا الها، إذ الإله لابد ان يكون قادرا بالذات، ولا تكون القدرة الذاتية بمحدودة أبدا، إذ كما مر ان الذاتي يعني ان كون القدرة من ذات الفرد، ولا يناســـب القدرة الذاتية العجز عن ناحية معينة. فمثلا: يكون الله قادرا بالذات ثم لا يكون قادرا على خلق نجمة مضـيئة؟ هذا تناقض. وبما ان العجز عن التغلب على الإله الآخر نوع من العجز فإنه لا يناســـب القدرة الذاتية، إذ انا نعرف – بالوجدان- ان القدرة بالذات لا يمكن ان تنقلب إلى العجز ولو بالنسبة إلى شيء واحد.

جاء في السـنة: سـأل زنديق، الإمام الصــادق (ع)عن قول من زعم ان الله لم يزل ومعه طينة موذية فلم يستطع التفصي منها الا بإمتزاجه بها ودخوله فيها فمن تلك الطينة خلق الأشـــياء؟! قال الإمام (ع): (سـبحان الله وتعالى ما اعجز إلها يوصـف بالقدرة لا يستطيع التفصي من الطينة، ان كانت الطينة حية أزلية فكانا إلهين قديمين أزليين فامتزجا ودبَّرا العالم من أنفســـهما، فإن كان ذلك كذلك فمن أين جاء الموت والفناء، وان كانت الطينة ميتة فلا بقاء للميت مع الأزلي القديم، والميت لا يجيء منه حيّ)[1].

3- إذهب ببصـــرك أنّى شـــئت من لدن نفســـك حتى تبلغ أبعد مجرة في الســماء، فلا ترى الا الترابط والتماســك التام، بعضــها يحتاج إلى بعض ولا يتم الا به، وليس ذلك الا شــاهدا ودليلا على وحدة التقدير والتدبير، والمقدر والمدبر، الذي يحفظ توازنهما ويمسكهما ان يتصدعا فكما يوجد نظام تجاذب الأجسام بين النجوم والمنظومات والمجرات، فكذلك يوجد في داخل الذرة الصـــغيرة من أجســام أو اشــعاعات. والنظام الذي يوجد في العوالم الكبرى

---

1 - بحار الانوار ، ج3 ، ص209 ،ح5 .

نجده في صـورته الكاملة في أصـغر عالم عرفناه. فنحن نعرف – طبقا لاحدث معلوماتنا- ان الذرة أصـــغر عالم وانها قد تناهت في صغرها حتى لا يمكن ان نشاهدها الا بالمنظار الذي يكبر الاشياء ملايين المرات. ولكن هذه الذرة، مع ما وصـــفناه بها تحتوي بصـورة رائعة على نظام الدوران الموجود في النظام الشـمســي، والسؤال ماذا يدل عليه الترابط والتشابه؟ والجواب:

انك إذا رأيت كتابا قد أتقنت فصــوله ونسـقت تنســيقا قلت ان مؤلفه انما هو فرد واحد. وأما إذا رأيت كتابا مختلف الفصـول في المستوى وفي الموضـوع عرفت ان من ألفه ليس بواحد. فكيف لا يشـــهد العقل بوحدة مدبر الكون من وحدة تدبيره وتناســق أجزائه وترابطهـا؟ ولو كـان هنـاك آلهـة إذا لكـان يظهر في الكون آثـار قدرتهما ولكان يختلف تدبيرهما وإذن لكان يفسد الكون بهما.

قال الله ســـبحانه: [لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَــدَتَا](الأنبياء 22).

4- لو كان مع الله اله آخر، لكان يبعث إلينا رســـلا نهتدي إليه بهم، إذ ان معرفة الله لا يمكن الا به وبإرشـــاده، وإذ لم يبعث إلينا رسلا عرفنا انه لا يخلو من ثلاث: فاما انه ليس بموجود، واما انه عاجز، أو انه غير آبه بعباده. وليس ذلك كله من صــــفة الخالق القادر الغني بالذات.

جاء في السنة عن الامام علي عليه السلام: (لو كان مع الله اله لأتتك رسله[1]).

---

1 - نهج البلاغة ، في وصيته الامام الحسن عليهما السلام

التذكر بالله

ان لمعرفة الله مرحلتين؛ الأولى تتناول موضـــوع معرفة الله، والثانية في انه: كيف نذكر الناس بالله، وكيف ندعوهم إليه، وقد استوعبنا الحديث عن المرحلة الأولى، وها نحن نعرض المرحلة الثانية:

ملاحظات تمهيدية:

1- في هذه المرحلة، يســـعى الداعي إلى إثبات الله للمنكرين، وتعتبر هذه المرحلة بمثابة تمهيد طريق يؤدي إلى المعارف التي بينت في المرحلة الأولى، ذلك لأنه يعرض في البدء الأدلة المثبتة لوجود الله سبحانه، فإذا آمن الفرد، يعرض له صـفات الله وكيفية معرفته وما أشبه، مما سبقت الإشارة اليها في أحاديثنا السابقة.

2- هل تســـتطيع العقول اثبات الله؟ بالوجدان نرى ان كل ذي لب يســـتطيع بعد التوجه إلى آيات الله ان يهتدي إلى وجود الله. وإلى هذه الحقيقة تشـــير النصـــوص التالية: (وســـخر لكم الليل والنهار والشـمس والقمر والنجوم مسـخرات بأمره ان في ذلك –

لآيات لقوم يعقلون[1]). إذن في الكون آيات لمن تفكر وعقل. فالفكر والعقل يهديان إلى وجود الله.

في الحديث (لم يطلع العقول على تحديد صـــفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته[2]).

3- والنـاس في الـدعوة إلى الله فريقـان: منكر متردد، ومنكر جاحد. وعلى الداعي ان يجاري كلا منهما بما يناسـبه من دليل أو تذكر.

4- على الداعي ان يثبت وجود الله في ثلاث مراحل:

أ- تذليل الغريزة الجاحدة والتي ينكر الحق أكثر من ينكره تحت ضغط تلك الغريزة.

ب- رد الشبهات والأفكار الضالة التي ترسبت في النفس بسبب اوبآخر.

ج- إضاءة الضمير بالتوجيه إلى آيات الله الدالة عليه.

واذا نجح الداعي في دفع الفرد من مستوى الجحود إلى مستوى الشـبهات ومنها إلى مسـتوى الآيات فقد انتصـرت حجته ومضـت دعوته.

وعلى الداعية ان يعرف أولا مستوى صاحبه في مجال الدعوة. فبعض الناس مُسلِّمون للحق ـــ بطبعهم ـــ وليس لهم سوى الغفلة عنه، وهزة واحدة لهم بالتذكير تنقلهم من الضــلال إلى الهدى، في حين ان لبعضـــهم قلبا أقســـى من الحجر، لا ينفذ فيه الهدى أبدا.. وإليك الآن بيانا وتفصيلا للمراحل ومقتضياتها:

---

1 - النحل 12 .

2 - نهج البلاغة ، الخطبة 49 .

مرحلة الجحود

ان الجحود مرض نفسي، ناشئ من الطغيان والتكبر، وعلاجه الوحيد يكمن في تذليل النفس وتبديل طغيانها رضا وتسليما.. والطريق الإسلامي إلى هذا التبديل، توجيه النفس بكل عنف وإصرار إلى ثلاث نقاط:

أ- ان الكفر يوجب غضب الله وعذابه في الآخرة.

ب- ان الكفر يؤدي إلى عذاب عاجل في الدنيا.

ج- ان الإيمان بالله يسبب مغفرة من الله وأجرا في الدنيا والآخرة[1].

وبما أن البشر قد فُطِرَ على حب الذات فإنه يستسلم لدى تخويفه بالعذاب ويرجع عن طغيانه عندما يُرَغّب في الثواب. والنصوص القرآنية تعطينا درسا بليغا في مجال دعوة الجاحدين، وتبين لنا سر نجاح القرآن في هداية الجاحدين وكيف أذلت نفوسهم الطاغية وأخضعتها للحق. وفيما يلي نثبت نماذج قرآنية لذلك:

قال الله تعالى – وهو يخوف الإنسان بالعذاب - : [إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَآ أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ](الانفطار 1-7).

وقال سبحانه :

1- وينبغي ان نستفيد من الحقائق التي سوف نبينها ان شاء الله عند الحديث عن فوائد الإيمان كما ينبغي ان سنتفيد من نصوص الكتاب والسنة وذلك في أسلوب تذليل النفس البشرية.

[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَاَ نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَاَ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ](العنكبوت 14-17).

وقال الله تعالى وهو يجعل لمن آمن أجرا عظيما في الآخرة ويرغبهم فيها:

[فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَاَ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَاَ * إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّى](طه 70-76).

كما يجعل لمن آمن أجرا عظيما في الحياة الدنيا، فيقول تعالى:

[وإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ * وَذَا النُّونِ اِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ * إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ](الأنبياء 85-92).

ومن تدبر في القرآن يجد ان أكثر آياته تسير على هذا النهج ذلك لأنها تجابه الملحدين بالإنذار والبشارة ثم توجههم إلى الله الحق.

وتسلك نصوص السنّة الشريفة أيضا نفس الطريق. نثبت فيما يلي نموذجا واحدا منها نقتبسه من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال:

(الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير منصبة. خلق الخلائق بقدرته، واستعبد الأرباب بعزته، وساد العظماء بجوده، وهو الذي أسكن الدنيا خلقه، وبعث إلى الجن والإنس رسله، ليكشفوا لهم عن غطائها، وليحذروهم من ضرائها، وليضربوا لهم أمثالها، وليبصروهم عيوبها، وليهجموا[1] عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها[2] واسقامها وحلالها وحرامها، وما أعد الله للمطيعين منهم والعصاة من جنة ونار وكرامة وهوان، أحمده إلى نفسه كما استحمد إلى خلقه، و جعل لكل شيء قدرا ولكل قدر أجلا ولكل أجل كتابا.. واعلموا انه لن يرضى عنكم

1- هجم عليه ... دخل غفلة ويعني عليه السلام: انهم أثاروهم مفاجئة بالمواعظ.
2- مصاحها: بمعنى الصحة والعافية.

بشـــيء ســخطه على من كان قبلكم، و لن يســخط عليكم بشـــيء رضـــيه ممن كان قبلكم ، وانما تســـيرون في أثر بين وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم).

ثم قال:

(واعلموا انه ليس لهذا الجلد الرقيق صـبر على النار، فارحموا نفوسكم فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا، أفرأيتم جزع أحدكم من الشـوكة تصـيبه والعثرة تدميه والرمضــاء تحرقه؟ فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيع حجر وقرين شيطان.. أعلمتم ان مالكا[1] إذا غضـب على النار حطم بعضـها بعضـا لغضـبه، وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته[2]).

هكذا تحـاول الآيـات والنصـــوص الإســـلاميـة إزالـة جحود الجاحدين بالتخويف والترغيب وعلى الداعية ان يســتعمل نفس الأسلوب ليكون ناجحا.

مرحلة الجدال

تمهيدا لعرض طائفة من الشـبهات ودحضـها يجب ان نعلم ان الجدال يعني في منطق القرآن المناقشـــة بصـــفة عامة وهو على نوعين: جدال ممدوح وآخر مذموم، وهما:

1- الجدال بالتي هي أحسن.

2- الجدال بغير التي هي أحسن.

والحديث التـالي يفرق لنـا بين النوعين كمـا يبين حكمهمـا لـدى الإسلام:

1- هو الملك الذي وكله الله على النار.

2 - نهج البلاغة ، الخطبة رقم 183 .

ذُكِرَ عند الإمام الصـــادق عليه الســـلام الجدال في الدين وان رسـول الله والأئمة قد نهوا عنه، فقال الصـادق (عليه السـلام): لم ينه عنه مطلقا ولكن نهى عن الجدال بغير التي هي أحســـن، اما تسمعون الله يقول: (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسـن) وقوله تعالى: (ادع إلى ســبيل ربك بالحكمة والموعظة الحســنة وجادلهم بالتي هي أحســـن) فالجدال بالتي هي أحســـن قد قرنه العلماء بالدين، والجدال بغير التي هي أحســـن محرم، حرمه الله على شـــيعتنا.وكيف يحرم الله الجدال جملة وهو يقول: (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصــــارى) قال الله: (تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صـادقين) فجعل علم الصـدق و الايمان بالبرهان وهل يؤتى بالبرهان إلاّ في الجدال بالتي هي أحسن؟!

قيل: يا ابن رسول الله؛ فما الجدال بالتي هي أحسن والتي ليست بأحســـن؟ قال (ع): أما الجدال بغير التي هي أحســـن: أن تجادل مبطلا فيورد عليك باطلا فلا ترده بحجة قد نصبها الله ولكن تجحد قوله أو تجحد حقا يريد ذلك المبطل ان يعين به باطله فتجحد ذلك الحق مخافة ان يكون له عليك فيه حجة لأنك لا تدري كيف المخلص منه، فذلك حرام على شـــيعتنا ان يصـــيروا فتنة على ضــعفاء اخوانهم وعلى المبطلين. اما المبطلون فيجعلون ضــعف الضــعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضــعف ما في يديه حجة لهم على باطلهم، وأما الضعفاء منكم فتغمّ قلوبهم لما يرون من ضعف المحق في رد المبطل.

وأما الجدال بالتي هي أحســـن فهو ما أمر الله تعالى به نبيه ان يجادل به من جَحَدَ البعث بعد الموت وإحيائه له فقال الله حاكيا

عنه (وضـــرب لنا مثلا ونســـي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم) فقال الله تعالى في الرد عليه: (قل) يا محمد (يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم[1]).

نستنبط من هذا الحديث ثلاثة أمور هي:

1- على الداعي ان لا يورط نفســـه بالجدال ما دام لا يرى في نفسه الكفاءة التامة عليه.

2-عليه ان لا يجحد حقا لإثبات حق آخر، بل يبين الفارق بينهما. فلو قال المبطل للمحق انك تعتقد بأن للأرض نظاما فلماذا نعتقد بالله مع ان النظام يكفي لتفســـير ظواهر الخلق، فلا يقل المحق: ليس في الأرض نظام. فيكون قد انكر حقا. بل ليقل: (لا منافاة بين ان يكون للأرض نظام وان تحتاج الأرض في خلقها ونظامها إلى خالق مقتدر).

3- يندب الجدال بالتي هي أحسن بالنسبة إلى كل مسلم قادر.

وهذا الحديث يجعلنا نثبت لأنفسنا الحق ـــ ليس في عرض الفكر الإسلامي ـــ بل وحتى في الاستدلال له، ذلك ان الدليل الباطل لن يهدي الإنسان إلى الحق. وان تراءى للبسطاء كذلك وهذا ذات ما قد ســـبق من وجوب الإلتزام المطلق بالمنهج الديني، حتى لا نعرض الدين في ثياب غريبة عنه.

مغالطات مفضوحة..

بعد تمهيد الطريق بذكر معنى (الجدال الحسن والجدال السيء) نعرض جملة من مغالطات الماديين وشبهاتهم حول الله، نفضح ما فيها من تناقض.

---

1 - بحار الانوار ،ج2، ص125 ،ح2 .

1- يقول الدكتور الألماني (بخنر) : بما اننا لم نجد ظاهرة واحدة في هذا الكون الرحيب، من أبعد نقطة اكتشفناها في الفضاء إلى أقرب جرم الينا، لم نجدها شاذة عن النظام الكوني، فليس لنا الحاجة إلى افتراض وجود الله.

الجواب: ان عدم وجود شذوذ في النظام أو شمولية النظام في الكون لا يكون دليلا على عدم وجود الخالق، بل يكون دليلا قاطعا على وجود من خلق النظام وهو الله الخالق العظيم، وإلاّ فمن جعل هذا النظام وقَدَّره وأجراه ؟ وبعد هذا فهل الكون كله خاضع للنظام، أو هل اثبت العلم الحديث هذا النظام؟ لنسمع (هايزنبرغ) العالم الفيزيائي يقول ـ في نظام الذرة ـ: ان من المستحيل علينا ان نقيس بصور دقيقة كمية الحركة التي يقوم بها جسيم بسيط وان نحدد في الوقت عينه موضعه في الموجة المرتبطة به بحسب الميكانيكا الموجبة التي نادى بها (لويس دوبروغلي) فكلما كان مقياس موضعه دقيقا كان هذا المقياس عاملا في تعديل كمية الحركة ومن ثم في تعديل سرعة الجسيم بصورة لا يمكن التنبؤ بها ومهما تعمقنا في تدقيق المقاييس العلمية ابتعدنا أكثر عن الواقع الموضوعي.

هذا في الذرة التي سماها البعض بمبدأ النظام في اللانظام. وأما في المجرة وهي أكبر وحدة وجودية فإن أحدث النظريات الفلكية اثبتت انه بالرغم من وجود نظام متناسق فيها فإن فيها مجالا واسعا لما نسميه بالصدف.

2- قال طاليس (من قدماء فلاسفة اليونان): لقد كانت المادة ذرات أزلية فاصطدمت ببعضها وكان الكون. وإلى هذه النظرية ذهب بعض الماديين الجدد قائلين ان المادة عبارة عن الذرات

الصـــغار الخالدة التي لا عدم فيها، انها تتكون بين فترة وأخرى بشكل أو بآخر ثم تتلاشى لتتكون بصورة جديدة.

ويقول (هكســلي): (لو جلســت ســتة قرود على آلات كاتبة تضرب على حروفها ملايين السنين فلا نستبعد ان نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كان الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور في المادة لبلايين السنين).

الجواب :

أ- كيف ومن أين عرفتم ان المادة كانت أزلية ؟ هل كنتم مع المادة في أزلها، أم آمنتم بها غيبا؟ فإذا أجبتم بالثاني قلنا إذن من اين وكيف آمنتم بأزلية المادة غيبا وانكرتم الله؟ كيف صــح ان تؤمنوا بما لا تروه ولا يصــح للموحدين الإيمان بما لم يروه؟ ونسأل أيضا: هل المادة الأزلية كانت حية؟ فمن أين جاء الموت، أم هي ميتة فمن أين جاءت الحياة؟ وانكم تقولون ان المادة تصــادمت مع بعضــها، فما الذي ســبب تصــادم أجزاء المادة؟ أبالصدفة كما يقول (طاليس) أم بالضرورة أم بإرادة واختيار؟

ب- فإن قلتم بالصــدفة قلنا: ألســتم تقولون ان للطبيعة قوانين معينة لا يخرج عليها ولا يشــذ عنها، فكيف حادت عنها؟ أم كيف تركت نظامها إلى نظام جديد؟ ثم هل تأتي الصـــدفة بهذا النظام الدقيق المتناســق الذي يحير العقل من دقته وعمقه واتقانه؟ ، ان الصــدفة لا تصــنع ســاعة يد - كما يقول انشــتاين - فكيف تصــنع العقل المفكر والاجهزة المحيرة للعقول الموجودة في الــدمــاغ؟ وكما يقول أحد العلماء ان القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن تتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار

يقع في المطبعة دون فعل فاعل .. ان احتمال ان يكون الضـــرب على آلة كاتبة على يد أمي سـببا لقصـيدة شـكسـبير أبعد من ان يشــافى كل مرضـــى العالم بتناول مواد تقضـــي على أمراضـــهم صدفة كأن يذهب أحدهم إلى الحقل ويتناول حشيشة وصدفة يكون فيها دواؤه، ويذهب الآخر البالبحر فيتناول صـــدفة ســـمكة يكون فيها شـفاؤه، ويذهب الثالث إلى الصـحراء وتلدغه أفعى يكون فيه دواء مرضـــه، وهكذا كل مريض في العالم وفي يوم واحد يشــفى صدفة بسبب مجهول. لو حدث مثل ذلك لما تمالكنا عن القول بأن معجزة إلهية كبيرة قد وقعت. ثم كيف يمكن ان تكون الحياة صدفة مع ان الخلية الحية تحتوي على أجزاء منها البروتين، واحتمال ان يحدث بروتين واحد صدفة يتطلب ـــ حسب نظام الاحتمالات ـ مادة يزيد مقدارها الف مليون مرة عن المادة الموجودة ؟ ، وأما المدة التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من 1-243 عاما أي مائتان وثلاثة وأربعون صـــفرا أمام عشـــر سنين.. وبعد هذا هل يمكن القول بتكون كل العالم صدفة؟

ج- وان قلتم بـالضـــرورة ، أي ان المـادة من طبيعتهـا ومن قانونها الاجتماع. قلنا فلماذا كان ذلك حادثا ولم يكن منذ القدم كذلك فإن المادة قديمة (كما تدعون) وقوانينها قديمة فيجب ان يكون هذا العالم من قديم ويجب ان تكون ما فيها من صـور قديمة ، وليس الواقع كذلك قطعا.

وان قلتم انما صـــارت كذلك بإرادة واختيار، قلنا: ممن كانت الإرادة ؟ من الطبيعة أم من المادة أم من ذات أغلب وأقوى منهما؟ إذاً دعنا ننظر: ما هي الطبيعة؟! ان هي الا النظام (وهل النظام عاقل؟). وما هي المادة، أليســـت المادة هذه الذرات، فهل هي

الإرادة؟ ارجعوا إلى عقولكم وفكروا. وثم لماذا بدلت صـــورتها بعد ان كانت في صورة واحدة؟

الضرورة أم الإرادة أم بالصدفة، وكل ذلك من سفه الفكر.

3 - ويقولون لقد تغلغلنا في أعماق المادة وكشفنا غورها البعيد فلم نر غير المادة شيئا وغير النظام مربيا ومدبرا.

الجواب: نحن لا ننكر النظـام والمـادة، ولكن من خلق المـادة والنظام؟ ان العقل يحكم بأن المادة لابد لها من خالق وان النظام لابد له من مدبر عليم، وهل يمكن ان ينكر الإنســان شـيئا بمجرد انه لا يراه؟

4 – يقولون: ان الإيمان بالله نشأ من ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة القاهرة في تلك الحقب المعتمة من تاريخ البشـر، حينما لم يكن له ملجأ من الحر والبرد، ولا منقذ من المرض والعاهة، ولا وسـيلة يدفع بها عادية الأعاصـير أو يقهر بها المسـافات في البر والأمواج في البحر. اما اليوم فقد قهر الإنســـان بعقله العملاق الطبيعة وأخضعها لإرادته الجبارة فلم يبق ما يبرر الإيمان بالله.

الجواب: بـالرغم من ان هـذه المغـالطـة تشــغل فكر الرجـل العصــــري في كل مكـان اعتزازا بنفســـه وغرورا بـإنجـازاتـه ومكاسـبه، فإنها تافهة جدا. وأول تسـاؤل نوجهه إلى أنصـار هذه الفكرة هو ان البشــر هل تخلص نهائيا عن أسـباب الضـعف التي كانت قديما تدعوه إلى التوســـل إلى الله؟ أو ليســـت الأمراض تتصـــاعد خطورة وتتزايد عددا ؟ أو ليســـت الوفاة وهي أشـــد الحوادث هولا لا تزال تهدم أحلام البشـــر؟ أو ليســـت الحروب تشـكل زاوية خطرة في بناء الحياة السـعيدة ؟ أو ليسـت الحوادث الطبيعية لا تزال تقوى على البشرية ؟ بل أليس الخضوع للإقليمية

والمصلحية والطائفية والعنصرية ضعف في الإنسان لم يستطع معالجته حتى الآن؟

والتساؤل الثاني هو انه هل ان تقدم العلم يقضي بعدم الإيمان؟ أيزعمون ان الله يجب ان يعرف في غرفة الاختراع أو تحت مجاهر كهربائية فإذا لم يوجد وجب إنكاره، أم ان تقدم العلم دليل إلى الله؟

والحقيقة ان اتجاه الحضـــارة اليوم اتجاه كافر والا كان تقدم العلم سببا لزيادة الإيمان لأنه:

أولاً - يجعل البشر يعتقد بأن وراء أفقه آفاقا، وان ما وصل إليه فكره ليس المنتهى الأخير كما كان يعتقد الأولون.

ثانياً - يكشــف أســرار الطبيعة التي تدل على اتقان الصـــنع واحكام الخلق، ولذلك فإن مشاهير العلماء أصبحوا أول المؤمنين بالله. ونكرر هل العلم يتأثر بتقدم الكشوفات؟ فمثلا لو كان البشر يعتقد بأن 2×2=4 قبل قرن يجب ان يقول 2×2=5 لأن البشـــر أحرز مكاسب جديدة؟! ان الإيمان بالله نابع من فطرة الإنسان التي لا تزداد بالتجارب إلاّ جلاء وروعة. فكيف ننكر ربا يزيد علينا كل يوم فضـــلا كبيرا، وكيف نرفض الشـــكر لإله يلهمنا كل يوم علما مستجدا و.. و..؟؟

4- ويزعمون: إن المؤمنين يقولون بأن الله صـــــانع الخلق، بمعنى أنه أوجد الشـيء من لا شـيء وهذا أمر مستحيل عقلا فلا يمكن ان يكون العدم مبعث الوجود.

الجواب:

أولاً: من أين عرفتم إستحالة وجود الشيء من العدم؟ هل لأنكم لم تروه من ذي قبل؟ أو أنكم لم تروه في المختبرات وتحت المجاهر؟ وهل عدم الرؤية دليل على عدم الوجود؟ كم من واقع لم يكن مرئيا ثم أصبح معروفا. فهل كانت الأشعة مرئية حين كانت موجودة منذ ان كانت الشمس، أم كانت الجاذبية مرئية؟ ان الفطرة أمضى حكما وأنفذ بصيرة من العين المجردة.

ثانيا: لابد لنا أن نعترف ببداية الكون لأنها تدل عليها تجاربنا العلمية ومعارفنا الفلسفية، وقد سبقت لمحة موجزة من أدلتها عند الحديث عن حقيقة الوجود.

ثالثا: ان كثيرا من الحقائق نضطر إلى الاعتراف بأنها حادثة فمثلا: حالة الاتصال والإنفصال ــ كمثل اتصال يد بأخرى ثم انفصالها- حالة معدومة ثم يوجدها الإنسان، والإرادة كانت معدومة ثم وجدت. إذن فليس هناك مانع من وجود شيء بعد عدم.

رابعا: ان استحالة وجود شيء من العدم لا يرتبط بخلق الله سبحانه للأشياء ، ذلك لأن الله هو الذي وهب الخلق للأشياء ، فالأشياء جاءت من خلق الله لا من العدم ، والله أبدعها بعد عدم ولم يخلقها من العدم.. قال الله تعالى: [قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى](طه 50) . وفي الحديث: (و أنه كَوَّن الاشياء لا من شيء[1]).

5- لقد ثبت بالتجربة العلمية ان كل شيء يحتاج إلى مكان وزمان، فإذا آمنا بالله فلابد ان نعتقد بوجود شيء لا مكان له ولا زمان ، وهذا أمر غير ممكن.

---

1 - بحار الانوار ، ج75 ، ص416 .

الجواب: لابد ان نســـأل أولا: من أين اكتشـــفتم أن كل شـــيء يحتاج إلى حيز يســـتوعبه من مكان وزمان لولا انكم رأيتم المادة في زمان ومكان فحســبتم ان كل شـــيء لابد ان يكون مقولبا بهما موجودا فيهما ؟ ولقد اكتشف الإنسان ان بعض الحقائق تقع خارج حدود الزمان. فالجاذبية مثلا حقيقة لا يمكن ان ينكرها رجل عصـــري بيد انها حقيقة تعيش خارج الزمن. ولو ان (رد الفعل الجاذبي) كان يحتاج في قطع المســـافات بالزمان لكانت نتيجة تبدل المجرات إلى أمواج –الذي يحدث كثيرا- يؤدي إلى تفجر كافة المجرات. هذا عن هذا الزمان وأما عن المكان فأين مكان الحق والباطل، والفضيلة والرذيلة ؟

ونقول ثانيا: ان الله ســـبحانه محيط بكل زمان ومكان فليســـت الأمكنة والأزمنة مباينة عنه. فهو إله في الســـماء وإله في الأرض وهو محيط بكل زمان ومكان، ولكن لا بما ان الله محاط من قبل الأزمنة والأمكنة. بل بما هو محيط بهما.

وثالثا: ان الســـبب الذي بحثنا من أجله عن الله هو: ان الفطرة تهدينا إلى ان الكون عاجز بذاته عن خلق نفســـه وتدبيرها لأنه يجري في حدود الزمان والمكان فلا يمكن ان نسري ذات الصفة إلى الله خالقه إذ نفقد المبرر الذي جعلنا نبحث عن الخالق من أجله- وهو البحث عن إله لا يحتاج ولا يحد بزمان ومكان.

6- إذا كان الله موجودا فلماذا خلق الله الكون؟

الجواب: هل ان عدم معرفة ســبب الخلق دليل على عدم حكمة الخلق؟ أليس من الجهل ان نقول ان كل شـــيء لا نعرفه فهو غير موجود؟ ثم اني لا اعتقد ان أحدا يحمل فكرا مســـتقيما ينكر فائدة

المخلوقات كالشــمس والقمر والاجرام السـماوية والاحياء جميعا. وهل هناك فائدة اكبر من ذات الحياة التي غمر حبها كل قلوبنا؟

7- نحن لم نشـــاهد أول خلق المادة فلا يمكننا ان نؤمن بمبدأ لها فهي اذن أزلية.

الجواب: هل رأيتم أزليتها؟ ثم ان الأزلي لا يمكن حدوث التغيّر فيه فلا ينقص ولا يزيد لأن النقصـــان والزيادة يأتيان من تأثير خارجي والأزلي معناه ان وجود المادة من نفســها ولا يمكن ان يحدث فيها التغيير، بينما نراه في المادة فإذن ليســت ازلية. وقد سبق الحديث عن خرافة القول بأزلية المادة.

8- وشبهة أخيرة تقول: ان تقدم العلم يناقض الإيمان بالله؟

الجواب: ولكن لنتساءل لماذا؟ هل ان العلم ينافي الإيمان لأن طائفة من المكتشفين كانوا ملحدين؟ وهل هذا دليل قوي على الكفر؟ فإذاً لابد ان يكون اعتقاد طائفة كبيرة بالله دليلا على وجود الله. وفيما يلي نثبت بعض أقوال العلماء في الله:

1- يقول (هرشـــل) العالم الانجليزي: كلما يتوســع أفق العلم تزداد البراهين الواضحة على وجود الله الخالق الأزلي الذي ليس لقدرته حد ولا نهاية.

2- ويقول (لينه) الفسيولوجي الفرنسي: لقد تجلى لي الله الكبير المتعال ببدائع صـــنعه بحيث أدهشـــتني وحيرتني، أي قدرة وأي حكمة وأي ابداع جعلها في كل مصـــنوعاته ومخلوقاته من صغارها وكبارها!

3- ويقول (فونتل) في دائرة المعارف: ليسـت أهمية الكشـوف الحديثة في إشباع نهمة العقول الفارغة، بل ان أهميتها البالغة هي

ترفيع مســتوى العقل إلى الخالق الذي يملأ مشــاعرنا احســاســا بالجمال والعظمة.

4- ويقول (روســو) الكاتب الفرنســي الكبير: يجب ان نعترف بالخالق القدير الحكيم وذلك لأن الحركة في الجســم ليســت ذاتية ولابد ان تنتهي ســلســلة المحركات إلى محرك واحد. وما أبعدها من فرضية تقول: ان هذا النظام العجيب جاء نتيجة الصدفة.

5- ويقول (نيوتن): أتشــكون في الخالق؟ الا ان من الســخف الاعتقاد بأن الضرورة هي الرائدة للكون.

مرحلة الهداية

وبعد دحض الشــبهات وتســفيه الأباطيل، تأتي مرحلة الهداية حيث يذكّر الداعي بالآيات، ويوجه الفرد إلى ربه، ويختلف توجيه الناس حسب اختلاف مستوياتهم وأفكارهم:

1- فقد يســتدل بآيات الله الكونية كالشــمس والقمر والأجرام والمنظومات والمجرات وما فيها من دقة ونظام.

2- وقد يســتدل بما في جســم كل بشــر وكل حي من عظيم الآيات.

3- وقد يستدل بالنفس البشرية، وانها كانت ضعيفة ثم قدرت وكانت جاهلة ثم علمت وانها تحس في واقعها بالصــغار والذل أمام قوة قاهرة عالمة، فلابد ان الذي أعطاني القوة والفهم هو أقوى مني وأفهم.

4- وقد يستدل بما في الكون من نظام شامل دقيق عميق على قدرة الخالق وعلى علمه.

5- كما انه قد يستدل بما في الوجود من تناسق وترابط واتحاد في النظام على ان خالقها ومدبرها فرد احد.

هذه هي الأصــول المشــتركة التي توحي إلى العقل بوجود الله وما له من صـــفات، ونذكر هنا جملة من الآيات والأحاديث التي تعتبر نماذج حية للتوجيه إلى الخالق بهذه الطرق المذكورة.

قال الله سـبحانه وتعالى: [أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَـبْعَ سَـمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّـــمْسَ سِـــرَاجاً * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَـاطاً * لِّتَسْـلُكُوا مِنْهَا سُـبُلاً فِجَاجاً](نوح 15-20).

[وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَــرٌ تَنتَشِــرُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِــكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْــكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِن فَضْـلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْـمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّــمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ](الروم 20-24).

قال الإمام أبو الحسن الرضـا عليه السـلام وقد سـئل عن الدليل إلى الله، قال: (اني لما نظرت إلى جسدي فلم يمكنّي فيه زيادة ولا نقصـــان في العرض والطول، ودفع المكاره عنه ، وجر المنفعة إليـه علمـت ان لـهذا البنيـان بـانيـا فـأقررت بـه ، مع مـا أرى من

دوران الفلك بقدرته ، وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات[1]).

وقال رجل لعلي عليه الســـلام: يا أمير المؤمنين بما عرفت ربك؟ قال عليه السلام: (بفسخ العزم ونقض الهمم ، لما أن هممت ، حال بيني وبين همي وعزمت فخالف القضـاء عزمي فعلمت ان المدبر غيري..)[2] وقال: (لو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ، ولكن القلوب عليلة والأبصار مدخولة، أفلا ينظرون إلى صغير ما خلق ، كيف أحكم صنعه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر، أنظروا إلى النملة في صغر جثّتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصـــر ولا بمســتدرك الفكر كيف دبت على أرضـــها وضنت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها وتعدها في مستقرها تجمع في حرها لبردها ، وفي ورودها لصـــدورها مكفول برزقها مرزوقة بوفقها لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان[3]).

قيل لأبي عبد الله عليه الســـلام: ما الدليل على ان الله واحد ؟ قال: (اتصـــال التدبير وتمام الصـنع كما قال الله سبحانه: (لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا[4]).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن:و اعلم يابني أنه لو كان لربك شـــريك لأتتك رســـله ولرأيت آثار ملكه وســـلطانه ولعرفت أفعاله وصـــفاته ولكنه إله واحد كما وصـــف نفسه[5]).

---

1 - بحار الانوار ،ج3 ، ص 36 ، ح12 .
2 - بحار الانوار ، ج3، ص42 ، ح17 .
3 - بحارالانوار ، ج3 ، ص26 ، ح1 .
4 - بحار الانوار ، ج3،ص229 ،ح19 .
5 - نهج البلاغة ، من وصيته لابنه الحسن عليهما السلام .

ولو شئنا ان نعرض هنا ــ ولو موجزا ــ معشار آيات الله اذن لوجب ان نملأ أســفارا طوالا ، ولكننا ذكرنا جانبا من الآيات والأحاديث، لتكون هداية كافية لنا إلى كيفية الحديث حول التذكر بالله العزيز، وعلينا بعد ذلك ان نقولب كلما نملك من ثقافة ومعرفة حول النفس البشرية من آفاق المعرفة في قالب التذكر بالله.

صفات الله

لقد سبق القول في أسماء الله الحسنى، وهناك قلنا ان التفكر في الخلق يهدينا إلى ان في كل شــيء مخلوق صــغير أو كبير جوانب كمال وجوانب نقص، جوانب قوة وجوانب ضــعف.. وقلنا ان ذات المخلوقات انما هي العجز والضــعف والنقص، وما فيها من القدرة والمعرفة والكمال فهي موهوبة له من لدن القادر القوي بالغ الكمال. وعلى هذا فكلما نرى من صــفة كمال في الخلق تهدينا إلى ان الله الذي وهبها يملك ما لا نهاية له منها، وكلما نرى في الخلق من صــفة النقص نعلم ان بارءها منزه عنها. إذ كما ســبق لا يمكن ان يجتمع النقص الذاتي والكمال الذاتي في شــيء واحد، ويبين هذه الحقيقة الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: (اما التوحيد فأن لا تجّوز على ربك ما جاز عليك[1]). ويقول الامام علي عليه الســلام: (الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه، لأنه كل يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن الذي لم يولد فيكون في العز مشــاركا، ولم يلد فيكون موروثا هالكا، ولم تقع عليه الأوهام فتقدّره شــبحا ماثلا، ولم تدركه الأبصــار فيكون بعد انتقالها حائلا، الذي ليســت له في

1 - بحار الانوار ، ج4، ص264 ،ح13 .

أوليته بداية، ولا لآخريته نهاية الذي لم يســبقه وقت ولم يتقدمه زمان ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، ولا يوصف بأين ولا بما ولا بمكان، الذي لطف من خفيات الأمور، وظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التدبير، الذي سـئلت الأنبياء عنه فلم تصــفه بحد ولا ببعض بل وصــفته بأفعاله، ودلت عليه بآياته لا تســتطيع عقول المتفكرين جحده لأن من كانت الســماوات والأرض فطرته وما فيهن وما بينهن وهو الصـــانع العظيم لهن فلا مدفع لقدرته ، الذي بان من الخلق فلا شـــيء كمثله، الذي خلق الخلق لعبادته، واقدرهم على طاعته، بما جعل فيهم وقطع عذرهم بالحجج. فعن بينة هلك من هلك وعن بينة نجا من نجا[1]).

وهكذا تكون الوســيلة الوحيدة لمعرفة صــفات الله الجميلة وأسمائه الحسنى ، تقديسه عن شبه المخلوقين ، وتسبيحه عن كل نقص يُرى فيهم ، وتكبيره عن كل عجز يوصفون به سبحانه!

1 - بحار الانوار ، ج4، ص264 ،ح14 .

الإيمان بالله

كيف يؤمن الإنسان

أ- نجد أنفسنا تتردد في قبال كثير من الأعمال، ولدى التدبّر في حقيقة ترددها نجد ان قوتين تتنازعانها، فقوة تريد لها اختيار ما ينفع ودفع ما يضـــر، وقوة تريد اتباع الحق والعدل. ولدى تدقيق النظر نرى ان التي يحبذ إليها النفس هي التي تدعو إلى الشـهوات من المال والبنين ومظاهر الأبهة والجمال[1]، والتي تدعو إلى الحق هي التي تـدعو إلى الخير والفضـــيلـة والوفـاء وأداء الأمـانـة والإحسان إلى المساكين وما إلى ذلك..

ب- القوة الأولى تـدعى بـالجهل والهوى وحب الـذات، والقوة الثانية تدعى بالعقل والعلم والضمير.

1- ان الجهل يدعو إلى المادة وما يرتبط بها ، ويدعو إلى الدنيا وما فيها ، ويزين الشـــهوات العاجلة للنفس، ويفضـــلها على الحق والعدل الشامل، و يدعو في سبيلها إلى نسيان الواجبات واغتصاب الحقوق.

1- [زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَــوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِنْدَهُ حُسْــنُ الْمَآبِ](آل عمران 14) .

2- ولذلك فإن طبيعة الجهل تمنع النفس عن التسليم للحق والهدى والطاعة لله تعالى والشكر له وإلتزام أحكامه والعمل ليوم الحساب، كل ذلك لأنها تتنافى واللذائذ التي يتعجلها حب الذات ويزينها الجهل له، وتتنافى مع كبرياء الجهل وغفلته عن المستقبل البعيد.

أما العقل فإنه يدعو إلى المثل العليا.. والخير ويفضلها على الشهوات العاجلة ، ويدعو إلى الطاعة الصادقة وأخيرا إلى الإيمان بالله سبحانه والتسليم له ما دام ذلك كله يؤدي إلى حسن الثواب وحسن المصير وما دام ذلك هو الحق والعدل اللذان يأمر بهما العقل.

ج- وليس للإنسان من عمل الا ويتأثر بنشاط إحدى هاتين القوتين ، وبمدى افساح المجال لواحدة منهما للعمل في ساحة النفس تنسحب الأخرى –للطبيعة المضادة بينهما- فإذا اختار الإنسان الجهل على العقل واطاع الهوى واتبع الشهوات وترك الحق والعدل فقد أمات عقله، لأنه لم يترك مجالا لطاعته في اتباع الهدى والعمل بالحق والعدل فيتغلب لديه الجهل على العقل. ويكون العكس تماما إذا اختار العقل على الجهل حيث لا يدع مجالا للجهل ولا لحب الشهوات العاجلة واللذائذ القريبة المتواضعة.

د- وتبقى النفس البشرية متوترة بفعل هذه المنازعة حتى يتغلب أحد الجانبين على الآخر بالعمل به أو التفكير فيه ، فإذا غلب الجهل على العقل ذهب نور العقل وطبع على النفس بطابع الكفر، وأصبح الفرد –حينئذ- لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيئا.

ان هذا الفرد لا يُرجى منه الخير أبدا ، إذ أن القوة التي كان يعمل بها الخير قد ذهبت إلى غير رجعة ، وتدعى هذه الحالة في منطق الدين بالجحود والعناد.. وإذا غلب العقل على الجهل تضاءل الجهل في النفس وانكمش ظل الهوى عنها، وضعف حب الشهوات فيها وكان كل نشاط الفرد ذا صبغة واحدة هي صبغة العقل ، وتدعى هذه الحالة في منطق الدين بالإيمان..

فالإيمان إذاً حالة تنشأ من توجيه كافة نشاطات النفس بالعقل وتغليب جانبه على الجهل بحيث لا تبقى له قوة توجه نشاط الفرد بتوجيه منحرف ، وهذا هو الذي يشير إليه الإمام علي عليه السلام حيث يقول: (العقل والشهوة ضدان، ومؤيد العقل العلم ، ومزين الشهوة الهوى، والنفس متنازعة بينهما فأيهما قهر كانت في جانبه[1]) .

والسؤال الآن: كيف يتم تغليب جانب في النفس على جانب، وكيف يصبح فرد مؤمنا وآخر جاحدا ؟

ينبغي أولا ان نؤكد على الحرية التامة التي يتمتع بها البشر في اختيار الإيمان أو الجحود. وان ما نذكره من دوافع الإيمان والجحود لا تسلب النفس إرادتها بل لا تعدو ان تكون أداة ضاغطة عليها فقط.

بعد هذا نقول: ان الإيمان يكمل بالتسليم المطلق للحق ، ولا يتم التسليم التام لو لم يتمتع الفرد بواحدة من ثلاث: إرادة صلبة أو عقل كامل أو شهوة ضعيفة.

1- مستدرك الوسائل ، ابواب جهاد النفس ، باب 9 ، ح2 .

أ- فالإرادة الصـلبة تتجاوز كل السـلبيات الداخلية وتقهر النفس قهرا حتى ولو لم يكن العقل تاما أو الشـهوة ضـعيفة. وقوة الإرادة ناشـــئة عن التربية العائلية أو التربية الذاتية. فمن أراد العظائم أصـبحت إرادته عظيمة هي الأخرى. والتوجيه الخارجي قد يؤثر في هذا الحقل لو ركز الموجه كل نُصـحة على ثقة الإنسـان بذاته وتحسسه بشخصيته مما يشحذ عزيمته ويقوي إرادته.

ب- والعقل يزيد باتباعه والتفكر في احكامه والمزيد من مدارسة العلم ومصاحبة ذوي العقول. والتوجيه الخارجي يفيد قوة للعقل بالتذكرة المستمرة بحقائق الكون واستعراض آيات الله فيها، وشـرح اسـمائه الحسـنى.. واذا تم العقل في الفرد لم يرض لنفسـه بالدنيا ولا بالمخلوق ، واسـتشـرف الآفاق البعيدة متطلعا إلى الأهداف السـامية وقال: ما دامت الآخرة خيرا لي من الأولى فإن اختياري الدنيا عجز وصـغار، ومادام الله اكبر من كل شـيء فإن رضـاي بغير إلاها أو حبيبا غير الله ذل وخسـاسـة، وما دمت قد خلقت لكي اكون عظيما عند الله فَلِمَ أفضـل اللذات العاجلة على التقوى؟! وهكذا جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: أصل ديني العقل.

ج- وانما تضـعف الشـهوات بتوجيه النفس إلى ابدالها. فالشـهوة القصـيرة الأمد السـريعة الزوال المشـوبة بالألم خير أم ما عند الله من النعيم الدائم الخالص؟ هكذا تقارن كل شـهوة في الدنيا بلذة في الآخرة فتضـعف الشـهوات. والواقع ان النفس تسـتبدل آنئذ عنها بشـهوات أسـمى منها. وانما هو اختيار بين شـهوتين عاجلة وآجلة تماما كمن يغري نفسـه بالصـحة واللذة الدائمة حينما يريد ان يتجنب ما يضـر بنفسـه ويقول: لو أكلت هذه اللقمة فصـحيح اني

ســـأحصـــل منها على لذة ولكنها ســـتمنع عني ألف لقمة هي ألذ وأطيب من هذه. وهكذا يفضل الآخرة على الأولى.

ولو تدبرنا قليلا في النصـــوص الشـــرعية إذاً لعرفنا ان الدين قد اســـتخدم الطرق الثلاثة في بعث النفوس إلى الإيمان. فقد وجه الإنسان إلى نفسه وعرَّفه بكرامته عسى أن يقوي ذلك إرادته، ومن ناحية أخرى ذكره بآيات الله في الكون لكي يزيد عقله، ومن ناحية ثالثة وّجّه أنظاره إلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، وأنهار من عســـل لذة للشـــاربين، وحور عين كأنهن اللؤلؤ والمرجان، لذة للناظرين.

و كل هذه الامور تشكّل حقيقة الإيمان. وفيما يلي نص بشأنها:

(جاء في السنة المروية عن الإمام أمير المؤمنين (ع): الإيمان على أربع دعائم؛ على الصبر واليقين والعدل والجهاد.

فالصبر منها على أربع شعب؛ على الشوق والشفق والزهد والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات[1].

واليقين منها على أربع شـــعب: على تبصـــرة الفطنة وتأول الحكمة وموعظة العبرة وســـنة الأولين. فمن تبصّـــر في الفطنة تبينت له الحكمة ، و من تبيّنت له الحكمة عرف العبرة ، و من عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.

---

1 - ان معطيات هذه المقطوعة تنسجم مع السبب الثالث للإيمان وهو ضعف الشهوات باســـتبدالها مع رغبات الآخرة، وكشـــف نعيمها والحذر من جحيمها والزهد عن الدنيا ترقبا للآخرة. والمقطوعة هذه آية في الروعة والعمق حيث لم تغادر واحدة من لفتات النفس الشـــاردة الا احصـــتها وجعلت أمامها ما يناســـبها من تطلعات البشـــر نحو عالم أفضل.

والعدل منها على أربع شـــعب: على غائص الفهم وغور العلم وزهرة الحكم وســـاخة الحلم. فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صـــدر عن شـــرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميدا[1].

والجهاد منها على أربع شـعب[2]؛ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصـــدق في المواطن وشـــنآن الفاســـقين. فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين. ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين ، ومن صـــدق في المواطن قضـــى ما عليه، ومن شـــنئ الفاسقين و غضب لله ، غضب الله له و ارضاه يوم القيامة[3].)

1- ونجد في هذا البند: العلم سـببا من أسـباب الإيمان وهو يسـتند على العقل الذي عبر عنه في الحديث بـــــ(غامض الفهم) وغمر العلم وهو واسـع العلم الذي يغمر صــاحبه، وزهرة الحكم تعني لباب الأحكام. وأما روضـــة الحكم فهي حالة الهدوء التي تســـبق وترافق التعلم. وهذه الفقرة تشرح أحد شروط العمل بموجبات الإيمان وهو العلم بها.

2 - والجهاد: هو جانب النضـــال من العمل والإيمان وهو في جبهتين، جبهة الكفار وجبهة الفساق، غير الملتزمين بالأحكام.

3 - نهج البلاغة ، حكم أمير المؤمنين عليه السلام ، الحكمة رقم31 .

معطيات الإيمان

ما هي معطيات الإيمان في النفس والحياة؟

(الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللســـان وعمل بالأركان[1]) هكذا يحدد النبي (ص) واقع الإيمان فهو يســتقر في النفس لكي يظهر على اللسان ثم تصدقه سائر الجوارح.

1- إذاً فالذي يعرف ولا يقر كافر وليس بمؤمن. قال الله تعالى: [وَجَحَدُوا (أي الكفار) بِهَا وَاسْـتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُـهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً](النحل 27).

2- والذي يقر ولا يعمل فهو مسلم وليس بمؤمن. قال الله تعالى: [قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْـلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ](الحجرات 14).

3- والذي يقر بالذي يعرف، ويعمل بالذي يقر، فهو مؤمن حقا. ولابد للمؤمن ان يسلم لله وحده جميع أموره ويتصـف بكل صـفة يريدها الله له ويعمل بكل فعل يأمر به الله. والحديث التالي يفصـل هذا الواقع.

1- بحار الأنوار، ج 66، ص 64 ، ح11 .

قال رســـول الله (ص): (الإيمان في عشـــرة: المعرفة [بالله، واليوم الآخر، والكتب، والأنبياء] و الطاعة [لله] والعلم [بأحكام الله،] والعمل [بها،] والورع [الخوف من الله]، والاجتهاد [بذل كل الجهد في ســـبيل الله]، والصـــبر [في النوائب وعلى الطاعات الشـاقة،] واليقين، والرضـا [بأمر الله،] والتسـليم [لأمر الله.] فأيها فقد صـاحبه بطل نظامه [أي إذا كانت للفرد صـفة واحدة من هذه الصفات ولم تكن له أخرى لم يكن مؤمنا حقا[1]].

ما هي فوائد الإيمان؟:

ان الإيمان أثقل ما في ميزان العدالة، فلابد ان يقابل بأجر عظيم. وإذا كانت الأعمال تُقوِّم بما لها من الصـــعوبة فلابد ان يكون الإيمان أعظمها أجرا لأنه أشقها جميعا. ونحن إذ نشير إلى فوائد الإيمان لا ندعي استيعابها جميعا:

1- الفلاح في الآخرة؛ لنفترض ان وراءنا عالم آخر يصـــيبنا فيه جزاء أعمالنا ان خيرا وان شرا. فمن هو رب ذلك العالم؟ وما هي الأعمال التي تُجزى بخير؟ وما هي التي تُجزى بشـــر؟ بكل بساطة: ان رب هذا العالم، الخالق الواحد هو رب ذلك العالم لأنه لا إله الا الله[2].

وبكل بساطة إن صفات الصدق والوفاء والصلاح والعمل على خدمة الناس، وعبادة الله، وطهارة القلب من الحسد والبخل والحقد والجبن والكبر والغرور،إنّ هذه صـــفات و أعمال ان كان هناك خير فإنما هو فيها، وان كان هناك جزاء حسـن فإنما هو لها. وان

1 - بحار الانوار ، ج66 ،ص 175 ، ح28 .
2- والى ذلك تشـــير آيات الحمد [الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ *الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ *مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ](سورة الحمد).

صفات الكذب والنفاق، ونقض العهد، والفساد في الأرض، وهدم المجتمع وتفكيك أواصره والاعتداء على حقوق الآخرين، إن تلك هي الشر الذي لا يمكن أن يبقى دون عقاب.

ان هذا أمر وجداني لا ريب فيه. وهنا نسأل: ما هي الوظائف الدينية التي يلتزم بها المؤمن؟.. من المعلوم انها لن تقع الا في صف الخير فلابد ان يكون جزاء المتدين في الآخرة جزاء حسنا.

إذاً فإن كانت وراء هذه الحياة حياة أخرى فإن المؤمنين هم الفائزون فيها لا ريب في ذلك بشهادة الفطرة والوجدان بأن جزاء الخير لا يمكن ان يكون شرا.

وفي النصوص التالية شهادة على الفلاح الذي يحرزه المؤمنون في الآخرة، ولكن يجب ان نعلم في البدء انه لا يمكن ان نعتقد – ونحن عقلاء- بأن الله يأمر عباده بطاعته ويعدهم بالجزاء الحسن في الآخرة ثم يخلف وعده. فلماذا يخلف؟؟ هل لأنه كان محتاجا إليهم فأراد ان يخدعهم ليطيعوه ثم يخلف وعده، ام انه عاجز عن الوفاء لهم بوعده؟؟ سبحانه!، ليست هذه من صفة الخالق الغني الوهاب. وبعد فلنعرف ما هي حقيقة الفلاح في الآخرة التي أثبتتها النصوص للمؤمنين: يموت المؤمن بعد ان يرى محله من الجنة ثم تزف روحه إلى جنة البرزخ، حتى تتمتع بالملاذ الروحية. ويؤمن من قبل الملائكة عن أهوال يوم القيامة، ثم ينتظر في ظل عرش الله حتى يتم الحساب ثم تزلف إليه الجنة فيدخلها آمنا. ويجد على أبواب الجنة مكتوبا (للخلود) ويهب له الله خيرات ليست الدنيا بالنسبة إليها الا كالرمل في البادية الفضفاضة، له سبعمائة ضعف مثل الدنيا، وله سبعون ألف قبة، وسبعون ألف قصر، وسبعون ألف حجلة، وسبعون ألف أكليل، وسبعون ألف حلة،

وسبعون ألف حوراء عيناء، وسبعون ألف وصيف، وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلب بشـر، وفيها ملاذ روحية، وفيها رضـوان الله، وفيها أمان من النار، تلك النار التي يصـفها جبرئيل (ع) للنبي (ص) بقوله: (ان الله أوقد عليها ألف عام فاحمرت ثم أوقد عليها ألف عام فإبيضـت ثم أوقد عليها ألف عام فاسـودت، فهي سـوداء مظلمة لا يضـيء جمرها ولا ينطفي لهبها.. والذي بعثك بالحق نبيا، لو ان مثل خرق إبرة خرج منها على أهل الأرض لاحترقوا عن آخرهم، ولو ان رجلا دخل جهنم ثم أخرج منها لهلك أهل الأرض جميعا حين ينظرون إليه لما يرون به، ولو أن ذراعا من السلسلة التي ذكرها الله تعالى في كتابه وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن آخرها، ولو ان بعض خزان (جهنم) التسـعة عشـر نظر إليه أهل الأرض لماتوا حين ينظرون إليه، ولو ان ثوبا من ثياب أهل جهنم أخرج إلى الأرض لمات أهل الارض من نتن ريحه[1]).. هذا فلاح المؤمن في الآخرة، انه ينجو من هذه النيران.

2- الفلاح في الدنيا؛ فإن الفلاح هي السـعادة، فما هي سـعادة الإنسان في الدنيا؟

ان السـعادة تنشـأ من تزاوج عاملين: القضـاء على أسـباب الشقاء، وتوفير سبب الفلاح. وللشقاء أربعة أسباب نبينها ونشير إلى كيفية قضاء الإسلام عليها أو لا أقل من تهوينها:

1- بحار الأنوار ،ج67 ، ص 393 ، ح63 .. ولسنا بحاجة إلى ذكاء خارق حتى نقارن هذه النيران بالقنابل النووية التي تصـنعها يد الإنسـان فيزول عجبنا ونعلم انها الجد لا الهزل.

أ- الخلق السيئ؛ ان الحسد والحقد والغرور والكبر والقلق وسوء الظن، والشعور بالنقص وعقدة الحقارة وما أشبه تنغص عيش طائفة كبيرة من الناس. ومهما توفرت أسباب الرفاه، فإن عذاب النفس الداخلي لا يدع الفرد يتمتع بالرفاه أبدا. والإيمان يقلع جذور الفساد من قلب صاحبه ويجعل نفسه نقية راضية مرضية[1].

وفيما يلي نرى كيف يقضي الدين على ذلك؟ ان الدين يغير نظرة الإنسان المادية فيستهين بالدنيا التي هي منشأ الرذائل، ففي القرآن: [إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] (يونس 62).

وفي الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: (أنصف الناس من نفسك، وواسهم من مالك وأرض لهم ما يرضوه، واذكر ثواب الله كثيرا، وإياك والكسل والضجر فيما يقربك منه ...)[2] والمؤمن يجيد هذه التعاليم.

ب- ظلم الناس بعضهم بعضا؛ والمجتمع المؤمن يسوده العدل والإحسان. والاسلام –الدين الذي يلزم المؤمن بتطبيق شرائعه - يضمن للناس العدالة التامة ، ويتمتع كل فرد تحت ظله بالكرامة والأمن لا فرق في ذلك بين عربي أو أعجمي، أبيض أو ملون، صغير أو كبير، فقير أو غني، ويضمن لهم حقوقهم جميعا ويقول: [فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ](الزلزلة7-8).

هكذا يعالج الإسلام الظلم لو كان المجتمع المؤمن قائما وأما لو لم يكن فإن المؤمن يتمتع أيضا بالكرامة والأمن في ظل المجتمع الجاهلي ذلك لانه لا يظلم أحدا أبدا.

1- سنفصل القول في ان الإيمان يسبب التحلي بالفضائل.

2 - مستدرك الوسائل ، أبواب جهاد النفس، الباب 6،ح11 .

ومن لا يَظلم لا يُظلم. ولو أنه ظُلِم، فلأنه يحتسب مظلمته عند الله، فإن شقاءه سوف يخفف كثيرا لأن هناك فرقا نفسيا كبيرا بين من يعلم بأن بعد هذه الحياة يوما ينتقم الله من الظالم أضعافا مضاعفة، ومن لا يعلم ذلك فإن الأول يستسلم لما لابد منه راضيا بالإنتقام الآجل بينما يحترق الثاني بنار الحقد والقلق الذي لا مناص له منها. هذا فيما إذا كان الظالم أقوى منه وان كان أضعف فمن خصال المؤمن العفو عمن ظلمه، وهذا العفو تنازل اختياري عن الحق المشروع فلا يكون شقاء عليه[1].. إذا فالإيمان يجنب الإنسان من الشقاء المتسبب عن مظالم الناس بعضهم لبعض بطرق ثلاثة:

1- تشريع نظم تضمن للناس - كل الناس - حقوقهم العادلة.

2- تحريم الظلم الفردي مهما كان صغيرا ورد المظالم مهما كانت حقيرة.

3- تسلية النفس المؤمنة بالرضا لما لابد منه في انتظار يوم القيامة. أو العفو عن الظالم لمن انتصر على الظالم، وهذه معالجة نفسية، وتلك معالجة خارجية عامة وخاصة.

قال الله تعالى: في صفة المتقين-[الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ](آل عمران134-135).

وجاء في الحديث عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام:

1- في الحديث، قال رسول الله (ص): (الا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟ العفو عمن ظلمك، وان تصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء اليك، واعطاء من حرمك، وفي التباغض الحالقة، لا أعني حالقة الشعر ولكن حالقة الدين) (مستدرك الوسائل ،كتاب الحج ، ابواب احكام العشرة ، الباب 96 ، ح1.

(ان لأهل الدين علامات يُعرفون بها: صــــدق الحديث، وأداء الأمانة، و وفاء بالعهد، وصـلة الأرحام، ورحمة الضـعفاء، وقلة المؤاتاة للنســاء، وبذل المعروف وحســن الخلق وســعة الخلق[1] واتباع العلم وما يقرب إلى الله عز وجل زلفى)[2].

ج- الحوادث الطبيعيـة؛ (الزلازل، الأوبئـة، الفيضــــانـات، حوادث الســير، الحرق، الغرق، العواصــف، الأمطار المهلكة، والجفاف الطبيعي وغيرها).. ان هذه أسباب أخرى لشقاء البشر والإيمان يدفع هذه بطرق عديدة نتعرض لبعضها:

1- تدبير الغيب؛ النظر الرشـــيد في الكون يهدينا إلى ان هناك نظاما دقيقا ومرنـا في الكون، ولابد لكل نظـام من مدبر يجريـه. وبالرغم من اننا لم نكتشـــف الا القليل من هذا النظام، واننا نزعم ان لا نظــام ولا تــدبير في بعض حوادث الكون (كــالزلازل والفيضـــانات)، وبالرغم من ذلك لابد ان نعترف انه لا ريب في انها خاضـعة لنظم دقيقة. إذ ان مدبر الشـمس والقمر لا يعجز عن تدبير الزلزال والفيضــــان، بل هناك إذن إرادة موجهة لها، وهي إرادة الله، فإذا آمن به البشــر وســألوه وهو الغني الكريم فلماذا لا يعطي ولا يدفع البلاء[3].

1- حسـن الخلق يعني ان يكون هشـا بشـا كريم النفس. وسـعة الخلق يعني الا يضـيق صدره عند نزول بلاء أو رؤية سيء لا يلائمه.

2 - بحار الانوار ، ج66 ، ص364 ،ح1 .

3- قال الله ســبحانـه: [وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّــهُمُ السُّــوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ](زمر 61).

2- ان طائفة من الآفات -كموت الفجأة- تتسبب عن أسباب طبيعية ، والدين الإسلامي يشرع أحكاما للتحصن ضدها، وبذلك يتخلص الملتزم بأحكام الشرع منها[1].

3- وبالرغم من ان بعض الآفات تصيب المؤمن، فإن وراءها حكمة الإبتلاء ، حيث ان الله يمتحن العباد المؤمنين ببعض البلاء ، فإن صبروا واستقاموا أعطاهم أجرهم مرتين؛ مرة في الدنيا ومرة في الآخرة، وبذلك يبدل الله عزا وأملا[2].

الإيمان وقاية وعلاج:

د- الأمراض؛ وتشكل الأمراض نوعا من الشقاء البشري. فالمريض لا تتوافر عنده متعة الحياة وان توافرت له سائر أسباب الرفاه. والإيمان يدفع شقاء المرض بوسائل شتى:

1- ان كثيرا من الأمراض تنشأ من الصفات النفسية كالقلق والعقدة[3]، وبما ان الإيمان يعالج الأمراض النفسية فإنه يقضي على ما تنشأ منها من أمراض.

2- في أحكام الشريعة كثير من الوقايات المحصنة ضد الأمراض كالطهارة (الوضوء والغسل)، واجتناب النجاسات التي

1- في الحديث (إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة) (وسائل الشيعة، ج11،ص513 ،ابواب الامر و النهي ، الباب 41، ح2) .

2- قال الله سبحانه: [وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً](الانبياء 35) وقال: [أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ](العنكبوت 2) يعني ان الله يمتحن المؤمنين ببعض المصائب ولكن يرفع درجاتهم ان أحسنوا العمل ويجزيهم خيرا في الدنيا والآخرة.. و قال عزوجل: [وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ](البقرة 156/155).

3- قال الله سبحانه: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً](طه 124) والعالم يعاني أكثر شيء من الأمراض الناشئة عن القلق كالأمراض العقلية وضغط الدم وبطالة الكبد وما أشبه مما يجعلنا نعترف بمدى السعادة التي يوفرها الدين للمؤمنين.

تسـبب الأمراض، وتحريم الخمر والزنا واللواط والعادة السـرية، وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أشـبه من السـباع والهوام والمضر من صيد البحر. ان تحريم ذلك كله لم يكن الا لما تسبب من الأمراض، بل الإسـلام يحرم كل ما فيه ضـرر على صـحة الإنسـان ضـررا كبيرا ويقول: [وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ](البقرة 195).

وما دام المؤمن ملتزما بأحكام الشـرع هذه، فإنه يقي نفسـه طائفة كبيرة من الأمراض.

3- ان هناك تعاليم كثيرة يفرضـها الدين وأخرى يندب إليها، نجد فيها الوقاية أو العلاج التام لطائفة كبيرة من الأمراض. فالصـلاة تهدئة سيكولوجية وتمارين رياضية، والصوم ترويض نفسي ووقاية صحية، وآداب الأكل والشرب والنكاح وغيرها كلها وقاية عن الأمراض. والمؤمن حيث يلتزم بها يتخلص من غائلة قسم كبير من الأمراض الناجمة عن تركها.

5- ان الدين يدعو إلى العلم –والطب بصورة خاصة- وينشر الطب ويوفر الأدوية كل ذلك من خلال نظمه وتعاليمه الرائعة وهذا يؤدي إلى التقليل من إنتشـار المرض في المجتمع[1] وبالتالي يقضي على جانب كبير من جوانب الشقاء الإنساني.

6- ويبقى من شـقاء المرض الشـيء، القليل والإيمان يجعل المبتلى به يحس بأن هذا المرض سـعادة له بما يسـليه به من

1- الاحصاءات الدقيقة تبين ان المتدينين ــ ولاسيما رجال الدين ــ من أطول الناس أعمارا. ومن تدبر فيمن يلتزمون بتعاليم الدين كلها عرف انهم قليلا ما يبتلون بالأمراض ولو كانوا في ضنك من العيش وضيق من الحياة.

مثوبات يعوض الله بها مرضـــى المؤمنين. وإليك بعض ما يقوله الدين عن المرض والمريض المؤمن:

أ- ان المؤمن إذا مرض كتب له كل ما كان يعمله في الصحة، وانه يغفر له ذنوبه كلها.

ب- ان المؤمن إذا أصابته الحمى ليلة واحدة كتب له عبادة سنة كاملة.

التطلع نور السعادة

هذه هي عوامل الشقاء وهكذا يقضي عليها الإيمان أو يخفف من شقائها، ولكن الإيمان لا يكتفي بذلك بل يعطي الفرد نور السعادة ليجعله مفلحا حقا.. وذلك ان البشـــر قد خلق طموحا لا يكتفي بما تكفيه من ضرورات الحياة حتى يطلب المزيد، ولذلك فهو يحرص على جمع المال حرصـــا عجيبا [وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً] (الفجر 20) ليس فقط لأن المال يفي بحاجاته الضرورية، بل لانه حسب اعتقاده يجعله شيئا كما جاء في المثل (إذا ملكت شيئا فقد اصبحت شـــيئا).. وطموحه لا يقتصــــر على الملاذ المادية، بل ان ملاذه الروحية تدعوه إلى النشـــاط أكثر؛ فمثلا: حب المعرفة وحب السيطرة وحب الشـهرة قد يبلغ بالبشـر حدا يضـحي في سـبيله بالمال والأهل جميعا ، وهذا الطموح إن لم يتحقق عمليا بقي الإنسـان يشـعر بفراغ، وكلما تحقق شـيء منه طار فرحا وغمر نفسه شعور بالسعادة، واذا وجه الإنسان طموحه إلى حطام الدنيا ازداد شقاء بعد شقاء لانه كلما جد في طلب الدنيا كلما اصطدم بقوى خارجية توقفه، بينما إذا وجه طموحه نحو العالم الروحي تقدم إلى الأمام دون أي اصـطدام. والدين يوجّه طموح الانســان هذا في مجالات ثلاثة مما يجعله سعيدا متطلعا:

1- في مجال التحلي بفضـــائل إنســـانية تزيد الفرد قيمة إلى قيمته ورفعة بعد رفعة.

2- في مجال طلب النعم في الآخرة والتي عرضــــها كعرض السموات والأرض مما تمتص تطلعات المؤمنين وتزيد.

3- في مجال الاتصــــال بنور الله والقرب من رضـــوانه الذي يعطي الإنسان فيضا من السعادة التي لا تنتهي.. وأين تلك السعادة من ســـعادة الجســـم[1]. وبكل هذا يؤتي الله المؤمن فلاحه في الدنيا والآخرة، ويقول: [أُوْلَئِـكَ عَلَى هُـدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِـكَ هُمُ المُفْلِحُونَ](البقرة 5).

الإيمان نبع لا ينضب

كل فرد يريد أن يفعل الخيرات ، بيد ان شهواته النفسية والقوى الخارجية هي التي تمنعه منها وتجره إلى اقتراف السيئات. وكثيرا ما يندم البشر من بعض تصرفاته السيئة ولكنه سرعان ما يرجع إليها مرة أخرى إذا واجه نفس الظروف التي واجهها أول مرة. والإيمان يزيد من قوة العقل ويبعثه إلى فعل الخيرات ، ذلك لأنه يجعل صـــاحبه بين أيدي الله العليم القدير الذي بيده أمره وإليه مصيره، ذلك الله الذي أعد للمحسن ثوابا عظيما وللعاصي عقابا أليما.. فالمؤمن يجد نفســـه أمام ســـلطان الله الدائم فتذل نفســـه ويضعف هواها فلا يستطيع ان يردعه الهوى عن الخير. والمؤمن يشـــعر كأنه منعم في الجنة وكأنه معذب في النار (من شـــدة يقينه بالمستقبل وتطلعه لحياة الخلود) فتزيد رهبته ورغبته شـدةً وعمقاً

1- قال الله ســبحانه وتعالى في صـــفة المؤمن: [فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ](النور 36).

وتجعلانه نشطا سباقا إلى الخيرات مهما كانت صعبة ، وحذرا من السيئات مهما كانت صغيرة[1].

جاء في القرآن.. [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلْظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [2]](آل عمران 191-192). هكذا يكون الإيمان نبعا لا ينضب لفعل الخيرات!!

التحلي بالفضائل

ما هي الرذيلة؟ ما هي صفة الكبر، والغرور، والبخل؟ لدى التحليل تبين انه إذا التهب حب الذات في زاوية من الزوايا سبب صفة نفسية رذيلة؛ فمثلا: إذا التهب حب الذات في زاوية الدفاع عن الذات حدثت صفة الكبر التي لا تعدو ان تكون مغالاة في تقييم الإنسان لنفسه، والحرص لا يعدو ان يكون زيادة في حفظ الذات، والبخل إفراط في الإحساس بالخوف من الحوادث وهكذا.. ومن هنا فالذي يتغلب على هوى نفسه بقوة عقله، فإنه سوف يقضي على الرذيلة قضاء باتا. والنفس المؤمنة تميت الهوى وتجعله تابعا لإرادتها فتقضي على الرذيلة، أضف إلى ذلك ان النفس التي تشعر بعظمة الله لا يمكن أن تتكبر وان النفس التي تعلم أن لا حول لها ولا قوة الا بالله لا يمكن ان تغتر، والنفس التي تعلم ان الله يملك الخير والشر كله، لا يمكن ان تحسد الآخرين وتحقد عليهم. ومن

1- يقول الامام علي (ع) في صفة المتقين : (... فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم والنار كمن قدرآها فهم فيها معذبون)(نهج البلاغة ، الخطبة 193) .

2- هذه صفة المؤمنين الذين لا ينفكون يشعرون بعظمة الله فيتعوذون إليه من النار المرة بعد الأخرى ويدفعهم ذلك إلى المزيد من العمل والمزيد من النشاط.

جهة أخرى النفس المؤمنة بالله الجميل الجليل، لا تملك إلاّ ان تكن حبا عميقا لله وحبا لمن خلقه الله. فالنفس المؤمنة نفس محبة للناس أجمعين ولا يمكن لهذه النفس ان تحقد أو تحسـد أو تبغض أو تغضـب (الا للحق) ولا يمكن ان يقوم صـاحبها بما ينغص الناس عيشهم كالنميمة والغيبة والسب والإهانة، وكل أذى.

والخلاصـة: النفس المؤمنة يغمرها الحب ولهذا فهي مبعث الخير والجمال.

في القرآن –يصـف الله المؤمنين: [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * ... * وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً](الفرقان 63-72).

وجملة أخيرة ان الإيمان بالله هو الذي ينفذ شـرائع الدين وتعاليمه ولا يمكن ان يُستغنى عنه بأي شيء آخر:

1- فالتربية مهما تكن صـالحة، فإن النفس قد تهوى الرذيلة بسبب اتباع مصلحتها الذاتية، هذا مع ان الحصول على التربية الصالحة قد تتعذر للناس جميعا.

2- وقوانين العقوبات، مضـافا إلى انها تختص بما إذا كانت هناك حكومة صالحة، فإنها لا تستطيع ان تمنع الجريمة، كما تدل على ذلك زيادة الجريمة في الدول المتقدمة..

3- والضغط الاجتماعي لا يؤثر الا في مجال محدود.

وفي الإيمان بعد ذلك قوة لا توجد في أي شـيء آخر، ذلك لأنه يقوم بتوجيه رشـيد من داخل الذات ويجعل فيه ما يراقبه ويوجه خلجات النفس وانحرافاتها الداخلية. وأخيرا المؤمن يعيش مع الله الخالق القدير الذي يقول(يا ابن آدم ! أنا أقول للشيئ كن فيكون ،

أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون.)[1].. فما أعظمه مقاما. والآن دعنا نسأل: أليس من الأفضل أن نكون مؤمنين حقا وأن نغرس في قلوب الآخرين بذور الإيمان؟ ماذا يضرنا لو آمنا بربنا الذي يدعونا إليه ويهب لنا فلاح الدنيا والآخرة، ويوفقنا للخيرات ويعصمنا من السيئات ويستجيب لنا الدعوات؟ فلنؤمن بالله ولنزدد إيمانا.

1 - بحار الانوار، ج90 ، ص376 .

القسم الثاني عن العقيدة والإيمان

<u>البحث الثاني عن:</u>

الرسالة

- الرسالة والرسول
- محمد (ص) رسول الله

الرسالة والرسول

قبل كل شـــــيء لابد لنا من تحديد هذين اللفظين لتتبين بعض الأخطاء التي وقعت في تفسيرهما.

الرسالة تعني:

توجيه الله غيبيا لشؤون الإنسان الفكرية والعملية.

الرسول هو:

الوسيط بين الله والناس في نقل هذا التوجيه. فالرسـالة من الله، والرسول من البشر. الرسالة وحي يوحى، والرسول صاحب هذا الوحي. الرســـالة أمر مخالف لســـنن الحياة، انها أمر جديد في مســـيرة الكون، والرســـول خليفة الله ليس بطبيعته ولا بمؤهلاته وانما لأن الله قد شاء ذلك، فجعل الرسول خليفة من لدنه جعلا. ان عملية (الجعل هذه ترتبط) بالغيب وليســت عملية نمو طبيعية كما ينمو الطفل فيصبح يافعا واليافع شابا أو كما يصبح المفكر مصلحا والعالم مكتشفا.

ان الرســـول رجل مختار من قبل الله ومبعوث عنه كما تبعث الدولة سفيرا إلى دولة أخرى وتعتمده عندها.. فالعملية بحاجة إلى اعتماد ولا تكون بتدرج ذاتي. هكذا يحدد الله سبحانه واقع الرسالة وواقع الرســـول ويقول: [إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَـــالاَتِهِ](الجن 23) و[إِنِّي اصْـــطَفَيْتُكَ عَلَى الْنَّاسِ بِرِسَـــــالاَتِي وَبِكَلاَمِي](الاعراف

144) و[يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ](ص26) . ففي هذه الآيات كما في مئات الآيات الأخرى، تقرير لحقيقتين:

1- ان لله رسالة تنسب إليه وتضاف الى إسمه، انها رسالة الله وكلامه. ورغم ان كل شـــيء هو من الله ، فإن للرســالة اضـــافة خاصـة إليه نابعة من ان الرسالة انما هي خرق لسنة الله سبحانه في خلق الأشـــياء عن طريق ، أســـبابها فهي موهوبة للإنســـان بطريق مباشـــر بينما أوجد الله ســـبحانه ســـائر الأشـــياء بطريق الأســـباب الظاهرة. إذاً فالرســـالة آتية بطريق غيبي لا بطريق عادي.

2- ان الله -حينما ينزل رســـالة- يحملها رجلا مصـــطفى من عباده عن علم واختيار. فالرجل الموحى إليه ليس بشـــيء لولا الوحي. ومن هنا يأتي الاختلاف بينه وبين العباقرة والنوابغ الذين ترتفع بهم العظمة الشـخصـية إلى قمم الحياة دون ان يكون للغيب أي تأثير في عظمتهم.

هكذا يحدد الله واقع الرسالة وهكذا يدعي الرسل أنفسهم. ولكن الماديين الذين يبغون الحقائق عوجا، يخترعون لكلمة الرســـول والرســـالة معنى جديدا ، ويقولون: انما الرســـول إنســـان عبقري يتمتع بمواهب وافرة ترفعه مكانا محمودا عند الناس، شـأنه شـأن الألوف من العباقرة في التاريخ، ولا فرق إذاً بينه وبين أي عظيم آخر. فالعظماء كلهم من فصـــيلة واحدة ويجب ان ينظر اليهم بالإجلال دون أي اعتبار لإتجاهاتهم الفكرية ، أهي مســـتقيمة ام منحرفة، ولا ملاحظة لأعمالهم أهي صـالحة ام مضـرة، ولا تقييم لمنجزاتهم أهي مفيدة للإنســـانية ام لا ، ذلك لأن كلا منهم يملك

موهبة تميزه عن سـائر الناس وتجعلنا نقدره بها تقديرا. و يقولون : إن محمد بن عبد الله (ص) لا يختلف شـيئا عن أبي سـفيان. كما ان عليـا (ع) خليفـة محمـد (ص) لا يفترق عن معـاويـة ابن أبي سـفيان. اما ابراهيم وموسـى وعيسـى والنبيين (ع) فليسـوا إلاّ نظراء أديسـن وروسـو ومـاركس.. لأولئك مواهب ولهؤلاء مواهب، فهم جميعا رسل الله إلى البشرية وليست الرسالة سوى انجاز تلك المواهب سـواء كانت في طريق مشـروع ام غير مشروع، يحبها الله ام يبغضها.

ويزعمون: إن كل كاتب وشـاعر ومفكر فهو رسـول من عند الله، أبى الله ام رضي، ولكل منهم رسالة أحب الله ذلك ام كره.

والواقع ان الذي يعتقد بالرسول عبقريا ـــ فقط ـــ وبالرسالة موهبة فحسب ليس بمعتقد بالرسالة أبدا. ذلك لأن الرسول (ص) يصـرح انه مبعوث من قبل الله سـبحانه وانه عبد كسـائر العباد، وانه يتخذ كل اعتباره وقيمته من الوحي ويقول [قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ](الكهف 110).. واما القرآن فيقول في صـفة الرسول [وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ](النساء64).. [يَـا دَاوُدُ إِنَّـا جَعَلْنَـاكَ خَلِيفَـةً فِي الأَرْضِ فَـاحْكُم بَيْنَ النَّـاسِ بِالْحَقِّ](ص26).. في الآية الأولى يؤكد الله سـبحانه ان الرسـول يطـاع بـإذن الله لا بمـا فيـه من موهبـة ونبوغ. وفي الآيـة الثـانيـة يصرح القرآن ان الله قد جعل داود خليفة في الأرض جعلا.

وعلى هذه الحقيقة يبني الدين كل بنائه، فالرسول مبعوث من قبل الله ، و حكمـه حكم ربـه [وَمَـا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى](النجم3-4).. وليس الرسـول حالا في الله سـبحانه انما هو

رجل يوحى إليه من ربه، ولا الله تعالى قد ولده ولا هو منطو على جزء من الالوهية ــ كما زعمته الفلسفات الجاهلية والأديان المتأثرة بها ـــ ذلك لأن اعتباره لم يكن نابعا من ذاته حتى يكون دليلا على الوهيته ــ كما زعموا ــ بل لو تجرد عن الوحي عاد بشرا مثل سائر البشر.

ولهذا ينسف الإسلام كل مزاعم اليهود والنصارى بما ظنوا في أنبيائهم من مراتب الالوهية زعما منهم ان ما في الأنبياء من علم وحكمة وان ما تجري على أيديهم من معاجز وخوارق للعادة انما هي ناشئة من ذواتهم التي فيها نوع من النبوغ يميزهم عن سائر البشر بدرجة.

فعيسى الذي كان يحيي الموتى كان نبيا وكان إلها ــ بزعمهم ـ وعزير الذي مات ثم أحياه الله كان نبيا وكان إلها في الوقت ذاته، ذلك لأنهم لم يعرفوا واقع الرسالة فزعموا ان عيسى وعزير حين شذا عن الآخرين وعملوا أعمالا خارقة فإنما كان بسبب ما كان فيهما من الالوهية. ومثلهم في ذلك مثل الذين زعموا ان النبوة موهبة ذاتية ونبوغ شخصي للرسول، فكلاهما لم يفهم واقع النبوة فتخبطا في الظلمات خبطا. وانما الفرق بينهما أن الفلسفة القديمة كانت تعترف بأن كل من فاق البشر كان إلها دون أنصار الفلسفة الحديثة.

شبهة المنكرين

شبهة واحدة تشبث بها المنكرون كلما بُعثَ إليهم رسول أو دعوا إلى اتباع رسول. شبهة واحدة لا تختلف منذ عهد نوح وإبراهيم (ع) وإلى هذا اليوم الا في المظاهر والأشكال، فما هي

تلك الشبهة؟.. قالوا كيف يمكن ان يتدخل الله سبحانه في أوضاع الأرض. أهو قادر على ذلك؟ كلا؛ إذ انه حين خلق الكون وقدر ما فيه من النظم غُلتَّ يداه -سبحانه- فلم يعد يؤثر فيه أي تأثير.

تلك هي شبهة واحدة ولكن تصاغ في قوالب شتى:

1- فمرة يقولون: [يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ] -كما قالت اليهود- (المائدة 64).

2- وأخرى يقولون: [أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً]؟ كما قال الناس لرسلهم (الاسراء 94).

3- وتارة يقولون: أيعتني الله الكبير، خالق هذه السماوات العظيمة، بهذا البشر الحقير ـ كما قال بروفيسور ألماني ـ.

4- وأخرى يقولون: ان الله رب كبير لا شأن له بالتشريع ولهذا فالدين لله والقانون للبشر ـ كما يقول كاتب عربي ملحد ـ.

ومرد هذه الشبهة إلى ان الله قد صدر منه الخلق صدورا ــ كما يصدر الماء من النبع دون ان يكون له إرادة ومشيئة في ذلك- ولهذا فهو ليس بقادر على ان يغير شيئا مما أوجده.

فالشبهة إذاً ناشئة من عدم معرفة الله سبحانه كما ينبغي أن يعرف..

اما جوابها فيتلخص في كلمة هي ان الله القادر الذي رأينا في الكون آثار قدرته البالغة لا يمكن ان يعجز عن الخلق ، ذلك أن الخلق أضعف من الخالق بصورة ذاتية والأقوى يستطيع ان يؤثر في الأضعف، وإذا ثبتت قدرة الله غير المحدودة، فإن أي اعتراض آخر حول إمكانية الوحي يغتدي تافها جدا. وقد سبق الحديث حول ذلك لدى التكلم حول الفلسفة الميكانيكية.

ويقص القرآن الحكيم نبأ هذه الشـــبهة التي كانت تثار حول الأنبياء ثم يجيب عنها جوابا متينا فيقول: [قَالَتْ رُسُـــلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَـــكٌّ فَاطِرِ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَـــمّىً قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَـــرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُـــدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُـــلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُـــلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَـــرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَـــآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُـلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ](ابراهيم10-11).

1- في هاتين الآيتين معالجة شاملة لكافة القضايا الرسالية لابد ان نشير إليها إشارة خاطفة:

أ- ان الناس كانوا يشكون في الأنبياء (ع) وكان مبعث شكهم هو ان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ انما هم بشر مثلهم وكيف يمكن ان يبعث الله بشرا رسولا؟

ب- لم ينكر الأنبياء انهم بشر، كما انكر اليهود ذلك في عزير (ع) والنصارى في المسيح (ع) بل قالوا ان نحن الا بشر مثلكم. فلسنا نوابغ أفذاذ، نملك مواهب جمة بها نسئل منكم الطاعة. ولكننا أناس لا نستحق طاعة ولا ولاء لو تجردنا عن الرسالة الموحاة إلينا من الغيب.

ج- بيد انه ليس من العجيب ان يمن الله على من يشاء من عباده بشيء يميزه عن الآخرين إذ ما دمنا عباده فهو الذي يدبر أمورنا كيف يشاء ويختار للرسالة من يشاء. نحن عباده، والعبد لابد ان يكون خاضعا لتدبير مولاه خضوعا تكوينيا شاملا فإذا كان خاضعا

هذا الخضوع فليس من المستحيل ان يهب له علما وحكما ويبعثه إلى الناس رسولا مطاعا بإذنه.

د- بيد ان رسالتنا ــ كما يقول الرسول - لا تجعلنا فوق مستوى الناس ـ من حيث الذات ـ بل اننا لا نزال خاضعين لله ولذلك ما كان لنا ان نأتيكم بسلطان فيه نوع من السلطة عليكم الا بإذن الله ذلك لأننا وان كنا أنبياء الا اننا لا نملك شيئا من دون الله.

و- وليست لدينا أية قوة ظاهرية نعتمد عليها بل كل ما في الأمر اننا نتوكل على الله وكذلك نقول للناس (وعلى الله فليتوكل المؤمنون). فالمؤمنون انما يتقون بالله ـ سبحانه ـ لا بما لنا من قوة ذاتية.

هذه هي الرسالة في منطق القرآن وهذه هي الشبهة الوحيدة عليها وهذا هو الرد الحاسم. وسنذكر ـ ان شاء الله ـ ان هذه الرسالة تنسجم مع العقل وفيها حجة على ذاتها.

لماذا يجب ان نستمع لمدعي الرسالة؟

هناك سبب بسيط لوجوب الاستماع إلى مدعي الرسالة هو ان الرسالة ممكنة عقلا ــ كما سبق آنفا ــ وهي ضرورية عقلا ــ كما سيأتي قريبا إن شاء الله ــــ فإذا ادعاها أحد وكان من الممكن أن يكون صادقا وجب على الناس الاستماع إليه والبحث عن صدقه أو كذبه لكي يشغل هذا الفراغ. ولكن إذاً ثبت بصورة جازمة انتهاء الرسالات فليس لأحد ان يستمع إلى مدعي الرسالة لأنه إذا كاذب لا ريب في كذبه. وبما ان القرآن هي الرسالة الخالدة التي انطوت على كل حاجات الإنسان، وبما ان النبي محمد (ص) خاتم

النبيين حسب ما ثبت بصورة جازمة، فليس لأحد ان يصغي إلى من يدعي الرسالة بل يجب عليه ان يعتقد كذبه سلفا.

ما هي وجوه الحاجة إلى الرسالة؟

هل البشر يستطيع ان يستغني عن الرسالة؟ فيما يلي الإجابة الموضوعية على ذلك:

قبل أي شيء لابد ان نعلم حقيقتين:

1- ان شواهد كبيرة في الكون تدل على ان الإنسان خلق ليعيش سعيدا.

فهذه آثار رحمة الله وعطفه وحنانه قد غمرت الحياة ، وما هيّأ للإنسان من وسائل العيش، وأسباب الرفاه، وما فطر عليه الخلق من ابتغاء السعادة بصورة دائمة. كل ذلك بعض الشواهد التي تهدي إلى حقيقة ان الهدف من خلق الإنسان هو ان يعيش سعيدا، ولكن هل السعادة تفرض على الإنسان؟ كلا.

2- أما الحقيقة الاخرى التي لابد أن نعترف بها، هي: أن الإنسان خلق حراً مريداً، وان الله ضمن للإنسان إستمرار حريته في الحياة الدنيا، ذلك ان الحرية تسوى عند الإنسان السعادة، وتزيد قيمة عليها.

ومن هنا نعلم ان الإنسان خلق حرا سعيدا، وأي تفضيل لسعادته على حريته، أو لحريته على سعادته انتكاس وتجريد له عن إنسانيته.

ان منطلقنا في الحديث عن ضرورة الرسالة، ينبغي أن يكون من هاتين الحقيقتين.

ولكن كيف؟

حاجة العقل إلى مذكِّر

اننا نجد في انفسنا طاقتين تتصارعان، هذه تدعونا إلى الحق والخير والسلام، وتلك تدعونا إلى الباطل والشر، ونسمي أحداهما بالعقل والثانية بالجهل.. والجهل هاوية والعقل قمة.. والناس أهون عليهم النزول من الصعود. ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى ابتعاث أناس منزهين ومؤيدين من قبل الله ليدعوا الناس إلى اتباع عقولهم ونبذ أهوائهم ثم يتحملوا مسؤولية هذه الدعوة الكبيرة، إذ لولا هذه الطائفة لما كان للعقل الداعي إلى الحق والخير فائدة أبدا وكان صنع الله لغوا ــ تعالى الله عن اللغو ــ لأننا نجد كل موجود يؤدي عملا مفيدا وقد خلق لهدف، وان الله قد فتح له المجال لتحقيق ذلك الهدف الذي خلقه من أجله فلا يمكن ان يكون العقل قد خلق دون أية غاية؟!.. فمن الضروري أن يبعث الله الأنبياء (ع) لكي لا يكون خلق الله لغوا.

وبكلمة موجزة؛ للناس عقول هي التي تهديهم إلى الرشاد ولكن هذه العقول لا تفيدهم الا إذا ذكرهم بها مذكر ولا بد لهذا المذكر ان يكون مسددا بالغيب، ليكون هو بنفسه متذكرا مهتديا، وهذا لا يكون الا ببعث الرسل.

وقد سبق القول عند البحث حول العقل بأن من يغفل عن عقله لابد ان يوجه من خارج ذاته إلى عقله.

جاء في الحديث عن الامام أمير المؤمنين عليه الســلام: (فبعث فيهم رســـلـه ، وواتر إليهم أنبيـاءه ليســـتـأدوهم ميثـاق فطرتـه ويذكروهم منسي نعمته ويثيروا لهم دفائن العقول[1]).

فإثارة كنوز العقول ضـــرورة بشـــرية يقوم بها الأنبياء عليهم السلام.

2- ضرورة المذكر

لا يعرف الناس ربهم الا بمذكر يذكرهم به وداع يدعوهم إليه، ذلك لان طبيعة البشــر الجهل والنســيان[2] فكان على الله ان يختار لهم من يدعوهم إليه حتى يعرفوه فينالوا به السعادة والفلاح[3].

3- حاجة الإنسان إلى موجه

كلما كررنا النظر إلى ما في أنفســنا وما في الكون المحيط بنا من تكوين ونظام أيقنا أكثر فأكثر بأننا عباد خُلِقنا ولم نكن شـــيئا مذكورا، ثم أودعت نطفنا أرحاما لم نكن قد عرفناها أو هيأناها من قبل، وفي ظلماتها رُزِقنا وأنشئنا ثم أُخرجنا إلى الدنيا في وقت لم نحدده وبكيفية لم نعينها وعشنا في ظروف لم نعرفها ولم ننشئها وأوتينا الرشـــد بقدر غير مقدر من قبلنا والآن نأكل من رزق لا نملكه ونمشي على أرض لم نعمرها.

هذا بالنســبة إلى ما يحيط بنا، أما بالنســبة إلى العالم الذي نحيط به، أي عالم الإنســـان فإن آلاف النظم وملايين الأجزاء وبلايين

---

1 - نهج البلاغة ، الخطبة رقم 1 .
2- يراجع (دور الأنبياء في المعرفة) في فصل (الدليل الى الله) .
3- أنظر (الإيمان بالله) من فصل (الدليل الى الله).

الخلايا تحيط بها أجسامنا قد أُنشئت ونمت على غير إرادة منا ولا حتى معرفة لنا بها. العقل والعلم والعاطفة والخيال والحافظة وعشرات أمثالها مما أودعت أرواحنا كانت هي الأخرى ولا تزال مقدرة ومسيرة من لدن غيرنا لم نكن نستطيع تغييرها ابدا.. كل ذلك يلهمنا واقع أنفسنا انها مخلوقة واننا عباد مخلوقون مربوبون. وما دمنا كذلك فعلينا أن نتبع رضوان الرب العظيم الذي وهب لنا كل ذلك وألا نقوم بأي عمل لا نعلم أنه راض عنه.

جاء في القرآن الكريم. [قُلْ اِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ](سبأ 39) [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ](الذاريات 56).

وجاء في السنةعن رسول الله صلى الله عليه و آله: (... وذلك لأنا عباد الله مخلوقون مربوبون نأتمر فيما أمرنا وننزجر عما زجرنا ونعبده من حيث يريده منا، فإذا أمرنا بوجه من الوجوه أطعناه ولم نتعد إلى غيره مما لم يأمرنا ولم يأذن، لنا لا ندري لعله أراد منا الأول وهو يكره الثاني، وقد نهانا ان نتقدم بين يديه..)[1]

إذاً فلابد أن نبتغي رضوان الله. ولكن كيف؟

من الواضح انه لا يمكن أن نتصل جميعا بالله سبحانه مباشرة لأنه أجلُّ من أن يلامس ويواجه من قبل كل أحد، فوجب أن يجعل بينه وبين الخلق رجالا يوحي إليهم.. جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام: (انا لما اثبتنا ان لنا خالقا صانعا متعاليا عنا وعن جميع ما خلق وكان ذلك الصانع حكيما لم يجز ان يشاهده

1 - بحار الانوار ، ج9، ص265 .

خلقه ولا أن يلامســـوه و لا أن يباشـــرهم ويباشـــروه ويحاجهم ويحـاجوه، ثبـت ان لـه ســـفراء في خلقـه وعبـاده يـدلونهم علـى مصـــــالحهم ومنـافعهم ومـا بـه بقـاؤهم وفي تركـه فنـاؤهم فثبـت الآمرون والناهون عن الحيكم العليم في خلقه ،و ثبت عند ذلك أن له معبّرين وهم الأنبياء وصفوته من خلقه حكماء مؤدبين بالحكمة مبعوثين عنه، مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب مؤدين من عند الحكيم العليم بالحكمة[1]).

4- حاجة البشر إلى المنهاج

لا ريب ان في العالم أشـــياء نافعة وأخرى ضـــارة، وفيه عمل ينبغي القيام به وآخر يجب تركه. ودون ان نعرف الذي ينفع و الذي يضـــر لا نتمكن من تحقيق الســـعادة، ذلك لأنه قد نعمل ما يضر فنشقى وقد نترك ما ينفع فنشقى أيضا ـــــ ولاريب في هذا أيضـا- ومهما أوتي البشـر من علم وحكمة لا يكفي لمعرفة كل ما نحتاج إليه من خير وشر وصالح وفاسد.

ان معرفة هذا الأمر تحتاج إلى معرفة ما في الكون وما في النفس من نظم متماســـكة، والآن حيث بلغ العلم ما بلغ لا يزال يصــــرح بعض من هو أعرف الناس بالثقافة بعجز الإنســـان عن الإحاطة بعشـــر معشـــار ما في النفس وما في الآفاق من أســـرار مدهشـــة. يقول نيوتن - وهو من أكبر المكتشـــفين - (ان نســـبة معرفتنا إلى الواقع ليســـت الا كنســـبة القطرة إلى البحر).. ويقول ابن سـيناء - وهو من أكبر الفلاسـفة الأقدمين - بعد ان سـئل ماذا

1 - بحار الانوار ،ج10 ، ص 164 ، ح2 .

عرفت ؟: (عرفت اني لم أعرف شـــيئـا،..) ولا يـأمل أحد من العلمـاء اليوم ان يبلغ العلم يومـا إلى الإحـاطـة بمـا في الكون كلـه.. وحسب تعبير بعض الفلاسفة المعاصرين (العلم مركبة في فضـاء لا تحد؟). ويقول الكسـيس كاريل ـــــ وهو من أكبر العلماء الذين يتمتع بمختلف جوانب الثقافة الحديثة، وأحرز جائزة نوبل ـــــ قال وهو يســـتعرض بعض جوانب الجهل بحياة الإنســـان: (لقد بذل الجنس البشـري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسـه ولكن بالرغم من اننـا نملك كنزا من الملاحظـة التي كدســـها العلمـاء والفلاســـفة والشعراء وكبار العلماء الروحيين في جميع الأزمان فإننا استطعنا ان نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا. اننا لا نفهم الإنسان ككل..

وواقع الأمر، ان جهلنا مطبق فأغلب الأســـئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هنـاك منـاطق غير محـدودة في دنيـانـا البـاطنيـة مـا زالـت غير معروفة.. ثم يقول: فالعقل يتصف بعجز طبيعي عن فهم الحياة).

ان هذه الشـــهادة ذات قيمة علمية بالغة إذا لوحظت انها تـأتي متزامنة مع شعور متزايد باكتفاء الإنسان عن الوحي.

ويقول الأسـتاذ ج.و.ن. سـولفيان: (ان الكون الذي كشـفه العلم الحديث هو أكثر غموضـا وإبهاما من التاريخ الفكري بأكمله. ولا شـك في ان علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصـر مضـى، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة، فنحن نواجه اليوم الإبهام والمتنـاقضـات في كل نـاحية).

فلابد للبشـر – إذاً - من هاد عالم حكيم محيط بالكون كله وليس ذلك الا الله سبحانه، وكان على الله ان يرسل من لدنه أنبياء ينقلون

اليهم أوامره وإرشاداته والا لم يفلح الإنسان في الحياة ولم تتم ما خلق له وهي السعادة ولزم اللغو في صنع الله المتعالي عن اللغو.

قال الله سبحانه: [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ[1]].(الجمعة 2).

في الحديث عن الامام الرضا عليه السلام: (فإن قال قائل فلم وجب عليهم معرفة الرسل والإقرار بهم والإذعان لهم بالطاعة ؟ قيل: لأنه لما لم يكن في خلقهم وقواهم ما يملكوا لمصالحهم وكان الصانع متعاليا عن أن يرى، وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهرا ، لم يكن بد من رسول بينه وبينهم معصوم يؤدي اليهم أمره ونهيه وأدبه، ويوقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارهم ، إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون إليه منافعهم و مضارهم فلو لم يجب عليهم معرفته وطاعته لم يكن لهم في مجيء الرسول منفعة ولا سد حاجة ولكان إتيانه عبثا لغير منفعة ولا صلاح. وليس هذا من صفة الحكيم الذي اتقن كل شيء[2]).

5- القضاء على خلافات البشر

الاختلاف ظاهرة طبيعية للبشر في كل الشؤون وفي كل العصور وبين كل الناس، ورغم ما كتب الفلاسفة ـ قديما وحديثا ـ

1- في هذه الآية يجعل الله تعالى أحد أسباب البعثة تعليم الحكمة وهي معرفة المصالح العامة التي ينبغي ان تتبع.

2 - بحار الانوار ، ج11،ص40 ، ح40 .

من كتب في المنطق لإزالة الاختلاف الذي يقلق الإنسـان[1] فإنه لا يزال هذا الاختلاف قائما وقد سـبب كثيراً من المشـاكل بل وكثيراً من الويلات، فـالحروب التي تشـــتعل بين فترة وأخرى وتفني الحرث والنسل ليست الا بعض نتائج هذا الاختلاف ، فكان لزاما ان يقضـي الله سـبحانه على هذا الاختلاف ويريح البشـر من هذا العامل الخبيث من عوامل الشـــقاء ، من أجل ذلك كان عليه ان يبعث انبياء لكي يقضـوا على الخلافات البشـرية بما يوحى اليهم من حكم وعلم من قبل الله الذي لا يرقى إلى حكمه الريب ولا يحتمل منه الجهل أو الخطأ.

قال ســبحانه: [وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ](النحل 64).

6- ضرورة النظام للإنسان

الإنســان يأنس إلى الإنســان بصــورة طبيعية ويجتمع إليه ويتعاون معه، ولكل تعاون نظام فلولاه يغتدي الاجتماع ليس فقط تافها وغير مفيد، بل ويكون باعثا على الشـقاء أيضـا. فمن يضـع هذا النظام العادل الذي يضــمن ســعادة الجميع؟.. ليس ذلك في استطاعة الإنسان إذ لابد ان تتوفر شروط ثلاثة لمن يضع النظام:

أ- ان يحيط علما بكل ما في الحياة من خير وشـــر وبمعرفة مدى تأثير أعمال الفرد في إسعاده أو إشقائه ليس في الدنيا فقط بل وفي الآخرة أيضـــا. ولم يأت إلى الحياة فرد أو طائفة ادعو هذا العلم.

1- فيما أعلم إلى الآن أكثر من عشــرة نظريات حول المنطق وما به يرفع الناس خلافاتهم الفكرية والعملية.

ب- أن يتجرد عن كل هوى حتى لا يفضـــل مصـــلحته أو مصلحة طبقته على المصالح العامة، وهذا لا يمكن أن يتحقق لأي بشر، إذ ان أفضلهم لا يخلو من التأثر بميوله وشهواته كما نشاهد ذلك في بني الإنســـان جميعا ويجده كل منا في نفســـه، فما أن تعرض قضــية ترتبط بمصــلحة البشــر حتى تختلف الأفكار فيها بسبب اختلاف المصالح.

ج- أن تكون له إرادة قوية تعطيه الاســتقامة التامة في ســبيل تطبيق الحق الذي يحمله إلى الناس، ذلك لأنهم لا يفقهون ان في مصــلحتهم تطبيق الحق فيثورون ضــد الحق وضــد كل من يدعو إليه، فلابد ان يكون للمبشــر بالنظام الحق من الاســتقامة ما يقابل هذه المقاومة ويزيد. ومن الواضــح ان هذه الاســتقامة لا توجد الا عند من يؤيد من لدن الله ، ذلك لأن الفرد مهما كان نافذ العزيمة قوي الإيمان فإنه ينهار عند اختلاف النكبات عليه.

لهذه الأسباب الثلاثة لم تتمكن البشرية من وضع نظام صالح كامل عبر آلاف الســنين، أي منذ ان ســن حمورابي نظمه وحتى القوانين الغربية و الشرقية الأخيرة، رغم كل المحاولات المبذولة في هذا السبيل.

وبما ان البشـــر عاجز عن وضـــع هذا النظام وهذا النظام ، ضرورة لسعادة الإنسان وقد خلق الله البشر ليسعدوا، كان على الله ســـبحانه ان يضـــع لهم نظام الحياة ويبعث ذلك على يد من يتحمل مســـؤولية ذلك. ومن الواضـــح ان الله ســـبحانه لا يتاثر

بالمصـــلحة ولا بالجهل ولا يبعث من يعجز عن تحمل مســؤولية الرسالة بل لا يكون المبعوث الا معصوما[1].

قال الله سبحانه : [إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ](النساء 105).

وفي حوار جرى بين الإمام (ع) ورجل مادي قال (ع): (أربك انظر[2] لخلقه ام خلقه لأنفســـهم؟ فقال: بل ربي أنظر لخلقه. فقال: ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال: أقام لهم حجة ودليلا كيلا يتشــــتتوا أو يختلفوا، يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم[3]).

وجاء في الحديث عن فضـل بن شـاذان: (فإن قال قائل: لم أمر الخلق بالإقرار بالله وبرســـوله وبحجته وبما جاء من عند الله عز وجل؟ قيل: لعلل كثيرة منها ان من لم يقر بالله عز وجل لم يتجنب معاصـــيه ، ولم ينته عن إرتكاب الكبائر، ولم يراقب أحدا فيما يشـتهي ويسـتلذ من الفسـاد والظلم، واذا فعل الناس هذه الأشـياء وارتكب كل إنســان ما يشـتهي ويهواه من غير مراقبة لأحد، كان في ذلك فساد الخلق اجمعين ووثوب بعضهم على بعض، فغصبوا الفروج والأموال، وأباحوا الدماء والسبي وقتل بعضهم بعضا من غير حق ولا جرم، فيكون في ذلـك خراب الـدنيـا وهلاك الخلق وفســاد الحرث والنســل. ومنها: ان الله عز وجل حكيم ولا يكون الحكيم ولا يوصف بالحكمة إلاّ الذي يحظر الفساد ويأمر بالصلاح ويزجر عن الظلم وينهي عن الفواحش، ولا يكون حظر الفســـاد

1- قال الله ســبحانه: [الا من ارتضـــى من رســول فإنه يســلك من بين يديه ومن خلفه رصدا].(الجن/27)

2 - أنظر: أصوب نظراً.

3 - الكافي ،ج1 ، ص171 ، باب الاضطرار الى إلى الحجة ،ح4 .

والأمر بالصـــلاح والنهي عن الفواحش الا بعد الاقرار بالله عز وجل ومعرفة الآمر والناهي فلو ترك الناس بغير إقرار بالله ولا معرفة لم يثبت لهم أمر بصلاح ولا نهي عن فساد، إذ لا آمر ولا ناهي. ومنها: انا وجدنا الخلق قد يفسـدون بأمور باطنة مسـتورة عن الخلق فلولا الإقرار بالله وخشيته بالغيب لم يكن أحد –إذا خلا بشـهوته وإرادته- يراقب أحدا في ترك معصـية وانتهاك حرمة وارتكاب كبيرة، إذا كان فعله مسـتورا عن الخلق غير مراقب لأحد ، فكان في ذلك هلاك الخلق أجمعين، فلم يكن قوام الخلق وصـلاحهم الا بالإقرار منهم بعليم خبير يعلم السـر وأخفى آمر بالصـلاح وناه عن الفسـاد ولا يخفى عليه خافية ليكون في ذلك إنزجار لهم عما يخلون به من أنواع الفساد[1].

7- ضرورة التزكية

كل فرد يجد في نفسه الكفاءة التامة للرقي إلى أسمى مراتب التزكية النفسـية وأرفع مسـتويات الثقافة الإلهية وما تتبعها من معرفة النفس والخلق ، أصله ومصيره، وواقع الكون وأجزائه، والعلاقة التي تربط بعضها بالبعض الآخر. ورغم بحث الإنسان عن هذه الحقائق منذ نشوئه وحتى اليوم بحثا مسـتمرا فإنه عجز عن تحقيق أي تقدم في هذا المجال، حتى أن النظريات الحديثة - ونحن نعيش في عصـر الذرة والفضـاء - لتتشـابه مع نظريات

1- على الرغم من ان هذه الرواية تشـير إلى بعض فوائد الإيمان فإن فيها نبذة من دواعي ابتعاث الأنبياء عليهم السـلام وتتلخص في منع الفسـاد الناجم عن الظلم الاجتماعي.(عن: علل الشرائع ،ج1، باب 182 ، علل الشرائع وأصول الاسلام، ح9).

الفلاسفة الاغريق الذين سبقونا بألفي عام فأكثر[1]. واذا ثبت عجز البشر عن بلوغ هذا المستوى الرفيع من التزكية والمعرفة فلابد ان يبعث الله من يعلم البشر ويزكيهم وهم الأنبياء(ع).

قال الله سبحانه: [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ](الجمعة 2).

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه و آله قوله: (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[2]) .وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (أيها الناس ان الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة وأخلاق شريفة فعلم انهم لن يكونوا كذلك الا بأن يعرفهم ما لهم وما عليهم والتعريف لا يكون الا بالأمر والنهي[3])

8- اعادة توازن الحياة

تدل حوادث التاريخ انه بين فترة وأخرى كانت الفوضى تعم حياة الإنسان على الكوكب، فكان الله سبحانه يبعث اليهم رسلا يعيدون الإنسان إلى وعيه وإلى صراط مستقيم. وتاريخ الرسالات شاهد واضح على هذه الحقيقة. فإنا نرى ان ابتعاث الرسول كان متزامنا لطغيان البشر في كل ناحية من نواحي حياته، حيث كان

1- سبق الحديث حول ذلك حيث بحثنا عن دور العقل في توجيه الحس.

2 - بحار الانوار ، ج16، ص210 .

3- الامام عليه السلام أشار إلى ثلاثة حقائق تهدي إلى وجوب الرسالة وهي: أولا ان الله أراد للبشر ان يكونوا على أحسن الآداب وهذا أمر وجداني إذ ان الله كامل فلا يحب الا الذي يتصف بالصفات الحسنة، وثانيا ان الطبيعة البشرية لا يمكن ان تبلغ بالإنسان الأدب الرفيع بدون معلم يعلمهم ذلك، وان التعليم لابد له من وسيلة وهي تتحقق في التشريع وهو الأمر والنهي وهذه الحقيقة الثالثة هي التي أشار إليها الإمام (ع).(عن: بحار الانوار ،ج5،ص316،ح13) .

قد شاع فيهم الظلم وانتشر الفساد واختلت الموازين وافتقدت القيم ولم يبق من منهج السماء في الأرض الا شيئا قليلا وكانت القوى البشرية عاجزة تماما عن اصلاح الوضع. ومع ان كل الناس كانوا ينشدون الخلاص فإنه لم يكن يستطيعه أي شخص وأية فئة وأية فكرة، وهنا كان الغيب، يتدخل لينقذ حياة البشر، ويخلصه من تيهه وضلاله وكان ضروريا ان يتدخل الغيب. ذلك لأن الله سبحانه لم يخلق الإنسان الا ليسعد في الدنيا ويفلح في الآخرة ولم يكن ممكنا في ظل تلك الظروف التمتع بالسعادة لأي فرد دون تدخل إلهي و بعث الرسل.

9- التبشير و الانذار

ان الله قد جعل الدنيا دار بلاء واختبار وجعل الآخرة دار جزاء وثواب[1] ، وكان من تمام النعمة عليهم ان يبعث من يبشرهم بالجنة التي أعدت للمتقين، وينذرهم بالنار التي أعدت للكافرين والفاسقين، ويبين لهم ما يتقون عنه من السيئات ولولا ذلك لكان للناس عليه الحجة البالغة وكانوا يقولون ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك فإن كنت قد بعثته إلينا لكنا من المهتدين.. ثم ان سعادة الإنسان في اللآخرة تفوق أهمية سعادته في الدنيا، ذلك لأن الآخرة تدوم والدنيا تزول وقليل يدوم أفضل من كثير يزول. ألم يكن إذا من حكمة الله ورحمته الواسعة ان يبعث من يهدي الناس إلى السبل الموصلة إلى الجنة؟ قال الله سبحانه: (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين)..

1- راجع فصل المعاد.

هذه طائفة من الحكم التي أرســـل الله من أجلها الأنبياء، وفيها الشـهادة الكافية على الحاجة إلى الرسول أيضـا لأنه لابد للبشـر من إنســان يقودهم إلى الحق حتى يسـتجيبوا له، اما إذا نزلت الرســالة على شكل ألواح بين الناس فمن المؤكد الا يفيد شيئا، كيف وقد جاء الرسل بالرسالة فلم يؤمن الناس بهم الا قليل.

بماذا يعرف الرسول

هناك عدة وســائل يعرف الناس بها الرســول، ونحن إذ نشــير اليهـا لا يمكننـا ان نـدعي انهـا كـل الطرق الممكنـة إلى معرفـة الرسول، بل لعله توجد وسائل أخرى إلى هذه المعرفة.

1- الرسالة

لقد سـبق آنفا ان هناك عدة أسـباب تدعو إلى الرسـالة والتي لا يفلح البشـر بدونها، وعرفنا بها ان الرسـالة واجبة، كما عرفنا انها هي الغاية من بعث الرسـول. ومن هنا نعرف انه لابد لكل رسـالة من الاحاطة بحاجات الناس و وفائها بها، إذ ان أي رســالة لا تفي بهذه الحاجات لا يمكن ان تكون من عند الله. إذ ان الله ليس بعاجز عن توفير كل ما يحتاج إليه الإنسان، ورحمته لا تضيق عن ذلك، فعدم توفرها في رســالة دليل على عدم صـــحتها، كما ان توفرها من حيث المجموع دليل على ان الرسالة من عند الله سبحانه لأنه، لم يأت من البشـــر أحد إدعى انه جاء اليهم بكل هذه الحقائق التي يحتاج الإنســان إليها[1] ولأنه لا يمكن لبشـر عادي ان يأتي من عند نفسه بكل ذلك.

1- والسـبب المعقول لذلك ان أحد الوجوه التي ذكرناها لضـرورة الرسـالة هو التذكير بالله سبحانه، وما التذكير بالحق، ولا يذكر بالله الا من يعتقد به ويديم ذكره كما لا يذكر

2- الرسول

ان شخصية الرسول وما لها من صفات حميدة، حجة أخرى على صدق رسالته. فإذا عُرِفَ بالطهارة من كل دنس والتعالي عن كل رذيلة ، لا يستهويه عن الحق منصب ولا يستدرجه إلى الباطل مأثم، رأيناه يدعي انه رسول من عند الله عالما بأن ادعاءه هذه المرتبة لو لم يكن مالكها ظلم عظيم لنفسه وللناس أجمعين. إذا عُرِفَ الرسول كذلك عُرِفَ انه رسول الله حقا.. قال الله تعالى: [أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ](المؤمنون 69).

وقال سبحانه: [قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [1]] [هود 88].

بالحق الا من يعمل به ، وغير الأنبياء لا يريدون ان يلزموا أنفسهم بالحجة ، إذ ما ان يذكروهم بها حتى يطالبهم الناس بالعمل بما يقولون ولهذا فإن أحدا منهم لم يدع ذلك. فالفلاسفة لم يقولوا انهم جاؤوا من قبل الله وان كلا منهم يصدق من سبقه ويصدقه من لحقه، ولا انهم جاؤوا مبشرين ومنذرين. والمصلحون سواء السياسي منهم أو الاجتماعي أو الاقتصادي لم يدعوا ان اصلاحهم شامل لجميع مناحي الحياة الفكرية والعملية في دار الدنيا وفي الآخرة، بل كانوا بين منكر للحشر والمعاد وبين من حصر إصلاحه على ناحية واحدة من الحياة ، ثم ان أحدا منهم لم يدع انه جاء من عند الله تعالى. وقد سبق انه يجب ان يكون النبي من عند الله. ولقد أوضحنا ذلك عند بيان الحاجة إلى الرسالة وكيف ان البشر عاجز بذاته عن تحقيقها.

1- لقد استدل النبي هود عليه السلام في هذه المقطوعة، التي ينقلها القرآن بحجج بليغة على صدق رسالته وهي بالترتيب كالتالي: (ان لي بينة من ربي) وهي المعجزة التي كانت معه، وان الله قد انفعني بالرسالة فرزقني بها السعادة والفلاح. لقد سبق ان الرسالة الإلهية تسعد الإنسان في الدنيا كما تسعده في الآخرة، ثم اني أول عامل بما أقول وفي هذا دليل صدق دعواي، إذ ان الكاذب لا يعمل بما يقول، واني أريد الاصلاح فلست رجلا استغلاليا، واني أجهد نفسي بخوض المعركة بدون ان يعتمد على قوة ظاهرية والفرد الذي يعمل هذا العمل اما مجنون – وانتم ترونني رشيدا – واما اعتمد على قوة

وقال عزوجل: [وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُـــعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الاَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِـــرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُـــدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِـــدِينَ * وإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِـــلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْـــبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ][1] (الأعراف/ 85-87).

وجاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه الســـلام: (اعرفوا الله بالله و الرسول بالرسالة)[2].

3- الآيات

ويعرف الرســـول بالآيات البينات التي يحكم العقل الســـليم بأنها ليســت من صــنع البشــر، وذلك مثل ناقة صــالح (ع) وتحول النار بردا وســلاما على إبراهيم (ع) وعصــى موســى التي إلتقفت حبال السـحرة ثم ردها الله إلى سيرتها الأولى، وما كان يشـع من يده من

هي اكبر من قوة الأرض وهي قوة الله تعالى الذي عليه توكلت وليس في عملي علامة الســـفه أو الطيش حتى انســـب إلى الكذب ، والكاذب لا يكذب الا لأنه يقدم مصـــلحته الخاصــة، اما انا فإنني رجل منيب قد قتلت هواي واخضـعت نفسـي لتوجيه عقلي. وتدل هذه الآية على ان الله كان ينصر رسله بطرق غيبية وهي الحجة البالغة على صدقهم.

1- هذه الآية المباركة نموذج خارجي لواقع دعوة الأنبياء (ع) ذلك لأن شـعيبا (ع) أمر قومه بما ينظم جميع نواحي حياتهم فأمرهم أولا بعبادة الله الواحد ثم أمرهم بالعدل الاجتماعي وما يسـتتبعه من ضـبط المكيال والميزان والوفاء بالحقوق والإنتهاء من كل فساد وعدم التآمر على الدولة الحقة لسرقة الحكم ظلما ثم أمرهم بالتذكر والاعتبار وهما توجيهان إلى العقل ثم أمرهم بالصبر وهو تزكية للنفس. هذه هي الخطوط الرئيسية التي ســـار عليها كل الأنبياء وهي بالذات ما ســـبق وان قلنا انها وجوه الحاجة إلى الرســـالة والرسول.

2 - بحار الانوار ، ج3، ص270 ،ح2 .

نور وانفلاق البحر له اثني عشــر قســما، وتكلم عيســى في المهد صبيا واحياؤه الموتى وابراؤه الاكمه والابرص ـــ بإذن الله ـــ وما أشبه ذلك من الآيات.

4- الفطرة

جاء في الحديث عن الامام علي عليه السلام: (ان على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا)[1]. والواقع لا يحتاج الفرد إلى ذكاء خارق حتى يعرف مدى صدق دعوة اصلاحية معينة. ان ذات كل دعوة من هذا القبيل شــاهدة على صـــدقها، فإن مقاومة الظلم والجريمة ، ومحاربة الســلبية والميوعة ، ونصـــرة المعدمين والضــعفاء، هي دلائل صـــدق الدعوة ، وهي أمور تعرفها فطرة كل إنسان التي لا تشك في أن مثل هذه الدعوة صادقة.

فالفطرة تثبت صـــدق الرســول في دعوته لأنها تنســجم مع معطيات الفطرة ذاتها.

وتزداد هنا المعرفة وضـــوحا وعمقا كلما ازداد الفرد تفاعلا معها وممارســة عملية لها إذ يبدأ آنذاك، بملامســة الواقع بصــورة مباشرة.

5- شهادة أمته:

وتأتي شـهادة أمته أكبر حقيقة يشـعر بها المؤمنون المخلصـون برســالة الرسـول.. ولا تنحصـر شـهادة أمته في بعث الآيات التي تدعم رســالة النبي (ع) ولا تنحصــر أيضــا في صـــدق نبؤات الرسول واستجابة دعواته، وانتصاره الخارق على أعدائه، بل تعم

1 - بحار الانوار ، ج2 ، ص 165 ، ح 25 .

أكثر من ذلك حتى تشمل نوعا من الإلهام الشخصي الذي يمن به الله سبحانه على كل فرد حسب أهليته وبطريقة مناسبة له .

محمد رسول الله..

كيف يمكن ان نثبت رسالة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم؟

ان طريقة إثبات رسالة الرسول متشابهة مع طرق إثبات سائر الرسالات التي سبقت الإشارة إليها، ولكن بالإضافة إلى دليل آخر هو ما بشر به الأنبياء السابقون أممهم[1].

1- الرسالة

ان رسالة الرسول محمد (ص) نفسها شاهدة على انها من عند الله، ذلك لأن الرسالة المحمدية لا تفي بكل الحاجات البشرية فقط، بل انها أيضا أكمل الرسالات وفاء بها. أليس الإسلام يذكّر بنور العقل[2]؟ أو لم يكن النبي (ص) يهدي الناس إلى ربهم ويذكرهم بما له من نعماء ثم يبين لهم ما يرضيه وما يسخطه من عقيدة وعمل وخلق؟

1- سيأتي شرح ذلك فيما يلي من الفصول.

2- قال الله تعالى: [أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الاَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الاَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ](الحج 46).
وفي الحديث: (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة). ومن الممكن ان نجعل تذكرة الإسلام بنور العقل دليلا كافيا على ان الإسلام هو الدين الحق، ذلك لأننا نعلم ان أنصار الباطل يحاولون ابعاد الناس عن التعقل لكي يضعوهم في معزل عن التدبر في الكون تدبرا منهجيا عقلانيا لأنه سيقضي على باطلهم بينما يحاول المحقون تنشيط عقول الناس حتى يبصروا الواقع بأنفسهم.

أو لم يكن يبين لهم الحكمة ويبين لهم ما يصلحهم وما يضرهم، ويزكي الناس ويربيهم على مكارم الأخلاق[1]؟

هذه رسالة محمد بن عبد الله التي نزلت عليه من ربه. أليست تكفي البشر من كل النواحي التي يعجز الإنسان نفسه عن تأمينها، ويرشد العقل إلى وجوب إبتعاث النبي بها؟ وقد جاء الرسول بها كاملة من عند الله ونحن نعلم انه لا يملك ان يأتي أحد برسالة من نفسه تكفي الناس من كل الوجوه السابقة مهما كان عظيم الفكر واسع المعرفة.

فحيث جاء الرسول بها وقال أنها من عند الله تعالى، عرفنا صدقه فيها، وهكذا نجد في القرآن الكريم استدلالا على صدق الرسول بحقيقة رسالته:

يقول الله سبحانه: [كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ](إبراهيم 1). [هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ](إبراهيم 52). [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ[2]](النحل 89).

1- قال الله تعالى في صفة الرسول: [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ](الجمعة2).

2- هذه الآيات وان كانت في الظاهر تبيانا للحقيقة فقط ولكنها في الواقع دليل عليها أيضا إذ انها تشرح واقع رسالة الرسول (ص). فهي قد أوحيت على شكل كتاب منزل من عند الله يهدي الناس من الظلمات إلى النور وهو بلاغ ونذير للبشر وتذكر بالله وإثارة لدفائن العقول وتوجيه للفكر وانهاء للخلافات البشرية وتبيان لكل شيء يحتاج إليه الإنسان في الحياة ثم هو هدى للمؤمنين وبشرى للمسلمين بصفة عامة لا طائفة دون أخرى وشعب دون آخر بل لمن اتصف بالإيمان والاسلام من كان وانّي كان. ومن الواضح ان هذه هي الصفات التي يهدينا العقل إلى ضرورة توفرها في الرسالة أية رسالة ولا يمكن ان تتوفر في غيرها. فرسالة الرسول رسالة حقة ما دامت تنطوي على هذه الحقائق جميعا فالآيات شاهدة على صدق الرسالة عن طريق بيان ما توفرت فيها.

فهذه هي الخطوط العامة لكل رســـالة وهي بالتالي الحاجات الضـرورية للبشـر. وقد اعترف المسـتشـرق (ليتن) برسـالة النبي محمد (ص) عن طريق شـــهادة محتوياتها فقال (انني لأجرؤ بكل أدب ان أقول: ان الله الذي هو مصـــــدر الخير والبركات كلها لو كـان يوحي إلـى عبـاده، فـدين محمـد (ص) هو دين الوحي. ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراســـخ القوي ووســـائل التمييز بين الخير والشـــر ودفع الباطل هي الشـــاهدة على الإلهام فرسالة محمد (ص) هي هذا الإلهام[1]) .

2- الرسول

من خلال ســـيرة الرســـول (ص) منذ ان كان يافعا يعزف عن اللهو أو كان فتى يرعى تجارة خديجة فيلتزم بالصـدق والأمانة أو كان رجلا يتميز بين أترابه بأنه يقبل الغريب ويرحم الضـــعيف ويأوي المســـكين وإلى ان بعث نبيا يحمل بين كفيه النور والهدى إلى العالم كله وحتى أصـبح سـيد العرب جميعا من خلال سـيرته في ســـني عمره وأطوار حياته، لم يعهد منه معاصـــروه الكذب والخيانة فسموه (الصادق الأمين) فلم يستطيعوا نعته بالكذب حتى بعد أن بعث بالرسـالة وسـفه أحلام قريش وقاد الحروب ضـدها. رأوا فيه إنســـانا يزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ويتجنب الرذائل ويتحلى بالفضـــائل. هذا محمد بن عبد الله الذي أعجب به من عاصـره – العدو والصـديق - وأعجب به من جاء بعده - من عدو وصـــديق - . هذا الإنســـان ادعى النبوة وكان يعرف أبعاد

1 - (الإسلام يتحدى، ص 176).

دعواه وهي ان من يدعو إلى النبوة فهو يدعو إلى الله ويدعي الاتصال به والبعثة من لدنه إلى الناس جميعا في كل العصور[1].

كما كان يعرف بكل دقة ان الذي يدعي النبوة كذبا فإنما هو أخبث الناس وأظلمهم لنفســـه وللناس جميعا، لأنه يغر الناس ويخدعهم ويبعدهم عن الصراط المستقيم[2]، ذلك لأنه ينسب الكذب إلى الله رب العالمين ويتسلم قيادة الناس جميعا وفي كل العصور، فإن كان غير كفؤ لها جرهم إلى الردى ليس في عصره فقط بل على مر العصور حيث ان اتباع هذا الرسول لا يقتصر على زمان حياته بل قد يدوم إلى الأبد، كما هي الحال في رسالة النبي محمد (ص). فمعنى كذب مدعي الرسالة اضلال الملايين عن السعادة. ان هذا الظلم ما أعظمه وما أكبره.. ولا يقدم على هذا الظلم الا أخبث الناس الذي انسلخ عن كل قيمة إنسانية، فكيف يدعيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله الذي عرفناه بالصدق والأمانة؟

ان دعوى الرسول –هذا الصـــادق الأمين- لا تحتاج الحجة تدعم صحتها بل انها شاهدة بذاتها على انها الحق الواضح. ذلك ان محمدا صـــادق وأمين، والصـــادق يصـــدق في كل أمر كما ان الأمين أمين مع كل أحد. وليس بصـــادق من يصـــدق مرة ويكذب

1- كان النبي (ص) يقول عن الله سبحانه: [يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ](يونس57). [قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ](الفرقان 6)، [وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى](النجم 3و4) .. هذه هي دعوة الرسول التي هتف بها منذ البداية وهي تدل ـ فيما تدل ـ على ان الرسول كان على يقين بما يدعو إليه وما فيه من ضخامة المسؤولية.

2- قال الرسول (ص) عن الله: [قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّــدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ](يونس 69و70) تدل هذه الحكمة على ان الرســول كان يعرف بكل تأكيد ان الكذب على الله ظلم عظيم وخطيئة كبيرة جزاءها عذاب أليم.

مرة، وليس بـأمين من وفى مرة وخـان أخرى، وحيـث نُعِـتَ الرســـول بالأمانة والصــــدق فلابد ان المجتمع كان قد رأى فيه تجســيداً لهذه من الصــفات الحســنة ، فكيف يكون كاذبا في هذا الأمر الذي هو أهم الأمور جميعا؟ ولقد كان أهل مكة يأتمنون النبي محمدا على أموالهم حتى بعدما كفروا برســالته.. فبعد ان اضــطروه إلى الهجرة إلى المدينة كانت لديه أمانات أمر وصــيه الامام عليا عليه السلام بردها لأصحابها.

ولقد كانت قريش أعدى أعدائه وكانت تعترف له بصفة الأمانة. فهذا النضـــر بن الحارث وقد كان من ســـادة قريش وأكبر المعارضين للنبي ــ ص ــ وكان يعد من المحنكين في مكة، ألقى يوما خطابا في جمع من الكفار وقال:

(يا معشـــر قريش انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضـــاكم خلقا وأصـــدقكم حديثا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صــــدغيه الشـــيب وجاء بما جاءكم به قلتم ســاحر. لا والله ما هو بســاحر، لقد رأينا الســحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وســمعنا ســجعهم. وقلتم شــاعر، لا والله ما هو بشــاعر، لقد رأينا الشــعر وســمعنا أصــنافه كلها هزجه ورجزه. وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وســوســته ولا تخليطه. يا معشــر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم[1]).

1- سيرة بن هشام، ج1،ص319.

ولم يدع أحد من قريش على النبي محمد ـ صلى الله عليه و آله ـــ الكذب والخيانة الا وهو متردد بالرغم من انهم قالوا فيه أعظم من ذلك وأكبر، وكان الســـبب لتحرزهم عن إتهامه بالكذب أو الخيانة انها كانت تهمة لا تنسجم أبدا مع المشـهور من حياة النبي قبل الرســـالة. فلنســـمع إلى حوار جرى بين هرقل ملك الروم وبعض كفار قريش ــــ بعدما تسلم هرقل رسالة من النبي (ص) يدعوه فيها إلى الإسلام ـــ فسأل عمن يعرفه من أهل وطنه فجيء إليه ببعض، التجار فسألهم هرقل عمن هو أقربهم نسبا بالرسول.

فقال هرقل: (هل انتم كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال؟).

أبو سفيان: لا.

هرقل: هل يغدر؟

أبو سفيان: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

هرقل: قد أعرف انه لم يكن يذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وأبو سفيان هذا كان من أبرز المعارضين للرسول الذي قاد حروبا ضارية ضده وألب عليه العرب جميعا ولكنه يقول فيه انه لم يكن كاذبا ويبرر قولته بعدئذ بأنه (والله لولا الحياء من ان يأثروا علي كذبا لكذبت عليه). ان هذا المبرر شاهد على السمعة الطيبة التي أحاطت بالنبي ـ صلى الله عليه و آله ـ وجعلت أعداءه يعترفون ـ رغما منهم ـ بصدقه وأمانته.

وبهذا الدليل يكتشف البروفيسور بورسورت سميت شخصية النبي ـ ص ـ البالغة البهاء والروعة فيقول:

(عندما ألقي نظرة إجمالية استعرض فيها صفاته وبطولاته، ما كان منها في بدء نبوته وما حدث منها فيما بعد، وعندما أرى أصـــحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة وكم من البطولات المعجزة أحدثوا، أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى ان الإنســـانية لم تعرف له مثيلا).

ولقد كان النبي صـــلى الله عليه وآله وســـلم قادرا على إحراز أكبر قدر من الســـيادة والثروة والرفاهية لأنه كان يتمتع بمركز اجتماعي فريد في قومه بســـبب انه من قريش ومن بني هاشـــم ساداتها التقليديين. وقريش كانت سيدة العرب بسبب حكمها على مكة عاصمة الجزيرة العربية ، وأما الثروة فقد كان يتصرف في أموال زوجته البرة خديجة (ع) التي كانت من أغنى الناس في مكة. وأما من ناحية الرفاهية فقد كان يملك الوداعة والأمن والعيش المناسب لعصره، وفجأة دعى الناس إلى الرسالة الجديدة بعد الأربعين من عمره، و بالضبط حين يذهب عن النفس البشرية طيشـها وغرروها ويبدأ المرء يتعقل، وحين كانت التقاليد تقضـي لصـــاحب الأربعين بالتفوق والكمال.. في هذا الحين بالضـــبط عرض نفســه لأكبر الأخطار وأعظمها إبتداءً من افتقاده ســمعته كسيد قريش في المستقبل و تحوله في الاعلام المعادي إلى ساحر ومجنون و.. و..؟ والى ضــرب الحصــار الاقتصــادي عليه في شـعب أبي طالب وإلى ان ذهب إلى الطائف فعامله سـادتها أسـوأ معاملة وقال أحدهم في وجهه مستهزءا: (سوف أمزق ثياب كعبة ان كان الله قد أرســلك نبيا علينا). وقال الآخر: (أما وجد الله أحدا يرسله غيرك). وقال الثالث: (والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا

من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا من ان أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي ان أكلمك) ثم أغروا بـه ســفهاءهم فرموه بالحجارة حتى سـقط على صـخرة مثخنا بجروح بليغة فلم يدعوه يســتريح حتى تابعوه بالحجارة والســب فتابع رحلته إلى خـارج الطـائف ونـاجى ربـه قـائلا: (لـك العتبى لـك العتبى حتى ترضى) دون ان يبالي بكل ذلك.

أقول لم يكن للرسول أية دوافع شخصية ولا دوافع اجتماعية أو اقتصـادية ان يعرض نفسـه ومركزه للخطر مبتدءا بافتقاده مركزه الاجتماعي ومرورا بمصــائبه الكبيرة في مكة وإنتهاءً بالحروب التي شنت ضده في المدينة. ولم يكن كل ذلك من مثل محمد (ص) الا شاهدا كبيرا على صدقه في دعوته وشدة يقينه برسالته. وهكذا نقول بكل تأكيد ان الرسول ذاته دليل رسالته.

ثم ما الذي يدعوه إلى الكذب والخيانة؟ أهو المال؟ وهو الذي رفض العرض المغري الذي قدمه إليه سـادة قريش والذي احتوى على أكثر أموال العرب مقابل تنازل الرسول عن دعوته الرسالية. أم هو الجاه؟ وقد عرض عليه ان يسود على العرب جميعا بشرط ان يترك رســالته فرفض. أم كان العيش الرغد؟ وهو الذي اكتفى بأزهد نصيب بين المسلمين وحَمَّل نفسه أشق الأعمال ولم تختلف به الحال منذ ان كان يتيما في حضــن عمه والى ان أصــبح سـيد العرب المطاع، بل زاد رغبة عن الدنيا وزهدا.

وكلمة الخلاصة ان تحليل شخصية الرسول ـ ص ـ يهدي إلى واقع رســالته، فإن طهارة النفس ونقاءها لا تجتمع مع الكذب والخيانة في أمور بســيطة فكيف بالخيانة العظمى المتمثلة في

دعوى الرسالة كذبا، ان هذه الرسالة التي يدعيها انما هي من الله إلى البشر جميعا. هذا من ناحية شخصية الرسول التي تدل على صدق رسالته، و هو :

1- رجل واحد يتحدى التاريخ كله والبشر كلهم، ويبعث الإنسان بعثا جديدا في تصوره وسلوكه وأخلاقه، ويكوّن شخصيات نموذجية لا مثيل لها[1]. ان هذا لم يقع ولن يقع لغير الرسول الصادق المؤيد بالغيب حيث لم يشهد التاريخ إنسانا استطاع توحيد القبائل المتناحرة في وحدة تجعلهم كأنهم بنيان مرصوص، ثم قام ببعثهم إلى العالم حاملين رسالة العدل والحق والسلام إلى كل إنسان في الأرض.

2- إنسان أمي لم يتعلم عند أي فرد ولم يدرس الكتب ولا خط بيديه شيئا. هذا الإنسان ينقلب ـــ بعد البعثة مباشرة ـــ إلى بحر زاخر من المعارف التي عجزت البشرية عن سبر غورها حتى يوم الناس هذا. هل يكون ذلك الا رسولا صادقا؟

3- ودليل آخر نلمسه في إنقطاعه المديد إلى الله ـــ سبحانه ـ وعبادته التي لم يكن لها مثيل، وإلتزامه قبل كل أحد بشريعته التي انزلت عليه ، بل إيجابه على نفسه من فروضها أكثر من أمته ـــ كصلاة الليل والتهجد بها ـــ وان في ذلك دليلا قويا على صدق دعوته، ولم يكن ليقول ما يقول الا باعتقاد جازم وقناعة شخصية تامة، ذلك مهما استطاع المرء ان يخدع الناس فإنه لا يتمكن من ان يخدع نفسه خداعا يحملها على الأعمال الصعبة دون عقيدة راسخة واخلاص تام.

1- والى هذا الدليل ترجع الكلمة الشهيرة التي تقول: ان علي بن ابي طالب (ع) من معاجز الرسول. والواقع ان بناء شخصية مثالية كعلي (ع) لدليل واضح على صدق رسالة النبي محمد (ص).

قال الله سبحانه: [وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ](العنكبوت 48)، [قُل لوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ][1] (يونس 16) .

3- المعاجز الخارقة

ما هي المعجزة، وهل يمكن عقلا حدوثها؟

في الكون سنن فطرية تجري وفقها كل الأحداث، فالنار تبعث الحرارة والحرارة تولد الامتداد والامتداد يتسبب في التبخر و.. و.. طائفة من هذه السنن معروفة للإنسان ويستخدمها في صالحه، بيد ان طائفة أخرى منها غير معروفة وهي كبرى الطائفتين، ولا يمكن لذلك استخدامها كما لا يمكن رفضها سلفا.

والمعجزة قد تعني خرق السنن المعروفة بسنن أخرى غير معروفة للبشرية بعد، ويكمن اعجاز المعجزة آنئذ في ان رجلا ساذجا (وأميا في بعض الأحيان) كيف استطاع ان يعرف السنن التي لا يعرف أحد من العلماء شيئا منها. وهذا النوع واقع في حياة الأنبياء عليهم السلام وأبرز الأمثلة عليها بساط سليمان، فإن ركوب الريح سنة فطرية بالرغم من أنها لم تكن معروفة في عهد سليمان عليه السلام. والمثل الآخر معراج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعتقد البعض انه كان نوعا من المركبات الفضائية التي لم تعرف حتى اليوم خصائصها.

1- في هذه الآية تصريح بأن النبي (ص) كان أميا، ومن الواضح انه ان لم يكن كذلك لكذبه أعداؤه الذين لم يفتروا يراقبون جميع حركاته لعلهم يجدون مهمزا يشنون من خلاله حملات دعائية ضده، فلو لم يكن أميا بالفعل لم يكن يصرح بذلك ليعطي مادة نقد دسمة بيد أعدائه وهم قد عاشروه خلال أربعين سنة.

في مثل هذين النموذجين من المعاجز، ان الله ســبحانه لا يغير ســنن الكون انما يهدي نبيه اليها بشــكل معجز ومن دون وســائل مادية.. وقد تعني المعجزة اختراق كافة الســنن الفطرية وذلك مثل القرآن الذي لم يوح به بمقتضـــى ســـنة فطرية بل خرقا لكافة السنن.. والسؤال هنا هل يمكن حدوث المعجزة؟

لدينا شهادتان على إمكان حدوث المعجزة:

الشهادة الأولى: شهادة الوقوع؛ ذلك اننا لم نعرف إمكانية وقوع أية حادثة الا بعد ان وقعت تلك الحادثة فعلا. فمثلا: إمكانية وقوع أبسط الحقائق وأوضحها وهي نمو البذرة بعد دفنها في التراب، لم نعرفها الا بعد ان عرفنا وقوعها فعلا. فالقول بعدم إمكانيتها غير وارد أصــلا. ذلك لأن المعارضــة الوحيدة لهذه الإمكانية تأتي من قبل العادة التي تعودنا عليها بالنسبة إلى سائر الحالات، ولكن تلك العادة لم تكتشــف واقعيتها الا بتكرار وقوعها فليكن تعودنا على المعجزة سببا من أسباب العادة أيضا.. بل ان تحليل معارفنا يشهد بأن الإنسان لا يزال يعرف قدرا ضـئيلا من السـنن الكونية ولعله لدى تطور العقلية البشـرية من واقعها الضـحل إلى مسـتوى أرفع يتبين أن ســنناً أخرى تحكم الحياة جنبا إلى جنب مع الســنن المعروفة. فمثلا: نحن ننكر إمكانية المعراج لأنه ينافي معارفنا حول الجاذبية، ولا ننكر إمكانية الصعود إلى القمر لأننا عرفنا ان اســتخدام الصــواريخ والوقاية الكافية و.. و.. يجعل المركبة الفضــائية تتحكم بالجاذبية فلا يجري آنئذ قانون الجاذبية في هذه الحالة المعينة ولعله لو تقدم العلم اكتشــفنا طريقة أبسـط وأســهل

للتحكم بالجاذبية التي تجعلنا نطير حول الفضـــاء دون الإســتعانة بالمركبة الموجودة.

وهنالك نعرف ان نســبة معارفنا اليوم إلى معارفنا ذلك اليوم كنســبة معارف القرون الوســطى إلى معارف القرن العشــرين، وعندئذ يمكننا التصديق بالمعراج حتى بدون مركبة فضائية.

فالمعجزة ظاهرة تعيش إلى جانب الظواهر الواقعة يوميا. وكما لا يسعنا إزاء هذه الظواهر الا البحث عن سنتها بموضوعية دون ردها سلفا، فكذلك لا يسعنا أمام المعجزة الا البحث عن واقعها دون إنكارها اعتمادا على سائر الظواهر المعروفة.

الشــهادة الثانية: وهي تأتي من الإيمان بالقدرة اللامتناهية لخالق الكون سبحانه، الذي لم يعجز عن خلقه بأية صورة شاء، بل جعل الاختلاف في مظاهر القدرة دليلا بارزا على احاطة قدرته لكافة المحتملات. وقد ســبق الحديث منا حول ان قدرة الله غير متناهية وان من مظاهر قدرته: إجراء السنن وانه لولا هذا الاجراء لما كان هناك أي تسلسل بين خط الأسباب وخط المسببات.

فهاتان شــــهادتان دلتانا على إمكانية حدوث المعجزة. بعد هذا نقول: من الشــواهد الواضــحة على نبوة الرسـول صـلى الله عليه وآله وســلم الآيات التي أظهرها الله على يديه. وقد ثبت لنا بالنقل المتواتر الذي لا يحتمل الكذب[1] حيث ان المسلمين باختلاف فرقهم

1- يعتمد الإنســان في كل شــؤونه على النقل المتواتر، وهو نقل طائفة كبيرة من الناس يضـمن الإنسـان معهم عدم الكذب. فمثلا: يثبت الإنسـان وجود البلاد البعيدة بالنقل المتواتر كما يثبت وجود الأمم البالية -كعاد وثمود- بالتواتر. وكذلك ثبت ان للنبي محمدا (ص) معاجز بينات؛ ثبت بالنقل المتواتر حيث لم نر أحدا من المؤرخين المعاصــرين للنبي (ص) يبدي أية معارضـــة لها، مع انها لو كانت كذبا إذاً كان يعارضـــها طائفة كما أثبتها طائفة، لاسيما مع وجود معارضة قوية للرسول (ص) متمثلة في المشركين اليهود والمنافقين الذين

وتشـــتت مذاهبهم أنبأوا عن الرســـول (ص) انه جاء بمئات من المعاجز التي تدل بصفة قاطعة على وجود طائفة منها قطعا.

هذا بـالإضـــافـة إلى بعض القرائن الأخرى التي تؤكد ظهور المعجزة على يد الرسول (ص) وهي الأمور التالية:

لم يؤمنوا بالرسول ولا بصحة معاجزه الا انهم لم يسعهم انكارها بل نسبوا السحر إليه حيث زعموا: ان المعاجز نوع من السحر. والى هذه الحقيقة ترشدنا الرواية التالية:

في الحديث عن الرســـول (ص) انه قال لأبي جهل حينما انكر الآيات المنقولة له بطريق متواتر: (يا ابا جهل فإن كان لا يلزمك تصـديق هؤلاء على كثرتهم وشـدة تحصـيلهم فكيف تصدق بمآثر آبائك وأجدادك ومساوئ اسلاف اعدائك؟ وكيف تصـدق عن الصـين والعراق والشــــام إذا حدثت عنها، وهل المخبرون عن ذلك الا دون هؤلاء المخبرين لك عن هذه الآيات مع سائر ما شاهدها منهم من الجمع الكثيف الذين لا يجتمعون على باطل يتخرَّصونه الا كان بازائهم من يكذبهم ويخبر بضد إخبارهم)(بحار الانوار،ج17،ص244).

وفي حديث احتجاجي بين الامام الرضـــا (ع) وبين علماء اليهود، قال (ع): فما يمنعك من الاقرار بعيســـي بن مريم (ع) وقد كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والابرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله؟

قال رئيس علماء اليهود المدعو بـ(رأس الجالوت): يقال انه فعل ذلك ولم نشهده.

قال الرضا (ع): أرأيت ما جاء به موسى من الآيات، شاهدته؟ أليس انما جاءت الأخبار من ثقات أصحاب موسى عليه السلام أنه فعل ذلك؟

قال (رأس الجالوت): بلى.

قال الرضـا (ع): فكذلك أيضـا أتتكم الأخبار المتواترة بما فعل عيسـى ابن مريم (ع) فكيف صدقتم بموسى ولم تصدقوا بعيسى؟ (فلم يحر جوابا).

فقـال (ع): وكـذلـك أمر محمـد ومـا جـاء بـه وأمر كـل نبي بعثـه الله. (بحـار الانوار ،ج10،ص309)

والواقع ان المعجزة لا تعدو ان تكون كأية حادثة تاريخية أخرى لابد ان نبحث عنها بصورة موضـوعية مجردين تماما عن الاستبعاد الذي يكتنف الموضـوع لانه بعيد عما باشرناه من السنن الكونية.. بلى؛ لو لم نستطع ان نؤمن فلسفيا بإمكان المعجزة إمكانا عقليا، إذاً امكننا نبذ الأنباء المتواترة منها وغير المتواترة لأن العقل أمتن ثقة من النقل. بيد انه ثبت لنا فلســفيا امكان بل وضرورة المعجزة فلا يسعنا الا قبول الأخبار الموثوقة بها على صحتها.

1- ان الرسول (ص) كان يقص على المسلمين معاجز الأنبياء السـابقين وكان يقول ان على النبي (ص) ان يأتي بآية بينة لقومه حتى يصدقوه فلو لم يكن يأتي هو لهم بمعاجز كان مكذبا لنفسه إذ كان لقومه ان يقولوا له إذا كنت قد نبأت فعلا وتزعم ان النبي يأتي قومه بالمعاجز فلماذا لم تأتنا بها[1]؟

2- ان القرآن نقل للناس طائفة من معاجز الرسول (ص)؛ مثل محاربة الملائكة معه يوم بدر، وإخباره بالغيب كفتح مكة، والتغلب على ملك الفرس والروم وما أشـبه.. ولو كان كاذبا في نقله إذا لكذبه الكفار فورا[2].

3- المعهود من أقوال الكفار المعاصـرين للرسـول (ص) انهم كانوا ينسـبونه إلى السـحر، وقد قص لنا القرآن ذلك نقلا عنهم فقال: [وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُـوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ](الأنعام 7) ولابد انهم شـاهدوا منه ما يتشـابه والسـحر في اعينهم فنسـبوه إليه، جهلا منهم بواقع السحر والفرق بينه وبين المعجزة.. في حين ان الفارق بين السحر والمعجزة كبير ويكمن في ثلاثة أمور:

1- في القرآن آيات كثيرة تدل على ظهور المعاجز على أيدي الأنبياء السـابقين وإليك بعضها.. قال الله سبحانه: [وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَـابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّـرْدِ وَاعْمَلُوا صَـالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ] (سـبا10-11).. وقال: [وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ](الأعراف 73).

2- قال الله تعالى، وهو يبين بعض آيات الله التي ظهرت على يد الرسول الخارقة: [سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الاَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَآ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ](الأسراء 1). وقال [ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِـمُونَ](آل عمران 44). وقال [فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا](التوبة40).

الأول: ان السـحر يحتاج إلى تعلم والمعجزة تأتي موهبة من عند الله، ولذلك فإن السـاحر لا يكون سـاحرا الا بعد سـنين من الدراسة المرهقة، أما الرسول فإنه تصدر منه المعجزة بغير تعلم. والساحر لا يعرف الا نوعا خاصا من السحر بعد ان يتقن معرفته في حين يتمكن النبي (ص) من القيام بعدة معاجز مختلفة نوعا في وقت واحد؛ فمن شق القمر إلى تسبيح الحصى إلى انقلاب الجذع نخلة باسقة.

الثاني: ان السـحر يأتي باختيار السـاحر وإرادته بينما لا يأتي الاعجاز الا بإرادة الله سـبحانه، ولذلك فإن السـحر قد يأتي مؤيدا للحق وقد يأتي مخالفا له، أما المعجز فلا يقع إلا موافقا للحق، وللحكمة التي ترشد إليها الرؤية الصائبة وفي سبيل الاصلاح.

وبكلمة: ان السـحر يسـتخدم في المطامع والاهواء بعكس المعجزة، التي لا يمكن اسـتخدامها الا في سـبيل الخير ولا يؤتى بها الا بإرادة الله. ومن هنا كان الكفار يطالبون الأنبياء (ع) بالمعجزة في بعض الأحيان، ولا يسـتجيب لهم الأنبياء (ع) قائلين: ان ليس لهم من الأمر شـيء بل ان يشـاء الله نزل عليهم آياته في حين كان هوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم موافقا مع إبداء الآية ـــ بحسب الظاهر ـــ ولكن حيث ان الحكمة لم تكن مع ابدائها لم يكن الله تعالى يبعثها. وأوضـح شـاهد على ذلك قصـة موسى (ع) مع السحرة إذ لم ياذن الله لموسى بالقاء عصاه الا بعد ان امتلأ رعبا وخاف ان لا يؤمن الكفار وكان في ذلك دليل على ان موسى عليه السلام لم يكن بذاته قادرا على إحداث الخارقة بل بإذن الله، حيث ان السـحر يؤثر في إطار محدود بينما المعجزة لا

تتحدد بإطار. فالساحر ــ مثلا ــ لا يتمكن من احياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص أو قلب العصــى الصــغيرة إلى ثعبان مبين يلقف الحبال ثم يرجع إلى اصله وكأن شيئا لم يكن، أو خلق طوفان يملأ الأرض ماء، إن الساحر لا يفعل مثل هذه وقد فعلها الأنبياء عليهم السلام.

الثالث: بل لعل الســـحر لا يتمكن من البناء بل على الهدم فقط بينما يســـتطيع النبي ان يبني كما يســـتطيع ان يهدم بالمعجزة . فالساحر قد يتمكن من ان يجعل شجرة باسقة أعوادا يابسة ولكنه لا يجعل العود اليابس شجرة باسقة. واما المعجزة فإنها التي تجعل من الجذعة الذابلة نخلة تساقط رطبا جنيا. الساحر يمكن ان يجعل الناس فرقا شـــيعا ولكن لا يســـتطيع ان يؤلف قلوبهم كانهم بنيان مرصوص ويبعثهم أمة وسطا. السحر قد يجعل الأمة القوية شعبا مســـتضـــعفاً ولكنه لا يتمكن من ان يفعل خلاف ذلك – كما تفعل المعجزة- فتبدل الشعب المستضعف امة قوية. السحر قد يجعل من النظام فوضى ولكن لا يخلق من الفوضى نظاما يبهر العقول.

إذا فهناك فروق أساسية بين السحر والمعجزة نابعة من مصدر الســحر الذي لا يعدو ان يكون اســتخدام بعض الســنن الخفية بعد دراستها واتقانها. ثم يكون استخدام الساحر الذي يتأثر بالضعف البشري فيستخدم ذلك في الغالب فيما يضر الناس دون ما ينفعهم. وعلى ذلك نعرف ان انكار الكفار المعاصـــرين للرســـول (ص) معجزاته واتهامه بالســـحر لم يكن الا خلطا ســـاذجا بين معطيات الســحر والمعجزة، لجهلهم أو اســتكبارهم عن الحق.. فإذا عرفنا نحن ان ما أتى به الرسول (ص) لم يكن من السحر علمنا انه كان

معجزة فكان كلام الكفار دليلا على صـــدق نبوة الرســـول (ص) وثبوت المعجزة له.

الكتاب المعجزة

القرآن هي المعجزة التي تبقى دليلا واضـحا على رسـالة النبي (ص) مدى الدهر.. رجل أمي -عرفه معاصـــروه انه لا يقرأ ولا يكتب - يأتي بكتاب مفصـل فيه علم كل شـيء، بلغ في الفصـاحة والبلاغة الذروة، وضـــرب في الأســـلوب والمحتوى أرقى رقم يقاس، ثم يتحدى به العالم كله ويقول لهم – بأعلى صـــوت- [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُـــورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُـــهَدَآءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَـــادِقِينَ](البقرة 23).. ثم يقول: [... لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً](الأسراء 88).

القرآن يتحدى العالم..

ان مجرد التحدي من رجل أمي في الجزيرة العربية لشهادة كبيرة على ان صـــاحبه ليس برجل عادي، لاســيما وأن هذا التحدي لازم الرسول (ص) حتى نهاية حياته حيث لاحظ حضارات البشرية عن كثب وعرف أبعاد ما فيها، وقد عجزت البشـرية رغم تكاثر الأعداء الألداء، عجزت حتى عن محاولة التحدي المضاد.

وفي بداية البعثة، زعم بعض العرب المغرورين بفصـــــاحتهم؛ انهم قادرون على التحدي المضـــاد، الا انهم ســرعان ما اكتشـفوا ضلالهم البعيد.

فالشـــاعر العربي (بشـير) الشـــهير ببلاغته قال أبياتا زعم أنها أفصح من القرآن فعلقها على الكعبة، ولم يكن يعلق عليها الا شعر

أفصح العرب، ولما رأى المسلمون اعجاب (بشير) بأشعاره كتبوا بعض آيات القرآن وعلقوها إلى جنب أشعار بشير، فلما مر بها بشير أبهرته قوة البلاغة في القرآن وهتف قائلا: والله ما هذا بقول بشر وأنا من المسلمين.

وبعد قرن من بزوغ الإسلام زعم بعض المنافقين ان الوقت حان للإجابة على تحدي القرآن فاتصل بالأديب العربي الشهير (بن المقفع) الذي أغرته ثقافته الفارسية الفلسفية الواسعة فقبل الدعوة إلى التحدي المضاد ولكنه اشترط على صاحبه المقترح ان يتكفل له بما يحتاج إليه خلال سنة، وهي المدة التي زعم انه قادر على انجاز مهمته فيها، ولما مضى نصف عام عاد إليه صاحبه ليعرف مراحل العمل في مواجهة تحدي القرآن فوجده جالسا والقلم يرتعش بين أصابعه وقصاصات الورق تتناثر من حوله، فاعترف بأنه قد أصيب بفشل ذريع في محاولته هذه رغم ما بذله من جهود جبارة إذ انه لم يستطع ان يأتي بآية واحدة من طراز القرآن..

ولسنا بحاجة إلى ذكر المزيد من القصص التاريخية بعد ان اعترف بعظمة القرآن كل من تدبر فيه. ولم يظهر حتى الآن من نجح في صياغة آية واحدة ـ ولو بصورة تقليدية ــ كآيات القرآن الحكيمة، وان أغمضنا النظر عن تحدي القرآن فإن ذاته يدل على صدق هذا الكتاب الذي ظاهره أنيق وباطنه عميق، ظاهره حكم وباطنه علم، قيم لا عوج فيه، حق لا باطل معه، لا تختلف أحكامه ولا تتناقض مبادؤه ولا تتعارض أصوله وفروعه ومفاهيمه وأحكامه.

هذا الكتاب الذي بهر البلغاء فرفعت اعلام الاستسلام واستهوى العالم كله، فظل يستلهم منه طيلة أربعة عشر قرنا فلم تبل عجائبه ولم تخلق نضارته بل جاء كل جيل فاقتبس من نوره واهتدى بهداه وذهب ليستخلفه الجيل الثاني في ذلك دون ان يؤثر تطور الحياة وتقدم العلوم واختلاف الزمن شيئا في عظمته وأهميته. هذا الكتاب يأتيه رجل أمي محض، أليس في هذا معجزة دونها معاجز الأنبياء عليهم السلام.

أين معجزة القرآن؟

القرآن معجزة لاشك في ذلك، إذ لو لم يكن معجزة إذا لاستطاع البشر ان يأتوا بمثله وقد تحداهم جميعا من أول يوم وإذا كان يشبه كتب البشر في شيء واحد بينما يختلف عنها في كل شيء فلا يكون الا معجزة ولكن أين من القرآن المعجزة؟ في أية ميزة منه اختبأت المعجزة؟ في الجواب نقول:

أ- قد احتوت آياته على علوم لم يعهدها البشر ذلك اليوم واكتشفها عصر النور.. فبالرغم من ان رموز القرآن لم تحل بصورة دقيقة نظرا لضحالة معارف الإنسان، فإن آيات قرآنية كثيرة اشارت إلى حقائق علمية لم تعرف الا منذ زمن قريب. وان مقارنة القرآن في هذا الحقل بأي كتاب تاريخي يظهر لنا بوضوح مدى الفرق بين كتاب البشر وكتاب الخالق الأبدي الذي لا يمكن ان يتجاوزه الزمن، أنى سارع في مسيرته. بل انه يبقى أبدا أمام الاكتشافات، فيعود الإنسان إليه كلما عرف سرا ليجد به إشارة بارزة إليه حتى انه يعتقد بيقين ان القرآن يحتوي على العلم كله..

ونحن إذ نذكر بضـــعة أمثلة فإنها ليســـت ســـوى طليعة الشـــواهد العلمية التي تتلاحق لتكشف عن إعجاز القرآن:

1- لقد اكتشـف العلم ان المادة كانت جامدة وسـاكنة وحدث فيها انفجار هائل قبل خمسة ملايين مليون سنة فبدأت المادة تتمدد حتى ان دائرة المادة كانت ألف مليون ســـنة ضـــوئية وأصـــبحت الآن عشـرة أمثال ذلك. وهكذا تتوسـع المادة الا انها كلما توسـعت كلما كثر بداخلها الفضـاء الخالي حتى انه لو طوينا الكون بحيث لم يبق فيه فضـاء خال تضـاءل الكون حتى أصـبح كحجم الشـمس بضـعة عشـــرة مرة. أليســـت تدل هذه الكشـــوف العلمية تدل على بضـــع رموز الآيتين الكريمتين:

أ- [أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا](الأنبياء 30).

هل هناك تعبير أفصـح من تعبير الرتق والفتق تكشـف عن هذه الحائق؟

ب- [يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ](الأنبياء 104).

أليس الطي أصدق تعبير لاخلاء المادة عن الفضاء؟.

2- من المفهوم لـدى العلمـاء اليوم ان المـادة الخفيفـة وزنـا ارتفعت على ســـطح الأرض وكانت الجبال، وبقيت المادة الثقيلة مكانها فكانت البحار، واســـتطاع ارتفاع مكان وانخفاض آخر ان يحـافظ على توازن الأرض والا لمـادت بـأهلهـا. هذه الحقيقـة، الا ترى دلـت عليهـا الآيـة التـاليـة بـأبلغ تعبير: [وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ](لقمان 10).

3- وتتفق نظريـات علمـاء الجغرافيـا والنبـات وغيرهم على ان الأرض كانت متمركزة في البدء ثم انتشـرت. وهذه تتفق تماما مع

كلمة (دحو) التي اســـتعملتها آية قرآنية عند بيان بداية الأرض، ذلك لأن (الدحو) تعني التسـوية في الانتشـار من مكان تتجمع فيه المادة.

قال الله تعالى: [وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا](النازعات 31/30).

وكفى بهذه الأدلة دليلا على مدى الانســـجام بين آيات الكتاب وكشـوفات العلم الحديث وهي مقتبسـة من موضـوع تكون المادة فقط.. وفي سائر المواضيع شواهد أكبر وأكثر.

ب- والقرآن ليس فيه اختلاف بين المبدأ والشــريعة والأخلاق الذي نجده في المبادئ الأخرى. فالقرآن مثلا يقر مبدأ التوحيد ثم لا يشذ عنه في صغير أو كبير، بل يصدر عنه كل شـيء، بعكس المبدأ الماركسي – مثلا – فإنه يتبنى مبدأ في الفلسفة يناقضه في التشريع أو في الأخلاق.

ج- وهو أفصـــح ما عهده العرب وأبلغ ما عهده الإنســـان من ألفاظ وتراكيب، ولذلك أنزلت العرب معلقاتها العشــرة الفصـيحة عندما نزلت بعض الآيات، قائلين انها ســوف تفضـــحنا لأنها من قبيل وضع الحصى في عرض الأحجار الكريمة.

د- وأعتقد ان أهم ما في القرآن هي معارفه التي حلت للناس كل مشـــاكلهم الفكرية والتي عجزت عن حلها البشـــرية جميعا. والقرآن نفســه يذكر ان ســر عظمته بالدرجة الأولى هي معارفه فيقول: [يَآ أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَشِــفَآءٌ لِمَا فِي الصُّـــدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ](يونس 57).. يظهر من هذه الآية ان شفاء ما في الصدور والهدى هي السمه الكبرى الموجودة في القرآن وهي مرتبطة بظاهرة كشــف الحقائق في القرآن. ومن

هنا فقد تحدى القرآن بتلك المعارف البشـــر جميعا، لا العرب وحدهم.

تبشير الكتب المنزلة

وحجة أخرى على صـدق رسـالة النبي محمد صـلى الله عليه وآله وسلم، بشارة الكتب السماوية به. يمكننا معرفة هذه البشارة بطرق ثلاثة:

الأول: لقد ذكر القرآن في عدة آيات ان الأنبياء الســابقين قد بشروا بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال سبحانه [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّورَاةِ وَالإِنْجِيلِ](الأعراف 157) .. ولعن الأحبار والقسـيسـين الذين كتموا الحق بالبشارة به صلى الله عليه وآله وسلم فقال: [إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ](البقرة 159) وقال في سياق الحديث عن رسالة النبي عيسى(ع) انه كان يبشر بنبي يأتي من بعده فلو لم يكن الرسول صادقا في قوله انه قد بشرت به الكتب السماوية السـابقة، إذن لكان يكذبه اليهود والنصـارى مع انا لا نعهد منهم ذلك أبدا. بل كل ما في الأمر انهم قالوا -اسـتكبارا عن الحق- ان الرسول الذي وصف في الكتاب انما يأتي بعد قرن من تاريخ بعثة الرسول وأظهرت الأيام كذبهم؛ ولم يكن ذلك الا من بعضهم، اما الآخرون فإنهم آمنوا به اعتمادا على الأوصاف التي اعتقدوا بأنها ظاهرة في الرسول (ص) بالضبط.

والخلاصة: ان الرسول ادعى انه المبشر الموعود في الكتب السابقة، وحيث لم ينكر ذلك أحد من معاصريه عرفنا انه كان صادقا في هذه الدعوى.

الثاني: القدر الموجود بأيدينا من الكتب السماوية تتضمن، على الرغم من كثرة التحريف فيها بأيدي المعاندين للرسالة الجديدة الذين هددت الرسالة مصالحهم الشخصية؛ على الرغم من كل ذلك فإن الكتب السماوية الموجودة لا تزال تحتوي على بشائر كثيرة بنبوة الرسول (ص) وإليك طائفة منها:

1- في انجيل برنابا؛ الفصل الثاني بعد الأربعين: (ولا أحسب نفسي كالذي تتحدثون عنه، ذلك لأني لا أليق أن أحل سير رسول الله الذين تسمونه (مسبأ) الذي خلق قبلي وسيبعث قريبا وسيأتي بكلام الحق والذي ليس لدينه نهاية).

2- (وذلك لأن الله قد وعد إبراهيم ان يبعث من ذريته من يبارك به جميع قبائل الأرض وكما حطمت الأصنام فسوف يحطم ابنك جميع الأصنام).

3- وفي التوراة - السفر الأول، الباب الرابع عشر، الآية 20-: (وفي خصوص اسماعيل أجبت على دعوتك وباركت في نسله ويظهر منه اثني عشر رئيسا وسوف يأتي من قبله شعب عظيم).

4- وفي نفس الفصل ذكر ما نذكر فيما يلي نصه وترجمته: وهمفريتي اتو = (واجعله محظوظا وفيرا)، وهريتي اتو = (وأجعله كثيرا)، بمئد بمئد = (بسبب محمد)، شنم عاسار = (اثني

عشـر)، نسـئيم بوليد = (إماما يولده)، وانشـتيوا لفهي كادول = (وأجعله أمة كبيرة)[1].

5- وفي التوارة، السـفر الخامس، الباب الثامن، الآية 18-: (وقال لي الرب ما قيل لك حسنا سأبعث لهم نبيا من أخوتهم بني اسماعيل) ولم يدع منهم النبوة أحد سوى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو إذا المقصود بهذا النص.

6- وفي التوراة أيضا – السفر الخامس، الباب الثالث والثلاثين، الآية 21: (وهذه هي البركة التي بارك بها موسى بني إسرائيل قبل وفاته قال: جاء يهوى عن سيناء - وهو الوادي الذي بعث به موسى عليه السلام - وطلع لهم من ساعير - وهو مبعث عيسى عليه السلام - واستنار من جبل فاران - وهي مكة المكرمة-) .. والواضح انه لم يبعث من جبال مكة الا النبي محمد (ص).

وهناك طائفة كبيرة أخرى من النصوص التبشيرية نتركها للإيجاز.

الثالث: المناظرات؛ وثالث ما نستكشف به البشارات الموجودة في الكتب السابقة ببعث النبي محمد (ص) هو ما ذكرت في المناظرات التي جرت بين علماء المسلمين وبين علماء اليهود والنصارى.. وبما إننا عرفنا من الرواة الناقلين لهذه المناظرات الصدق والضبط بطرق فنية دقيقة فإن هذه المناظرات معتمدة لدينا كما هي معتمدة لدى جميع العقلاء على أصلهم الثابت من الاعتماد على كل ما يفيد ثقة واطمئنانا نفسيا. ونحن فيما يلي نستعرض مناظرة واحدة فقط اختصارا للحديث، وهي المناظرة

1- هذه العبارة منقولة من التوراة بترجمة بعض المختصين باللغة.

التي جرت بين الإمـام الرضـــا (ع) وبين كبير علمـاء اليهود والنصارى.

قال عليه السلام لجاثليق – كبير علماء النصـارى- : (فأقسمت عليك هل نطق الانجيل ان يوحنا قال: ان المســيح عليه الســلام اخبرني بدين محمد العربي (ص)، وبشــرني به انه يكون من بعده فبشرت به الحواريين فآمنوا به؟

قال جاثليق: قد ذكر ذلك يوحنا عن المســيح (ع) و بشــر بنبوة رجل وبأهل بيته ووصــيه ولم يخص متى يكون ذلك ولم يســم لنا القوم فنعرفهم.

قال عليه الســلام: فإن جئناك بمن يقرء الانجيل فتلى عليك ذكر محمد وأهل بيته وأمته أتؤمن به؟

قال جاثليق: سديدا (أي نعم بالتأكيد).

قال الرضـا (ع): لنسـطاس الرومي: كيف حفظك للسـفر الثالث من الانجيل؟

قال: ما أحفظني له.

ثم التفت الرضـــا (ع) إلى رأس الجالوت، وكان عالما يهوديا: ألست تقرأ الانجيل؟

قال راس الجالوت: بلى لعمري.

قال عليه السلام: فخذ عليَّ السفر الثالث (فقرأ الإمام فقرات منه حتى إذا بلغ ذكر النبي (ص) وقف ثم قال): يا نصراني اني أسالك بحق المسيح وأمه أتعلم إني عالم بالإنجيل؟

قال: نعم.

ثم تلا عليه ذكر محمد وأهل بيته وأمته.. ثم قال: ما تقول يا نصــراني؟ هذا قول عيســى بن مريم (ع) فإن كذبت ما ينطق به الإنجيل فقد كذبتَ موسى وعيسى[1]؟

ثم إلتفت الرضا عليه السلام إلى رأس الجالوت اليهودي فقال: يا يهودي أقبل علي أسألك بالعشر الآيات التي انزلت على موسى بن عمران، هل تجد في التوراة مكتوبا نبأ محمد (ص) وأمته: (إذا جاءت الأمة الأخيرة أتباع راكب البعير يســبحون الرب جدا جدا تســبيحا جديدا في الكنائس الجدد فليفزع بنوا إســرائيل اليهم وإلى ملكهم لتطمئن قلوبهم فإن بأيديهم ســيوفا ينتقمون بها من الأمم الكافرة في أقطار الأرض) أهكذا هو في التوراة مكتوب؟

قال رأس الجالوت: نعم انا لنجده كذلك[2].

ان هذه الحادثة التاريخية التي أثبتتها كتب الحديث المضــبوطة تدل على ان علماء أهل الكتاب لم يكن يمنعهم انكار البشــارة بالرسـول، حتى في أواسـط القرن الثاني من الهجرة، والواقع ان علماء بني إســرائيل كانوا يقولون ان البشــارة موجودة ولكنها تختص بمن يأتي بعد قرن من بعثة الرسول ولكنه لم يأت.

شهادة الله

لقد تحدى النبي (ص) كل البشر بما لهم من مبادئ وأفكار وبما ينتحلون من شــرائع وأديان، تحداهم في أكثر من آية وأكثر من مشــهد بأن الله شــهيد بيني وبينكم.. قال الله في كتابه العزيز: [قُلْ أَيُّ شَــيْءٍ أَكْبَرُ شَــهَادَةً قُلِ اللهُ شَــهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ](الأنعام 19)...

1 - بحار الانوار ،ج10 ،ص302 .
2 - المصدر ،ص305 .

[وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ](الرعد 43)..

ما هي هذه الشـــهادة وكيف يشـــهد الله على صـــدق نبوة محمد (ص)؟ ان الله يشهد من عدة طرق:

1- اســـتجابة الدعاء لكل من توســـل إلى الله بالنبي وآله (ص) مما يدل على إخلاصهم لله..

2- ونصرة الله لمن يؤمن بشريعة الرسول ويتمسك بها تماما.

3- مضـــافا إلى هاتين الشـــهادتين هناك نوع آخر من الشـــهادة هي: ان من يؤمن بالله إيمانا حقيقيا يجد نفســـه أمام أســـلوب جديد للتفكير، ومنهج جديد للســـلوك، وقيم جديدة للأخلاق، ثم يجد نفس ذلك الأسـلوب والمنهج والقيم موجودة في شـريعة الرسـول فيعلم انها من عند الله وإليك مثلا لذلك: من عرف الله بقلبه صـــــدقا وعدلا، يعرف ان الأشـــياء تأتي من الله وإلى الله تعود، وان خير الأعمال هي التي تقربه إلى الله زلفى، وخير الأخلاق ما تطهره من الهوى والغضـــب، ويشـــهد على هذه الحقائق وجدان كل من باشـــر بقلبه حقيقة الإيمان. فإذا وجد في الإســـلام وفي شـــخص الرســـول نفس هذا الاتجاه وهذا الأســـلوب عرف انه من عند الله تعالى يقينا.. ثم ان من آمن بشريعة الرسول واستشعر قلبه التقوى دنى إلى الله أكثر فأكثر حتى انه يرى الله بنور الإيمان، فيعرف ان دعوة الرسول كانت صادقة ويكون مثل الدين بالنسبة إليه مثل من هُدي إلى طريق وقيل له انه يبلغ بالفرد إلى بلد معين، ثم سلكه فوصل إليه فعلا. فلا تبقى لديه أية ريبة بالنسبة إلى صدق الهادي.

القسم الثاني عن العقيدة والإيمان

البحث الثالث عن:

الولايـة

الحاجة إلى الإمام
كيف نعرف الإمام؟
مسؤولية الناس تجاه الإمام

(1)

الحاجة إلى الإمام

كما لا تكمل الرسالة بدون الرسول (ص) كذلك لا تتم الشريعة بدون إمام. ذلك لأن طبيعة البشــر تهوي به إلى أســفل ولا يكفيها وجود شـــريعة محفوظة في الأســـفار، بل لابد من تجســـيد تلك الشريعة في إنسـان يتمتع بتفوق تشريعي يعطيه صـلاحية تطبيق الشريعة على الناس، إذ لابد لكل قانون من مطبق نافذ الكلمة والا عاد القانون حبرا على ورق.

ولقد شـاء الله تبارك وتعالى ان يسـعد الإنسـان في الحياة بدون ان يضــطره إلى ذلك فيســلبه كرامته وحريته، إذ أنهما أعز على الإنسان حتى من السعادة ذاتها. وهكذا كان ينبغي عليه ان يوفر له كل وسائل السعادة حتى إذا شاء أخذ بها، فشرع له الشرائع وعبَّد له المناهج، ثم بعث رســولا يبين له وينذره ويبشــره ويدعوه إلى تطبيق ذلك ويشـــرف على تنفيذه، وكان عليه لهذه الناحية ان لا يترك الخلق فوضــى دون منفذ للشــريعة بعد الرسـول (ص)، بل كان ينبغي ان يعين لهم أئمة يتمتعون بما يتمتع به الرســـول من صـــلاحيات، ويقومون بما يقوم به الرســول من مهمات. كل ذلك إتماما للنعمة وتحقيقا للحكمة وتوفيرا لوســائل الســعادة التي هي الهدف النهائي لحياة الإنسـان. ولكن كما لم يشـأ الله ان يُكرِه الناس على الهدى في عهد الرســـول إبقـاءا لهم على النعمـة الكبرى

الموهوبة لهم، وهي نعمة الحرية؛ فكذلك لم يشأ ان يجبرهم على اتباع الإمام جبرا. وهكذا أبقى على الإمام الأخير صاحب الزمان (عجل الله فرجه) إتماما لحجته على خلقه وتوفيرا لمنتهى ما يمكنهم ان يبلغوه من سعادة الدنيا والآخرة. غير ان الحكام شردوا الأئمة عليهم السلام وقتلوهم وأزالوهم عن مراتبهم ولم يستفيدوا من علومهم وكفاءاتهم، فكان مثل الأئمة بينهم كمثل سراج يطفئه طاغية فلا يستفيد منه الناس.

هذا موجز الحديث عن فلسفة الإمامة عند الشيعة وان من يستوعبها يتمكن من رد الشبهات التي تلوكها ألسنة البسطاء والتي تتلخص في الأمور التالية:

يقولون: ألم يكف الناس كتاب الله وفيه علم كل شيء؟

نقول: إذاً فماذا كان السبب في ان يبعث الله أنبياء ان كان يكفي الناس نزول الكتاب في قرطاس؟ ان الحاجة إلى وجود مبلغ للرسالة هي الحاجة إلى وجود منفذ للشريعة وهو الإمام.

يقولون: إذا فلماذا لم ينصر الله الأئمة بالغيب؟

نقول: لأنه شاء ان يجعل الدنيا دار بلاء يعمل الناس فيها بحريتهم تماما كما ان كثيرا من الأنبياء ــ عليهم السلام ــ لم يرد الله إجبار أممهم على اتباعهم!

يقولون: فما هي فائدة إمام غائب؟

نقول: مثله مثل طبيب لا يدعوه الناس إلى مرضاهم، الذنب ذنب الحكام الطغاة الذين تسببوا في غيبته. اما الله فقد اتم نعمته باصطفائه الإمام. وان هناك ظهورا ينتظره القدر حيث يعود الإمام (عج) إلى المسرح لكي يطبق أحكام الله جميعا وهي فائدة

كبيرة.. ونظرا لأهمية الحديث يجب ان نفصـــل وجوه الحاجة إلى الإمام ضمن بضعة نقاط، وقبل التفصيل لابد ان نعلم ان الحاجات تنبعث من منطلق واحد هو ان الله خلق في الإنســان الكفاءة التامة لبلوغ أسمى درجات الفلاح في الدنيا والآخرة، وانجاز هذه الكفاءة يتوقف على وجود الحجة الذي يأخذ بيد من يشـــاء ويبلغه الفلاح المتوخى فلو لم يجعل الله حجة لخلقه إذاً لكانت هذه الكفاءة لغوا تعالى الله عنه.

1- الولاية لله:

ان الله هو الحاكم المطلق الذي لا يحق لأحد ان يشـــرع للخلق من دونه في قليل أو كثير. وبما انه أجل من أن يباشـــر الخلق بالهداية والتشـــريع فإنه يبعث أنبياء يهدونهم ويبلغونهم رســـالاته. وبما ان من الواضـــح ان المســـلمين لم يبلغوا بعد عهد الرســـول (ص) درجة من النضـــج الفكري والرشـــد الاجتماعي، وأخيراً لم يتقمصوا الشريعة الإسلامية بصورة كاملة لا علما ولا عملا، لما دل على ذلـك من اختلافهم الواســـع في الأحكـام والمعـارف الإسـلامية، لزم ان يكون لهم امام معصـوم من بعد الرسـول يقوم ببيان الأحكام وشـــرح المعارف حتى يكتمل نضـــج طائفة طليعية في الأمة تسـتمر بها الأمة مدى الدهر محتفظة بالروح الإسـلامية الكـاملـة. هذا من جـانـب ومن جـانـب آخر لزم ان يكون لهم من يُجري عليهم الأحكام حتى لا تضـــيع الرســـالة في زحمة الأهواء المـاديـة. والحديث التـالي يشـــير إلى هذه الحقيقة إذ يقول الإمام الرضـــا (ع): (فإن قال قائل: فلم جعل أولي الأمر وأمر بطاعتهم؟ قيل لعلل كثيرة منها: ان الخلق لما وقفوا على حد محدود وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فســـادهم لم يكن يثبت ذلك ولا

يقوم الا بان يجعل عليهم فيه أمينا، يأخذهم بالوقف عندما أبيح لهم، ويمنعهم من التعدي والدخول فيما خطر عليهم، لأنه لو لم يكن ذلك كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيما يمنعهم من الفساد ويقيم فيهم الحدود والأحكام)[1].

القيادة ضرورة أبدا

هل الأمة بحاجة إلى قيادة ؟

لأن كانت هذه الحقيقة موضـــوع نقاش حينما قالت طائفة الخوارج بعدم حاجة المجتمع إلى قيادة، أو عندما قالت الفوضوية بذلك، فإنها غير واردة أبدا اليوم، إذ لم يعد هناك أي إنسان يشك في ضـــرورة القيادة للإنســـان، والتاريخ لم يهدنا إلى مثال واحد اســـتغنى فيه المجتمع عن القيادة.. ومن هنا وجب على الإســـلام أيضا ان يعين القيادة الصالحة.

وبما ان الدين الإسلامي أتم الشرائع، كان لابد ان تكون قيادته بمستواه، وهل يتحقق ذلك في غير الإمام المعصوم وهو أعلم أهل عصره وأتقاهم؟

والخلاصـــــة: ان المجتمع بحاجة إلى القيادة، وخير القادة المعصـــوم العالم المؤيد من قبل الله تعالى، فكان من حكمة الله ورحمته ان يعين للمســـلمين هذه القيادة التي تتمثل في الإمام عليه السلام.

الحديث التالي عن الفضل بن شاذان يوضح هذه النقطة: (انا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشـــوا الا بقيم ورئيس لما لابد لهم منه في أمر الدين والدنيا، فلم يجز في حكمة

---

1 - بحار الانوار ،ج23 ، ص32، ح52 .

الحكيم ان يترك الخلق مما يعلم انه لابد لهم منه ولا قوام لهم الا به فيقاتلون به عدوهم ويقيمون به فيئهم ويقيم لهم جمعتهم وجماعتهم ويمنع ظالمهم من مظلومهم)[1].

الإسلام رسالة خالدة

علم الله من خلقه انهم لو تركوا وشأنهم لبدلوا السنن وأظهروا البدع ولم يدعوا للأجيال القادمة فرصة السعادة بالدين المبين، فلزم ان يجعل لهم من يحفظ السنة ويمحق البدعة. وإذ كان الإسلام رسالة خالدة فكان لابد ان يوفر الله الوسائل الممكنة لبقائها عبر الأجيال نقية صافية.

قال الإمام الرضا عليه السلام: انه لو لم يجعل لهم (أي للخلق) إماما قيما حافظا مستودعا، لدُرست الملة وذهب الدين، وغُيرت السنة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص منه الملحدون، وشبَّهوا ذلك على المسلمين، لأنا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت أنحائهم، فلو لم يجعل لهم قيما حافظا لما جاء به الرسول لفسدوا على نحو ما بينا، وغيرت الشرائع والسنن والأحكام والإيمان وكان في ذلك فساد الخلقُ أجمعين[2].

لكي تتبين الشرائع

هناك طائفة كبيرة من الشرائع والأحكام تُبيَّن في الكتاب والسنة، أما الكتاب فبسبب احتوائه على المتشابهات وعدم وجود

---

1 - بحار الانوار ،ج6 ، ص60 .
2 - المصدر .

تفسير صحيح لها. وأما السنة فلعدم وجود كل ما يحتاج إليه الناس فيها، ولبعد الناس عنها، وقلة الثقاة، وكثرة المحرفين ذوي الميول والأهواء المختلفة، كل هذا مضـــافا إلى كثرة الاشـــتباه في الموضـوعات الخارجية وتطبيق الأحكام العامة عليها. ولذا احتاج الناس إلى إمام عالم معصوم لبيان الأحكام وتوضيح المتشابهات، قال الإمام الصـــادق (ع): (لم يترك الله الأرض بغير عالم يحتاج الناس إليه ولا يحتاج اليهم.. يعلم الحلال والحرام)[1].

التذكرة بالآخرة

الدنيا قريبة إلى حواس الناس بينما الآخرة بعيدة عنها، وأكثر الناس تغرهم الدنيا فينســـون ذكر ربهم ويغفلون عن الآخرة.. اذاً فلابد لهم من داع يذكرهم بها، ذلك لأن الآخرة حق وفي نســيانها الشقاء العظيم!

جاء في الحديث عن الامام الرضـــا عليه الســـلام: (ان الإمامة زمام الدين، ونظام المســلمين، وصــلاح الدنيا وعز المؤمنين. ان الامامة رأس الإسلام النامي، وفرعه السامي. بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصـــيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصـــدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف. والإمام يحلل حلال الله، ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة. ثم يضيف الامام في مقطع آخر من نفس الرواية: (عالم بالسياسة،

1 - بحار الانوار ،ج23 ،ص40 ، ح74 .

مفروض الطاعة، قائم بأمر الله، ناصـــح لعباد الله، حافظ لدين الله)[1].

مرجع الأمة

لابد للناس من مرجع ينتهي إليه كل خلاف.. ذلك ان الناس لا يزالون مختلفين في كل الأمور وهذا الخلاف يؤدي بهم إلى الشقاء الدائم. فلولا ان الله يصطفي من عباده من يحسم لهم الخلاف، فقد كان يقتضـي سلب الناس سعادتهم بدوام الخلاف بينهم واقتضـى ذلك ان يقض غرضه الذي خلق لأجله الناس وهو الفلاح، وتعالى الله الحكيم ان يفعل شـيئا لغاية محددة ثم لا يوفر الوسـائل التي تحققها؛ أعجزا ام جهلا ام ظلما؟ سبحانه و تعالى عن ذلك.

جاء في حوار بين أحد أصـحاب الإمام الصـادق (ع) وكان يدعى بهشام، ورجل شامي وذلك في حضور الإمام (ع):

قال هشام: فبعد رسول الله من؟

قال الشامي: الكتاب والسنة.

قال هشـام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف و مكّننا من الاتفاق؟.

قال الشامي: نعم.

قال هشـام: فلم اختلفنا نحن وأنت وصـرت إلينا من الشـام في مخالفتنا؟

فسكت الشامي.

فقال أبو عبد الله (ع) للشامي: مالك لا تتكلم؟

---

1 - بحار الانوار ،ج25 ،ص123-126

قال الشـــامي: ان قلت إنا ما اختلفنا كابرتُ، وان قلت ان الكتاب والســـنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت لأنهما يحتملان الوجه. وان قلت قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحق فلم ينفعنا إذاً الكتاب والسنة.. ولكن لي عليه مثل ذلك.

فقال ابو عبد الله (ع): سله تجده مليا[1].

فقال الشامي لهشام: من أنظر للخلق، ربهم ام أنفسهم؟

فقال هشام: بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشـامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم و يرفع اختلافهم ، و يبيِّن لهم حقهم من باطلهم؟

قال هشام:نعم.

قال الشامي: من هو؟

قال هشـام: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله صلى الله عليه و آله وسلم، و أما بعد النبي فغيره.

قال الشامي: من هو غير النبي القائم مقامه في حجّته؟

قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟

قال الشامي: بل في وقتنا هذا.

قال هشـــام: هذا الجالس (يعني أبا عبد الله عليه الســـلام) الذي نشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السماء وراثة عن أب عن جد.

قال الشامي: فكيف لي ان أعلم ذلك؟

قال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري[2].

الإمامة ضرورة حضارية

1- أي واسع المعرفة.

2 - بحار الانوار ،ج23،ص11-13 .

ان أبسط تعريف للإنسان وأشمله هو: ان الإنسان خلق حضاريا. وهذا يعني امتلاكه لمؤهلات الحضارة.. وليست الحضارة سوى القدرة على التحكم في الذات.

ولا ريب في ان كل إنسان يجد أمامه آفاقا واسعة يستطيع الانطلاق فيها إلى أسمى مراتب الضبط الذاتي.. ولو فتشنا التاريخ لوجدنا ان قفزاته التقدمية كانت نتيجة البطولات السامية التي تتمتع بها فئة قليلة من بني آدم، ولم يكن الآخرون الا مجرد اتباع اقتفوا آثار البطولات تلك.. فلولا تلك البطولات إذاً لكان يلف التاريخ ظلام كثيف. وأحداث التاريخ تدل على ان أعظم أولئك الرجال هم المؤيدون بالغيب. فلم يشهد التاريخ من استطاع ان يزكي الناس ويربيهم بسيرته المشرقة سوى الأنبياء ومن إتبعهم.

وهكذا كان مقتضى النظام الكوني الذي يتمتع بالدقة المتناهية ألاّ يدع مدبرها الإنسان الذي جُعِلت فيه مؤهلات التقدم الحضاري يعيش الهمجية دون ان يبعث إليه المزيد من هؤلاء الرجال الافذاذ الذين يعلمون الناس بسيرتهم الشخصية كيف يمكن لهم ان يبلغوا المجد الرفيع، وهذا التعليم العملي يُدعى في منطق الشريعة بالحجة، إذ ان هؤلاء سيكونون دليلا واقعيا على إمكانية التقدم الحضاري.

والخلاصة: لابد للناس ممن يربيهم على الضبط الذاتي والأخلاق الحضارية، ولابد ان يتفوق هذا الرجل علما وعملا ويبلغ في ذلك المنتهى، ولا يكون ذلك الا لمن عصمه الله. فلزم ان يبعث الله من خلقه مِن يربيهم، فبعث الأنبياء في حينه وجعل من بعدهم حججا يمثلونهم وهم الأئمة المعصومون (ع) ويحتج الله يوم القيامة بهم على خلقه. فإن قال أحد منهم لم أتمكن، قال له:

كيف استطاع هذا الرجل وهو بشر مثلكم ان يقوم بما هو أهم من هذا؟ إذاً فإن وجود نموذج بشـــري يمثل قمة الحياة الحضـــارية السـامية ضــرورة إنسـانية لا يمكن ان يتخلف عنها نظام الخلق الدقيق الحكيم!

قال الإمام الصـــادق (ع): يا هشـــام يحتج الله تعالى على خلقه بحجة لا يكون عنده كل ما يحتاجون اليه[1]؟! (أي لا يمكن ذلك أبدا بل يجب ان يكون الحجة قمة الفضيلة والمعرفة..).

الإمام من يعينه؟

هل يعين الله الإمام أم الناس أنفسهم؟

من الواضـــح ان الذي يُعين لتنفيذ النظام ينبغي ان يكون عالما به مطبقا له، وان الذي يُبعث لكي يربي الإنسان حضاريا وخلقيا، يجب ان يكون زكي النفس طاهر القلب وأسمى حضاريا من كل الناس.. وان الذي يُصـــطفى ليكون مرجعا لخلافات البشـــر في أمور الدين والدنيا، يجب ان يتفوق عليهم بالعلم والتقوى لكي لا يُختلف فيه بدلا عن أن يُختلف إليه. وان الذي يعلم الناس المعارف ويذكرهم بربهم والدار الآخرة وينشـــر العدالة بينهم، يجب ان يكون أعلم الناس وأتقاهم وأعبدهم وأكثرهم ذكرا لله. وان الذي يقود أمة الإســـلام في جمعتهم وجماعتهم وســياســتهم الخارجية والداخلية، يجب ان يكون أعدل الأمة وأعلمها.

وبصورة موجزة ان الذي يقوم بتغطية حاجات المجتمع المسلم، يجب ان يكون بحيث يستطيع ان يسوق الإنسان إلى السعادة التي

1 - الامالي للطوسي ،ص46 ، المجلس الثاني .

خلق من أجلها البشر، ولا يمكن للبشر أنفسهم ان يصطفوا هكذا إنسان لعدة أسباب:

1- لأنهم لا يستطيعون معرفة هكذا إنسان، بل قد يخيل اليهم أن رجلا أعلم واتقى وهو بالتالي أحرى بالإمامة، ثم لا يكون فيه أدنى جدارة.

2- ولو عرفوه لما قاموا باصطفائه و اختياره، لأن الناس ينظرون إلى الزعماء من زواياهم الخاصة وحسب شهواتهم ومصالحهم فلذلك يختلفون في اختيارهم له.

3- وأخيرا.. لأن الأهداف التي يجب ان يحققها الإمام تشترك مع الأهداف التي ينبغي ان يحققها الرسول (ص). وكما ان الرسول (ص) لا يمكن ان يعين من قبل الناس أنفسهم لأنه وسيلة متصلة بين الله والانسان فإن الإمام لا يمكن ان يعين الا من قبل الله أيضا.

وبتعبير آخر: ان الإمام ينبغي ان يكون مؤيَّداً بالغيب، عارفا بالله ودينه معارفه بعيدا، عن تأثرات المادة، وبعيدا عن ظروفها الضيقة. ولا يؤيد الله من يختاره الناس بل من يصطفيه هو سبحانه، وليس للناس الخيرة إذا قضى الله أمرا، ذلك لأنهم عباد مربوبون يجب ان يسلموا بالحاكمية المطلقة لله في كل الشؤون.. والواقع ان من عجيب الرأي ما يقوله بعض البسطاء من ان على الإنسان التسليم لله في كل مناحي الحياة سوى القيادة، في الوقت الذي تعتبر القيادة أعظم ما يجب اصلاحها. أليست السياسة ان صَلُحَت صَلُحَت الحياة وان فَسَدَت ساد الأرض الفساد والفوضى؟. فلماذا يجب ان نخضع لله في شرائعه كلها ما سوى القيادة؟ ام

كيف نعتقد بأن على الله ان ينزل اليهم الدين وليس عليه ان يختار من ينفذه؟

قال الله سـبحانه مخاطباً النبي ابراهيم: [قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ يَنالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ](البقرة 124). وقال تعالى: [يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ](ص 26). وقال: [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً](البقرة 30). من هذه الآيات يظهر بوضـوح ان الخلافة والإمامة – اللذين هما تعبيران عن واقع واحد- ليستا من حق أحد وإنما هما لله وحده لا شريك له.

وجاء عن الامام الرضا عليه السلام:

(ان الله تبارك وتعالى لم يقبض نبيه حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء، بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً. فقال عزوجل: [مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَـيْءٍ](الانعام 38). وأنزل في حجة الوداع وهي آخر حجة حجها رسـول الله وكان في أواخر أيامه [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـيتُ لَكُمُ الإِسْـلاَمَ دِيناً](المائدة 3). فأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض رسول الله (ص) حتى بَيَّن لأمته معالم دينه، وأوضح لهم سبله، وتركهم على قصد الحق، وأقام لهم عليا علما وإماما، و ما ترك شيئا تحتاج إليه الأمة الا بينه.

فمن زعم ان الله عز وجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله عز وجل، ومن رد كتاب الله عز وجل فهو كافر. هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم؟ ان الإمامة أجل

قدرا وأعظم شـــأنا وأعلى مكانا وأمنع جانبا وأبعد غورا من ان يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم فيقيموا إماما باختيارهم.

ان الإمامة خص الله عز وجل بها إبراهيم الخليل (ع) بعد النبوة والخله مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها و أشاد بها ذكره فقال عز وجل: (اني جاعلك للناس إماماً) فقال – الخليل ســرورا بها- ومن ذريتي. قال – عز وجل -: (لا ينال عهدي الظالمين) فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة.

ثم أكرمه الله عز وجل بأن جعل في ذريته أهل الصـــفوة والطهارة، فقال عز وجل: [وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَـــالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّـــلاَةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ](الانبياء 72-73). فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرنا فقرنا حتى ورثها النبي (ص) فقال الله جل جلاله: [إِنَّ أَوْلَى النَّـاسِ بِـإِبْرَاهِيمَ لَلَّـذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّـذِينَ ءَامَنُوا وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ](آل عمران68) فكانت له خاصة فقلدها النبي (ص) عليا بأمر الله عز وجل على رســم ما فرض الله، فصـــارت في ذريته الأصـــفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله عز وجل: [وَقَالَ الَّـذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَـانَ لَقَـدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَـابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ](الروم 56) ، فهي في ولد علي خاصـة إلى يوم القيامة، إذ لا نبي بعد محمد (ص)، فمن أين يختار هؤلاء الجهال؟

ان الإمامة منزلة الأنبياء وارث الأوصـــياء. ان الإمامة خلافة الله عز وجل وخلافة الرســـول ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين (ع).

ان الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين.

الإمام المطهر من الذنوب المبرأ من العيوب مخصوص بالعلم موسوم بالحلم.

الإمام واحد في دهره لا يدانيه أحد، لا يعادله عدل، ولا يوجد له بديل، ولا له مثيل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من الله المتفضل الوهاب. فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام ويمكنه اختياره؟

هيهات! هيهات! ضلت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب! فأين الاختيار من هذا؟

أظنوا ان ذلك، يوجد في غير آل الرسول عليهم السلام؟ كذّبتهم – والله- أنفسهم، ومنّتهم الأباطيل فارتقوا مرتقا صعبا دحضا تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم. راموا إقامة الإمام بعقول بائرة ناقصة..

رغبوا عن اختيار الله واختيار رسوله إلى اختيارهم. والقرآن يناديهم [وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَـآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُـبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ](القصص68). وقال عز وجل [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ](الاحزاب 36). وقال عز وجل [مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَـلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ

زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ][1](القلم36-41).

ان الأنبياء والأئمة يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم فيكون علمهم فوق علم أهل زمانهم في قوله عز وجل: [وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً](البقرة 296). وقوله عز وجل في طالوت: [إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ](البقرة 247). وقال عز وجل لنبيه [وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً](النساء 112). وقال عز وجل في الأئمة من أهل بيته وعترته وذريته: [أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُم مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً](النساء 54-55).

وان العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاما فلم يعي بعده بجواب ولا يحير فيه عن صواب وهو معصوم مؤيد موفق مسدد قد أمن الخطايا والزلل والعثار، وخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله

1- ان النص يستشهد ببعض الآيات التي تذكر الإنسان بحقيقة الألوهية الكاملة والسيادة المطلقة التي يختص بها الخالق الرزاق المدبر:

ويقول ما دام الله هو الذي خلق فهو الذي يختار وإذا اختار فليس لأحد ان يرد اختياره ان كان من المؤمنين. وما دام الله يقضي فإن قضاءه هو النافذ دون المؤمنين الذين ليس لهم من أمرهم الخيرة. وإذا كان الأمر كله لله ومن ضمنه قيادة الناس فإن أي اقتراح آخر سيكون انكارا لهذه الحقيقة وسببا من أسباب الشرك. وهكذا نفت الآية الأخيرة وجود شركاء لله وتساءلت ايهم يضمن وجود هؤلاء الشركاء؟

ذو الفضـــــل العظيم. فهل يقدرون على مثل هذا فيختـارونـه بهذه الصفة فيقدمونه؟؟، تعدوا -وبيت الله- الحق، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فإنهم لا يعلمون. وفي كتاب الله الهدى والشـــفاء فنبذوه واتبعوا أهواءهم فذمهم الله ولعنهم، فقال عز وجل [وَمَنْ أَضَـــلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُـدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْـدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ](القصــص 50). وقال عز وجل [فَتَعْســاً لَهُمْ وَأَضَــلَّ أَعْمَـالَهُمْ](محمد 8) . وقال عز وجل [كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [1]](غافر 35).

1- للمزيد من التفاصيل راجع كتاب (الاحتجاج) للشيخ الطبرسي.

(2)

كيف نعرف الإمام؟

كيف نهتدي إلى الإمام ؟

بما ان الإمامة بمثابة النبوة، فإن هناك وسـائل مشـتركة بينهما في التعرف عليهمـا.. ومن الطبيعي إذاً ان يكون العقل هنـا – كمـا في الرسـالة – هو الرائد الوحيد الذي يهدينا إلى الحق.. ولقد سـبق منا القول المفصـل في آيات النبوة. ولذلك فلا ينبغي هنا الا الإشـارة اليها ونوعية تطبيقها على واقع الإمامة بإيجاز كثير!

نعرف الإمام:

1- بالإمامة.
2- بالإمام نفسه.
3- بالمعجزة.
4- بالنص.
5- بشهادة الله.

1- الإمامة:

لقد سـبق الحديث عن حاجة الإنسـان إلى الإمام، وهي حاجة متشـابهة تماما مع حاجتهم إلى الرسـول. فلو رأينا من اكتملت فيه

شـروط الاسـتجابة لحاجة البشـر من هذه الناحية فكان مذكرا بالله، وبما أودع في الإنسان من العقل والمعرفة الفطرية، مبينا لما يرضي الرب وما يسخطه، دالاً على مصـالح البشـر ومفاسـدهم، ولديه علم يرفع به كل خلاف بين البشــرية، ويذكرهم بربهم وبمصـــيرهم، ويعلمهم الفضائل ويربيهم عليها، ويهديهم سبيل الوصول ألى ربهم.. وكان يدعي ان ليس له من الأمر شـــيء بل كل ذلك من الله بســبب الرسـول، فعند ذلك فقط نعرف انه صــادق وبأنه الإمام الحق. وهذا الأمر لم يتحقق الا بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام فقط. فمن أظهر غيرهم فلسفة الإسلام المستوحاة من الكتاب والسنة ودعمها بالحجج والبراهين الوجدانية؟ ومن سواهم أرشد الناس إلى واقع العقل وبَيَّن ما يحجبه وكشــف عن النفس ما يرديها؟ ، من غيرهم كان دأبه التذكرة بالله وباليوم الآخرة؟ ثم كان يدعي إمامة الخلق جميعا ؟

إن الذي ادعى الخلافة، ابتداءً من أول شخص وانتهاءً إلى آخر خلفاء العثمانيين، لم يدع بأنه قائم بكل ما يرشـــد العقل إلى لزوم توفره في الامام.. والذي ادعى العلم في الأمة لم يدع الولاية على الرقاب والأموال.. فمن هو جامع العلم والولاية؟ من الذي يقول: سلوني قبل ان تفقدوني؟ ثم يقول: لم أزل مظلوما منذ قُبِض رسول الله – إشـــارة إلى زحزحة الخلافة عنه- من يقول ذلك غير أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام؟

ان منصب الإمامة بالمعنى الذي سبق لم يدعه أحد غير الأئمة الاثني عشــر، ولم يســجل التاريخ رجلا كان لديه من مواهبها ما كانت فيهم. ان الإمامة هي الشهادة الحقة على صدق الأئمة عليهم

السلام، ونظرة واحدة إلى أقوالهم وسيرتهم ونظرتهم إلى أنفسهم تدلنا على هذه الحقيقة.

2- الإمام:

والإمام نفسه دليل إمامته لما يتميز به من تفوق علمي وخلقي من دون ان يتعلم علومه من أحد، فهو لا يحتاج إلى اكتساب علم في حين يحتاج إليه الناس أجمعون. أرأيت ابن تسع سنين كالإمام الجواد (ع) يجيب على ثلاثين ألف مسألة علمية؟ أم هل سمعت مثل الإمام الصادق (ع) من يعلم تلاميذه كل العلوم ولم يدرس عند أحد شيئا؟. ان العلم لا يأتي الا بالاكتساب أو الوحي والإلهام فإذا علمنا من تاريخ الائمة انهم لم يكتسبوا العلم من أحد، أيقنا ان علمهم كان من الله، فهم الأئمة صدقا وعدلا.

أما الأخلاق: فإذا عرفنا من أحد الصدق والأمانة والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والكرم والطهارة. وبكلمة: رأيناه مثلا لكل الفضائل ثم رأيناه أعبد الناس وأتقاهم وأخشى الناس من الله.. كان هذا هو الإمام حقا، ذلك لأن حكمة الله تقتضي أمر الناس بطاعة هذا دون غيره.. أيأمر الحكيم العالم باتباع الجاهل، أو يأمر الله الورع باتباع الفاسق وهو يقول: [أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ](السجدة 18) ويقول [هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ] (الانعام 50) ويقول [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ] (الزمر 9).

وبما ان التاريخ لم يهدنا إلى أفضـل من الأئمة عليهم السـلام علما وتقى فإنهم لا غيرهم الصالحون لقيادة الخلق[1].

3- المعجزة:

وأظهر معاجز الائمة عليهم السلام علومهم التي لم يسبقهم فيها أحد من البشـر والتي ثبتت بالعلم الحديث صـدقها. وقد كان الرأي السـائد ذلك اليوم بخلافها، كأقوالهم في العوالم الأخرى وفي حجم الأرض وفي بعد الشـمس وفي جسـم الإنسـان وكثير من أمثال ذلك.. فإذا أضفنا إلى ذلك بأنهم لم يكونوا قد تعلموا عند أحد عرفنا ان علومهم من الله بالمباشـرة والإلهام أو بالوراثة. وهناك طائفة من المعاجز التي ثبتت بالنقل الصـحيح والمتواتر أو اعترف بها أعداؤهم.

ومن الواضح؛ ان الحكيم لا يضل الناس بإعطاء الكذاب المعاجز الباهرة التي تغري الناس وتلحد بهم عن الصراط السوي، فعلم انهم أئمة حق لا ريب فيه[2].

4- النص:

والنص ها هنا بمثابة البشـارة للرسـول، والنصـوص الشـرعية الشاهدة على إمامة المعصومين على ثلاثة أقسام:

أ- الآيات القرآنية.

وهي كثيرة نذكر منها نبذة يسيرة.

1- يراجع لمعرفة ذلك كتب التاريخ كلها، بالإضـافة إلى أقوال الرسـول (ص) الشـاهدة على فضائلهم. والرسول كما نعرف لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى.

2- راجع مجلدات البحار حول الأئمة الاثني عشر (ع).

1- [قَـالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَـالَ لاَ يَنَـالُ عَهـدِي الظَّـالِمِينَ](البقرة 124).

بنص هذه الآية لا يكون الإمام والخليفة ظالما باجماع المسلمين ولم يدع أحد العصمة الا الأئمة الطاهرون.

2- [يَاَ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـــولَ وَأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الاَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً](النساء 59).

حيث ان الآية وردت في المعصومين فقط، ذلك لأن غيرهم قد يأمر بخلاف الشرع ووجوب طاعته يعني التناقض في الدين.

3- [إِنَّاَ انزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَاَ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَـهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ] (سورة القدر).

على من تنزل الروح - الذي هو جبرائيل أو ملك أعظم منه- في ليلة القدر؟ على ولاة الأمر من ملوك الأمويين أو العباسيين ام على العالم المعصوم من آل محمد (ص)؟

4- [إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً](الاحزاب 33). ان رجس الشـــيطـان أخبـث رجس، والمعروف انه لم يدع أحد ارتفاع رجس الشـــيطـان - الذي هو الذنب - عن أحد سوى الشيعة في أهل بيت الرسول (ص)

إننا لم نعتمد في اسـتنباط ولاية الأئمة من الآيات على التفسـير ولا على الأحاديث فإن هناك بضـــع مئات من الآيات صـــرح مفسروا الفريقين وكما صرحت رواياتهم عن الرسول انها نزلت في أهل البيت (ع) وهي أما تدل على ولايتهم أو تدل على

فضـائلهم، والأول صـريح والثاني يدل دلالة ضـمنية على ولايتهم، ذلك لأنه لو ثبت أنهم أفضل الخلق بنص الآيات، فهل من المعقول ان يجعل الله عهده في المفضول ويترك الأفضل؟ تعالى الله الحكيم العليم عن ذلك وهو يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته).

ب- أحاديث الفضيلة.

طائفة كبيرة من الأحاديث جاءت من الرسول تؤكد ان أهل بيته لهم الفضـائل الجمة التي دونها فضـائل الآخرين، وهذه النصـوص –التي تواتر نقلها لدى الفريقين- تدل دلالة ضـمنية على أمامة أهل البيت، إذ مع العلم بأن الله حكيم يصـطفي الأفضـل، لا يبقى مجال للشـك في أنه اصـطفى أهل البيت، لأنهم أفضـل من غيرهم بنص الرسـول (ص) وتواتر النقل عنه. ونحن إذ نذكر حديثا واحدا من مئات الأحاديث الواردة في هذا الموضـوع، نرشـد القارئ إلى الكتب المطولة مثل (الغدير) و(الصـواعق المحرقة) و(فضـائل آل الرسول) و(المراجعات) من تأليف كبار الباحثين من الفريقين.

قال ابن أبي الحديد -وهو من علماء السـنة-: (ونحن نذكر ما استفاض من الروايات عند مناشـدته أصـحاب الشـورى وتعديده فضـائله وخصـائصـه التي بان[1] بها منهم ومن غيرهم، قد روى الناس ذلك فأكثروا، والذي صـح عندي انه لم يكن الأمر كلما روى من تلك التعديدات الطويلة، ولكنه قال لهم بعد ان بايع عبد الرحمن والحاضـرون عثمان وتلكأ هو – أي علي - عليه السـلام عن البيعة، قال بعد كلام: أنشـدكم الله أفيكم أحد آخى رسـول الله

1- أي تفوق بها عليهم.

بينه وبين نفســه حين آخى بين بعض المســلمين وبعض، غيري؟ فقالوا: لا. قال: أفيكم أحد قال له رسـول الله (ص) من كنت مولاه فهذا مولاه، غيري؟ فقالوا: لا.. قال: أفيكم أحد قال فيه رسـول الله أنت مني بمنزلة هارون من موســى الا انه لا نبي بعدي، غيري؟ قالوا: لا.. قال أفيكم من أؤتمن على سورة البراءة وقال له رسول الله أنه لا يؤدي عني الا أنا أو رجل مني، غيري؟ قالوا: لا.. قال: الا تعلمون ان أصـحاب رسـول الله فروا عنه في الحرب في غير موطن ومـا فررت قط؟ قـالوا: بلى.. قـال: ألا تعلمون اني أول الناس إسـلاما؟ قالوا: بلى.. قال: فأينا أقرب إلى رسـول الله نسـبا؟ قالوا: أنت..)[1].

ج- أحاديث الولاية.

وهي التي تدل دلالة صـريحة على انهم الائمة المصـطفون من قبل الله.. ورغم ان السلطة السياسية في عهد الرسـول صـلى الله عليه وآله كانت تعارض بشـــدة نقل مثل هذه الأحاديث فقد تواتر النقل إلينا بطريق الفريقين مما دعانا إلى القطع بصحتها كما نقطع بصــــحة نقل الخبر عن وجود البلاد النائية والأمم الخالية بالخبر المتواتر.. وإليك جزءا يسيرا منها:

نقل بسند متواتر عن طرق السنة (أنظر الصـحاح الست مثلا) عن رسول الله (ص) انه قال:

1- (سيملك بعدي اثنى عشر أميرا كلهم من قريش[2]).

---

1 - بحـار الانوار ، ج40 ، ص88 (نقلا عن: شـــرح النهج لابن ابي الحـديـد، ج2،ص96) .

2 - و هناك روايات مماثلة رويت عن طرق أهل البيت عليهم الســـلام ، انظر بحار الانوار، ج36، باب41، نصوص الرسول عليهم .

أترى من كان هؤلاء الأمراء؟ أمية أم بنو العباس؟ وقد كانوا أكثر من اثني عشر.. أم الراشدون ـ كما يعبرون ـ وهم أقل عددا منهم؟ أليس الحديث ينطبق على الأئمة الاثني عشر فقط؟

2- (من كنت مولاه فهذا علي مولاه..[1])

لقد قال الرسول (ص) هذه الكلمة بعد ان قال للمسلمين: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم[2]) فكانت كلمة تشير إلى تلك الولاية وهي صريحة نصا، ومقبولة عقلا، ومقطوعة سندا فما بالنا لا نأخذ بها؟

3- قول الرسول (ص): (ستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة فرقة، في الجنة، والباقون في النار[3]). وقوله لعلي (ع): (وإن شيعتك على منابر من نور مبيضة وجوههم حولي[4]). وقوله: (علي مع الحق والحق مع علي يدور حيثما دار[5])، أترى من هي الفرقة الناجية وما هي الفرق الهالكة؟ أيعقل ان تكون الفرقة التي مع علي هي الهالكة مع هذا الحديث؟ كلا

4- روي عن ابن عباس قال: خرجت مع عمر إلى الشام في احدى خرجاته فانفرد يوما يسير على بعيره فاتبعته، فقال لي: يا بن عباس أشكو اليك ابن عمك - أي الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام - سألته ان يخرج معي فلم يفعل ولا أزال أراه واجدا

---

1 - نقلته أكثر كتب الحديث لدى الخاصة و العامة.

2 - بحار الانوار ،ج28،ص98 .

3 - هناك العديد من الروايات بهذا المضمون مع اختلاف العبارات ، راجع: بحار الانوار، ج28 ،ص2 ،باب1 ، افتراق الامة بعد النبي (ص) .

4 - بحار الانوار،ج37، ص 272 .

5 - هذا الحديث رواه العامة و الخاصة و تلقوه بالقبول و ذكروه في مصادرهم ، راجع بحار الانوار،ج10 .

فما تظن موجدته؟ قلت: يا أمير المؤمنين انك لتعلم. قال: أظنه لا يزال كئيبا لفوت الخلافة. قلت: هو ذلك، انه يزعم ان رسول الله أراد الأمر له. قال: يا بن عباس وأراد رسول الله الأمر فكان، ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك. ان رسول الله أراد أمرا وأراد الله غيره فنفذ مراد الله ولم ينفذ مراد رسول الله. أو كلما أراد رسول الله كان؟ إنه أراد اسلام عمه ولم يرد الله فلم يسلم)[1].

كانت تعتلج في قلب عمر شبهة الجبر و هكذا تهرَّب من المسؤولية، والا فكيف أراد الله شيئا وأراد الرسول غيره وهو القائل: (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) الا ان نقول ان المذنبين غير مقصرين لأن الله أراد شيئا فكان كما أراد الله..

5-وعن إبراهيم بن محمد الحمويني – و هو من علماء السنة – مسندا عن سليم بن قيس في حديث طويل ذكر فيه بضع عشرة من فضائل علي (ع) إلى ان قال الإمام - والجمع بين المهاجرين والأنصار شاهدون - :

.. فنصبني للناس بغدير خم، ثم خطب فقال: أيها الناس ان الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري فظننت ان الناس مكذبوني فأوعدني لأبلغها أو ليعذبني – أي ان الله هدده (ص) ان يبلغها والا عذبه وذلك في قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس). - ثم أمر فنودي بالصلاة جامعة، ثم خطب فقال: أيها الناس! أتعلمون ان الله عز وجل مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله.. قال: قم يا علي، فقمت. فقال: من كنت

---

1 -بحار الانوار ،ج30، ص554، عن: شرح نهج البلاغة، لابن ابي الحديد،ج12، ص78-79/ص432.

مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه. فقام سلمان فقال: يا رسول الله ولاء كماذا؟ فقال: ولاء كولائي، من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه! فأنزل الله تعالى ذكره [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً] (المائدة 3). فكبر رسول الله وقال: الله أكبر، تمام نبوتي وتمام دين الله ولاية علي بعدي. فقام ابو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله هذه الآيات خاصة في علي؟ قال: بلى، فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة. قالا: يا رسول الله بينهم لنا. قال: علي أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أمتي وولي كل مؤمن من بعدي، ثم ابني الحسن ثم ابني الحسين ثم تسعة من ولد الحسين[1] واحدا بعد واحد، القرآن معهم وهم مع القرآن لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا علي الحوض.. فقال الحاضرون – وهم أكثر من مائتي رجل من الصحابة- : قد سمعنا ذلك وشهدنا كما قلت سواء[2]).

ان هذا الحديث يشهد على ولاية الأئمة (ع) جميعا كما يشهد على ان الثاني عشر منهم سيبقى إلى يوم القيامة، حيث قال الرسول: وفي أوصيائي إلى يوم القيامة.

وهنا دليل آخر وهو: ان الإمامة كما حددناها سابقا منصب إلهي ليس لأحد الحق في انتحاله من دون أمر الله، والشيعة فقط يحددون الإمامة هذا التحديد فهم فقط يعتمدون على النص وليس أحدا من السنة ادعى ان النبي (ص) نص على غير أهل البيت

1- وهم؛ الإمام زين العابدين علي بن الحسين، والإمام محمد بن علي الباقر، والإمام جعفر الصادق، والإمام موسى بن جعفر، والإمام علي بن موسى الرضا، والإمام محمد بن علي الجواد، والإمام علي بن محمد الهادي، والإمام الحسن العسكري، والإمام الحجة بن الحسن المهدي صلوات الله عليهم أجمعين.

2 - بحار الانوار ،ج31، ص410-412 .

(ع) فهم مجمعون على عدم النص في غير أهل البيت، وقد عرفنا بالدليل السـابق ان الإمام لابد ان ينتخب من قبل الله.. إذاً فلابد من النص، فلو فرض اننـا لم نعثر على نص موجود، فلابـد ان نقول انه كان موجودا ولكن السـلطات الجائرة حذفته من التاريخ اثباتا لسلطانها الظالم.. وبكلمة موجزة:

من اعتقد ان الإمـامـة من الله، لا يمكنـه الا ان يعتقد ان أهل البيت هم الأئمة، إذ لم يدع أحد ان غيرهم قد انتخب من قبل الله.

5- شهادة الله:

والله تبارك و تعالى يشـهد بصـدق الأئمة بنفس الأسـلوب الذي يشهد بصدق الأنبياء وهو:

1- بإستجابة الدعاء، إذا توسل الفرد بهم، وبالشفاء بتربة الإمام الحسين مثلا وما شابه.

2- بنصر من آمن بهم وهدايته في الدنيا والآخرة.

3- بشـهادة المؤمن على صـدق الإمامة عندما يصـفو من كل كدر.

4- بالوصول إلى الحقيقة مع سلوك منهج الإمامة[1].

كيف نثبت الإمام؟

ولابد لنا ان نشير هاهنا إلى الحقيقة التي سبق وان أشرنا اليها عندما تحدثنا عن كيفية إثبات وجود الله وهي:

---

1 - راجع دليل (شهادة الله) في البحث السابق عن نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله .

ان المهم في اقناع الناس في القضـــايا المبدئية تذليل أنفســـهم المســـتكبرة لقبول الحق عن طريق الترهيب والترغيب بما في الدنيا والآخرة من أجر للمحق ومن عذاب للمبطل. والأســـلوب القرآني الناجح يستخدم قوة الترهيب بعذاب الله في الآخرة ونقماته في الدنيا أكثر من الترغيب بثواب الله الجزيل في الآخرة والفلاح الدائم في الدنيا. ومن هنا فلابد:

أولا: ان نشـــرح للذي نبتغي هدايته للحق – في الامامة- ان المبطل يلقى جزاءه الرئيسي في الدنيا والآخرة ولا يجني الإنسان من معارضة الحق الا الخزي والويل.. وان الامامة لو كانت على بينة من الله فما يزيد جاحدها غير تخســـير لنفســـه، وان التقليد واتباع الهوى والخوض مع المبطل كيفما يخوض كل ذلك ويل وشر عريض، ولابد من دعم هذه الحقيقة بآيات قرآنية وأمثال من الأمم الماضية، كيف خسرت نفسها عندما عارضت الحق.

ثانيا: ثم يأتي دور شـــرح معنى الإمامة، والحاجة إلى الامام عقلا بصورة مفصلة.

ثالثا: بعرض صـــفات الأئمة (ع) ومآثرهم وكيف ظُلِموا في سبيل الحق.

رابعا: وأخيرا ببيان النصـــوص المتفقة بين الفريقين ونســـف الشـــبهات التي تختلج في قلوب بعض البســـطاء من العامة والتي يجب ان نشير إليها هاهنا ونردها بالحجج الدامغة.

شبهات مردودة..

1- يقولون: لو كان الإمام علي – كما تزعمون – صــــاحب الحق الشـــرعي للخلافة بعد الرســـول فلماذا بايع أبا بكر وعمر وعثمان وهو الرجل الشجاع؟

نقول في الجواب: الســـبب نعرفه من خطبة ارتجلها الامام في الكوفة ومن كلمات له أخرى نوجزها فيما يلي:

أ- لأن الإمام لم يجد أنصــارا يحارب بهم الأعداء، ولقد صـرح مرة بأنه لو كنتُ قد وجدت أربعين شخصا لدافعت عن حقي.

ب- ان الإمام -ع- كان يعلم ان الأمة الإسلامية لم تبلغ النضج الفكري الذي يؤهلها لتصـــحيح أخطائها بالحرب المســـلحة.. فإذا كان الإمام يقاوم أعداءه بالســـلاح كان يعرض الأمة لما لا تطيق، فكانت تســـبب الردة، ولذلك فقد آثر الإمام الإغماض عن حقه في سـبيل الإبقاء على الإسـلام حتى يأتي ذلك اليوم الذي ينشـر الحق بالتبليغ.

ج- ان بيعــة الإمــام (ع) لأبي بكر وعمر وعثمــان كــانــت بالإكراه.. حيث كان مهددا بالقتل في كل الحالات. والحديث التالي أكبر شـــاهد على هذه الحقائق الثلاثة في كتاب ســـليم بن قيس المعاصر للإمام (ع):

قال قائل – ولعله أشـــعث بن قيس- يا بن أبي طالب: ما منعك حين بويع أخو بني تميم بن مرة (أبو بكر) وأخو بني عدي (عمر) وأخو بني أمية (عثمان) بعدهما ان تقاتل و تضـرب بسـيفك وأنت لم تخطبنا خطبة منذ قدمت العراق الا قلت فيها (والله اني أولى الناس بالناس وما زلت مظلوما مُذ قبض رســول الله)، فما يمنعك ان تضرب بسيفك دون مظلمتك؟.

قال عليه السلام: يابن قيس! اسمع الجواب؛ لم يمنعني من ذلك الجبن ولا كراهة للقاء ربي وأن لا أكون أعلم بأن ما عند الله خير لي من الدنيا والبقاء فيها ولكن منعني من ذلك أمر رســـول الله وعهده الي. أخبرني رسول الله بما الأمة صانعة بعده إلى ان قال: قال (ص) ان وجدت أعوانا فإنبذ إليهم وجاهدهم وان لم تجد أعوانا فكف يدك وأحقن دمك.. إلى ان قال: ثم حملت فاطمة وأخذت بيد الحســـن والحســـين فلم أدع أحدا من أهل بدر وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار الا ناشدتهم..)[1]

وقال الإمام الصـــادق (ع) في جواب ســـؤال وجهه إليه بعض أصـــحابه قائلا: (ما منع أمير المؤمنين (ع) ان يدعو الناس إلى نفســـه ويجرد في عدوه ســـيفه؟ فقال: الخوف من ان يرتدوا فلا يشهدوا ان محمدا رسول الله)[2] .

2-ويقولون: لو كان الله يريد لعلي الخلافة بعد الرســـول فلماذا لم يعلن ذلك في الكتاب المجيد؟

ونقول:

1- أولا يجب ان نعلم ان القرآن لم يكن كتاب دســـتور للتنظيم بقدر ما هو كتاب تربية وتذكير للبشر، ولذلك فهو خال من طائفة كبيرة من الأحكام بينتها السنة.

2- ان في القرآن آيات كثيرة هي كالنص القاطع على خلافة الإمام، وعلى أهم نقطة في الخلافة وهي أنها لله وليس لأحد ان يتصرف فيها من قبل نفسه، وهذا هو المبدأ الأساسي الذي يرتكز عليه أمر الخلافة.

---

1 - بحار الانوار ،ج29 ،ص466-469 .
2 - المصدر ،ص445 .

3- لو كان في القرآن نص صـريح على خلافة علي إذا لحرفته السـلطات التي قامت بجمع وتأليف القرآن.. وكانت سـواء عندها آية القرآن وسنة الرسول في امتداد يد الخيانة إليهما.

3- ويقولون: ما هو الدليل على وجود الإمام الثاني عشر؟

ونقول:

هناك دليل عقلي – وقد أشرنا إليه- وهو لزوم وجود حجة بالغة بين الله وبين الخلق.. ومن المعلوم عدم وجود حجـة غير الإمـام المنتظر..

وأما الدليل اللفظي، فهي الأحاديث المتواترة التي جاءت على لسان النبي (ص) والأئمة المعصومين.

4- و يقولون: كيف يمكن ان يبقى إنسـان – له مثل ما للآخرين من قوى وإمكانيات – هذه المدة المديدة بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة؟

ونقول: من المعروف ان عقيدة الشـيعة في الإمامة تعتمد على مبدأ المعجزة واذا ثبت ان الله قد يفعل بقدرته اللامحدودة أشـيـاء على غير مجرى السـنن الطبيعية، فكل شـبهة حول عمر الإمام الطويل تغتدي تافهة، ذلك لأن علم الإمام بدون اكتسـاب أحرى بالشبهة، ولكن من يعترف بقدرة الله الواسعة لا صـعوبة عنده في ذلك.

5- ويقولون: ما هي المصـالح العامة التي نغتنمها من وجود الإمام الحجة عليه السلام وهو مستور غائب عن أبصارنا؟

ونقول: هناك عدة مصـالح سـوف نشـير إليها، ولكن يجب ان نعرف أولا ان الله تبارك وتعالى قد أتم حجته على الخلق إذ جعل من لدنه حجة وأعطاه كل ما يحتاج إليه الناس، ولكن الناس أبوا

الا التواثب عليه لقتله فأغابه الله عن أبصارهم حفاظا عليه. والآن إذا رجع الناس إلى الحق وسلموا أمورهم إلى الإمام صدقا وعدلا، يظهر الله إمامهم لهم.

ففي الحديث إذا بلغت عدة الصادقين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا يظهر الله الإمام الحجة (عج).

ان الله أتم حجته على الخلق ببعث الرسل واصطفاء الحجج – لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل – ولكن الله ليس مسؤولا عن رجوع الناس إليهم أو نكوصهم عنهم. فالله لا يكره الخلق على الهدى، وقد فعل ذلك بالنسبة إلى الإمام المنتظر (عج) إذ اصطفاه وجعله حجة حاضرة فإن أرادوا أخذوا به والا فعليهم إجرامهم.. ان الله يوفر للمرضى الطبيب فإن أرادوا تداووا عنده والا فليموتوا!

بعد هذا لنعرف:

1- ان مثل الإمام الحجة (عج) كمثل الشمس وقد وارتها السحب ولكنها لا تمنع عن العالم دفئها وضوءها ومنافعها العديدة. فإن الإمام يؤيد وهو تحت ستار غليظ من الغيبة أنصار الحق أنى كانوا ولنا نحن الشيعة شواهد تاريخية جمة على ذلك.

2- كما ان الإمام هو ملاذ الناس لدى هجوم الدواهي عليهم، فكم من مشكلة تم حلها بالتوسل إليه، ولكل فرد تجربته الخاصة في ذلك.

3- في الوقت الذي لا نستبعد – بل هو كائن فعلا- وجود علاقات سرية بين الامام (ع) وبين مراجع الشيعة من حيث

يشــعرون أو من حيث لا يشــعرون بالمباشــرة أو بواســطة بعض وكلاء الامام، وهذا هو السر العظيم.

(3)

ما هي مسؤولية الناس تجاه الإمام؟

ماذا يجب على الناس تجاه الإمام؟

هذا السـؤال يفرض نفسه على من اعتقد ان الامام شخص ينتخبه الله تعالى، وجواب هذا السؤال لابد ان يأتي من قبل الأئمة أنفسهم – بعد الإيمان بهم مجملا- وهناك عدة وظائف مفروضة على الناس بالنسبة إلى الإمام نشير إلى عشر منها، ونذكر الدليل الشرعي القائم عليها:

1- معرفة الإمام بشخصه.

والدليل على ذلك قول ابي عبد الله الصادق عليه السلام، عن رسول الله (ص) انه قال: (من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية) (قال الراوي سألته) : جاهلية جهلاء أو جاهلية لا يعرف إمامه. قال: جاهلية كفر ونفاق وضلال[1].

2- ان يعتقد بولايتهم.

والحجة على ذلك قول الصادق (ع): (ان أول ما يسأل العبد عنه إذا وقف بين يدي الله جل جلاله؛ عن الصلوات المفروضات وعن الزكاة المفروضة وعن الصيام المفروض وعن الحج وعن ولايتنا أهل البيت، فمن أقر بولايتنا ثم مات عليها قبلت منه

---

1 - وسائل الشيعة ،ج18،أبواب حد المرتد، باب10 ،ص567 ،ح47.

صــلاته وصــومه وزكاته و حجه وإن لم يقر بولايتنا بين يدي الله جل جلاله لم يقبل الله عزوجل شأنه شيئا من أعماله)[1].

3- أن يسلم لهم ولا يرد عملا من أعمالهم.

والبرهان على ذلك قول علي بن الحســين (ع): (ان دين الله لا يصــاب بالعقول الناقصــة والآراء الباطلة والمقاييس الفاســدة، ولا يصاب الا بالتسليم، فمن سَلَّم لنا سَلِمَ، ومن اهتدى بنا هُدي، ومن دان بالقياس والرأي هلك، ومن وجد في نفســه شــيئا مما نقوله أو نقضــي به حرجا كفر بالذي أنزل الســبع المثاني والقرآن العظيم، وهو لا يعلم)[2].

4- ان يطيعه في كل ما يقول.

قال أبو جعفر الباقر (ع): (ذروة الأمر وســـنامه ومفتاحه وباب الأشـياء ورضـا الرحمن تعالى، الطاعة للإمام بعد معرفته. ثم قال: ان الله تعالى يقول [مَن يُطِعِ الرَّسُـــولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً][3] (النساء 80).

5- ان يرد أمر المشاكل إليه.

(انما كلف الناس ثلاثة: معرفة الأئمة، والتســليم لهم فيما ورد عليهم، والرد اليهم فيما اختلفوا فيه[4]).

6- ان يتعلم منه الأحكام والعلوم والأخلاق.

قال رسول الله (ص): (ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية والباقون هالكون، والناجون الذين يتمســـكون

1 - مستدرك الوسائل ،مقدمة العبادات ، الباب 27 ،ح11 .

2 - مستدرك الوسائل، كتاب القضاء ، ابواب صفات القاضي، الباب 6 ،ح25 .

3 - بحار الانوار، ج23 ، ص294 ،ح33 .

4 - وسائل الشيعة، ج18 ، ابواب صفات القاضي ،باب 7،ص45،ح14 .

بولايتكم ويقتبسون من علمكم ولا يعملون برأيهم فأولئك ما عليهم من سبيل)[1].

7- ان يرجع في تفسير القرآن وتأوليه إليه.

قال الإمام الباقر (ع): قال الله تعالى: (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم) ونحن نعلمه[2]..

8- أن يفزع إليه في الدواهي.

قال الإمام الرضا (ع): (الإمام، الأمين الرفيق، والوالد الرقيق، والأخ الشفيق ومفزع العباد في الداهية)[3].

9- ان يعرض على الإمام النصرة متى شاء.

قال الإمام الباقر (ع): (إنما أمروا ان يطوفوا بها (أي الكعبة)، ثم ينفروا الينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم.)[4]

10- أن يؤمن به وبحقانيته.

قال الإمام الباقر (ع) في تفسير الآية الكريمة [فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ](التغابن 8): النور والله الأئمة من آل محمد (ص) إلى يوم القيامة[5].

هذه هي الوظائف العامة التي تلزمنا تجاه الإمام في كل عصر.. ولكن هناك عدة مسؤوليات ضخمة مفروضة علينا اليوم بصورة خاصة بالنسبة إلى الأئمة (ع) وهي:

---

1 - المصدر، باب 6، ص31 ، ح30 .
2 - بحار الانوار، ج23، ص197، ح27 .
3 - بحار الانوار، ج25 ،ص123 .
4 - الكافي، ج1، ص392،ح1 .
5 - بحار الانوار، ج23، ص308،ح5 .

1- ان نفهم معارف الأئمة التي هي بحق المعارف الإسـلامية؛ نفهمها بعيدا عن التيارات الدخيلة التي تلصـصـت في المناخ الفكري الإسلامي وهي ثلاثة:

أ- التيار الفلسـفي؛ الذي دخل العالم الإسـلامي في بداية القرن الثاني ولبس ثوبا إسلاميا في حين ان جوهره أغريقي مادي.

ب- التيار الأجنبي؛ الذي لا يزال يتغلغل في اعماقنا عن طريق الكتب التي تحتوي على سـموم بالغة من حيث: البناء والإيحاء والاتجاه .

ج- التيار الجاهلي؛ الذي نبع عن ابتعاد الشـيعة عن مصـادر الأئمة (ع) فذهبوا إلى ما أوحت اليهم أهواؤهم وآراؤهم.

والتحاشـي عن هذه التيارات انما يمكن بالتوجه إلى المنابع الأولية للمعارف الإسـلامية ، وهي الروايات دون ان نسـتعين في فهمها أو تأويلها إلى كتب مؤلفة ، بل نعتمد على فهمنا الشـخصـي لظواهر الأحاديث كما لو كنا نحن المخاطبين بها.

2- ان نكيف حياتنا العملية والفكرية مع توجيهات الأئمة عليهم السلام دون ان ندع حرفا واحدا منها غير مطبق تطبيقا كاملا.

3- ان ننشر معارف الأئمة (عليهم السلام) في الأوساط العامة وبمختلف المسـتويات، ونضـحي في سـبيل ذلك بالوقت والمال والجهود.

نسأل الله ان يوفقنا لذلك حتى نحظى بسعادة الدنيا والآخرة.

القسم الثاني عن العقيدة والإيمان

<u>البحث الرابع عن:</u>

الحياة بعد الموت

الدليل على البعث
الجبر والاختيار
القضاء والقدر
الغاية من الخلق

الدليل على البعث

إن نظرة واعية إلى ما يجري حولنا من أحداث في هذه الدنيا الواسعة، تدعونا إلى الاعتراف بالبعث بعد الموت:

1- فهناك طائفة كبيرة يعيشـون معنا يحيون ويموتون طيبين – أعمالا وقلوبا- لا يبرحون عن إسـداء الخدمات الإنسـانية إلى بني نوعهم دون أن يريدوا منهم جزاءا أو شـكورا.. انهم يعبدون ربهم ويظلون يذكرونـه بـالعشـــي والأبكار، ولكن مع ذلك لا يظلون مظلومين مقهورين، منكدة عيشـــتهم، طويلـة أحزانهم، متواليـة نكبـاتهم وويلاتهم، إلى جنـب هـذه الطـائفـة هنـاك أنـاس يتمتعون بالعدة والثروة والجاه العريض وبعكس ما قد يُتصـــور لا يزالون قاســـطين.. هناك بغاة يهتكون الحرمات، ويرتكبون الخطيئات، وكثير منهم يموت على ما هو دون ان يلقى جزاءه في الدنيا.

وان كثيرا من أولئـك الطيبين يبلغون في مكـارمهم القمـة، كالأنبياء والصالحين والمتمسكين بالحق وهم الألوف الألوف.

وان كثيرا من هؤلاء المجرمين يهبطون في أعمـالهم إلى الحضـــيض ويقتلون الملايين ويقترفون الجرائم بحق البشـــرية جمعاء.

والله الحكيم الذي نرى آثار حكمته في السماء والأرض لم يخلق شـــيئا عبثا ولا كان بحاجة إلى اللعب واللهو تعالى عن ذلك.. الله القادر الذي نجد في ذات أنفســـنا، وفي كل ما حولنامن أشـــياء ،

آيات قدرته العظيمة التي لا تحد.. كيف لا يعطي جزاء هؤلاء وهؤلاء؟

أعبثا خلقهم؟ أم خلقهم ليظلم قويهم ضعيفهم بغير سبب؟ أم أراد بذلك ان يؤذي غير المؤذي؟ أم عجز عن ان يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟

سبحانه الحكيم الغني ان يخلق الخلق عبثا ، ولا حاجة له إلى العبث، وسبحانه أن يعجز عن ان يجازيهم، أو أن يعجز عن خلقهم مرة أخرى وهو الذي أنشأهم أول مرة.

2- كل دلائل الكون تهدينا إلى أن ما فيه قد سخر لنا (أو قد خلق لأجلنا)، كل ما فيه من شمس وقمر ونجوم تعمل ليل نهار لتبقى الحياة مستمرة. وكل ما فيها مسخر لنا، بما أوتينا من موهبة العقل والقدرة والحرية. وإذا كان كل شيء لنا، فنحن لماذا؟

هل خلقنا لكي نتمتع في الدنيا؟ ومن منا استطاع ان يتمتع بها سعادة وافية؟ أكبيرنا أم صغيرنا؟ سيدنا أم مملوكنا؟ رئيسنا أم مرؤوسنا؟ ليس هناك من استطاع ان يستريح بما في الكلمة من معنى، فلماذا إذاً خلقنا؟

هناك جوابان على ذلك لا ثالث لهما:

أ: ان الله سبحانه أراد ان يلعب ويعبث فخلقنا ليضحك علينا. وهذا بعيد عن دلائل حكمته التي نراها في الكون، وعما يهدينا إليه العقل من كمال ربنا، انه قدوس ليس فيه نقص.

ب: انه خلقنا لعالم آخر.. وجعل ما في هذه الدنيا من خير، دليلا على أفضل منه وأكمل منه يوجد في الآخرة، وما هنا من شر، دليلا على أسوأ منه وأطول منه يوجد في الآخرة.. وأذاقنا

من هذا حينا ومن هذا حينا، ثم بين لنا عن طريق رسـله كيف نتجنب الشر ونقترب إلى الخير.

وهذا هو التفسير الصحيح لظواهر الكون كلها.

3- وإلى هذا تشير النصوص الشرعية التي سوف نلم بنبذة يسيرة منها والتي تعتبر بذاتها دليلا مستقلا على الحياة الآخرة لما ثبت بالأدلة العقلية ان لنا إلها كاملا وانه بعث رسلا صادقين ونقلوا عنه ان من عمل سوءا جوزي به، وانه من صلح عملا اثيت عليه.. علما بأن وراءنا جزاءً وثوابا قال الله في كتابه الكريم:

[وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَآءِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ](الروم 6-8).

قال سبحانه: [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ](المؤمنون 115).

شبهات وردود

أما الشبهات التي أثيرت حول إمكانية البعث فهي كالتالي:

1- إمكانية البعث.

وهذه الشبهة هي من أكبر الشبهات تفاعلا في ضمير المنكرين مع سائر العوامل ولذلك فقد خصص الأنبياء (عليهم السلام) كثيرا من الأدلة لدحض هذه الشبهة وتسفيه القائل بها. وأساس هذه الشبهة هو كيف يحيي الله الموتى بعد ان تحولوا إلى العناصر

الأولى.. وتبدلوا إلى أجزاء في الأرض والهواء والماء ، وكما نقل عنهم الله سبحانه في الكتاب وأوضح الشبهة بلسان عربي مبين حيث قال: [وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ](يس 78)، ولكن أصل الشبهة نشأ من عدم الإيمان بالله وبقدرته، والا فأي عقل لا يهتدي إلى قدرة الله الواسعة؟ ان الذي قدر على خلق الكون وإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود قادر على أن يعيده مرة أخرى؛ وهل الاعادة أصعب أم الإبداع؟

وقال الله سبحانه في الرد على هذه الشبهة: [قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ](يس 79-82).

بهذه الكلمة الفاصلة مزق القرآن الشبهة القائمة على عدم إمكانية البعث. والواقع ان العقل حينما هدانا إلى ان الله قادر على كل شيء وانه لا حدود لقدارته الواسعة، فمن السفه ان نفكر بعد ذلك انه كيف يعيد الخلق مرة أخرى.

وفي الحوار الذي كان بين الإمام الصادق عليه السلام وبين منكر للمعاد توضيح وشرح لهذه الحقيقة:

قال الزنديق: أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق؟

قال (ع): بل هو باقٍ إلى وقت ينفخ في الصور، فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حس ولا محسوس، ثم أعيدت الاشياء كما بدأها مدبرها، وذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين.

قال: وأنىّ له بالبعث والبدن قد بلى والأعضـــاء قد تفرقت، فعضـــو ببلدة يأكلها ســـباعها، وعضـــو بأخرى تمزقه هوامها، وعضو قد صار ترابا بُنيَ به مع الطين حائط..

قال (ع): ان الذي أنشأه من غير شيء وصوره على غير مثال كان سبق إليه، قادر أن يعيده كما بدأه.

قال: أوضح لي ذلك..

قال (ع): ان الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة والبدن يصير ترابا كما منه خلق، وما تقذف به الســـباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشـــياء وأوزانها. وان تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشـــور، فتربو الأرض ثم تمخض مخض الســـقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كل قالب إلى قالبه فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصـــور بإذن المصـــور كهيئتها، وتلج الروح فيها، فإذا قد اســـتوى لا ينكر من نفسه شيئا[1].

2- أي الأبدان تحشر؟

منذ ان يتكون الجنين والى ان يموت ـ وبعد سبعين عاما مثلا ـ يتبدل جسم الإنسان أكثر من مرة، ففي كل سبع سنوات تتغير كل

1 -بحار الانوار ،ج10،ص185-186 .

خلايا الجسم، فإذا اعتقدنا بعودة الأجسام، فأي الأبدان، وأي الخلايا تعود مع الروح؟ كلها ؟ فيكون جسم الإنسان أكبر من وضعه الفعلي عدة مرات عند الحشر، أو بعضها؟ وأي بعض؟ أم يحشر الإنسان في جسم جديد؟

في الافتراض الأول -عودة كل الخلايا التي أصبحت في يوم ما جزءاً للإنسان - يلزم ان تكون الخلايا الكونية تعذب حينا وتستريح حينا آخر، ذلك لأن المحتمل ان تصبح الخلية الواحدة بجسم كافر ثم تصبح جزء لجسم مسلم فيكون بعض جسم الكافر في الجنة وبعض جسم المسلم في النار، وهذا لا يكون.

وبعضهم صاغ الشبهة صياغة أخرى فقال: لو فرضنا ان الطغاة قتلوا مسلما ثم أكلوه ولم يبقوا منه شيئا فماذا سوف يحدث؟ هل يذهب هذا المسلم المأكول إلى الجنة، ومعناه أن يذهب الطغاة إلى الجنة، أو يذهب إلى النار؟ وكيف يعذب الله جسم المسلم وقد أكل ظلما؟

وفي الافتراض الثاني: يلزم ان يعذب أو يتنعم بعض الأبدان دون بعض بغير سبب معقول.

أما الافتراض الثالث فإنه يؤدي إلى ان يعذب أو يتنعم جسم جديد لا علاقة له بالعمل الخاطئ أو الصالح، وكل هذا بعيد عن حكمة الله وعدله.

الجواب:

هناك إجابة إجمالية عن الشبهة هي: ان هناك جامعا مشتركا -لدى العقل والعقلاء- بين أطوار كل شخص منذ ان كان جنينا والى ان يموت، جامعا مشتركا يرى العرف بموجبه انه بعينه في

كل الأطوار. فهو الجاني الذي يؤخذ بجريمة اقترفها قبل عشــــر سنوات، وهو المثاب بعمل صالح أسداه قبل عشرين سنة.. فهو هو يرى نفسه كذلك، ويراه الناس كذلك. وبتعبير أولى وأهدى: ان الإنســان الجنين هو الإنســان عند السبعين –عند العقل والعقلاء- وان الزيادة والنقصان عندهما بمثابة الهواء الذي يدخل الرئتين ثم يلفظ خارجا. وان الله يعذب أو ينعم نفس هذا الإنســـــان الجامع المشــترك، بعمله ويعيد نفس هذا الجســم الذي لم يتغير منه بزيادة شيء عليه أو بدون زيادة.

وهناك خلاف فلسفي واسع حول ان الذي يحس بالألم أو بالنعم ما هو؟ الجسم المادي أو النفس أو الروح؟ أو هما معا؟ أو الجسم بالروح أو الروح بالجسم؟

النظريتان الأخيرتان تتفقان في ان أحدهما وســـيلة للآخر، والجســـم في النظرية الأولى هو الذي يحس بالألم، ولكن لســـبب وجود الروح فيه كما ان المصباح الكهربائي هو الذي يشع ولكن بســـبب جريان التيار فيه. كما ان الروح في النظرية الثانية هي التي تشعر بالألم أو بالنعم، ولكنها تتوسل بوسيلة المادة – الجسم- لكي تتمكن من هذا الإحساس. وقد ذهب إلى هذه النظرية الأخيرة طائفة كبيرة من الفلاســـفة غير انهم لم يكونوا عالمين بالعلوم الحديثة التي أثبتت تأثر الجسم بالألم واللذة بسبب الأعصاب.

والإســـلام يقدر ان الجســـم والروح كلاهما يلتذان أو يتألمان مستدلا على ذلك بالوجدان. فكل فرد منا يرى ان جسمه هو الذي يتألم ويلتذ بالإضـــافة إلى روحه الحســـاســـة.. وعلى هذا فلابد ان يجازي الله كلا الجزءين: الروح والجسم معا لأن الاكتفاء بمجازاة

أحدهما دون الآخر مخالف لحكمة الله تعالى.. ولهذا فقد أوضحت الأديان إلى جانب العقول ان المعاد لا يقتصر على الأرواح بل يشمل الأجسام. ولابد ان يكون المُعاد نفس الجسم المتألم والمتنعم.

إذا ليس من الصحيح ان نقول ان الله يعذب أو ينعم روح البشر في أجسام جديدة ، كما قال به بعض من كتب حول المعاد.

ثم ان الإسلام يقدر حقيقة في أصل الخلق كما يكتشفها العلم الحديث فيقول: ان الله خلق الناس جميعا أولا وبدفعة واحدة من دون ان يخرج بعضهم من أصلاب أو أرحام بعض، خلقهم من الأرض بصورة أجسام صغيرة للغاية ، عبرت عنها الأحاديث بالذر ولذلك سمي العالم الذي كانت تعيش فيه بعالم الذر، ثم أدرجت الأبدان الصغار في أصلاب الآباء وحولها الآباء إلى أرحام الأمهات وجعل كل من شاء في صلب كل من اختار.

وان تلك الأجسام الصغار تنمو في الأرحام بجمع مواد جديدة إلى نفسها تصبح كثيرة من دون ان تتغير من موادها الأصلية شيئا وانما التبدلات التي تحدث في خلايا الجسم فإنها لا تشمل المواد الأصلية وإنما تقتصر على المواد الإضافية التي تعتبر بمنزلة الهواء في الرئة والغذاء في المعدة. تكشف لنا هذه الحقيقة ظواهر كثيرة من جملتها: بقاء جميع الخواص في الجسم منذ ان كان جنينا إلى ان يموت.. وشعور الإنسان بأن جسمه لم يتبدل رغم علمه ومعرفته بتبدل أجزائه كلها.

بعد توضيح هذه الحقيقة نقول:

ان الذي يعود من جسم الإنسان هو ذلك البدن الذري الناعم الصغير الذي كان يتألم ويلتذ منذ ان كان جنينا إلى ان مات وقبر،

وان هذا البدن لا يعد من أجزاء بدن آخر الا في وقت محدود ثم يخرج ليعود في التراب أو في الهواء أو في أي مكـان آخر، ثم يجمعه الله سـبحانه مرة أخرى وقد يخرجه في يوم البعث بإضـافة أجزاء جديدة عليه ليكون إنســـانا عاديا. وقد لا يفعل ذلك، بل يخرجه بنفس الحجم الأصـــلي فيكون نوعا من العذاب، كما جاء في الأحاديث ان المتكبر يخرج يوم الحشـر بصـورة الذرة ، ولكن كيف ينميه الله مرة أخرى؟ هل يتم ذلك ضـــمن أرحام جديدة مثل ما نماه في هذه الدنيا في أرحام الأمهات؟

تجيب بعض الأحاديث على ذلك بقولها: ان الله يجعل الارض بمنزلة الرحم فيهطل عليها وابل من الســـماء ويوفر للبدن الذري وسائل التنمية الجديدة فيخرج كالنبات من الأرض إخراجا.. أفليس الله الذي خلق الرحم ووفر فيه وســـائل نمو الجنين بقادر على ان يجعل الأرض كذلك؟ ولهذا فإن الإنســـان يوم القيامة يكون ابن الأرض وليس ابن امـه ولا ابن أبيـه، ومن هنـا جـاء في الآيـة الكريمـة: [فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّـــورِ فَلاَ أَنسَـــابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسآءَلُونَ](المؤمنون 101).

المعاد في السنّة..

1- قال الإمام الصـــادق عليه الســـلام: (إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر الســماء أربعين صــباحا فاجتمعت الأوصـــال ونبتت اللحوم.

2- قال الإمام العســكري عليه الســلام: (أما [الاحياء] في الدنيا فيتلاقى ماء الرجل ماء المرأة فيحيي الله الذي كان في الأصــلاب والأرحام حيا. وأما في الآخرة فإن الله ينزل بين نفختي الصـــور

بعد ما ينفخ النفخة الأولى من دوين السماء الدنيا من البحر المسجور الذي قال الله تعالى فيه (والبحر المسجور) وهي من مني كمني الرجال فيمطر ذلك على الأرض فيلقى الماء المني مع الأموات البالية فينبتون من الأرض ويحيون[1]).

هذان الحديثان اللذان يكشفان النقاب عن حقائق هامة تنتظر الإنسان على أبواب الآخرة يستدعي شرحهما إلى بعض التوضيح فنقول:

ان الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام ، وكانت حية شاعرة ثم خلق الأبدان بصورة الذرة ثم أسكنها الأصلاب، فإنتقلت من صلب إلى آخر حتى استقر كل ذر في رحم أمه، وأدخل في كل بدن بعد ان بلغ أربعة أشهر في الرحم روحه الخاصة به بسبب حكيم، وأخرجه إلى الدنيا ثم أماته فانتقلت الروح إلى مكانها معذبة أو منعمة حتى تعاد إليه مرة أخرى.. والفترة التي تمتد بعد الموت إلى حين البعث تعتبر فترة الهجعة والرقدة ذلك لأن الروح في الوقت التي تنفصل عن الجسم تبقى ذات علاقة به، تشبه علاقة الشمس بالأرض، تبعث إليها بالنور من دون ان تدخل فيها.

هنا تنكشف عدة أمور:

1- ان الأرواح كان لها وجود مستقل وسيبقى لها ذلك بعد انفصالها عن الأبدان ولها أعمال خاصة بها قبل وبعد ورودها في الجسم. وهذا يعني انها محدودة وبإمكانها القيام بأعمال مستقلة ، وقد كانت الفلسفة اليونانية تعتقد ان الروح مجردة عن المادة وليس لها مكان ولا زمان ولا حد ، ولكن الإسلام سفه هذه الفكرة

1 - بحار الانوار،ج13 ،ص273 .

وبين أن الأرواح مادية[1] تتشـــكل من أجزاء لطيفة وان لها حدودا وأعمالا.. فبالإضــافة إلى وجدان كل منا بأن نفســه ليســت مطلقة وإنما هي محدودة ضـــمن المكان والزمان فتكون هنا ولا تكون هناك.. وبالإضــافة إلى شـعور كل واحد منا بأن نفســه لم تكن ثم كانت، بالإضـــافة إلى هذا الوجدان فإن هناك دليلا واضـــحا على محدودية الأرواح ومحدودية إمكانياتها العملية بعد إنفصـــالها عن الجســم، وهو ما كشــفت عنه الإتصـــالات التي جرت بطريق أو بآخر مع الأرواح بأســـاليب حديثة وســـئلت عن إمكانياتها وخصـــائصـــها مما علم منها ان كل روح محدودة بحدود خاصـــة ولها أعمال خاصة منفصلة عن الجسم.

ومن هذا الواقع نعرف الرد على شـبهة فلسـفية حول المعاد تقول: ان الروح تبقى – على القول بالمعاد – معطلة، فلابد لها من الحلول في جســـم جديد لكي لا تبقى معطلة.. ورد هذه الشـــبهة ان الأرواح تتمكن من القيام بأعمال مســـتقلة فإذا خرجت من الأجســـام بدأت نشاطاتها الخاصة ولم تبق معطلة كما يقول صاحب الشبهة.

2- ان الأرواح قد تتذكر من عالمها الســـابق أشـــياء، فقد ثبت علميا ان الإنســـان قد يعلم كثيرا من الأشـــياء بدون معلم. مثلا: يذهب إلى مدينة لأول مرة في عمره ثم هو يهتدي إلى أســـواقها ومعالمها وشوارعها ويتذكر انه سبق له ان رأى هذه المدينة بكل تأكيد. وأغرب من هذا انه قد يتفق ان يرى الواحد منا رجلا لأول مرة في عمره ويحس بأنه صـــديق منذ الأزل بما يكن له من حب ومعرفة ســـابقة. ولا يكون هذا دليلا على أن الارواح كانت تعيش

1- حين نقول (مادية) لا نقصد بها انها مثل المواد المحسوسة، ولكن نقصد انها مخلوقة ومحدودة وذات كثافة من نوع مختلف عن كثافة ما نراه من المواد.

في أبدان ســـابقة ثم انتقلت إلى أبدانها الجديدة كما زعم القائلون بالتناســـخ حديثا، وانما هو دليل على وجود مســـبق للروح على الجسم.

3- ان حياة الجســـم بالروح، وإن واقع الموت لا يعني ســـوى انفصال الروح عن الجسم وهو أشبه شيء بالنوم الذي تنفصل فيه الروح عن الجســـم قليلا.. وكما جاء في الحديث عن رســـول الله صـــلى الله عليه و آله: (و الذي بعثني بالحق لتموتنّ كما تنامون، و لتبعثنّ كما تســـتيقظون.)[1] كما جاء في حديث آخر عن الامام الباقر عليه السلام: (كان فيما وعظ به لقمان إبنه أن قال... و إنما النوم بمنزلة الموت، و إنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.)[2] وكما تعذب الروح في حالة النوم بالأحلام المزعجة ويتأثر البدن بذلك إيلاما وتنعم بالأحلام الطيبة فتنعكس آثارها على الجسم أيضا كذلك يكون بعد الموت..

---

1 - بحار الانوار، ج7،ص47 ،ح31 .

2 - المصدر ،ص42،ح13 .

الجبر والاختيار..

يتحدث الناس عما إذا كانوا مختارين في أعمالهم أم مجبورين من قبل الله عز وجل ومن قبل قوى الكون. وهناك موضوع آخر سيأتي تحت عنوان (القضاء والقدر) حيث يجري الحديث حول انه ما معنى ان الله قدر هكذا، أو قضى هكذا؟ أيمكن أن يكون معناه انه سبحانه يجبر الناس ويضطرهم على ما هم عاملون، أم له معنى آخر؟

ولابد لنا في الموضوع الأول ان نقول:

ان الوجدان الشخصي الذي هو أكبر شاهد على الحقيقة، يشهد بأن الإنسان عندما يقوم بأعماله العادية ، يكون متمتعاً بحرية تامة في الاختيار، ومعنى ذلك انه يجد نفسه حينذاك غير مكره على اختيار أحد الطرفين، وان له استطاعة تامة في ان يقدم أو لا يقدم، يعمل أو يترك، يختار هذا الطريق أو ذاك.. ألست ترى نفسك حينما تنتقل من وإلى البيت انك تخطو باختيارك، ولك ان ترجع؟ وحينما تقرأ كتاباً انك تقرأ بحريتك ولك ان لا تقرأ؟ ولكن هاهنا واقع يجب ان لا ننساه وهو ان هذه القدرة التامة على الفعل والترك بنسبة واحدة ليست من ذات الإنسان. هذه السلطة والإرادة الحرة، قوة يهبها الله للإنسان حينما يتردد بين الفعل والترك. فهي تماما مثل موهبة العقل وموهبة العلم، فبإستطاعة الله ان لا يعطي عبده هذه القدرة فيصبح لا إراديا أو مجنونا، ولذلك فإن العبد في الوقت الذي هو مختار بكل معنى الكلمة في ان يترك وان يعمل، فهو تحت سلطان الله المطلق، لأن اختياره هذا وقدرته هذه مستمدة وموهوبة من الله. فهو مختار في حدود صلاحياته الموهوبة له

لذاته، لذلك فإن الله إذا أراد ان يمنعه من الحرية سلبه هذا الاختيار. وهذا جوهر كلام الإمام الصادق عليه السلام: (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين)[1] ذلك لأن الجبر يعني ان الإنسان لا إرادة له ولا رأي مستقل، بل انه مضطر ومجبور من قبل الله أو بسبب القوى الطبيعية. وهذا يسلب الفرد تكاليفه ومسؤولياته تجاه أعماله ذلك لأن المجبور لا تكاليف له ولا عقاب عليه.

والنصوص التالية تشرح هذا الواقع وتشهد له:

1- عن الإمام الرضا عليه السلام، قال أحد أصحابه: سألته فقلت: الله فوض الأمر إلى العباد؟

قال (ع): الله اعز من ذلك، قلت: فأجبرهم على المعاصي؟ قال: الله أعدل و أحكم من ذلك. ثم قال: قال الله عزوجل يا بن آدم انا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني، عملت المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك[2].

ومثال بسيط يكفي معنى هذا الحديث فلو وهبت لصديقك وهو رجل عاقل دينارا فذهب واشترى به متاعا حسنا فمن الذي ينسب إليه شراء المتاع، انت ام هو؟. طبعا أنت لأنه لولا أنك اعطيته الدينار لم يستطع من شراء المتاع.. ولو انه اشترى به مسدسا وقتل به نفسه فمن المسؤول، أنت أم هو؟. طبعا هو لأنك أقدرته على المال ولم تجبره على شراء المسدس أو قتل نفسه.. وهكذا الله حينما أعطانا القدرة على اختيار الحسنات كان أولى بها، وحينما اخترنا -بتلك القدرة- السيئات كنا أولى بها.

---

1 - بحار الانوار، ج5 ،ص11 ،ح18 .

2 - المصدر، ص 15 ،ح20 .

2- عن الإمام الصادق عليه السلام: (الناس في القدر على ثلاثة أوجه: رجل زعم ان الله عز وجل أجبر الناس على المعاصـــي، فهذا قد ظلم الله عزوجل في حكمه وهـو كـافر. ورجل يزعـم ان الأمر مفوض إليهـــم فهذا وَهَّنَ الله في سلطانه فهو كافر، و رجل يقول: إن الله عزوجل كلّف العباد ما يطيقون، ولم يكلفهم مالا يطيقـون، فإذا احسن حمد الله، و إذا اسـاء استغفر الله، فهذا مسلم بالغ)[1].

شبهات وردود

هناك بعض الشـــبهات انتحلها بعض المنكرين، ممن قالوا بالجبر، لابد من التعرض لها. ولكن قبل ذلك يجب ان نعلم انه حين عرفنا بوجداننا ان لنا كامل الحرية بأن نترك أو نعمل أي شيء، بعد هذا لا بد ان نتحقق عن واقع الاستطاعة هذه. الإسلام يقرر ان كل عمل اختياري لابد له من عامل، ولابد لهذا العامل من ان يملك القدرة التي يرجح بها أحد الطرفين على الآخر.. وهذه القدرة هبة من الله للنفس التي تريد أن ترجح، وهي لا تتأثر بأية دوافع خارجية.. وبكلمة أخرى فإن الاستطاعة عند الإسلام نور يفيضـــه الله على النفس حين العمل فتصـــبح كل العوامل متسـاوية بالنســبة اليها وتفقد كل قوتها أمام تلك الومضـــة الإلهية التي تعطي النفس القوة الكاملة على الفعل والترك. هكذا يقرر الإسلام واقع الاستطاعة، وعليه فالقوة الإرادية تأتي من الله حين العمل، فبمشيئة الله وقوته يستطيع العبد ان يختار هذا الجانب أو

1 - المصدر ،ص9 ،ح14 .

ذاك.. وهذا ينـافي التفويض، إذ التفويض يعني ان العبد يختـار بعيدا عن مشـيئة الله. إذاً فلا جبر، إذ الجبر يعني ان تختار للنفس أحد الجانبين قوة خارجة عن ذات الإنســان. ولا تفويض لان ذلك يعني امتلاك الإرادة بصــــورة ذاتية وهذا مما يخالفه الإســـلام. ولنعرج على الشبهات للرد عليها وبيان تفاهتها:

1- إن الإنسان مفطور على حب ذاته وحب مصلحته الخاصة، فهو يسير بصورة طبيعية وراء ما ينفعه. والمصالح المختلفة هي التي تحددا تجاهه في الواقع وفقا لملابسـات نفسـه فهي إذاً الرائدة للإنســـان نحو ما تقتضــــيه من اتجاه.. ومن هنا ظهرت الجبرية الاقتصـادية والاجتماعية والنفسـية التي قال بها كل من: ماركس، دركهايم، فرويد.

والجواب: صـحيح ان النفس تهوى ذاتها بصـورة طبيعية، وان الإنســان يحاول دائما ان يجلب إلى نفســه النفع ويدفع الضـــرر، ولكن هذا لا يعني ان النفس مجبورة على اتباع هذا الهوى وهذا الحب.. ان النفس تملك - بإذن الله - قوة فوق قوة الحب وهي قوة الرأي وقوة الإرادة، فتختار حينا ما تحب النفس فتتبع بذلك هوى النفس، وتختار حينا آخر ما تكره النفس وخلافا لما تحب. وبعبارة شـاملة: ان هناك فرقا واضـحا بين ان تكون حركة الإنسـان وراء مصالحه حركة لا إرادية وجبرية - كحركة الشمس حول الأرض - وان تكون إرادية بمعنى ان بإســـتطاعة البشـــر ان يتوقف عن السـير ولا يسـتمر في جلب المنافع، لا يأكل ولا يكتسـب ولا ينكح تماما كما يفعل الزهاد وبعض الثائرين..

والوجدان شـاهد على ان للبشـر مقدرة كافية في مخالفة النفس بالسـير في اتجاه آخر، وهذا هو الشـرف الإنسـاني الذي يتميز به

عن كل حي آخر. كما ان باســتطاعة الإنسـان ان يخالف تقاليد الاجتماع وان سبب له ذلك ضررا كبيرا وان يغلب حالته النفسية بإتجاه معاكس.

2- و يقولون: أليس الله يعلم ان عباده يذنبون علما ســابقا على وجود ذنبهم؟ ثم أليس الله عليم ولا يجهل ولا يمكن ان يخطأ؟ إذاً فلو علم الله اني أكذب فإني لا اقدر على أن لا أكذب، إذ لو لم أكذب إذاً لزم ان يكون علم الله جهلا؟

الجواب: بالرغم من ان هذه الشـبهة تعتبر قوية في الأوسـاط الفلسفية فإن جوابها واضح وبسيط يُعرف بعد ان نفهم واقع العلم، ولنأت له بمثل:

انك تعلم ان أخاك سـوف يموت بعد مئة سـنة علما يقينا فماذا يعني هذا العلم ، و ما هو تأثيره في الحدث؟ ان يعني الواقع الخارجي الذي يحدث بعد مئة سـنة قد انكشـف لك بصـورة واضـحة، وهل هناك شـيء آخر يؤثر في الواقع؟ طبعا لا، حيث ان علمك لا يؤثر في الواقع الخارجي فلست انت الذي تقتل أخاك، بل ان لموته سببا خاصا، و أنت فقط تعلم انه سيموت. فالعلم ليس الا معرفة الواقع كما هو وليس سببا في صنع الواقع.. وإليك مثلا آخر:

تعلم ان زيدا سوف ينتحر غدا بصورة إرادية واختيارية، فهل يعني هذا: أنك قتلته؟ أبداً، ذلك لأنه انما انتحر بإرادته الخاصـة ووفقا لدواعي مخصوصة، ولست أنت الا عالما بما سوف يجري. فالعلم لا يؤثر في صنع الأمر والواقع، بل في كشفه. ولدى مقايسه العلم بالمستقبل بالعلم بالماضـي يصـبح الأمر أكثر وضـوحا، لو انك علمت بأن زيدا مات أمس فهل يعني هذا ان لعلمك تأثيرا في هذا الموت؟ وبما ان حقيقة العلم واحدة في الماضـي والمسـتقبل

فليس هناك مجال للقول بتأثير العلم في الواقع، وعلم الله بالأشـياء لا يعني انه هو الذي يفعلها مباشرة. فإنه يعلم مثلا ان زيدا سوف يختار الكفر بحريته وإرادته على الإيمان، وليس معنى هذا انه تعالى يجبره على ذلك.

وبتعبير آخر: ان زيدا يختار بين الكفر والإيمان، ولابد انه يختار بحريته التامة، فأيا منهما يختاره؟ انا لا أدري. ولكن الله يعلم بأنه سـوف يختار – بكل حرية وإرادة- الكفر لا الإيمان. وهذا لا يعني سـوى انه يعلم بنتيجة الاختيار لا انه هو الذي أجبر عليها صـاحبها. أترى لو أنك عرفت ان لو خيرت إبنك بين دينار وبين متاع جميل قيمته نصف دينار، وعلمت بأنه سوف يختار المتاع – بكل حرية- فهل معناه انك أجبرته على اختيار المتاع؟ طبعا لا. انما أنت عالم فقط.

3- و يقولون: ان طينة كل فرد قد خلقت بشكل خاص.. فالشقي شـقي في بطن أمه، والسـعيد سـعيد في بطن أمه.. وولد الزنا لا ينجب إلى سـبعة بطون.. ومن انعقدت نطفته في حرام لا ينجب.. وهكذا الجينات الوراثية تؤثر على تعيين سلوك الفرد فهو مضطر إلى اتخاذ نوع خاص من السـلوك فهو إذاً مجبور وليس بمختار كما يزعمون.

الجواب: ان الطينة (متخذة من لفظ الطين باعتبار ان أول الخلق كان طينا لازبا)؛ تعني خلق جوهر النفس. وهذا الجوهر قد يكون صـالحا يرغب في الصـالحات، وقد يكون طالحا فيهوى الخطيئات.. الناس بطبعهم الأولي على قسمين: فريق يحب الخير بذاته، وفريق يهوى الشـر بذاته (كل يعمل على شـاكلته) و(كل حزب بما لديهم فرحون).. بيد ان هناك شـيئا آخر يثبته الإسـلام غير حب النفس وغير هواها، ذلك هو الرأي. تلك هي القدرة التي

توهب للإنسان وتجعل الفعل والترك سواء عندها، تلك القدرة التي نطلق عليها اسـم (الإرادة).. وأنها ليسـت مخلوقة مع النفس حتى تتأثر بالطينة، بل انها كالعلم موهبة إلهية. فولد الزنا مثلا يحب الشر بذاته ولكن حينما يعمل الشر لا يعمله لأنه يحبه بل لأنه أراد ذلك بحيث لو انه كان يريد خلافه – وان كان صـعبا عليه – كان يستطيع ان يأتي به أيضا.

مثال ذلك: من تعود على التدخين يحب هذا العمل كثيرا، ويصـعب عليه تركه ولكن لا يعني هذا انه مجبور على ذلك، بل بإمكانه التغلب على هذه الصعوبة وترك التدخين.. فالطينة والعادة وأكل مال الحرام وما أشـبه تحدث حالات نفسـية تهوى جانبا من جانبين، ومن الصـعب مخالفته باختيار الجانب الآخر. ولكن بما ان الإرادة ليسـت من النفس فإنها حاكمة على هذا الحب والهوى وباستطاعة الإنسان بها ان يختار الجانب الآخر. وبعبارة وجيزة: الطينة تسـبب الحب والهوى، وللنفس فوق الحب إرادة ترجح ما تحب النفس وقد ترجح ما تكره.

القضاء والقدر

1- كلمة القدر (المتخذة من مادة قدر – يقدر – تقديرا) تعني: التحديد والتنظيم والتدبير.. فالله قدر كل شـــيء تقديرا. فالشـــمس مقدرة ، فلا تقترب ولا تبتعد عن الأرض أكثر من المدار المقرر لها ولا تبعث الضـــوء خارجا عن المنطقة المحدودة له ، وهكذا القمر مقدر بمداره ، ومقدار نوره ، وكل شـــيء مقدر بتحديد وتدبير.

وكلمة القضاء (متخذة من مادة قضى – يقضي- قضاءً) تعني إمضـــاء التدبير. فبعد أن قَدّرَ الله الأشـــياء أجرى هذا التقدير في عالم الكون. فمثلا يقدر الله ويحدد إعطاء ولد لزيد ثم يقضـي بذلك بأن يعطيه الولد فعلا ، فهنا يكون قدر وقضـــاء حيث قدر الله ذلك أولا ثم قضـــى ما قدره ، وهذا المعنى للقدر والقضـــاء معترف به دينيا وعقليا الا انه لا ينافي حرية الإنســـان إذ انه هو في حدود الاقدار المقضية.

وهناك معنى آخر للقدر وهو العلم، فقدر الله يعني: علم الله بالأشـــياء كيف تقع منذ الأزل. وقد ســـبق ان علم الله بالأمور لا يؤثر أيضـــا في اختيار العبد لها وقدرته على تركها وفعلها جميعا بنسبة متساوية ، وفي الحديث المروي عن حمدان بن سليمان قال: كتبت إلى الإمام الرضا عليه السلام أسئله عن أفعال العباد مخلوقة

ام غير مخلوقة؟ فكتب (ع): (أفعال العباد مقدرة في علم الله عز وجل قبل خلق العباد بألفي عام[1]).

2- أما القضاء والقدر بمعناهما الاصطلاحي فيعني ان كل عمل للعباد مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ الذي ينظر إليه الأنبياء والملائكة والصالحون فيعرفون ما سوف يجري في المستقبل. ولكن ما كتب في هذا اللوح يتبدل بإرادة الله حيث قال: [يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ](الرعد 39).

3- ان كل عمل يجري من العبد – فهو انما يقدر من قبل الله ، أي بما أعطاه الله من قوة وبما وفر له من ظروف مواتية.. وجاء في الحديث عن البيزنطي قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: ان أصحابنا بعضهم يقولون بالجبر وبعضهم يقولون بالاستطاعة؟. فقال عليه السلام: (أكتب: قال الله تبارك وتعالى: يا بني آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء ما تشاء، وبقوتي أديت الي فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعا بصيرا قويا، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أني أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك. وذلك أني لا أُسئل عما أعمل وهم يسألون[2]).

وفي حديث آخر عن الحسين بن علي عليهما السلام: سمعت أبي علي ابن ابي طالب عليه السلام يقول: (الأعمال على ثلاثة أحوال: فرائض، وفضائل، ومعاصي. فأما الفرائض فبأمر الله تعالى وبرضا الله وبقضائه وتقديره ومشيئته وعلمه. وأما الفضائل فليست بأمر الله ولكن برضى الله وبقضاء الله وبقدر الله وبمشيئة

---

1 - بحار الانوار ،ج5،ص29،ح35 .

2 - فقه الرضا، ص349 ،ب93 ، القدر و المنزلة بين المنزلتين .

الله وبعلم الله. وأما المعاصي فليست بأمر الله ولكن بقضاء وبقدر الله وبمشيئة الله وبعلمه، ثم يعاقب عليها[1]).

(تقدير الله يعني: تحديده للأشياء.. وقضائه: تهيئة الوجود للأشياء.. ومشيئة الله .. نعمته بهذا الاعطاء أولا.. وعلم الله: انه كان يعلم منذ الأزل) هذا وان واحدا من هذه لا يخالف الاختيار إذ ان الله شاء ان يكون العبد مختارا ثم قدر، وقضى ذلك بإعطائه الاستطاعة فكان صدور الفعل منه بالاختيار وبقضاء من الله يعني: ان الله لم يمنعه بل اذن له في ذلك. فلو انه كان يسلب القدرة في اللحظة الأخيرة لم يتمكن من الفعل أبدا ولكنه لم يفعل.

وبصورة موجزة ان للقدر ثلاثة معانٍ:

1- ان الله عالم من الأزل بما هو كائن.

2- ان الله كتب ما يجري في اللوح المحفوظ وله تبديله متى شاء وهو المعبر عنه (بالبداء).

3- ان كل شيء يقع في الأرض أو السماء، فإنه يقع تحت سلطان الله، وبما يعطي الله العباد من القوة والقدرة لحظة بعد أخرى.

ومن الواضح ان أيا من هذه لا تؤثر في اختيار العبد، إذ ان العلم تابع لما يقع، وان اللوح – وهو نوع آخر من العلم - فيه البداء. وأما ان كل شيء من الله فلا يؤثر في ان يكون العبد مختارا بتلك القدرة الموهوبة التي أعطاها الله له.

---

1 - بحار الانوار ، ج5 ، ص29، ح36 .

الغاية من الخلق

ما هي الغاية من الخلق؟

سؤال يفرض نفسه على الإنسان ليوفق مسيره طبقا للغاية التي جاء من أجلها.. الغاية ليســـت اللعب والعبث تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . أيلعب أو يعبث الحكيم الذي ملأت آثار حكمته الســموات والأرض؟ وليســت الغاية حاجته إلينا ليدفع ضـــرا أو يجلب نفعا، وهو القادر القاهر الغني المتعال. والواقع انه بتواتر النعم وتوالي الآلاء، وما ســـخر لنا من الشـــمس والقمر والنجم والشـــجر، وما كرمنا به من العقل والقدرة ، وما فضـــلنا به على كثير ممن خلق تفضيلا، بذلك كله نعرف: ان الغاية من خلقنا هي الرحمة بنا ، بيد انه لما نرى ان النعمة في الدار الدنيا تمتزج بالنقمة، وان الراحة يعقبها التعب، وان في العالم ظلما فاحشـــا وفســـادا ظاهرا، نهتدي بذلك الى ان الله لم يجعل هذه الدار التي نعيش فيها دار الرحمة التي لأجلها خلقنا، وان كان قد اسـبغ علينا فيها بالنعم والآلاء.. فلا بد إذاً ان نبحث عن مكان آخر غير الدنيا فيه الراحة الكاملة التي تناســـب وكمال الله ســـبحانه فما هو ذلك المكان؟ انه الآخرة التي وعدنا بها، فالغاية من الخلق الســعادة في الآخرة . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا ريب في ان الدنيا تنطوي على خير وشر، ولا يمكن ان يكون الشر فيها نعمة أيضا، وبما ان الله متعال عن الشــر الذي ينافي الرحمة الواســعة التي لا

حدود لها، فلابد من القول بأن الله تعالى انما جعل الخير والشـــر في الدنيا ليختبرنا بهما، إذ انه كلفنا بأن نختار بحرية أحدهما. والى هذه الحقائق تشير الآيات التالية:

1- [وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ] (الدخان 38) ، [مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ] (الدخان 39).

2- [أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ](المؤمنون115).

3- [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ](الذاريات 56).

4- [.. وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ..] (أي للرحمة).(هود 118-119).

5- [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ اَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً](هود7).

من الآية الأولى يظهر ان الله لم يخلق الخلق لعبا بل خلق السماوات و الارض بالحق ، ويظهر من الآية الثانية انه لم يخلقهم عبثا. فلماذا خلقهم؟ لكي يعبدوه (كما في الآية الثالثة). ولماذا يعبدوه؟ يظهر من الآية الرابعة انها لكي يرحمهم؛ أي ان العبادة انما فرضت لتكون وسيلة لرحمة الله تعالى. وأين يرحمهم؟ ليس في الدنيا لأنهم جاؤوا هنا ليبلوهم أيهم أحسن عملا، (كما في الآية الأخيرة) بل يرحمهم في الآخرة.

وجاء في السنة الشريفة:

قال الراوي سألت الصادق عليه السلام فقلت: له لم خلق الله الخلق؟ فقال(ع): (ان الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقه عبثا ولم يتركهم سدى بل خلقهم:

1- لإظهار قدرته.

2- وليكلفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه.

وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضـــرة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد)[1].

وعن الإمام الحسـين عليه السـلام قال: (أيها الناس! ان الله جل ذكره ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه[2]).

وســـأل أحد الكفار الإمام الصـــادق (ع) فقال: لأي علة خلق الخلق وهو غير محتاج اليهم ولا مضـــطر إلى خلقهم ولا يليق به العبث بنا؟

قال (ع): (خلقهم لإظهار حكمته وإنفاذ علمه وإمضاء تدبيره[3]).

أقوال وردود..

ولدى معرفة هذه الغاية تتوضـــح لنا طائفة من الحقائق التي يسـبب الجهل بها الوقوع في سلسـلة من الشـبهات، وهي شـبهات بناها الماديون لتبرير إنكارهم لوجود الله سـبحانه. ونحن إذ نشـير إلى هذه الشـبهات وردودها نعتمد في التوضـيح على وعي القارئ لما سبق من الحديث المفصل:

1- يقولون: لو كان الله موجودا، وكان قديرا حكيما، فلماذا - إذاً- هذه النكبات وهذه الويلات التي تلف الناس من حين لآخر؟

---

1 - بحار الانوار ،ج5،ص313،ح2 .

2 - المصدر ،ص312،ح1 .

3 - المصدر ،ص317،ح14 .

الجواب: ان الله القدير الحكيم لم يخلق الدنيا الا ليعلم من يصمد أمام نكباتها ومن ينهار.. إذاً فالويلات ضرورية إلى حد ما لفلسفة هذا الكون، ذلك لأن للويلات غايات عديدة وأسباب مختلفة نشير إلى بعضها اختصارا وهي:

ألف: ان الويلات تسبب رجوع الناس إلى ربهم ومعرفتهم به واقترابهم إليه. قال الله تعالى: [فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ](الانعام 42).

وليس من ريب في ان العودة إلى الله توجب خيرا كثيرا.

باء: انها تكفِّر عنهم بعض ذنوبهم، أو تكون معاقبة من الله على تلك الذنوب، ذلك لأن طائفة من المعاصي يلقى فاعلها العقاب العاجل، ومن هذا النوع كان العذاب الذي لف قوم عاد وثمود وأصحاب الأيكة وما أشبه.

جيم: ان الله بها يرفع درجات الصالحين من عباده.

ففي الحديث: ان للحسين (ع) درجة لم يكن ينالها الا بالشهادة.

دال: ان الكوارث تعمل على التمييز بين المؤمن والكافر.

قال سبحانه: [الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ](العنكبوت 1-3).

2- ويقولون: قد نرى في حوادث الكون انها تصيب أناسا لا يستحقون أي جزاء سيء، فما سبب ذلك؟

الجواب: ان هؤلاء الناس سوف يضاعف لهم الأجر في الآخرة، فإن الله ليس بظلام للعبيد.

3- ويقولون: ان هناك طائفة من الجبابرة والطغاة يسلطون على رقاب الناس ويهلكون الحرث والنسل فلماذا لا يعذبهم الله؟

الجواب: في الوقت الذي قد يكون تسلط هؤلاء بسبب أعمال الناس أنفسهم كما ورد في الحديث: [كما تكونون يُولّى عليكم[1]].. في الوقت ذاته فإن سبب بقاء هؤلاء ليس لكي يزدادوا ثوابا إذ لا ثواب لهم بل يزدادوا إثما ويزداد المظلومون أجرا في يوم القيامة.

4- ويقولون: لماذا لا يهدي الله الناس جميعا؟ ولماذا ترك بعض الناس يفسدون ويقترفون المعاصي الكبيرة؟ فهل يعني ذلك ان الله راض بالمعاصي أو هو عاجز عن هدايتهم؟

الجواب: تعالى الرب الحكيم عن ان يرضى بالقبيح أو يعجز عن ردعه، وانما الله أراد ان يجعل الدنيا دار بلاء وامتحان وقد ترك الناس يختارون ما يشاؤون حتى يختاروا طريقهم بأنفسهم ويحصلوا على الجزاء المناسب، ومجرد هذا الاختيار المخول إليهم كرامة لا تقدر.

5- و يقولون: لماذا نرى المؤمنين الصادقين أكثر الناس بلاء وأضيقهم عيشا وأشدهم عناء مع أنهم متصلون بالرب العظيم وهو قادر رحيم فلماذا لا يراعيهم؟

الجواب: ان الله لم يجعل الدنيا للمؤمنين الا مزرعة مباركة للآخرة، ولذلك فإن نفوسهم رغبت عنها وزهدت فيها، وليسوا – كما زُعِمَ- أضيق الناس عيشا بل العكس صحيح.

---

1 - كنز العمال. الخبر 14979 .

وبصـــورة مجملة: الشـــبهة نابعة من اعتبار الدنيا دار راحة ومنزلة قرار بينما هي دار بلاء وامتحان وانها مجرد جســر نحو الآخرة.

وفي الحديث عن النبي (ص) : (الدنيا مزرعة الآخرة)[1].

فطوبى لمن فهم ذلك.. واتخذها طريقا.. ولم يتخذها قرارا..

1 - عوالي اللآلي،ج1 ،ص267 .

القسم الثالث:

الانسان والمجتمع

النظريات المادية والانسان و المجتمع
الإسلام والإنسان والمجتمع
ميزات النظام الإسلامي

القسم الثالث: الانسان المجتمع

البحث الاول:

النظريات المادية
و الانسان و المجتمع

كلمة في البدء
آراء و ملاحظات

كلمة في البدء

بعد ما طفنا حول الفكر الإســـلامي ابتداء من نظرته إلى العقل والعلم، ومرورا بالفلســفة العامة، وانتهاء بالعقائد الإســلامية كان لابد من حديث موجز عن الإنسان والمجتمع في الفكر الإسلامي.. لكي نحصـــل على النظرة الإســـلامية الشــاملة في الحضـــارة الإنســانية، ولكي نطلع على مدى الانســجام بين الركائز الفكرية والتشريعات العملية في البناء الحضاري للإسلام.

ونبدأ الحديث باســتعراض الحلول العامة التي وضــعت حتى الآن للمشــكلة الاجتماعية، ثم نقوم ببحث النظريات المادية، الواحدة تلو الأخرى، وما تنطوي عليه تلك النظريات من أخطاء ثم نســتعرض الخطوط العامة للفكر الإســلامي. ونختم الحديث ببيان مقتضب حول ميزات التشريع الإسلامي، والله المسدد.

ماذا تعني المشكلة الاجتماعية؟

لقد خلق الإنســان حضــاريا يتطلع إلى آفاق أبعد من إشـــباع الحاجات الضرورية كما في سائر الاحياء.. وقد اكتشف ان تحقيق تطلعه البعيد لا يمكن بدون تشكيل مجتمع يسوده التعاون.

ونبعت المشــكلة من هنا. فما هو المجتمع المتعاون؟.. ليس من شـك في ان الظلم عقبة تعترض طريق التعاون، ولكن كيف يمكن القضاء على الظلم الاجتماعي وكيف يحل العدل مكانه؟

للإجابة على هذا السؤال كان لابد ان يحدد بدقة: ما هو الظلم؟ بل ما هو العدل؟.. فجاء الجواب: العدل اعطاء الحقوق وافية ولكن استمر الغموض أيضا، وجاء سؤال آخر: ما هي الحقوق وكيف يمكن الوفاء بها؟ ما هو حق الفرد على المجتمع؟ وما هو حق المجتمع على الفرد؟ وبأي الحقين نضحي لدى تعارضهما؟ وما هي الدولة الصالحة التي تقوم باداء الحقوق؟

وكان من الطبيعي ان يتصل الموضوع مباشرة بمعرفة واقع الحق ثم بمعرفة واقع صاحب الحق. فمن هو الانسان؟ ما هي حقيقته؟ ما هي حاجاته؟ ما هي حقوقه؟

وما هو المجتمع؟ ما هي حقيقته، فحاجاته، فحقوقه؟

والنظرية الفكرية التي تجيب على هذه الأسئلة بدليل علمي أو فلسفي تسمى بالفلسفة الاجتماعية أو الفلسفة العملية.. أما الإجابات الجانبية التي تقوم على أساسها فإنها تسمى بالنظام الاجتماعي.

وجملة المسائل الغامضة التي تشكل مواضيع هذه الاجابات هي المشكلة الاجتماعية.إذاً:

1- الفلسفة العملية= نظريات حول حقيقة الإنسان والمجتمع.

2- النظام الاجتماعي= الأحكام الواضحة التي تستنبط من تلك النظرية.

3- المشكلة الاجتماعية= البحث عن إجابة صحيحة لهذا السؤال: كيف يمكن ان يصنع الإنسان حضارته؟

فالمشكلة الاجتماعية تعتبر الموضوع الأول للفلسفة العملية ثم يأتي دور النظام الاجتماعي. إذ نحن – في البدء - نطرح السؤال عن الطريقة التي يمكن ان يصنع الإنسان بها حضارته؟ وفي

الإجابة عن هذا السؤال نحاول أولا: وضع نظام اجتماعي. إلا ان المحاولة تبوء بالفشل لعلاقة الموضوع بالبحث عن حقيقة الإنسان والمجتمع فنضطر أخيرا إلى معرفة الفلسفة العملية التي تعالج حقيقة الإنسان والمجتمع.

النظام الاجتماعي

بعد ان طاف البشر تطوافا مرهقا حول النظام الأصلح للمجتمع انتهى إلى نظامين رئيسيين نابعين من مفهومين متعاكسين:

1- التسليم لله، وتقبل تشريعه كاملا. وهذا هو النظام الإسلامي في صيغته الأخيرة المتمثلة في دين النبي محمد (ص).

2- الاستبداد بوضع النظام لنفسه، وهو ينقسم تبعا لافتقاد البشر المقياس الدقيق لمعرفة الصحيح عن الباطل، ينقسم إلى نوعين:

أ- النظام الفردي الرأسمالي.

ب- النظام الجماعي الشيوعي.

وبالرغم من ان الإنسان اضطر إلى تعديل كلا النظامين المتطرفين ذات اليمين وذات اليسار، تعديلا جعلهما يقتربان نوعا ما إلى النظام الإسلامي.. فإن الإنسان العصري لا يزال يسرح خياله في متاهة الجهل، ويعتقد بأن الشيوعية أو الرأسمالية المتطرفة أصلح الأنظمة التي تسير بحضارة الإنسان قدما إلى الكمال.

ومن هنا فإنه لا تزال توجد فكرة تنادي بسلب حقوق الفرد بصورة تامة ودفع المجتمع إلى مستوى الإله المعبود.. وتقابلها فكرة متطرفة تنادي بوجوب إعطاء الفرد كامل حريته وجعله إلاها من دون المجتمع.

ونحن إذ نتحدث عن النظريتين المتقابلتين نحاول تجريدهما عن التعديلات العملية التي طرأت عليهما اضطراراً وبعد ان فشلا في حقل التطبيق الخارجي.

النظام الرأسمالي

يرتكز هذا النظام على فلسفة عامة تقول: ان تصارع الأفكار والمصالح يظهر على المسرح أفضل ما ينتجه الإنسان!

ويلزم على النظام الاجتماعي ان يهيء ظروف هذا التصارع كأفضل ما يكون، وذلك بفسح المجال لأكبر قدر ممكن من الحريات الفردية لتكون وسيلة مشجعة للإنسان تبعثه لإبداع أفضل الأفكار والقيام بأحسن الأعمال.

والحريات تتلخص في أربعة أقسام هي: السياسية والاقتصادية والفكرية والشخصية.

فالحرية السياسية تعني إفساح المجال لكل فرد على ان يقرر مصيره السياسي بنفسه عن طريق اعطائه حق التصويت والمحافظة على هذا الحق.. وينشأ من هذا الحق: التنافس الحر على السلطة، ويكون أقدر الناس على السياسة هو المنتخب النهائي للمجتمع.

والحرية الاقتصادية تدفع بكل فرد إلى خوض صراع حر على العمل، وينشأ من هذا ان كل فرد يضع كل طاقاته الممكنة في المعركة، وبهذا يحصل المجتمع على أكبر قدر ممكن من طاقات أفراده الانتاجية.

هذا من ناحية التنمية الاقتصادية. وأما من ناحية الاقتصاد السياسي فإن الحرية تحفز بكل فرد إلى اختيار مصالحه الخاصة،

وهذا الحافز يحفظ التوازن الاقتصادي للبلاد؛ فمثلا: تبقى هناك نسبة معينة بين دخل الفرد ومستوى معيشته، إذ مجرد ان ينخفض دخل الفرد أو يرتفع مستوى معيشته حتى يطالب بازدياد الأجور وهو بدوره يقضي بتعديل الأسعار.

والحرية الفكرية تعني ان لكل شخص حقا في التمسك بعقائد وآراء معينة تروق له ولا يحق لغيره منعه من الالتزام بتلك الآراء. ومن الحرية الفكرية تنبثق الحرية الدينية وهي تقضي بتعديل الأفكار التي تنتشر في المجتمع بسبب التصارع بينها واختيار الجمهور لها.

والحرية الشخصية، تعطي لكل فرد الحق في التزام سلوك يختاره دون ان يكون لأحد الحق في منعه عنه.. وهذه الحرية تعين أيضا أفضل أقسام السلوك عن طريق اختيار أكثرية الناس له؛ فمثلا: الزي المناسب الجميل يختاره المجتمع بعد تقارن الأزياء المختلفة التي تختارها كل فئة فتستقر الأكثرية على أنواع معينة من الزي.

نقد الرأسمالية

ان الرأسمالية لم تعد اليوم تلك الجنة التي وعد بها البشر منذ قرون طوال، إذ منيت بنكبات مريرة، والتي كان من أهمها تمخض الشيوعية عنها كرد فعل عنيف لنظام النفاق والتنافس المرهق. وتتلخص نقاط ضعف الرأسمالية فيما يلي:

1- انها نظام مادي ينطلق من مبدأ الاستبداد بالحكم من دون الله وهو لذلك ينطوي على أخطاء ضخمة لا يمكنه التملص منها،

لأن البشر مهما أوتي من علم وقدرة وأخلاق فإنه لن يبلغ مستوى دين الله الذي يشع علما وقداسة وقوة.

وقد تقدم في فلسفة الرسالة، ما يدعونا إلى الأخذ بالإسلام جملة وتفصيلا.

2- الرأسمالية مادية لأنها تجعل القيمة التامة للمصلحة، وتقيِّم الحقائق الأخرى من دين وأخلاق وفق ما تنطوي عليها من تلك القيمة؛ قيمة المصلحة الذاتية. وهذا التقييم المطلق للمصلحةالذاتية يشكل جذر الأخطاء في النظام الرأسمالي.

3- كانت الرأسمالية مادية مرة ثالثة حين شرعت نظمها بعيداً عن التفكير في الحياة بعد الموت، تلك الحياة التي لو كانت واقعية وهي كذلك، لكانت أسمى من هذه الحياة. فينبغي ان يجند الإنسان بعض طاقاته لا أقل لتلك الحياة ويعمل وفق معطياتها. هكذا تنطلق الرأسمالية من منطلق مادي سواء آمنت بذلك أو رفضت الاعتراف به كسبا للمزيد من الأنصار.

4- بانطلاق الرأسمالية من العقلية النفعية وتأليهها المصلحة الذاتية، قضت على أية قيمة للأخلاق، ذلك لأن من انحصر تفكيره ضمن نطاق ضيق من المصلحة لا يستشرف ليرى جمال القيم الخلقية وروعتها. ولذلك نلاحظ ان الرجل الرأسمالي يعيش بعيداً كل البعد عن المناقبية السلوكية ولا ينظر إلى الحياة الا من زاوية المصالح الخاصة. وفي تاريخ الاستعمار والعنصرية نقرأ ألف مأساة ومأساة استلهمت من الذاتية الغربية.

وبالرغم من ان الوعي الشديد بسبل الانتفاع يهدي الإنسان إلى تعديل سلوكه وفرض بضعة قيم خلقية على نفسه، فإنها لا تعدو

ان تكون متواضـعة ومجتثة الجذور. ذلك ان صـاحب المصـلحة قليلا ما ينظر بعيدا ، ولئن نظر فقليلا ما يعتقد ان في مصـــلحته الالتزام بالأخلاق ولأن التزم فســرعان ما يتركها حينما تعارض مصالحه.

5- الرأسـمالية إذ تنطلق من المصـلحة في كل مناحي الحياة ، فإنها تعطي الحق للأكثرية في وضـــع النظم الصـــالحة لها وان كانت تضار مصالح الأقلية. فالمصلحة انما هي مصلحة الأكثرية، أما الأقلية فإنها ســـتعيش طبيعيا تحت رحمة الحكم ما دامت لا تملك ضمانا من الأكثرية برعاية شؤونها.

ولقد كانت الشـريعة الإسـلامية واعية لمأسـاة الأقلية فلم تجعل المصـــلحة ولا مصـــلحة الأكثرية هي القيمة النهائية للنظام، بل الحق والحق وحده كانت القيمة الأساس.

6- القضية المأساوية العظمى التي تورط فيها النظام الرأسمالي كـانـت عودة الأكثريـة أقليـة حـاكمـة، إذ مـا أن أطلقت الحريـة الاقتصادية حتى تكتلت الأدمغة البشرية الواعية ومضت قدما في تحقيق مصـــالحها الذاتية، وأحرزت لنفســها ثروة طائلة. والثروة كل شــيء بالنسـبة إلى أمة المصــالح التي تسـودها العقلية النفعية بصورة كاملة. ولهذا فقد أمست الثروة الطائلة التي كدستها الأقلية هي ســيدة الموقف تماما.. إذ قامت الأقلية الثرية اعتمادا على ثروتها الطائلة وحفاظا عليها، قامت بضـــرب مواقع القوة التي كانت تهدد مصالحها. فالقوى السياسية لم تكن قادرة على الصمود بعيدا عن الثروة. وهكذا غزيت الأحزاب السياسية في عقر دارها، بإشتراء ضمائر سادتها وكذلك تنازلت السياسة للاقتصاد بصورة

كاملة. وتنازل الاقتصاد للصفوة الثرية، فكانت هي دون الأكثرية، الحاكمة المطلقة الا انها غطت حاكميتها تحت غطاء واسع من الدعاية. فإذا بالناس يختارون ما توافق مصلحة الأقلية وهم يحسبون انها مصالحهم أنفسهم.

ولقد تسلحت الأقلية هذه باليقظة التامة بحيث كانت تتصدى لكل من أراد ان ينفلت من قبضتها و تقضي عليه قضاء تاما، ولكن بعد ان مزجت السم بالعسل والموت بالأحلام.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن العقلية الاستعمارية وما أعقبت من مآسٍ وويلات وبلبلة وثورات كانت نتيجة حتمية للعقلية النفعية الرأسمالية.

ذلك لان الترابط بين العقليتين انما هو ترابط بين سبب ونتيجة وعلة ومعلول.. ذلك لأن تلك العقلية التي توحي باستثمار الأكثرية في بلدها هي التي تتطلع إلى استغلال البلاد الأخرى. هكذا كانت الرأسمالية جحيم الشعوب في الوقت الذي كانت تدعي انها الجنة الوارفة.

النظام الشيوعي

لقد أحدثت الرأسمالية أزمة حادة في صفوف تلك الأكثرية المحرومة، فبدأت تشعر بالسم في العسل، والموت في الأحلام، فتسلحت بنظرية الصراع الطبقي والتفسير الديالكتيكي لأحداث التاريخ وصاغت نظرية (الشيوعية العلمية) التي انبثقت منها كمقدمة وتمهيد، الاشتراكية العلمية.

وانطلقت الشيوعية ووليدتها الاشتراكية من هذا المنطلق.

ما دامت الأقلية الثرية تشـكل بؤرة الفسـاد، فلابد من القضـاء عليها، بل لابد من القضاء على تلك الأجواء المساعدة لنموها.

وبحثت عن البديل فجاء الجواب في البداية بتشكيل حزب يمثل الطبقة المحرومة فيقودها إلى الحرب الباردة فالساخنة ضد الأقلية المستبدة وتبني دولة العمال.. وتستلم الدولة مقاليد الحكم من أولئك المستغلين ريثما تنضج العقلية الشيوعية في المجتمع. فلا حاجة آنئذ إلى الدولة أيضـا فيمكن التخلص نهائيا من الدور السـلبي للثروة.. وكانت خطوط الشيوعية تتلخص فيما يلي:

1- تحديد الملكية الفردية لحسـاب توسـيع الملكية الجماعية وتأميم وسـائل الانتاج والتوزيع كخطوة أولية لإلغاء الملكية الفردية نهائيا.

2- توزيع الدولة للسلع المنتجة حسب القانون الشيوعي العام (من كلٍ حسب قدرته ولكلٍ حسب حاجاته).

3- تخطيط الدولة لمناهج الاقتصاد العامة.

وينطوي النظام الشـيوعي وما يتبعه على خطأ جذري هو: النظرة السطحية إلى مشكلة الثروة.

فمشكلة الثروة ليست مشكلة أناس بأسمائهم وصفاتهم ، وليست مشكلة أشخاص بمؤسساتهم، انما هي أعمق من ذلك وأشمل. المشـكلة هي ان البشـرية حينما نظرت إلى نفسـها نظرة مادية ضيقة تورطت في سلسلة لا تنتهي من المشاكل. فما دامت الحياة المادية هي كل شيء، فعلى كل فرد ان يحصل فيها على أكبر قدر ممكن من المتع الذاتية.

ولذلك فإن أي فرد يعطى له الحق في التصـــرف بدون رقابة خارجية فإنه سوف يقيم مصالحه على حساب المصالح الاجتماعية بصــورة طبيعية.. ولا فرق بين ان يكون إسـم هذا الشـخص زيد وتكون صـفته رئيس شـركة كبيرة، أو يكون اسـمه عمر وتكون صـــفته رئيس دولة كبيرة. وحتى لو افترضـــنا جدلا انه يبتغي الاصـلاح وتقديم المصـلحة العامة فإنه لا يسـتطيع ان يراعي الا مصلحة طائفة معينة هي طائفته التي كانت وراء سيادته، كالحزب في دولة العمال ومصـالح الرأسـماليين في الدولة الرأسـمالية. فلو لاحظ رئيس الدولة ان الحزب أصـبح بيوقراطيا وجائرا فليس من المعقول ان يتمكن من ضـــربه أو تحديده. إذ هو الذي يســـيره ويدعمه، وضـــربه يعني الانتحار. وهكذا لا تتمكن الدولة الرأسمالية من تحديد الرأسمالي لانه هو الذي يدعمها وينصرها. فما دامت المشكلة قائمة وهي نابعة من نظرة الشخص المادية إلى الحياة، فإن الخطأ موجود. والفرق ان الأكثرية كانت خاضـعة في الرأسمالية لحكم الأقلية المستغلة بأسماء مستعارة وبطرق ملتوية، وكانت تلك ترائي لها انها حامية مصالحها، وتمزج السم بالعسل.. ولكن الأكثرية في الشـيوعية تخضـع للأقلية الحاكمة تحت اسـم معين وبطريق مباشـــر ولا تحتاج هذه الأقلية إلى تبرير حكمها بدليل ولا خسارة بضعة دنانير في العسل لتمزج به السم ذلك لأنها ستُجبر الأكثرية على اجتراع السم قهرا.

ان تجربة أكثر من نصـــف قرن من قيادة الحزب الشـــيوعي لطائفة من دول العالم أظهرت بوضـوح عدم قدرة الشـيوعية على كشف جذر الخطأ، وهو الذي يتلخص في المفهوم المادي للحياة.

ومن هنا فإن النظام الإســـلامي اســـتطاع ان يقضـــي على الاســتغلال، ليس بتبديل شـخص المسـتغل من زيد إلى عمر، ولا تبديل صفته من رئيس شركة إلى رئيس دولة أو رئيس حزب، بل بتبديل النظرة المادية إلى نظرة معنوية. وحين بنت الفلســـفة الإسـلامية بناءها على أسـاس معنوي - مناقبي واسـتطاعت بناء طليعة مناقبية تفضـــل مصـــالح المجتمع على مصـــالحها الذاتية، أوحت إلى الناس ان اتبعوا هؤلاء، وأعطت بيدهم القدرة على تحديد نشاط الأثرياء ومنعهم عن الاستغلال وعن الفساد ثم أعطت للناس كلهم الحرية الكاملة.. هذه هي خطوط النظام الإســـلامي والتي تتلخص في نقاط:

1- الإسلام يغير الإنسان المادي إلى الإنسان المعنوي بفلسفته العامة والصائبة عن الكون.

2- الإســـلام يبدل مقياس الانتخاب والقيادة من مقياس راعي المصـــالح الطبيعية إلى راعي الحق والعدالة الاجتماعية بالنســبة إلى كل إنسان يعيش على الكوكب.

3- حينما يقوم أســـاس الدين على النظرة المعنوية و الروحية فإن فريقا من الناس ينمون في هذا الحقل فيكونون هم طليعة الأمة وقادتها.

4- يحدد الإسلام المصـالح الشـخصـية بالحق والعدل ثم يطلق الحريات.

هذه هي الخطوط العامة للنظم الاجتماعية الثلاثة، وهي تعتمد على الآراء الفلسفية المتفاوتة في حقل الإنسان والمجتمع وهذا ما نود بيانه فيما يلي بإذن الله.

آراء وملاحظات

الحديث عن واقع الإنسان والمجتمع يتناول أعمال الإنسان الاختيارية.. كيف يجب ان تكون لكي تضمن له السعادة والرفاه؟ كما يتناول البحث في جوانب مختلفة من حياة البشر، هي:

1 - الاجتماع؛ ويبحث عما يرتبط بالمعاشرة مع الآخرين والذي ينبثق منه (علم الاجتماع).

2- الأخلاق؛ ويبحث عما هو أفضل أنواع السلوك.

3- الاقتصاد؛ ويبحث عن وسائل العيش وكيف يوفر الإنسان لنفسه حاجياته بصورة أفضل وجهد أقل.

4- السياسة؛ وتبحث عن الحقوق والواجبات وانه كيف يحفظ الناس أنفسهم من تعدي بعضهم على بعض، وهي تكون بين أفراد أمة واحدة وتسمى بـ(بالحقوق المدنية)، وقد تكون بين أمم مختلفة وتسمى بـ(الحقوق الدولية).

ونحن نتعرض هنا للآراء والنظريات التي قدمها فلاسفة قدماء ومحدثون، ونكشف عن نقاط الضعف فيها، تمهيدا للبحث عن موجز فلسفة الإسلام حول الإنسان والمجتمع.

أرسطو*

(384-322 ق.م.)

1- الاجتماع:

الإنسـان مدني بطبيعته، ولابد لأفراد البشـر من العيش معا حتى يتعاون بعضـهم مع بعض، ويتقاسموا الأعمال بينهم فينالوا السعادة التي هي الغـايـة المتوخـاة من الحيـاة. وتنـدلع الثورات الاجتمـاعيـة (عند أرســطو) عندما ينعدم التســاوي بين الناس في الحقوق، ولا تراعى الكفاءة في توزيع الأعمال والثروات والوظائف مما يحمل على إشاعة السخط بين المقهورين فيثورون على الأوضـاع. ولذلك فلابد من تشـريع قوانين ونظم تحفظ للناس حقوقهم حسـب كفاءاتهم وأعمالهم.

2- الاقتصاد:

يعتقد أرســطو انه لابد من تقرير الملكية الفردية، ذلك لأنها ان ألغيت وبدلت بالاشـتراكية، سـوف يحسـب كل فرد انه يعمل أكثر من غيره ويحصل على ثروة أقل فيسخط على الوضع ويثور!

---

*- ان كان للفيلســوف رأي في أحد أقســام الفلســفة العملية الأربع أثبتناه.. والا تركنا التعرض لذلك القسم رأسـا. وغير خاف على القارئ ان تقسـيم آراء الفلاسـفة إلى آراء اجتماعية واقتصـادية وأخلاقية وسياسـية، لم يكن بالعملية السـهلة نظرا لعدم وجود هذا التقســيم في أقوالهم. بيد ان هذا التقســيم يســهل على القارئ، ولاشــك، فهم النظرية ومقارنتها مع الإسلام.

3- الاخلاق:

ولابد لتقرير الصـــلاح النهائي للمجتمع من تحســـين التربية العامة، ولابد من الأسرة لتنشئة الفرد الطيب الذي يتعلم من أبويه (المجربين الرشيدين) تعاليم الحياة.

ويعتقد ان للنفس الإنســـانية جانبين: عقلي ونباتي. ولابد للوصـــول إلى الســـعادة من توجيه النباتي بالعقلي، واكتســـاب الفضائل بذلك.

والفضيلة هي مراعاة التعادل في الأمور، فمثلا: الشجاعة هي الوســـط بين التهور والجبن، والتواضـــع هو الوســـط بين التكبر والتملق، وهكذا.

4- السياسة:

تتنوع الحكومات – عند أرسطو – بثلاثة أنواع:

أ- الحكومة العامة (الجمهورية الديموقراطية) وفيها يشـــترك الجميع في الرأي، ويفصـــلون النزاع بإتخاذ رأي الأكثرية، ولابد فيها من تقرير العدالة والمساواة بين جميع الأفراد.

ب- حكومة الأعيان (الارســـتقراطية) حيث يتغلب على الحكم طائفة من الأقوياء النبهاء وينتحلون لأنفسهم الرتب المفتعلة.

3- الحكومة الوراثية (الملكية): حيث يتســـلط على الناس رجل قوي ثم يجعل الملك إرثا في عقبه.

ولا يفرق أرسـطو بين هذه الأوضـاع ولا يرى وجود ضـمان في أحدها مفتقد في الآخر، بل يقول: ان هذه الأقســـام الثلاثة ان عملت على الاصـلاح والكفاءة والمسـؤولية ورعاية القانون كانت صـالحة. أما إذا كانت تتبع الأهواء والمصـالح فإنها تكون فاسـدة.

ويقول – في بيان نقطة الضـــعف في هذه الأقســـام -: ان الظلم والاســتبداد يســودان المجتمع في القســمين الأخيرين بينما يشــيع المكر وتغرير الجماهير في القسم الأول.

الملاحظات:

نظريات أرســـطو التي كانت ســـائدة أكثر من ألفي عام على الأوســـاط العلمية في العالم، قريبة نوعا ما إلى الحقيقة ولكنها تتميز بالضعف من جهتين:

الأولى: انها لم تذكر الا الكليات العامة والمشـــكلة انما هي في تفاصيلها.

الثانية: انها في حين ســكتت عن الحكومة التي تضــمن ســعادة الناس، لم تحدد الملكية الفردية ولم تبين مَن سـوف يكون المشـرع الذي لا يتبع أهواءه ولا يضل بجهالته وكيف نضمن ذلك؟

لوك

(1632 – 1704 م)

1- الاجتماع:

يعتقد جون لوك ان الحالة الطبيعية للإنســـان ليســـت العداوة والبغضـــاء والحقد والحسـد (كما يزعم بعض الناس) بل ان حالته الأولية تقتضـي سيطرة كل فرد على نفسـه، ذلك لأن أفراد البشـر كلهم أحرار مختارون ومتســـاوون.. إذاً فليس لأحد الا الســـيطرة على نفسه والسيطرة على ماله ناشئة من حقه هذا.

2- الاقتصاد:

بما ان المال من عمل الإنســـان فله الحق في التصـــرف فيه بحريته (الملكية الفردية)، وحق الحياة ناشـىء من العمل أيضـا كما ان حق التصـرف في المال هو الآخر ناشــىء من هذا الحق ولكنه مشروط بأمرين:

الأول: ان لا يدع المالك ماله عاطلا.

الثــاني: ان لا يحرم الآخرين من حقوقهم ولا يعتــدي على ممتلكاتهم، ولابد أن يحفظ في ذلك، طريق الاعتدال.

3- الأخلاق:

وليس لجون لوك آراء تذكر في الأخلاق.

4- السياسة:

يعتقد لوك: ان سيطرة الدولة على الشعب ليست الا من جهة التباني والمواضعة؛ يعني ان الناس كانوا – أول الأمر- أحرارا ، وبما ان حرية بعضهم كانت تزاحم حريات الآخرين وتسلب منهم الراحة والأمن، تنازل كل منهم عن بعض حريته في مقابل تنازل الآخرين له عن بعض حرياتهم.

ومن هنا نشأت السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويقول في كتابه (الحكومة المدنية): ان وظيفة القوة المدنية والسياسية إقرار العدالة، إذ ان الإنسان يدخل الحياة ليعيش بحرية، وأما الملك (أو أية سلطة سياسية أخرى) فإنه يكسب قوته من الشعب وليس الا وكيلا عنه، فإذا استغل الملك تلك القوة التي أعطاها ليحيد عن الصالح العام، فللشعب الحق في الثورة عليه وخلع طاعته عن نفسه.

الملاحظات:

مع ان آراء لوك تحتل الصدارة في الفلسفة الأوروبية، وكانت هي السائدة في القرن الثامن عشر فإنها لا تخلو من نقاط ضعف نشير إلى بعضها:

1- انها ناقصة من جهات شتى.

2- ان النزوع إلى الشر أمر طبيعي في الإنسان بجانب حبه للخير، كما سيأتي الحديث عنه.

3- ان الحكومة لا يمكن ان تكون مواضعة من قبل كل الناس. إذ ان المخالف للحكومة وان كان غير راض فإنه لا يسمح له

الخروج على القانون. ولذلك نعرف ان النزعة الفردية التي تبدو ظاهرة في فلسفة لوك تشكل بؤرة الأخطاء، وسوف يأتي التفصيل في ذلك.

منتسكيو

(1689 – 1755 م)

لم يكن منتسكيو يرى الثورة المفاجئة بصالحة للحياة، بل كان يعتقد ان الاصلاح لابد ان يكون بالتدرج.

1- الاجتماع:

ان الإنسان خلق مدنيا ولابد له من التعايش مع نظرائه في الخلق، ولابد له لكي يسعد في تعايشه هذا من ان يكون حرا مطمئنا، فلا مناص من ان يشرع قانونا في تنظيم العلاقات التي تربط الناس بعضهم ببعض بحيث انه لو عاش قوم بدون قانون ينفذ عليهم لسلبت عنهم الحرية والأمن والطمأنينة.

فأهم الأشياء للإنسان هو القانون وأحسن القوانين ما يضمن للناس أوسع ما تجيزه المصلحة العامة من الحرية.

ويعتقد: ان هناك قوانين طبيعية لابد ان نتعرف عليها ثم نستعمل عقولنا في تعيين الظروف الملائمة لتطبيقها.. ويقول: العدل حسن والظلم قبيح، الحرية خير من العبودية والعلم أفضل من الجهل. ولكن هذه أمور عامة وليست بقوانين، إذ لابد في وضع القوانين من مراعاة الظروف من جهة القومية والمناخ والأخلاق والآداب والتقاليد والعقائد والاستعداد الطبيعي لكل بلد.

فلابد إذاً في وضـــع القوانين من مراعاة الأصـــول العامة إلى جنب الظروف الخاصة.

2- الاقتصاد:

يرى منتسـكيو في الاقتصـاد: لابد ان يُعطي كل فرد قدرا من ماله (ضـــريبة) ليحفظ له ســـائر أمواله، ولابد ان تراعي الدولة حاجاتها الحقيقية، ولا تضـــع الضـــرائب حســـب الأهواء.. وعلى الدولة ان تهيء فرص العمل للشعب كافة..

3- السياسة:

الحكومات في نظر منتسكيو على ثلاثة أقسام:

1- الحكومة الجمهورية؛ التي تعطي لكل الأمة أو بعضها الحق في السلطة.

2- الحكومة الملكية الدســتورية؛ وفيها يحكم البلد الملك بعد ان يستشير نواب الشعب.

3- الحكومة الملكية غير الدســـتورية؛ حيث يعمل الملك وفق أهوائه الخاصة.

في الحكومة الجمهورية؛ ان كانت تحكم من قبل كل الشـــعب كانت ديمقراطية وان كانت تدار من قبل بعض الشـــعب كانت ارستقراطية (حكومة الاشراف).

على الحكومة وظائف ثلاث:

تشـــريع النظم (القوة المقننة)، وتطبيقها على الموارد الخاصـــة (القوة القضائية)، وإجرائها (القوة التنفيذية).

ولابد ان تنفصل هذه القوى بعضها عن بعض حتى تتمكن من اتقان عملها باخلاص.

ولابد في الحكومة الجمهورية من ان يكون أفراد الشعب مخلصين لوطنهم والموظفون لمسؤولياتهم، وإلا ساد الفساد الحكم.

ولابد في الحكومة الارستقراطية، ان لا يستغل الأعيان نفوذهم في سبيل مصالحهم الخاصة.

ولابد للملك ان يتبع القانون.. أما إذا استبد برأيه فالحكومة فاسدة من رأس.

الملاحظات:

لم يجعل منتسكيو ضمانا لعدم تسرب الفساد إلى هذه الحكومات من جهة - شأنها شأن حكومة ارسطو وغيره من الحكماء - ومن جهة ثانية لم يعين ضمانا كافيا لصلاح القوانين المشرعة من قبل هيئة التقنين.. في حين ان علمها بقوانين الطبيعة كلها لا ولن يمكن أبدا، إذ قد اعترف العلم الحديث انه لا يمكن ان يحيط أحد اليوم بكل جوانب الإنسان[1]. وبعد ان يعلم فرضا، فما هو الضمان لعدم انحرافه إلى أهوائه أو اهواء سادته؟ (ومن الواضح ان قوانين الدول اليوم تجري طبقا لاهواء الرؤساء).. وما قلناه في السياسة نقوله في الاقتصاد. إذ ان منتسكيو لم يذكر لنا حدا للضرائب، ومن هو الأمين الذي يوكل إليه أمر تعيين قدرها بحيث لا يجحف ولا يعمل بأهوائه الخاصة.

1 - (انظر كتاب الإنسان ذلك المجهول)

روسو

(1712 – 1778 م)

1- الاجتماع:

يعتقد روسو ان جميع المشاكل ناشئة من اجتماع الناس، وان الراحة كل الراحة في الانعزال.

ولكن اعترافا بالأمر الواقع لابد لنا ان نضع قوانين للتقليل من مفاسد الاجتماع.

2- الأخلاق:

أساس الفلسفة عند روسو، حب الطبيعة. ويقول: ان القلب لا يخطئ، وكل مفسدة تنشأ فهي من جهة ان الإنسان لا يستعمل عقله في الأمور الداخلية (أي في توجيه نفسه).

ويعتقد ان حرية الإنسان جاءت من جهة انه يملك إلى جانب شهوات نفسه عقلا موجها يستطيع بتوجيهه ان يعرف خيره. والسعادة الحقيقية للإنسان تكمن في عدم الظلم وان يكون برا بالناس وهذا يكفيه في حقل الأخلاق.

3- السياسة:

وبعد ان اجتمع الناس بعضـــهم إلى بعض (وان كان في ذلك ضررهم)، فلابد ان تقلل من مفاسد الاجتماع بأمرين:

الأول: التربية.

الثاني: الحكومة، التي يجب ان لا تتجاوز إطار بلد واحد. وبما ان الناس كلهم لا يعرفون تشـــريع القوانين فلابد من تعيين من يشـــرع لهم من الخبراء، والناس أحرار من حيث المجموع، وان وجب على كل فرد منهم ان يتبع القانون ولا يخرج عليه.

هابر[1]

(1588 – 1679 م)

1- الاجتماع:

يعتقد هابر ان ما يقوله البعض من أن الإنســـان مدني بالطبع خطأ فاضـح لأن الإنسـان بطبعه عدو الإنسـان**!** وقد اثر عنه قوله (الإنسان للإنسان ذئب).

لا يريد الإنسان شيئا الا لنفسه وهو يحارب الآخرين أبدا.

2- الأخلاق:

وعلى هذا فليس هنـاك محل للأخلاق في قلـب الإنســـان بل الأخلاق تابع للمنافع فقط.

3- السياسة:

1- هناك حكماء آخرون أمثال اكوســت كنت وســبنســر ولكن نظرياتهم تشــبه إلى حد كبيرما سبقت من نظريات الفلاسفة السابقين وليس لديهم جديد، غير ان كانت يعتقد ان للإنســـان عاطفتين: عاطفة (حب الذات) وأخرى (حب الغير) وهذه الأخيرة: هي التي سببت تكوين المجتمع من أسرة فعشيرة فأقوام، كما أنها أصبحت مبدأ الأخلاق كالصدق والتعاون والوفاء.

ويزعم ســبنســر ان المجتمعات البشــرية قســمان: مجتمع صــناعي ومجتمع حربي، والمجتمع الحربي متقدم زمنا على المجتمع الصـــناعي، ويعتقد ان الناس لا يزالون في دور الحرب ولابد لهم من الانتقال إلى دور الصناعة، ويعتقد ان الثورة الاشتراكية انما هي من ظواهر المجتمع الحربي.

وأساس الحكم هو الاستبداد والحكم عن طريق القوة وذلك لأن الناس حيث يحارب بعضـهم بعضـا، لا يستطيعون العيش بسعادة فلابد من تقرير الأمن الذي يعتبر من أهم الضرورات له.

وتقرير الأمن انمـا يمكن بـأن يتنـازل الكـل عن حريـاتهم ويسـلموها بيد رجل واحد يحكمهم بالقوة.. ولا يجوز ان يوضـع لهذا الواحد أي قانون ولا يحدد بأي قيد.

نيتشه

(1844 – 1900 م)

1- الاجتماع:

الإنســان جاء إلى الحياة ليتمتع بما فيها، وكل ما يهيء له طريق التمتع فهو خير (وافق الحق أو خالفه) ، وما يقال عن تســاوي الخلق بعضهم مع بعض خطأ، بل الحق ان في الناس سادة وعبيدا، وعلى العبيد ان يهيئوا وسائل الراحة للسادة.

إذن فالمجتمع الطبقي في أســوء حالاته هو المجتمع الطبيعي الأمثل عند نيتشه.

2- الاقتصاد:

لابد ان يستثمر القوي الضعفاء بأقل ما يمكن، وأن يحاول كل مكار خداع السيطرة على الآخرين في هذا المجال.

3- الأخلاق:

والأخلاق من الضــعف؛ ان الجزء الأعظم من فطرة الإنســان التعدي والظلم، وان الجزء الأقل هو العقل والعاطفة، والجزء الأعظم هو الذي يجب ان يتبع.

ولابد ان يمارس الإنســان كل نوع من أنواع الإجرام ليعيش في رفاه وسعادة.

4- السياسة:

وعلى هذا الأساس فالسياسة تقوم على خدمة الأقوياء وسحق الضــعفاء وكل ما هناك من الدين والأخلاق فإنما هو وســيلة للسيطرة على المستضعفين.

الملاحظات:

حقا ان لم يكن هناك رب، ولم يكن جزاء، ولم يكن العقل أكثر من محصـول أعلى للمادة، ولم يكن هناك حق وباطل وخير وشـر أبديين (كما يقول الماديون) كان ما رأى نيتشـــه هو الحق. (وهذا بالفعل هو الذي تراه الدول الكبرى – عملا – بالنســبة إلى الدول الصغرى).

وليس مـا يفعلـه فريق من المـاديين من التظـاهر بـالعـدالـة الاجتماعية والمساواة وإعانة الضعفاء الا خداع ومكر.

ان أرادت البشــرية ان تعيش في ظل القيم الســامية والعدالة و الحرية والمساواة و حفظ حقوق الضعفاء، وان كانت تريد السعادة الحقة فلا بد لها ان تلوذ إلى حمى الدين والمذهب الحق.

ويســتخدم الإيمان بالله واليوم الآخر وســيلة لتطبيق هذه المثل والا فليس من المعقول ان ينتظر من القـاعدة المـاديـة الا البنـاء المادي المصلحي، الذي لا يرى الفرد بموجبه الا نفسه فقط.

والواقع: ان الخلق الرفيع والعقيدة بـالمذهب الحق توأمـان لا ينفصــلان وكلاهما من نتائج الوجدان النقي.. أليس كل منا يشـعر في واقعه انه يحب العدل والمساواة وينزجر من الظلم والتفاوت؟

أجل ، حتى هابر ونيتشـــه ، حينما ينزلون من برج خرافاتهم إلى سـاحة الواقع لابد لهم من الاعتراف بأن الذي يرحم الضـعفاء

ويلتزم بالوفاء والصـــدق والطهارة أفضـــل من غيره ألف مرة ومرة.

آراء إشتراكية..

خلال القرن التاســع عشــر ظهر في أوروبا بعض من ســموا بالحكماء والفلاسـفة من دون ان يكون لديهم ما يسـتحقون به هذه التسمية.. نادوا بالاصلاح عن طريق الاشتراكية ويذكر من بينهم (فوريه[1]) (وسن سيمون[2]) و(يرودن[3]).

بيد أن نظرياتهم لم تلق رواجا إذ انها لم تكن الامثاليات تافهة تعيش في عالم الخيال ولا يمكن تطبيقها أبدا.

1- كان يرى لزوم تجمع الناس في كوادر صــغيرة (عدد أفرادها 1300 شــخصــا) ويختار كل فرد منهم ما يناسبه من العمل بحريته الشخصية.

2- كان يرى لزوم ابطال الثورات والالتزام بتعيين الدولة العمل للأفراد بمقتضـــى كفاءاتهم، وتعين لهم مقدار معاشهم.

3- كان يعتقد: ان على الناس ان يجتمعوا بحريتهم في مكان ليقسموا بين أنفسهم العمل، ويكون التبادل بالحاجات وليس بالنقد، ولم يكن يرى حاجة إلى الدولة.

ماركس

(1818 – 1883 م)

يعتقد ماركس: ان من الضــــروري على عمال العالم قبل كل شــــيء ان يتحدوا ليشــــكلوا جبهة قوية تحارب رأس المال والرأســـمـاليين في العالم، ويجب ان ينزع العمال الحكم من الرأسـماليين عن طريق العنف الثوري.. ويؤسـسـوا دولة العمال الأممية.

تعتقد الماركســية انها لم تتجاوز أبدا الأصــول العلمية ولذلك فهي أحســن من ســائر المذاهب الاشــتراكية[1] ، وســمت نفســها الاشتراكية العلمية[2].

والماركسية اليوم هي الفهم اللينيني لأفكار ماركس.

كما انها مبنية على المنطق الديالكتيكي (والنظرة المادية) والتي تعتبر روح الاشتراكية العلمية. ولهذا يقول جورج فوليستر – أستاذ في جامعة باريس -: (لا يمكن تفكيك الماركسية واللينينية والمادية الديالكتيكية[3]..).

1- تقول بعض المذاهب الاشـتراكية: لابد ان توزع الثروة حسـب كفاءة الأفراد. ويقول بعضـــها: ان المقياس في التوزيع هو حاجة الفرد لا عمله ولا كفاءاته. ويقول آخر: كل بحسب كفاءته (يستخدم) ولكل بحسب عمله (يؤجر).

2- يقول ماركس: ان الاشـــتراكية لابد لها من يوم تطبق فيه، فإن وافقت البرجوازية على ذلك طبقت الاشـتراكية سـلما وبسـرعة وسـهولة والا طبقت بطرق حربية صـعبة طويلة.

3 - فوليسـتر: ان تأسـيس منطق الديالكتيك أعطى سـلاحا جبارا بيد العامل ليسـتخدمه ضد المستغلين.

* وأهم المباني العلمية التي تنادي بها الماركسية ثلاثة:
1- التفسير المادي للتاريخ.
2- المادية التي تنكر الدين والأخلاق.
3- ديالكتيك المجتمع.

ولابد لنا ان نشـرح هذه القواعد الفكرية لماركس ونذكر عندها النقد الفكري الموجه إليها:

1- المادية:

هي انكــار الروح والخــالق واليوم الآخر والقيم.. (ولا نعود لننتقد هذه الخرافة بعد ان أشبعنا الكلام حولها في الفلسفة النظرية والعقائد).

2- التفسير المادي للتاريخ:

يقول ماركس: ان علة العلل لكل حوادث التاريخ هو العامل الاقتصـــادي، ولذلك فإن كل اتجاهات البشــر تتبع طريقة الانتاج، ويســتدل ماركس على ذلك بالرغم من انه لم يكن مؤرخا ولم يكن عنده علم بالماضي، بأن الإنسان تابع لحاجاته، إذ ليس له روح أو قيم أو دين أو وجدان أدبي، فليس هو إلاّ آلة جميلة تحتاج إلى وقود، إذن فهو تابع لمصلحته.

الملاحظات:

ويقول: ان المادية كانت بمثابة سلاح قوي في يد الحزب الشيوعي الروسي لم يكونوا يستطيعون دحر البرجوازية بدونها..
كما ان التفســـير المادي للتاريخ يكشـــف في عقيدة فوليســـتر عن نوعية التحولات الاجتماعية وينبأ الإنسان بمستقبله في الحياة.

ونحن نستطيع ان نرده من طريقين:

1- اثبات ان الإنســـان يملك روحا وعقلا وشـــعورا بالأخلاق والدين، وان انبثاق الأديان انما كان لحقانيتها. كل ذلك ســـبق الحديث عنه لدى البحث عن الفلسفة والعقائد.

2- ظواهر كثيرة في التاريخ القديم والجديد.. ونكتفي في ذلك بذكر ثلاثة أمثلة:

أ- في العهد اليوناني نجد ظروفا اجتماعية واحدة انتجت أفكارا متناقضـــة. مثلا: في القرن الســـادس قبل الميلاد كان(طالس الملطي) ماديا وكان(فيثاغورس) ميتافيزيقياً. وفي القرن الخامس كان (هرقليط) ديالكتيكيا وكان(كينوقانوس) ميتافيزيقياً.. وفي كل عهد وفي كل البيئات الأغريقية، كان يوجد المتناقض من الأفكار!

ب- الدين الإســلامي جاء في مجتمع بدوي حيث ظهر في مكة المجدبة (ولم يظهر في اليمن الحضــاري) وســاعد الفقراء، وأكد الملكية الفردية.. فكيف يمكن تفســيره بنزاع الطبقات؟ وان كان جاء دعما للفقراء فكيف أكد الملكية الفردية؟ وان كان في صـــالح الأغنياء فكيف ســـاعد الفقراء وســـاعدوه، وعارض الأثرياء وعارضـــوه؟ وان كان من نتائج المناخ فكيف جاء في الحجاز البدوي ولم يأت في اليمن أو الشام الحضاريتين؟

ج- لماذا تراجع الاتحاد الســـوفياتي عن الاشـــتراكية؟ ولماذا اختلف مع الصـــين؟ ولماذا تقدمت بعض الدول في الصـــناعة فلم يحدث فيها انقلاب اشـــتراكي، وتأخر بعض فحدث فيها؟. ولماذا انقلبت اندونيســيا والمجر وتشــيكوســلوفاكيا عن الاشــتراكية؟ ، ولماذا كانت حالة العمال في ألمانيا الغربية أفضـــل من حالهم في ألمانيا الشــرقية؟ كل هذه الظواهر تناقض – لدى التدبّر- التفســير

الجبري والمادي للتاريخ، وهو خلاف كل ما تنبأ به ماركس. والأفضل ان نريح أنفسنا بما قاله الدكتور إقبال في تاريخه (بما ان ماركس لم يكن مؤرخا فإنه لم يستطع ان يكتشف أسباب تقدم الأمم وتأخرها).

3- ديالكتيك المجتمع..

يعتقد ماركس ان ديالكتيك الفكر يأتي بعينه في المجتمع. فالجماعة كالفكر تخضع للقوانين الأربع للديالكتيك بالشرح التالي:

1- أصل التغير والتطور – ليس في العالم ثابت-.

بما ان المجتمع البرجوازي لابد ان يتغير، فهو ينقلب بالضرورة إلى مجتمع اشتراكي[1].

2- أصل التفاعل (كل شيء يؤثر في كل شيء).

والمجتمع يأتي نتيجة للأوضاع التي سبقته. فالمجتمع الاشتراكي وليد المجتمع البرجوازي، وثورة العمال على رأس المال.

3- أصل التناقض (كل شيء يحمل نقيضه في داخله).

فالرأسمالية تحمل في داخلها قوة مضادة، هي الاشتراكية. ذلك لأنها تتركب من (أصحاب الأموال) وهم يشكلون القوة المتسلطة و(العمال) وهم القوة المضادة.

ويقول ماركس: ان تقدم العالم ينشأ من تطاحن القوتين؛ قوة الرأسمال وقوة العمال.

1- يقولون ان التغير في العالم قد تناول المجتمع في حالات أربع: 1- الشيوعية الأولى 2- العبودية والاقطاع 3- الملوك والطوائف، 4- الرأسمالية 5- وأخيرا انتهى إلى نهاية الرأسمالية.

ويقول: (ان نزاع الطبقات ليس وليد المجتمعات المعاصرة انما هو نزاع ازلي منذ فجر التاريخ الإنساني وحتى اليوم المعاصر).

بيد ان هذا النزاع القائم اليوم بين طبقتي البرجوازية والعمال سيكون الأخير، ذلك لأن الاشتراكية سوف تتغلب على البرجوازية فتزول الطبقات رأسا، وبمحوها سيزول منشأ الخلاف والنزاع.

4- التغيير الفجائي؛ (ان التغيير الكمي سوف ينقلب إلى تغيير كيفي كتغير الماء الحار إلى بخار).

والمجتمع تتفاعل فيه القوى المتعارضة وفجأة تشتعل الحرب، وعن طريق استخدام القوة العنيفة سوف تزول قوى البرجوازية ويستبد العمال بالحكم، (وهذا هو ما يقصد به من الاشتراكية الثورية).

الملاحظات:

هذه الأصول الأربعة قد سبق وأن نقدنا بعضها في الفلسفة النظرية ولكن تحميلها عمليا على واقع المجتمع خطأة كبيرة لابد من نقدها، ذلك:

1- لأن العلم الحديث قد اثبت صفات ثابتة للفرد والمجتمع لم تتغير منذ وجوده وحتى اليوم، ولا يمكن تغييرها أبدا (ما دام يبقى الإنسان إنسانا).. ومن جملة الصفات النفسية للفرد: حب الشر، وحب الخير، العاطفة، الحرية الشخصية..

ومن صفات المجتمع التي لا تتغير: تفاعل بعض الأفراد مع بعض (علما بأن اثبات صفة واحدة لا تقبل التغيير يكفي لنسف الفكرة التي تزعم ان كل شيء يتغير).. وإذا ثبتت صفات نفسية لا تتغير في الفرد، والمفروض ان المجتمع ليس الا تجمعا للأفراد، فإن هذه الصفات تثبت بحجم أضخم للمجتمع.

فالمجتمع؛ مركب من أفراد يحبون الخير ويحبون الشــــر ولهم عقل وهوى[1] ، وطائفة من هؤلاء الأفراد يغلب فيهم الخير على الشـر، وطائفة يغلب الشـر فيهم على الخير، فتنقسـم الجماعة إلى طائفتين: طائفة تؤيد الخير وأخرى تؤيد الشـر وهكذا تقوم الحرب الباردة أو الحارة بينهما. وهذا الأمر هو الثابت الذي لم يتغير على طول التاريخ وتدل عليه كافة الظواهر التاريخية.

أما ما قاله ماركس من تطور المجتمع من رأســمالية إلى اشــتراكية، فهو عين الخطأ الذي لا يذهب إليه من له أدنى معرفة بالتاريخ. ومن حقنا ان نتساءل: هل كانت جهود الحزب الشيوعي، ام حتمية التاريخ هي التي انتجت انقلاب روسيا؟ انهم يعرفون ان جهودهم هي التي أثمرت الانقلاب ليس غير.. ثم نتســاءل: لماذا تغيرت الإشــتراكية الأولى في الزمن الأول إلى دور العبادة؟ وكيف انقلبت اندونيسـيا إلى رأسـمالية بعد ان كانت اشـتراكية؟ ثم ان ماركس لم يستند إلى دليل فيما قاله.

2- والتفاعل؛ كلمة حق يريد بها ماركس أمرا باطلا، ذلك لأن حتمية الاشـتراكية بعد البرجوازية لا دليل عليها. إذن أفكار الناس تؤثر بعضـها في بعض ولكن تأثير أفكار الاشـتراكيين دون أفكار الرأسماليين لا دليل عليه إطلاقا.

في حين انا نلاحظ بالوجدان ان من كانت له دعاية واســعة وحزب قوي كانت أفكاره هي السائدة في العالم سواء كانت موافقة للإشتراكية ام لا.. ولذلك فإن الحزب الشيوعي يتقدم في أية منطقة تكون دعايته فيها قوية، ولا يتقدم في منطقة تكون فيها الدعاية الرأسمالية هي القوية.

1- سوف نثبت بإذن الله هذا الواقع عندما نتحدث عن علم النفس والأخلاق الإسلاميين.

3- أمـا التنـاقض الطبقي فليس هنـاك دليـل يبرر تعميمـه على المجتمع، ذلك لأن العمال (الطبقة الضـعيفة) ان رضـيت بشـروط العيش (كما هي الحال في أوروبا) فهي لن تعارض الطبقة القوية أبدا. ورضـاها وليد تحسـين ظروف العمل ومراعاة حقوق العامل. نعم هنـاك تنـاقض[1] بين أفراد المجتمع من جهـة اختلاف نزعـاتهم الفكرية والسـياسـية، فترى فريقا من العمال ينضـمون إلى حزب المحـافظين (في بريطـانيـا مثلا) وفريقـا من أصـــحـاب الأعمـال يدخلون في حزب العمال..

والتناقض كما سـبق ليس الا من جهة ان الناس فريقان أهل حق وأهل باطل.

4- والتغيير الفجائي باطل من أصـله كما بينا ذلك في الفلسـفة النظرية، إذ لا يمكن ان يحدث بدون علة خصـوصـا في المجتمع. إذ من المعلوم ان كل حركة سـياسـية أو إصـلاحية تسـبقها جهود جبارة من بعض الأفراد وتســـاعدها عوامل كثيرة. أما إذا جهل ماركس وأتباعه تلك العوامل فما هو ذنب الواقع؟

1- التنـاقض عند الأوروبيين مطلق التعـادي، وليس بمعنى مقـابلـة الوجود والعدم (كمـا كان مشهورا عن المنطقيين قديما).

القسم الثالث عن الإنسان والمجتمع

<u>البحث الثانى عن:</u>

الإسلام
والإنسان والمجتمع

كلمة في البدء

المجتمع الإسلامي

الاقتصاد الإسلامي

الأخلاق الإسلامية

السياسة الإسلامية

كلمة في البدء

ينبغي ان نبدأ الحديث بعرض موجز لنظرة الإسـلام إلى الإنسان والمجتمع، ثم تفصيلها كاملة ؛ فالاسلام يعتقد بما يلي:

1- ان معرفة واقع البشر وواقع خلقه ومبدأه ومنتهاه ، هي التي تخط طريقه في الحياة. والإنسان – عند الإسلام – مركب من روح وجسم، ولابد من توفير السعادة لهما. ولكن الجسم لابد ان يضمن له السعادة عن طريق توجيه الروح. وفي روح الإنسان طاقتان: طاقة ذاتية هي الجهل وطاقة موهوبة له هي العقل. وأهم ما في الجهل: هوى النفس (حب الذات) وافتقاد العلم. كما ان أفضل معطيات العقل هو: العلم والحكمة (وهي: تمييز الشر عن الخير) وللبشر فوق ذلك: الإرادة التي بها يرجح إحدى الطاقتين (الجهل أو العقل) على الأخرى.

2- ان حب الذات يؤدي - ان لم يوجه بالعقل - إلى حب الدنيا وعبادة المادة، ومن حب الدنيا تنشأ الشهوات وهي تسبب الرذائل.

كما ان الحكمة - ان اتبعت - تجعل الفرد يتبع الحق، وباتباع الحق يتحلى الفرد بالفضائل، وهي تتلخص في مراعاة حقوق الآخرين واتباع الحق.

3- لابد ان تسخر كل قوى الحياة في تطبيق الحق، إذ به يتمكن الناس من ان يؤدوا الحقوق، وبسببه يلتزم كل فرد بواجباته تجاه نفسه وتجاه الآخرين.

4- حقوق البشر تنشأ من أحد أمرين: العمل والحاجة. فمن عمل استحق الأجر بقدر ما أحسن، ومن احتاج كان له ـــ بقدر حاجته ـ الحق على القادرين.

5- ان البشر خلقوا شعوباً وقبائل مختلفة لكي يتعاونوا في سبيل تحقيق سعادتهم، وهي استثمار الطاقات الموجودة في أنفسهم وفي الآفاق. ذلك لأن الأرض والسماء انما هي مخلوقة للبشر ومسخرة من أجلهم.

6- ان اتباع الحق هو السبيل الوحيد إلى استثمار هذه الطاقات، أما الحق فهو مطابقة العمل للواقع المفروض، والذي يعين هذا الواقع المفروض هو الله، عن طريق الرسل أو العقل السليم بتذكرة الأنبياء (ع).

7- تعاون الناس في هذا السبيل ينشأ من خضوعهم جميعا لتوجيه عقولهم وتسليمهم لنظام واحد وهو الإسلام، وتتمثل قيادته في إنسان تتوفر فيه شروط القيادة، يتعرف عليه الناس بالتجربة الشخصية ومتى فسق أو جهل بطل تمثيله للأمة. وكذلك فيما إذا عجز عن مواجهة المشاكل والأزمات وحلها.

8- الناس باتباعهم لإرشادات عقولهم، يضمنون لأنفسهم الحريات الأربع وهي: حرية الفكر بالارتفاع عن الخضوع للشهوات أو التعصب والتقليد . وحرية السياسة، باتباع من يمثل الدين وعدم الاستسلام لأي طاغوت آخر. وحرية الاقتصاد، فلكل

فرد ان يكتسب كما يشاء شريطة ألا يسبب شقاء لنفسه أو شقاء للناس. وحرية الشؤون الشخصية، بأن يعمل بما شاء وكيف شاء، وضمنها حرية السفر والإقامة.

9- وبما ان الفرد له عقل وإرادة فهو مسؤول عن أعماله وعن تغيير الفاسد من واقعه وواقع الناس بمقدار استطاعته، ولكنه من جهة أخرى يعتبر فردا في العائلة البشرية. فهو غير مالك لنفسه بصورة مطلقة، إذ ان البشر مخلوقون لله صائرون إليه، فليس له ان يضر نفسه - لأنه ليس مالك نفسه - ولا بغيره. وبما ان البشر عائلة واحدة فعليهم ان يكفلوا من عجز منهم عن إدراك الحق في فكره، بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتوجيهه إلى الحق. أو عجز عن تحقيق الصحة والكرامة و.. و.. في جسمه، بتوفير الضمانات المحققة لحاجته جميعا.. وعلى هذا الأساس تنشأ بعض التحديدات كحرمة التجارة بالمحرمات وبعض الضرائب كالخمس والزكاة والضرائب الأخرى على الصعيد العام. كما تنشأ لزوم النفقة على المضطر في الصعيد العائلي الخاص.

10- وان القوة التنفيذية لهذه الأحكام هي: الإيمان القلبي بالله الذي خلق البشر وملكهم، وباليوم الآخر الذي يجزي فيه كل صالح بثواب ويجزي كل طالح بعقاب.

11- وان التسليم للدين ناشىء من إيمان الفرد بأنه لا حق لأحد في التشريع غير الله أو التشريع من خلال القواعد والقوانين العامة التي وضعها الله لأنه فقط مالك الناس وهو الحكيم العليم.

هذا موجز القول في نظرة الإسلام إلى الإنسان والمجتمع.

المجتمع الإسلامي

يقرر الإسـلام ان كل فرد مسـؤول عن أعماله مكلف بواجباته، وله حقوقه في التمتع باللذائذ الفكرية والجســمية في حدود خدماته أو حاجاته ويقول: [فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ*وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ](الزلزلة 7-8).

* وتنشـــأ هذه الفكرة في الإســـلام - والتي تبدو فيها النزعة الفردية بادئ الامر – من تقرير الإسلام ان كل فرد عاقل حر في إتخاذ أي قرار في الحياة. وبما انه حر فهو مالك لنفســـه وليس لأحد عليه حق العبودية (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا)[1].

* وإذا كان كل فرد مالك نفسه فهو أملك لعمله وتصرفه من أي فرد آخر [كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ](الطور 21)..

وعلى هذا الأســاس المتين يشـرع الدين أحكاما خاصــة بالفرد (ليس للمجتمع فيها دخل) كأفعال القلب - العقيدة والإيمان - والعبادات وكثير من الأحكام الأخرى.. وقد جاء في القرآن تقرير لهذه الحقيقة حيث صرح:

[عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ](المائدة 105).

---

1 - نهج البلاغة ، في وصية الامام لولده الحسن عليه السلام .

ولكن هذه الفكرة – الناشئة من حرية كل فرد ومسؤوليته - لا تنافي فكرة أخرى تبدو فيها جماعية الاتجاه هي: ان الإنسان عبد الله، وان امتلاكه لنفسه ناشئ من تمليك الله له ذلك. وبما انه عبد فهو مسير بأمر الله وفي صراطه [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ](الصافات 96).

وكما خلق الله هذا الفرد خلق الآخرين، فهما متساويان أمام الله، متكافئان في الحقوق والواجبات، كل منهما عبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا من دون الله.. فليس لأحد أن يطغى على الآخر، ولا أن يشبع هو بينما يجوع جاره، ولا أن يعتزل عن الناس باتباع الرهبانية وباستغلال حق حريته استغلالا غير صالح بالنسبة إلى الآخرين.. وعلى هذا الأساس فلا يصح ان يمحق الفرد حقوق الجماعة ولا أن تهضم الجماعة حقوق الفرد.

* وبما ان الدين يعترف بالفرد كوحدة مستقلة في المجموع يؤكد على الجماعة ألا تغلب على الناس نزعتهم الفردية بحيث تطغى على علاقة بعضهم مع بعض. ولذلك فهو يقرر عدة نظم في سبيل ربط الفرد بالجماعة هي.

1- ان الفرد إنما هو محاط بحلقات متداخلة هي بالترتيب:

عائلته[1]، أسرته[2]، عشيرته[3]، جيرانه[4]، أساتذته وتلاميذه[5] وكل من يمت إليه بصلة كالصاحب في السفر والصديق في الحضر وهكذا..

2- ويقرر ــــ بعد ذلك ــــ ربط الفرد بالجماعة، فيرسم واقع العلاقة بينهما في أصل الخلق فيعتبر أن أفراد (المجتمع المؤمن) أخوة فيجب ان يقوموا بإصلاح بعضهم البعض [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ](الحجرات 10).

وتارة يقول: ان أفراد الأمة المسلمة كأعضاء جسم واحد.. (المؤمنون في تبارهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى).

1- يقول الإسلام في توثيق علاقة الإنسان بأسرته: (رضى الله مع رضى الوالدين وسخط الله مع سخط الوالدين) (رسول الله ـ ص ـ؛ بحار الأنوار، ج71 ، ص80) ويقول: (نظر الولد إلى والديه حبا لهما عبادة) (المصدر نفسه).

2- ويقول في الأسرة: (صلة الأرحام وحسن الجوار زيادة في الأموال والأعمار) ويقول على لسان أمير المؤمنين (ع) في قوله تعالى: (اتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام) قال: (هي أرحام الناس، ان الله أمر بصلتها وعظمها الا ترى انه جعلها منه) (بحار الانوار ،ج71،ص97،ح35).

3- يقول الإسلام (على لسان الامام علي عليه السلام): (وصل أمرء عشيرته فإنهم أولى ببره وذات يده ووصلت العشيرة أخاها ان عثر به دهر وأدبرت عنه دنيا) (بحار، ج71، ص105).

4- يقول الإسلام (على لسان النبي (ص)): (من اذى جاره حرم الله عليه ريح الجنة ومأواه جهنم وبئس المصير، ومن ضيع حق جاره فليس منا وما زال جبرئيل يوصني بالجار حتى ظننت انه سيورثه) (بحار، ج71، ص150).

5- يقول الإسلام على لسان الإمام علي بن الحسين (ع): (وأما حق سائسك بالعلم فالتعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه والاقبال عليه. وأما حق رعيتك بالعلم فأن تعلم ان الله قد جعلك قيما لهم فيما آتاك من العلم ، فإن أحسنت فيما ولاك الله من ذلك كنت له أملا معتقدا) (بحار، ج71، ص14).

3- وأما حق الأمة فإنه يقرر هكذا (وأما حق أهل ملتك عامة (أي أهل دينك) فإضمار السلامة ونشر جناح الرحمة لهم والرفق بمسيئهم، وتآلفهم واستصلاحهم وشكر محسنهم وكف الأذى عن مسيئهم، وان تحب لهم ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك، وان يكون شيوخهم بمنزلة أبيك وشبابهم بمنزلة أخوتك وعجائزهم بمنزلة أمك والصغار منهم بمنزلة أولادك..)[1].

4- أما أفضل الناس في المجتمع الإسلامي فهم :

التقي[2] العالم، يقول الله سبحانه: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ](الحجرات 13) ويقول: [يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ](المجادلة 11)

المجاهد في سبيل الله.. يقول الله سبحانه: [وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرَاً عَظِيماً](النساء 95)

السابق إلى الدين.. قال الله تعالى: [وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ](الواقعة 10-11) ولكن كل هذه المزايا لا تبرر تكبر هؤلاء على الناس أو تطاولهم على حقوق الآخرين..

5- كما ان من أفضل الناس عند الله هو الذي ينفع الناس أكثر من غيره قال النبي (ص) (خير الناس من انتفع به الناس[3]) و قال: (خصلتان ليس فوقهما خير منهما: الإيمان بالله والنفع لعباد

---

1 - بحار الانوار ،ج71،ص9 .

2 - الإسلام يقرر ان الحياة سواء ما يرتبط منها بالدنيا أو ما يرتبط منها بالآخرة انما هي مبنية على العمل ولا قيمة للعمل بدون اخلاص ولا اخلاص دون ان يكون العمل ناشئا من وعي وإرادة، وكلمة التقوى تجمع هذه كلها إذ تعني الخوف من الله الموجب للاخلاص في العمل الصالح المستمر.

3 - بحار الانوار ،ج72،ص23،ح1 .

الله.. وخصــلتان ليس فوقهما شــر: الشــرك بالله والاضــرار لعباد الله)[1]

6- المؤمنون في منطق الإســلام وعلى لســان الامام الصــادق (ع) خدم بعضــــهم لبعض (قيل لـه وكيف يكون خدم بعضــــهم لبعض)؟ قال: (يفيد بعضهم بعضا)[2].

7- لابد لأفراد المجتمع من أن يتراحموا ويتباروا.. يقول الامام الصــــادق عليه الســـلام: (تواصــــلوا وتباذلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخواناً أبرارا كما أمركم الله عز وجل)[3] وقال النبي (ص): (عليكم بالتواصل و التباذل وإياكم والتقاطع والتحاسد والتدابر)[4].

ويقول الرســـول (ص): (ألا ان في التباغض الحالقة لا أعني حالقة الشـعر ولكن حالقة الدين)[5].. ويقول (ص): (لينصـح الرجل منكم أخاه كنصـيحته لنفسـه)[6].. ويقول الإمام الباقر عليه السـلام: (إذا احتجت فاســـله (أي أخاك المؤمن) وإذا ســـألك فأعطه، ولا تدخر عنه خيرا، فإنه لا يدخر عنك. كن له ظهرا فإنه لك ظهر، ان غاب فاحفظه في غيبته، وان شـــهد فزره، وأجلّه وأكرمه فإنه منك وأنت منه)[7].

---

1 - مســتدرك الوســائل ،كتاب الامر بالمعروف ، أبواب فعل المعروف ، الباب 22، ح10 .

2 - وسـائل الشـيعة ،ج18 ، كتاب القضـاء ، ابواب صـفات القاضـي،باب 8 ، ص61 ،ح37 .

3 - مستدرك الوسائل ،كتاب الحج، ابواب العشرة ، الباب 107 ، ح2 .

4 - المصدر ، الباب 105 ، ح24 .

5 - المصدر ، الباب 96، ح1 .

6 - وسائل الشيعة ،ج11، ابواب فعل المعروف ، الباب 35 ، ص595 ، ح4 .

7 - بحار الانوار ،ج71، ص222 ، ح5 .

8- لابد لكل فرد في المجتمع المســلم ان يراقب الأمور العامة ويهتم بها فإذا وجد فيها فسادا سارع إلى إصلاحه. يقول الإمام الصادق (ع): (من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم)[1].

9- أما التمايز الطبقي أو العنصري أو القومي، فإن الإسلام يتبرأ منه ويتبرأ من كل من ينادي به، ويضع كل تعاليمه على أساس المساواة والعدالة الشاملة، يقول الله سبحانه:

[يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ](الحجرات 13).

ان هذه الآية لا تقدم وصية خلقية وتربوية إلى المسلمين ولكنها توضح فلسفة تشريعية يبني عليها الدين كل أسسه، وهي تقرر ثلاثة حقائق أساسية في بناء الحقوق الدولية والوطنية هي:

ألف: ان الناس مخلوقون فلا يملكون الا ما وهب لهم الله تعالى.

باء: ان أصل خلقهم ذكر وأنثى فهم اخوة في الأصل، وما طرأ عليهم من الاختلاف فهو عرض يجب الا يعتنى به.

جيم: ان هناك شعوبا متمايزة وقبائل مختلفة، ولكن كل هذه لا بد أن تستغل في سبيل التعارف والتعاون، فالقوميات لابد ان تستغل للصالح العام لا للتباغض والتحارب.

10- والإسلام يقرر العدالة الاجتماعية على الصعيدين: الحكومي والفردي. ويقول:

[يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا

1 - المصدر ،ص338 ،ح119 .

فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وإِن تَلْوُو أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً](النساء 135).

هذه الآية تنسف خرافة القرابة أو الصداقة أو الغنى نسفا وتجعل الميزان هو العدل والحق فقط.

11- أما الحروب فإنها – حسب الرؤية الاسلامية - تنشأ في المجتمعات بأحد سببين:

الأول: ان الناس يصبحون أمام الدعوات الخيرة إلى فريقين: مهتد وضال. ويحاول الضالون ان يقضوا على المهتدين لكي يصفو لهم الجو.. ولابد من هذه الحرب حتى تصبح كلمة الحق هي العليا شريطة الا تستغل هذه الحرب للمصالح المادية.

الثاني: ان بعض الطبقات تريد ان تستغل طبقة أخرى فتقوم الحرب، ولابد من القضاء على هذا النوع من الحرب، بالقضاء على جرثومتها وهي الاستغلال.

أما الاستغلال فإن سببه: حرص الإنسان على المادة. وعلاجه هو: توجيه الناس إلى الحق ومعاقبة المستغلين معاقبة صارمة. ويقرر الدين: ان رأس المال حيث يستغل العمال، وان الحزب حيث يستغل الشعب فإنما هو لأمر في قلب المستغِل وأمر في قلب المستغَل.. أما الأول فلأنه: جعل المادة إلهه المعبود.. وأما الثاني فلأنه سكت على الظلم وخضع للنظام الباطل وكان عليه أن يثور ضده.

12- والإسلام يوفر (بالنظام السابق) ما تحلم به الرأسمالية من حرية الشعب وما تدعو إليه الاشتراكية من الضمان الاجتماعي للفقراء دون ان يجر إلى العالم الدمار الذي جرته هاتان الآفتان.

أما الحرية فحيث يقرر ان كل فرد مختار في أعماله، فهو حر فيما يعمله وله كلما ينتجه.. وأما الضـــمان فحيث يقول: ان الناس عباد الله فلهم جميعا حق البقاء وكذلك فعلى كل مســـلم ان يوفر ـ حسب امكاناته ـ ضرورات الحياة لكل إنسان مسلما كان أو كافرا.

وكلمة الخلاصة: ان الإسلام يمزج مبدأين في الاجتماع مزجا معتدلا، وهما:

ألف: ان كل فرد حر ومســـؤول، له مثل ما عليه من الحقوق والواجبات وأن لكل فرد ما ينتج، ولكل امرئ حسب كفاءته.

باء: ان الناس عباد لله ومتســـاوون في الحقوق العامة فلكل حسب حاجته.

وعلى هذين الأساسين يبني الدين صرحه الشامخ في المجتمع الصاعد من دون ان ينزلق في أخطاء النظم المادية المعاصرة.

الاقتصاد الإسلامي..

في حقل الاقتصاد يرى الإسلام: ان الله خلق الأرض والسماء وجعلها مسخرة للبشر، وجعل فيها متاعا إلى حين[1] وان ما جعل لهم يكفي لكل البشر[2]، ويقول في ذلك [هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً](البقرة29).

ويرى: ان للإنسان صلاحية استخراج الرزق من الأرض بإذن الله.. فيقول: [وَلَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الاَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَاتَشْكُرُونَ](الأعراف 10).

ويرى: ان على الناس ان يسعوا في سبيل تحصيل المعاش من الأرض، فيقول: [وَمِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ](القصص 73) ويرفض ان يكسل الإنسان عن تحصيل رزقه أو يضعف.. ويقول على لسان الامام الصادق عليه السلام: (ان الله عزوجل يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ[3]) وان الكسل يمنع حظ الدنيا والآخرة، ويقول في

1- حينما نقول ــ تبعا للتعبير القرآني ــ إلى حين، فلان هناك غاية وراء هذا التركيز وهي: ان الحياة الدنيا ليست غاية السعادة البشرية وان من يأمل فيها ذلك فإنه يأمل باطلا سرعان ما يصطدم بالواقع ويشقى ويشقي الآخرين.

2- خلافا لبعض النظريات المادية التي تعتقد ان ما في الأرض لا يكفي الناس جميعا فلابد ان يتصارعوا لكي يفلح الأقوى بالعيش ويفنى الضعيف.

3 - بحار الانوار ج73، ص180،باب 38، ح10 .

ذلك: (إياك والكسل والضجر فإنهما يمنعانك حظك من الدنيا والآخرة)[1].

ويرى: انه لابد للمسلم ان يكون نشيطا في طلب الرزق ساعيا، كي لا يكون متأخرا أو يكون كلا على غيره.. ذلك لان من ألقى كله على الناس فهو ملعون. ويقول على لسان الإمام الصادق (ع): (عليكم بالجد والاجتهاد، وإذا صليتم الصبح فانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال فإن الله سيرزقكم ويعينكم عليه).

ويرى: ان البلد المسلم لابد له من زراعة وتجارة وصناعة[2].. وقد كان الأئمة عليهم السلام – وهم قادة الدين- يزرعون ويفلحون فيقول أحدهم (اني اشتهي ان يراني الله عز وجل أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي)[3].

كما يرى الإسلام: ان التجارة خير ويأمر بها ويرغب في ان يبكر الفرد اليها وان يتحمل المشاق في سبيلها ولقد كان الرسول والإمام الصادق –عليهما صلوات الله- يزاولان التجارة شخصيا.

أما الصناعة فيشجع الدين عليها ويذهب في تشجيعه بعيدا حيث يرى انه حتى لو كانت الصناعة تُستغل من قبل بعض المستهلكين

---

1 - الكافي ،ج5،ص85،باب كراهية الكسل، ح2 .

2- هناك نظم كاملة في هذه الشؤون الثلاثة تتعرض لها كتب الفقه الحديث فراجع للتوسع..

3 - وسائل الشيعة ،ج12،كتاب التجارة ، ابواب مقدماتها ، الباب 9 ، ص24 ، ح10 .

في وجوه الحرام، فإن الانتاج ذاته لا يكون حراما ذلك لأن في انتاجها منافع للناس (حسب ما جاء في نص إسلامي)[1].

وإضافة إلى هذه التعاليم، فإن الدين يضع مناهج خاصة للتنمية الاقتصادية وإليك طائفة منها:

1- ان الإسلام يُمَّلِك الأرض للذي يعمرها، ويقول: (من أحيى أرضا مواتاً فهي له)[2].

2- و يُمَّلِك المعادن وموارد الثروة الطبيعية لمن استخرجها.

3- ويسهل للناس المعاملات ويكتفي بمجرد المعاطاة فيها، بينما تفرض الشرائع الأخرى قيودا أخرى كالكتابة والاشهاد وما شابه ذلك.

4- ويضع نظام القرض ويشجع عليه ويعتبر الدرهم في القرض خيرا من عشرة دراهم في الصدقة، كما يجعل من الزكاة حصة لأداء دين العاجز فيأمر الناس بأن يقترضوا فإن عجزوا عن الأداء أخذوا من أموال الدولة.

5- ويجعل في أموال الدولة سهما يصرف في الاعمار والتنمية.

6- ويقر نظام المضاربة في حين يحرم الربا، ليشترك كلٌ من صاحب المال والعامل بقدم المساواة في الربح والخسارة، وبذلك يشجعهما على العمل.

---

1 - راجع: تحف العقول ،باب ما روي عن الامام الصادق عليه السلام ، جوابه عن جهات معائش العباد .

2 - الحديث مروي عن الرسول صلى الله عليه و آله وسلم، (وسائل الشيعة ،ج17،كتاب احياء الموات، الباب 1،ح5) .

7- ويحرم البطالة والإشـــتغال بالمحرمات ولعب القمار وكثير من أقسام اللهو.

8- ويمنع التبذير ويحجز أموال السفيه (الذي يصرف المال في غير أوجه الصلاح) وبذلك يوفر للأمة مالا كثيرا.

9- ويربي النـاس على الجد وملأ الفراغ وضـــبط المواعيد والوفاء بالعهود والتعاون وتعلم الصــناعة وما أشـبه مما يســاعد على التنمية الاقتصادية.

10- ويســـهل على الناس التبادل حينما يقول لهم على لســـان الامام علي عليه السلام: (يا معشـر التجار اتقوا الله.. وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وأنصـفوا المظلومين، ولا تقربوا الربـا، وأوفوا الكيـل والميزان، ولا تبخســـوا النـاس أشـياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسـدين[1]) وبهذا تشـيع الثقة بين الناس فيسهل التبادل.

11- وأخيرا يطلق جميع الحريـات المشـــروعـة التي تنمي التجارة والصناعة[2].

مشكلة الثروة..

ويمكن تحدي هذه المشـــكلة بالإجابة على الســـؤال التالي: هل يمنح الناس الحرية التامة في جمع المال، حتى تتضـخم الثروة في جانب وتنحســـر عن جانب؟ هل ينبغي ان يمنح الناس هذه الحرية

1 - وسـائل الشـيعة ، ج12،كتاب التجارة ، ابواب آداب التجارة ، الباب 2 ، ص283 ح1 .

2- وبهذه الأسـباب وما أشـبهها أحرز المسـلمون الأوائل ذلك التقدم الاقتصـادي الباهر. أما الغرب اليوم فإن تقدمه انما هو على حســـاب الشـــعوب الكادحة.. (انظر كتابي)؛ (التنمية الاقتصادية في الإسلام) و(تشريح جثة الاستعمار).

المطلقة لكي تكون مشـــجعة لهم وداعية إلى المزيد من النشـــاط والحركة؟ ام يُستعبد الناس للدولة ليأخذ كلٌ حسب كفاءته ويُعطي لكلٍ حسـب حاجته فيكون في ذلك توجيه صـحيح للاقتصـاد، ام نوزع الثروة ونتفادى في النهاية مشـكلة التضـخم ولكن على حساب كبت حريات الانسان؟

أي طريق من هذين، هو الطريق القويم؟ هل الطريق الأول الذي سـلكه الاقتصـاد الحر ، أم الثاني الذي انتهجه الاقتصـاد الشيوعي؟

ان الإسلام يبدأ أولا بتحليل المشكلة، ويبين أسبابها، ويقول: ان الإنسـان خلق حرا مختارا ، وكل وجدان يشـعر بذلك، وعليه فمن حق كل إنسـان ان يسترشـد بعقله ويستخدم حريته كيف شـاء من دون ان يكون لأي شخص آخر ان يحدد حريته.. وما دام الإنسان خلق حرا وعاقلا فإنه لا تمييز بين بني الإنسان، ويقول على لسان الرسـول (ص) : (إن الناس من آدم إلى يومنا هذا مثل أسـنان المشط ، لا فضل للعربي علىالعجمي، ولا للأحمر على الأسود الا بالتقوى[1]) . فما دام الناس عباد الله فهم سواء، وليس لأحد ان يظلم أو يطغى على أحد ويقول: (من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده[2]).

وحرية الإنسـان هي التي تثبت ملكيته الخاصـة، ذلك لأن الملكية تجسيد للعمل، والعمل جزء من الإنسـان، فإذا كان الإنسـان حرا كان مالكا لعمله ولما يؤدي إليه عمله.. ولهذا يقول الإسلام: (سباب المؤمن

---

1 - بحار الانوار ،ج22،ص348 ، ح64 .

2 - نهج البلاغة ,قسم الرسائل ، رقم 53 ، من كتاب به كتبه للأشتر النخعي لما ولاّه على مصر .

فسـوق وقتاله كفر وأكل لحمه (غيبته) معصـية وحرمة ماله كحرمة دمه[1]).

وما دام البشر كلهم يملكون انفسهم وأموالهم: (إن الناس مسلطون على أموالهم[2])، فليس لأحد ان يثري على حساب أحد، كأن يسخره أو يخدعه أو يغصبه أو يأكل ماله بالباطل. يقول الإسلام: (لا يحل مال أمرء مسلم الا بطيب من نفسه[3]). ومن ذلك العمل بالمحرمات التي تضر المجتمع.. وهكذا عرفنا كيف ولماذا تحدد حرية كل شخص إذا عارضت حرية الآخرين؟

وإذا كان الناس أحرارا فمنهم من يعمل كثيرا ومنهم من يعمل قليلا ومنهم ذكي ومنهم غبي[4]. وليس لنا ان نقول لهم كونوا متساوين إذ لا حق لنا في ذلك ماداموا أحرارا.. وحينذاك فهل نمنع أجر الأفضل والأكثر عملا؟ فنمنعه حقه ونمنعه حريته (مع انه سوف يكسل عن العمل الأفضل فيتضرر الجميع) ام الأفضل – كما يقول الإسلام- ان نطلق حريته لكي ينشط ويتفنن ويتقن عمله اتقانا، ولكن بشرط ان لا تكون حريته سببا لسلب الآخرين حريتهم.. وفي حدود القانون.

ومن ناحية ثانية: فإن الغني الذي يكتسب المال في ظل دولة توفر له الاطمئنان والأمن ، من الطبيعي ان يكون بعض ماله من حق تلك الدولة (كالذي يكتسب المال في متجر غيره) فلابد إذا ان يؤدي حق هذه الدولة لتحفظ أمواله ونفسه وأمنه.. ومن هنا ينشأ الخمس والزكاة..

---

1 - الكافي ، ج2، ص359 ، باب السباب ،ح2 .
2 - بحار الانوار ،ج2، ص272، ح7 (عن النبي صلى الله عليه و آله) .
3 - عوالي اللآلي ، ج1،ص222 ،الفصل التاسع .
4- من الواضح ان الناس مختلفون اختلافا طبيعيا بفعل العوامل الوراثية أو التربوية. هذا الاختلاف نعمة من الله كي يتخذ كل فرد مكانه من العمل. إذ من المعلوم ان الأعمال متفاوتة فإذا كان الناس متساوين اختار كلهم خير الأمور، فينشأ النزاع. قال الله سبحانه: (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) (الزخرف 32) .

ومن جهة ثالثة: فإن الإنســــان الحريص على المال لابد وأن يغفل حينا - ولو كان مسلما تقيا - ويسلب مال الناس من حيث لا يشعرون[1] ، فلابد أن يرجعه إليهم، ومن هنا ينشأ رد المظالم.

ومن جهة رابعة: فإن الناس كلهم – لاسيما في النظام الإسلامي – يشتركون في تنمية ثروة هذا الشخص الثري بتعاونهم وحفظهم للأمن وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وأمثال ذلك.. فلابد ان يكون لهم سهم في أمواله، وهنا تنشأ سائر الضرائب.

وأخيرا فإن الإســلام – بوحي من الله العليم البصــير – وضــع مناهج دقيقة ومضـبوطة لاستخراج اسـهم الدولة والناس الواقعية من ثروة الغني، ففرض عدة أنواع من الضـرائب، تسـبب التقليل من تضخيم الثروة، وهذه الضرائب تكفي ـــ لدى التدبير ـــ لسد حاجات الضعفاء والحاجات العامة..

وهذا هو الخط العريض والدقيق لفرض ضــــرائب عامة، وقد رأينا كيف انه يوافق أدق أحكام الفطرة والوجدان.

ولكن هذا لا يعني ان الإســلام لا يتوسـل بوســائل أخرى في ســبيل تحديد الثروة، لكن حتى تلك الأمور تسـير باتجاه صــحيح على ضوء الفلسفة الإسلامية العامة[2] وهي:

1- ان تضخم الثروة أكثر ما يكون من الاجحاف والتسعير الغالي والأرباح غير العادلة. وهذا وان كان غير محرم ، إن كان عن غفلة ولكن فيه أثر الحرام، وهو ان المال لابد ان يرجع إلى أهله.

2- في الإســـلام نوعان من التكاليف؛ الأول: الواجبات، وهي تحدد المســـيرة اللازمة لترقية المسلم في الحياة.. الثاني: المستحبات، وهي ما يزيد الحياة رفاهية وسعادة.. وفي مجال الحد من تضخم الثروة للإسلام نوعان من التكاليف:

الضـرائب اللازمة والضـرائب المندوبة (وهي ما وراء الواجب). قال الله سبحانه: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ] (النحل 90).

وفي الحديث المفسر للآية: (العدل: الانصاف، والاحسان: التفضل).

1- ان الإســلام يرى الإنســان في رحلة طويلة، وان ما يقدمه لنفســـه من خير يوفـاه في الحيـاة الأخرى، ولـذلـك فهو يـأمر بـالصـــدقـات وهي زيـادة في إعطـاء المـال للفقراء والمشـــاريع الخيرية.

2- وعلى هذا الأســاس يأمر الناس الا يحرصـــوا في طلب الدنيا[1].

3- وقانون الإرث يحد نوعا ما من تضخم الثروة في يد واحدة.

4- حكم عام بلزوم الانفاق في ضــرورات الحياة للفقراء (وقد مرت فلسفته في فصل سابق).

5- وإذا أضــيفت هذه الأحكام إلى الحقوق المشــار إليها ســابقا وهي: الزكـاة و الخمس و الخراج و الكفـارات و النـذور، كـانـت الضرائب الإسلامية خمسة.

وخلاصة الحديث:

ان الإسلام يحل مشكلة التضخم في الثروة عن طريقين عادلين:

الأول: منع ظلم النــاس بعضـــهم لبعض وتحريم الســـخرة والاستغلال، علما بأن التضـخم ناشـئ عن طرق غير شـرعية في كسب المال كالربا والحكرة والاقطاع والإجحاف والغش والتزوير وما إلى ذلك مما هو معروف في دوائر الرأسماليين[2].

الثاني: توزيع الثروات وتحديدها عن طريق فرض الضـــرائب المناســبة (كالخمس والزكاة) والترغيب عن الدنيا، وفرض قانون

1- الإسـلام ينهى عن الكسـل في حين يأمر بعدم الحرص، وليسـت هناك منافاة بينهما، ذلك لان العمل مرغوب فيه ولكن تضـــخم الثروة غير مرغوب فيه فيمكن ان يعمل ويعطي للفقراء كما كان من دأب قادة الإسلام (النبي والأئمة).

2- والى هذه الحقيقة يشـير الحديث الشـريف: (ما رأيت نعمة موفورة الا وبجانبها حق مضيع).

الإرث والإلتزام بالنفقة على المضـــطرين والترغيب على إعطاء الصدقات[1].

1- سيأتي في فصل الأخلاق شرح وتوضيح مدى تأثير الترغيب عن الدنيا في الاحتفاظ بتعادل الثروة وحل مشكلة تضخمها.

الأخلاق الإسلامية

دعنا نجري في العنوان على عادة الفلاسفة القدماء ونطلق على الموضوع عنوان (الأخلاق) وان كان الاجدى ان يسمى الموضوع بــــ(معرفة النفس) مثلما يسـميه الإسـلام. أو (علم النفس) مثلما يسميه العلم الحديث، ذلك لأن الموضوع أشمل من الأخلاق بكثير إذ ان معرفة النفس قاعدة أصـلية تبنى عليها كثير من البحوث في الإســلام.. ففي القرآن الحكيم (ســنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفســهم).. في الحديث: (من عرف نفســه فقد عرف ربه) وفيه.. (اتزعم انك جســم صــغير وفيك انطوى العالم الأكبر) من هذا يظهرأن معرفة الله ومعرفة العالم انما تكون عن طريق معرفة النفس ومع ان البشــرية قد احرزت تقدما باهرا في كل المجالات فإنها لا تزال عاجزة عن معرفة النفس البشـــرية وما فيها من طاقات[1].

وأهمية الموضوع تفرض توسعا بالإجابة على الأسئلة التالية:

ما هي حقيقة النفس؟

1- راجع كتاب: (الإنسان ذلك المجهول) للدكتور الكسيس كاريل.

ما هو واقع القوى المختبئة في النفس؟
هل للمُثُل أصالة في النفس؟
كيف يمكن اصلاح الناس اصلاحا شاملا؟
ما هي المؤثرات في النفس وكيف يستغلها الإسلام في الاصلاح؟

1- حقيقة النفس

حقيقة النفس (الروح، القلب) أنها مادة[1] لطيفة محددة تحيا إذا أوتيت الحياة وتموت إذا افتقدتها. وتعرف إذا اوتيت المعرفة وتجهل إذا فقدتها.. وهي غير البدن وبإمكانها ان تعيش خارج الجسم – بعد الموت – دون ان تدخل في جسم آخر.

والدليل على كل هذه:

أولا: الوجدان الإنساني.. ألسنا نحس بانا نعلم ونقدر ونحيا، ولكن العلم والقدرة والحياة ليست من ذاتنا (انا حي، أي انا أملك الحياة ولكن لست نفس جوهر الحياة) ، ذلك لأننا لم نكن عالمين ثم علمنا. إذاً فالعلم ليس من ذاتنا الذي لا ينفصل عنه.

1- حينما نقول مادة لا نقصد انها جسم، فالتيار الكهربائي من المادة أيضا مع العلم انه ليس بجسم. وليست كل مادة تحس وتلمس بالحواس الظاهرية. بل المقصود بالمادة ان الروح محدودة الجوانب متقلبة الطبائع تغدو وتروح. وليست المعرفة والقدرة والحياء جزء من كيانها الذاتي، بل انها أشياء خارجية ركبت من قبل الله سبحانه وتعالى خلافا لما قاله فلاسفة الاغريق وتبعهم غيرهم من ان نفس الإنسان مجردة غير محدودة، عالمة حية بذاتها، وبتعبير أخر: انها تحمل صفات الله ــــ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ وما أبعد ما بين هذا الرأي وبين ما زعمته المادية ان النفس غير موجودة رأسا. وهكذا يتجاذب التطرف من هنا والتعدي من هناك كل الذين ابتعدوا عن هدى الله واتبعوا أهواءهم بغير علم.

ثانيا: تجارب احضـــار الأرواح المفصـــلة في كتبهم التي تبلغ المئات في الغرب والشرق.

ثالثا: الآيات والأحاديث التالية:

1- [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَي لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَـيْئاً](النحل 70) . وواضـح ان المجرد لا يمكن ان يصبح جاهلا، فحيث ان النفس تعود جاهلة بعد العلم فهي غير مجردة بنص هذه الآية.

2- في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام في حوار طويل مع أحد الزنادقة: (والروح جســم رقيق قد ألبس قالبا كثيفا.) ثم قال: (الروح بمنزلة الريح في الزق، إذا نفخت فيه امتلأ الزق منها فلا يزيد في وزن الزق ولو جها فيه، ولا ينقصـــها خروجها منه، كذلك الروح ليس لها ثقل ولا وزن[1]).

2- قوى النفس..

كل عمل يعمله البشر فإنما تعمله روحه بسبب جسمه، فالجسم آلة للروح[2] (والأرواح القوية كأرواح السحرة والمرتاضين تعمل بدون الجسم أيضـا).. كما ان كل صـفة يمتلكها البشـر فإنما هي صفة نفسه لا صفة جسمه.

وفي النفس قوتـان متعـارضـــتـان: قوة تجرّهـا إلى الأرض، وأخرى ترفعها إلى السماء.. وهما:

---

1 - بحار الانوار ،ج10 ، ص185 .

2- في الحديث عن الامام الصـادق عليه السـلام، انه قال: (الروح مسـكنها في الدماغ، وشعاعها منبثّ في الجسد بمنزلة الشمس دارتها (عينها) في السماء وشعاعها منبسط على الأرض، فإذا غابت الدارة فلا شمس، واذا قطعت الرأس فلا روح) (بحار الانوار ،ج6، ص111 ،ح6).

أ- الجهل، وهو من طبيعة النفس وذاتها وتنســب إليه الجاهلية. وهو منبت كل رذيلة كالشــرك والكذب والكفر وعدم العلم وعدم الإرادة[1].

ب- العقل، وهو من الله سـبحانه وهو أصـل كل صـفة حسـنة كالعلم والحكمة ومعرفة الخير والشر والإرادة وبه يدرك الإنسان كلما يريد.

وأبسـط دليل على ذلك: ان كل فرد يشـعر في نفســه ان قوتين تتغالبان في ذاته: قوة تريد مصــلحته الخاصـــة وقوة تريد الحق. وقبل كل عمل ــ فيه مصلحة الإنسان من جانب وضرر الآخرين من جانب ثان ـــ يجد الفرد نفسه في معركة داخلية. ومن الممكن ان تغلـب إحـدى القوتين على الأخرى فيقوم الفرد بفعـل مـا فيـه مصلحته مثلا دون أن يشعر بقوة أخرى تمنعه عنه، ولكن سرعان ما يجد في نفســـه بعد إتمام العمل قوة تلومه وتوبخه وهي القوة الثانية التي إسـتترت حين العمل بعض الوقت وخرجت بعده توبخ وتلوم[2].

ودليـل آخر على ذلـك: إنـا نجـد أن بعض النـاس يعملون من الصالحات ما ليس لهم فيه مصلحة أبدا، بل يقومون به لمجرد إنه

1- يمكننا ان نعرف ببساطة: لماذا تكون الرذائل من طبيعة النفس وذاتها، وذلك لأن كل ما يقترفه الإنسـان من صـفة نفسـية سـيئة كالكذب وما شـابه ذلك فإنه انما يرتكب ذلك فلأن فيه هواه ـ أي انه يحب ذلك لأنه يتلذذ به أو بنتيجته ـ فنعرف من ذلك: ان هوى النفس وميلها مع الرذيلة. وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام أمير المؤمنين (ع) بقوله (أعوذ بالله من شرور أنفسنا).

2- قال الله سـبحانه: [والنفس اللوامة] (أي قسـما بتلك الروح التي توبخ الإنسـان على أعماله السيئة).

عمل خيري، ولربما نكون نحن(وفي بعض الأوقات) قد عملنا أعمالا لم تكن فيها مصالحنا أبدا.

والاسلام يقول: انه نتيجة لتغالب العقل والجهل في البشر، فهو أكثر ما يواجه إزدواجية المشاعر، فهو دائما يجد نفسه حرة في ان تختار الحق أو الباطل، ويجد ان لكل منهما في داخل قلبه قوة ورصيدا.

وللبشر قوة تسمى بالإرادة الحرة تستطيع ان تتجه نحو العقل فتختاره أو نحو الجهل فترجمه. وتلك الإرادة هي التي تقرر المصير كما أنها تحقق حرية البشر ومسؤوليته تجاه عمله السيء وإستحقاقه للثواب تجاه العمل الصالح. وليس أدل على هذه الحرية من أن كل فرد يشعر بأنه حر.

ومن هنا نعلم ان قوى النفس ثلاثة:

1- العقل ؛ وهو منبع كل صفة خيرة كالعلم والصفات الحسنة والحكمة.

2- الجهل ؛ وهو منبع كل صفة سيئة كالرذائل وحب الذات.

3- الإرادة ؛ وهي قوة يختار بها الفرد الخير أو الشر وهي أصل حريته.

والدليل على وجود هذه القوى:

ألف: الوجدان وهو شعور كل فرد بعد التدبر في واقع نفسه انه يريد الخير ويريد الشر، وشعوره بالمعركة الحامية التي تقع في أعماق نفسه بين قوى الخير وقوى الشر، وشعوره بحريته في اختيار جانب أي من القوتين يشاء.

باء: وجود أعمال لا تفسر الا بأنها عملت لأجل الحق.

جيم: الدليل النقلي من القرآن والحديث.

3- المُثُل

ان الإســـلام يرى ان المثل الخلقية تجتمع كلها في اتباع هدى العقل، ذلك لأن العقل يدعو الفرد – من داخله – إلى الحق والخير بصورة مستمرة ويدعم هذا الواقع بدليلين:

1- اننا نرى بطبيعة فطرتنا، ان الصدق والوفاء وحب الآخرين وخدمتهم والعفو والحلم عن المكروه والإيثار بالخير والتضـــحية في سبيل الاصلاح. نرى هذه الصفات حسنة مرغوبة مئة بالمئة، ونجد إلى جانبها الكذب والخيانة والغدر وبغض الناس والاضرار بهم والحقد والغضب والحسد والاستغلال والجبن.. هذه الصفات نراها مذمومة بذاتها و قبيحة، لا نحب ان ننعت بها ونحب أولئك الذين يتحلون بالنوع الأول منها ونبغض أولئك الذين يتخلقون بالنوع الثاني منها.

2- أينما ذهبت من هذا العالم، ومن صـــادقت فيه من بني آدم رأيته يمدح الصفات الحسنة ويبغض الصفات السيئة فيرى الظلم والتعدي مثلا أمورا قبيحة بذاتها، ويرى العدل والاستقامة حسنة بذاتها.. وحتى أولئك الذين يعيشـــون في الغابات بإفريقيا، وأولئك الذين يهيمون في الصـــحاري والادغال في اســـتراليا (من الهنود الحمر) يرون ذلك ويجعلونه مقياسا يعرفون به الصالح من السيء في الناس. وحتى أولئك الذين ينكرون وجود العدل والخير الأزليين ويزعمون ان المادة هي كل شيء وان كل شيء نسبي - كالشيوعيين ــ عندما يريدون ان يمدحوا أحدا يقولون انه يضحي، انه يؤثر المصـــلحة العامة، انه لا يظلم أحدا، انه يراعي حقوق

العامل والفلاح. وهكذا كما انهم إذا أرادوا ذم أحد نعتوه بالظلم والاســـتغلال.. واذا قلت لأحدهم أنت ظالم أنت معتدي قال لك: كلا.. وجاء بألف تعليل وعذر حتى ينفي عن نفسه الظلم والتعدي.

ان هذا دليل صارخ على وجود أصالة للمثل.

والإســـلام يقول: ان وجود العقل والجهل في النفس ليســـت على صفة الدوام، إذ ان من الممكن ان يضمحل أحدهما في مقابل الآخر إلى غير رجعة أو إلى حين.

أما قوة أحدهما فإنما هي بالممارســـة، يعني ان الذي يرجح الجهل على العقل باســـتمرار ولا يتبع عقله أبدا لابد ، وان يفقد عقله أخيرا فلا يعود يشـــعر بحب الخير والحق[1].. أما الذي يتبع عقله باستمرار فإن الجهل سوف يذهب عنه نهائيا بحيث يصبح قدوة الآخرين في الفضيلة. ان هذا الفرد لا يحس بحب لنفسه، إذا خالف الحق، ولا يرى تعبا في اتباع الحق والتضحية له.

كما ان العقل والجهل يتأثران بالتربية والتوجيه وبالوراثة والتغذية، ولذلك فإن الدين يستخدم كل ذلك للإصلاح.

4- الاصلاح.

يرى الإسلام ان اصلاح الناس اصلاحا شاملا انما يكون باتباع هدى العقل، ونبذ تســـويلات الجهل، ذلك لأن العقل لا يميز الخير للناس عن الشـــر فقط ، بل يدفع الفرد إلى العمل بالخير ونبذ الشـــر.. وإذا اتبع الناس عقولهم ، أدوا حقوق بعضـــهم البعض

1- قال الله سبحانه في صفة هؤلاء: [سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ](البقرة6-7).

وزادوا بالإحسان إلى بعضهم البعض. وهل ترى سعادة خيرا من هذا؟

أما إذا غلب على الناس الجهل فانكب كلٌ على عبادة ذاته والعمل لمصالحه الخاصة وتطرف كلٌ في جلب الملاذ لها، فهناك يعم الظلم والطغيان والفوضى والحسد والحقد واستعباد الآخرين.

أما سن القوانين، المدعمة بالعقوبات والتنظيمات، فهو لا يؤثر في اصلاح الناس أبدا، لأن المجتمع الذي يتبع الهوى ويتصف بحب متطرف للمادة، هذا المجتمع لا يسن قانونا الا متأثرا بهذا الحب ولا يطبقه الا كذلك. ومن هنا فسوف يكون القانون والتنظيم وسيلة إلى تحقيق شهواته. أليس الإنسان هو الذي يسن القانون ويقر النظام، أترى انه لا يمكنه الخروج عليه إذا أراد أو إذا خالف شهواته[1].

ولنفرض: ان الإنسان قد نجح في تشريعه وتنظيمه وقلع جذور الجريمة، فهل ينجح في اصلاح نفسه وتطهيرها من الحسد والحقد والقلق والاضطراب؟ فأية وسيلة يتبعها لذلك ما دام قد نبذ العقل واتبع الهوى؟

5- المؤثرات.

ان الإسلام يهدف بتوجيهاته أمرين؛ الأول: زيادة العقل، الثاني: تربية النفس[2] ،أي أن تجعل النفس بحيث لا تهوى الشر كثيرا.

1- عندما نعرض ميزات الإسلام التشريعية سوف نبين ان تشريعات الناس لن تنفع في قلع جذور الشر والفساد.

2- ان هناك فرقاً بين الأمرين في: ان زيادة العقل تؤثر على الإنسان، وإن لم تكن تربيته النفسية مساعدة للصلاح، فالفرد الموجه بالإيمان والإرادة والعقل يتمكن من تحقيق المعاجز في مغالبة نفسه وقهرها على الفضائل، ولو كانت نفسه تتوق إلى الشر بسبب من التربية الفاسدة أو المحيط المائع أو ما أشبه. ومن هنا فإن الإسلام يهتم بهذا

وبالنسبة إلى الأمر الأول يستخدم الإسلام الأساليب التالية:

1- الترغيب في ثواب الآخرة والترهيب عن عقابها.. قال الله سبحانه: [إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ](سورة الزلزال).

2- بيان ان السعادة تكمن في اتباع الحق، كما ان الشقاء يكمن في مخالفته. قال الله سبحانه: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً][1] (طه 124).

3- إلفات نظر الإنسان بأن له عقلا وفكرا لابد من استخدامهما، ولهذا يكرر في القرآن كلمات مثل (أفلا يعقلون.. أفلا يتدبرون) وأمثالها.

وبالنسبة إلى الأمر الثاني يتخذ الإسلام عدة إجراءات نذكر منها ما يلي:

1- يحرم الزنا، والجماع في حالة الطمث، ويدعو إلى المواظبة على عدم التغذية المحرمة حالة الحمل، والإرضاع. فهذه التعاليم من شأنها ان تمنع من تأثيرات العوامل السلبية في نفس الإنسان.

الأمر كثيرا، في حين ان التربية النفسية لا تفيد الا بالنسبة إلى من ربي في المجتمع المسلم وروعيت جميع أعماله بدقة متناهية.. ومثل زيادة العقل كمثل زيادة قوة الجسم وحصانته عن الميكروبات، كما ان مثل تربية النفس كمثل حفظ الجسم عن دخول الميكروب إليه أو قتل الميكروب بعد ان يدخل؛ فالجسم القوي لا يبالي بالمكروب وكذلك صاحب العقل الحاكم لا يخاف من المحيط أو التربية.. ولكن الجسم الضعيف يراقب الميكروب حتى لا يدخل فيه.

1- ومن هذا النوع: ما ورد في القرآن من قصص الأمم الماضية التي عتت عن أمر ربها فأتبعها بعضها بعضا ودمر قراها وجعلها أحاديث.

2- التربية الصالحة للطفل التي أوصى بها الدين الحنيف ابتغاء ان تتعود نفس الطفل منذ البداية على الصلاح فيسهل عليها عمل الخير فيما بعد. والتربية الصالحة تعني: الاعتدال في إظهار الحب للولد ومصاحبته منذ ان يولد بالذكر كالآذان والإقامة عند الولادة ، وتغذيته بالإيمان وتعليمه الواجبات وتأديبه بالآداب الحسنة والفضائل كما هو مشروح مفصلا في كتب الفقه والتربية الإسلامية.

3- توفير البيئة الصالحة التي تساعد على نمو نفس الإنسان نقية صالحة، وذلك بتطهير البيئة من الرذائل والمنكرات ، حتى ان أهل الذمة لا يمكنهم التجاهر بالمنكرات، وإيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1] ، ومعاقبة وملاحقة المرجفين الذين يشيعون الأفكار الباطلة في المجتمع.. قال الله سبحانه [إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ](النور 19).

4- تقرير العقوبات الرادعة عن الجريمة كالقصاص والحدود والديات؛ وهذه العقوبات تقضي على الجريمة من الخارج في حين ان الإجراءات السابقة تقضي عليها من الداخل.. وهذا لا يعني ان لا أهمية لهذه العقوبات بل الواقع ان بعض النفوس لا

1- قال الله سبحانه: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] (التوبة/71).. ويقول الرسول (ص): (لا يحل لعين مؤمنة ترى الله يعصى فتطرف حتى تغيره) (وسائل الشيعة، ج11 ، ص399 ، ح25)، وقال: (إذا أمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع (وهي النازلة الشديدة) من الله تعالى) (وسائل الشيعة، ج11 ، ص394 ، ح5).

ترتدع الا بالعقوبات الحاسمة[1]. هكذا يأتي الإسلام النفس البشرية من جميع جوانبها ويحيط بها من كل أطرافها، فيقضـــي على الجريمة والرذيلة من الداخل ومن الخارج معا وبكل الوســـائل الممكنة، مستفيدا من كافة القوى التي لها تأثير على النفس. وبهذه الوسيلة يخلق المجتمع الفاضل الذي عجزت كل الحكومات وكل النظريات ان تخلقه حتى الآن.

ولا يملك الإنسان عندما يتدبر هذه الإجراءات ، وتلك التجارب التاريخية التي شــيدها الاســلام خلال أربعة عشــر قرنا ، الا ان يبدي إعجابه الشـديد بها، ويصــرخ: ما أشــد التعاســة التي تحكم الناس نتيجة تركهم مناهج الدين واســتبدالها بنظريات تافهة مائعة لا تغني عن الحق شيئا.

علم النفس..

ولابد ان نتطرق إلى علم النفس الإســلامي، لنشــير إلى بعض خطوطه العريضـــة. إذ ان معرفة النفس ضــــرورية لاســـتكمال الموضوع.

ولابد ان نشــير إلى ان للإســلام مذهبا خاصــا في علم النفس ناشـــيء من تعريفه للنفس، وهذا المذهب يتناول تارة المرض وأخرى العلاج. فالمرض النفســي في الإســلام ناشــيء من تزاوج عاملين:

1- ضعف العقل.
2- قوة الهوى.

1- قال الله ســبحانه: [ولكم في القصـــاص حياة يا أولي الألباب] (البقرة 179).. وقال النبي (ص): (اقامة حد خير من مطر أربعين صباحا) (وسائل الشيعة، ج18 ، ص308 ، ح4) .

فمثلا: القلق ناشئ من شيئين: الأول: فقدان الإرادة التي تضبط النفس وتقيمها في الطريق المستقيم.. والثاني: وجود نقص في الشؤون الدنيوية كخسارة تجارة وما شابه ذلك.. وهذا النقص لا يؤثر في النفس لولا حب الدنيا، وحب الدنيا ناشئ من حب الذات..

وعلاج هذا المرض يتم بأمرين:

1- بالتوجيه إلى نور العقل.

2- وبالتقليل من أهمية الدنيا في نفس الإنسان القَلِق.

كما ان الإسلام يعتبر الكفر والجحود والنفاق وكل الرذائل الأخرى أمراضاً نفسية أولا وبالذات ولابد من علاجها هناك في داخل النفس.

فالكفر – عند الإسلام – ناشئ من الاستكبار وعدم التسليم للحق.. والاستكبار ناشئ من هوى النفس والمبالغة في تقديرها.

اما الايمان فهو تماما ضد الكفر وهو: التسليم للحق.. اما كيف يمكن علاج الاستكبار وإقرار التسليم في قلب الإنسان فهو يتم بما سبق ان قلناه في بيان كيفية اصلاح النفس.

السياسة الإسلامية

1- الإسلام يقرر ان المشرع الوحيد هو الله سبحانه، ذلك لانه فقط مالك الناس.. والناس لا يملكون حتى انفسهم تجاه الله، في حين ان الله اعرف بحالهم وما يصلحهم ويفسدهم في الدنيا والاخرة.

قال الله سبحانه: [إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ..](يوسف 40).

وقال تعالى: [يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ اِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ](ص 26).

اما السيطرة التي يمارسها القادة في الدولة الإسلامية الشرعية، فإنها ناشئة من هذا الأمر، فحيث ان الله هو المالك الحاكم، فلابد ان يعين من يُتَّبَع في الارض.. وليس لاحد من العباد ان يفرض سلطانه على الناس الا بسلطان من الله.

2- ان الإسلام لا يعترف بسيادة الإنسان على نفسه من دون ان يقررها له الله ربه وخالقه ومالك اموره ومن إليه مصيره، ولذلك فهو يضع أول قواعد السياسة على اساس معتدل فيرتفع البناء باعتدال، في حين ان فلاسفة البشر(أمثال لوك وروسو) يقررون حق السلطة للبشر فينحرف بهم السير من المنطلق حتى النهاية، ذلك لانه:

ألف: إذا كان حق السلطة للبشر، كان لكل منهم الخروج عليها متى شاء، إذ ليست السلطة أكثر من شيء اراده الفرد في زمن، فإذا ما اراد يوماً رفضه، فلماذا لايجوز له ذلك؟ لماذا نأخذ بكلامه الأول دون الثاني؟

باء: ثم ان الناس لا يتفقون دائما في وضع شكل خاص للسلطة، أو فرد معين لممارستها، فيكون مبعث خلافات لا تنتهي (كما هي موجودة الان) وهي تسبب شقاء البشرية.

جيم: ان الإنسان حين يكون معرضا للخطأ في كل أطواره ، ومعرضا للتأثر بالدعاية والتأثر بالنزعات والتأثر بالشهوات وما اشبه من انواع المؤثرات في النفس، فلابد ان يأتي تعيينه لنوع الحكومة والحاكم خطأ على الاغلب (كما نجده اليوم وقبل اليوم ، حيث نواجه كل يوم نظرية جديدة وشخصا جديدا وليس الثاني بأحسن من الأول و ان عارضه وخالفه).

دال: إن سلطة الشعب على نفسه تمنى في احسن الفروض بهذه المساوئ. اما إذا جاء الاستغلال- وهو آت قطعا- واما إذا استبد الرئيس بالحكم وزوَّر الانتخابات، واما إذا اطاح الإنقلاب العسكري بالحكم وحلت الاحزاب فهنالك شقاء ليس وراءه شقاء.

ولهذه النواحي وغيرها فقد قرر الدين ان حق الحكم انما هو لله فقط ولله أيضا حق انتخاب الرئيس وليس للناس أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

والرسول مبعوث الله وخليفته في الأرض. يقول القرآن: [وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلاَّ لِيُطَاعَ بإِذْنِ اللهِ](النساء 64). والإمام خليفة الرسول لقول الله سبحانه [يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ](النساء 59).

أما بعد الإمام فيتولى شؤون المسلمين الفقيه التقي لأنه ممثل عام للإمام عليه السلام بنص صريح منه وهو قول الامام العسكري عن الامام الصادق عليهم السلام: (فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفاه على هواه ، مطيعا لأمر مولاه فللعوام ان يقلدوه[1]) وفي حديث آخر (فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليكم[2]) وفي حديث ثالث (فليرضوا به حكما فإني قد جعلته عليكم حاكماً)[3].

3- ويرى الإسلام ان السلطة لابد ان تعطى بيد من فيه الكفاءة (وهي: الفقه) والأمانة (وهي: التقوى)، ولا ينظر إلى نسبه ووطنه وحسبه ولا أي شيء آخر من الشؤون المادية أبدا.. ذلك لأن المهم في الرئيس اتقان ما عهد إليه بدون ضعف أو عجز أو خيانة، وهو يتوفر في الفقيه العادل سواء كان من هذا الوطن أو ذاك، هاشمياً أو لا، إذ لا قيمة للملاكات المادية في هذا المجال.

ولو ان الدين كان يشترط أمرا ماديا[4] – خارجا عن قدرة الناس- ، فقد ظلم ذوي المواهب الذين يقدرون على نيل السلطة، وظلم الناس بمنعهم عن مواهب أولئك.

---

1 - بحار الانوار ، ج2، ص88 .

2 - بحار الانوار ،ج53 ، ص180 ، باب 31 ، ح10 .

3- كلمة الجعل التي نجدها في القرآن وفي هذا الحديث عند بيان سلطة النبي والفقيه توحي بأمر هام هو: ان سلطة النبي وكذلك سلطة الفقيه ليست ذاتية وانما هي مجعولة اعتبارية مستمدة من سلطة الله سبحانه.. انها سلطة طارئة، سلطة عارضة. – الكافي ،ج1 ، ص67 ، باب اختلاف الحديث ، ح 0 .

4- خلافا للفارابي الذي اشترط في الرئيس ان يكون قوي الجسم.

4- كما انه يعتبر الدولة دولة دســــتورية يحكم عليها القانون الإســلامي، وليس لأحد من أبنائها ، ومنهم الرئيس، ان يبدل حكم الله[1] أبدا، ويجعل لذلك ضمانات نشير إليها بإجمال:

أ- من شــــروط الرئيس ان يكون تقيا. ومعنى التقوى: العمل بالدين، ومن عطل أحكام الله فليس فاسقا أو ظالما فقط بل هو كافر أيضــــا لقولـه تعـالى (ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فـأولئـك هم الكافرون)، ويعزل عن الرئاسة فورا.

ب- ان الرئيس يعزل بمجرد ان يعمل بالمعاصـي أو بمجرد ان لم يحكم بما أنزل الله، ويجري عزله ببســـاطة جدا ، حيث يجب على الذي عرف منه المعصية ان يتراجع عن متابعته ويرجع عن تقليده.

ج- ان المجتمع المســـلم مجتمع واع يعرف أحكام الله ويراقب الرئيس فيها، فمتى انحرف الرئيس قومه ولو بالسيف[2].

د- في الحكومة الإســـلامية ليس للرئيس قوة الا بالدين – كما سيأتي – فمتى انحرف عن الدين خارت قوته وخر صريعا.

5- يرى الإسـلام انه لابد ان تكون سـلطة الرئيس مسـتمدة أبدا من الشعب[3].. ويقرر ذلك بما يلي:

1- قال الله سبحانه: [يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً](الأحزاب/ 1-2) على عكس أكثر التشـــريعات البشـــرية التي جعلت للرئيس الحق في تغيير القانون في كثير من الظروف..

2- قال عمر للناس ذات مرة: كيف بكم إذا ملت؟ فقام أحدهم وهز ســـيفه وقال: إذن لقومناك بهذا.. وأشار إلى سيفه!

3- تعتقد بعض الدول المسماة بالديموقراطية ان سلطتها مستمدة من الشعب في حين انها لو كانت صادقة كانت سيادتها أول الأمر تابعة لإرادة الشعب. أما استمرارها فإنما هو لدعم أجهزة الدولة لها.. إذا فالإســـلام يفترق عن هذه النظم مع افتراض صـــحة ادعائها في ان هذه الأخيرة تبتدأ بإرادة الشعب وتستمر بقوة الأجهزة (الجيش والشرطة

أ- ان نظام الجيش في الإســـلام يختلف عن الأنظمة الأخرى، ذلك لأن الجيش في الإسلام داخل في الشعب، بل هو الشعب كله. إذا احتاج المســـلمون إلى الدفاع عن أنفســـهم أو الهجوم على أعدائهم، هب الناس كلهم لذلك. ويجب على المســـلمين جميعا ان يكونوا قادرين على حمل السلاح كما هو مفصل في كتب الفقه.

ومن هنا فليس من الممكن في الإســلام اســتخدام الجيش ضــد الشعب ــ كما هو الحال في الدول الحديثة ــ بل الجيش يقف دائما مع الشعب لأنه ليس جهازا من غيره.

ب- ان الإسلام يشترط في كافة أجهزة الدولة ان يكونوا كفوئين أمناء ويفرض على الناس مراقبتهم. فلا يمكن للرئيس ان ينصــب واليا غير كفوء أو غير أمين.. وإذا انحرفت أجهزة الدولة فليس من الممكن ان تســتخدم – بســبب وجود رقابة الناس - للأغراض أو المصالح الخاصة.

ج- ان الدين يقاطع ســـلاطين الجور ويأمر الناس بمقاطعتهم، ولذلك فإن الرئيس الخائن لا يمكنه ان يعيش في مجتمع مسلم.

وهذه الضـمانات الثلاثة وضـمانات أخرى يقدمها الإسـلام كلها نابعة من فلســفة الإســلام في الحكم، حيث يرفض بكل شـــدة ان يكون هناك قطاعان: حاكم ومحكوم، شعب وحكومة، بل يمزجهما أبدا ويجعلهما كيانا موحدا.

6- وبعد ان يوفر الإسـلام كافة الضـمانات في شـخص الرئيس يجعل منـه القوة الأولى والمركز الأعلى في البلد ويجعل جميع أجهزة الدولة تابعة له، ولا يجعل لهم كيانا مســـتقلا عنه.. وبهذا

والأمن والاستخبارات والدوائر) بينما الإسلام يجعل كلا من الابتداء والاستمرار بإرادة الشعب وتحت رحمته فيبتدأ حكمه بالشعب ويستمر بإرادة الشعب أيضا.

يضمن صلاحهم أيضا فتصبح الحكومة الإسلامية أمثل الحكومات جميعا برئاستها وبأجهزتها..

7- ويقر الإســـلام التنافس الحر الذي يدع للشـــعب الخيار في انتخاب أقرب الناس إلى الصـــواب، وليس معنى هذا ان الإســـلام يقر الأحزاب المتحاربة التي تفســـد البلاد، بل معناه: ان الدين يقول: على الناس ان يطيعوا كل من توفرت فيه شـروط خاصــة- كالفقه والعدالة - دون ان يعيّن شخصا خاصا. ويبقى على الناس ان يختاروا بعقولهم لا باهوائهم احسن الفقهاء دينا وأشدهم ورعا، ولهم بعد ذلك ان يرجعوا عن فقيه إلى آخر متى شـــاؤوا، وليس للفقيه ان يمنعهم عن ذلك.

ومتى توفرت هذه الشـــروط فلابد ان يرشـــح كل من يجد في نفســه الكفاءة للرئاســة، اما الناس فإن رأوا فيه ذلك اتبعوه. ولذلك فلا يزال في البلاد الإســـلامية فقهاء متعددون لكل منهم رئاســـته الخاصة.. فإذا وجد الناس اقل انحراف من الفقيه رجعوا فورا إلى غيره، واذا علم الفقيه ذلك فليس من المعقول ان يتعمد الانحراف (وكل هذه الامور مجربة في العالم الإسلامي حتى اليوم).

8- وبعد كل هذا فإن الدين يحفظ الناس- لاســـيما الفقهاء- عن الانحراف بتطهير قلوبهم عن الاهواء والشهوات - وقد مر تفصيل ذلك عند بيان اصلاح الناس- .

9- ويرى الإسلام ان الصفات التي تجعل القائد مثاليا هي:

أ- التقارب بينه وبين الناس. يقول ضرار في صفة الامام علي عليه الســـلام: (كان والله فينا كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه[1]).

1 - بحار الانوار ، ج41 ، ص14 ، باب 101 ، ح6 .

ب- ان لا يتخذ لنفسه حجابا ووسائط من دون الناس.

يقول النبي (ص) في وظائف الوالي: (ولم يغلق بابه دونهم[1]).

ويقول الامام علي عليه السلام مخاطباً بعض كبار المسؤولين في الحكومة: (لا تتخذُن حجابا ولا تحجبُن أحداً عن حاجته حتى ينهيها اليكم[2]).

ج- عدم التعدي على حقوق الاخرين، وان كان له السيطرة التامة عليهم ، وإجراء العدل بينهم.. قال الله سبحانه [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ](النساء 58).

د- ان يكون برا رحيما بالناس. قال الإمام السجاد (ع): (أما حق رعيتك بالسلطان فأن تعلم انهم صاروا رعيتك لضعفهم وقوتك فيجب ان تعدل فيهم وتكون لهم كالوالد الرحيم[3]).

هـ - ان يستشير في أمور البلد أهله ولا يستبد برأيه الخاص. قال الله سبحانه: [وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ] آل عمران 159).. وقال: [وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ] (الشورى 38).

و- التواضع للناس.. قال الله سبحانه: [وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ] (الحجر 88).. وقال الإمام علي عليه السلام لواليه على مصر (فاخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وأبسط لهم وجهك[4]).

ز- المساواة بينهم في كل شيء حتى في مثل النظر واللحظة. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لواليه (وآس بينهم في

1 - بحار الانوار ،ج22، ص495 ، ح41 .
2 - بحار الانوار ، ج72، ص354 ، ح70
3 - من لا يحضره الفقيه ، ج2، ص621 ،باب الحقوق .
4 - نهج البلاغة ، قسم الرسائل ،رقم 27 ، من عهده الى محمد بن ابي بكر .

اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم - أي ظلمك الناس لصالح العظماء - ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم[1]).

ح- أن يعيش مثل أضعف من تحت سلطته.. كتب الإمام علي عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة، وقد بلغه انه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى اليها.. كتب إليه يقول: (أما بعد يا بن حنيف، فقد بلغني أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت اليها.. وأضاف بعد توبيخه على ذلك: ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز (الحرير) ولكن هيهات ان يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الاطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى (جائعة) وأكباد حرى (عطاشى) ، أو أكون كما قال القائل: (وحسبك داء ان تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد.)؟ أأقنع من نفسي بأن يقال هذا: أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش[2]).

ط- ان يلتزم بعهوده ومواثيقه التي يقدمها لشعبه أو للشعوب الأخرى، قال الله سبحانه: [إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ](التوبة 4).

وليس معنى هذا ان على الرئيس ان يستسلم لشروط مجحفة وعهود ظالمة تفرضها الدول الأخرى، بل على العكس يجب على الرئيس ان يحرض الناس على القتال في سبيل الله، ويستعد دائما

---

1 - المصدر .
2 - نهج البلاغة ، قسم الرسائل ،رقم 45 ، من كتاب له الى عثمان بن حنيف .

للدفاع عن بلاده.. قال الله تعالى: [يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِأْتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُمْ مِأْئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُونَ](الانفال 65) .

وقال تعلى أيضاً: [وَأَعِدُّوا لَهُم مَااسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ](الانفال 60).. وإنما المقصود ان عليه ان يفي بعهوده التي هي في صالح المسلمين.

10- ويرى الإسلام ان للحكومة وظائف أربعة فقط اليوم:

أ- استنباط الأحكام من مصادرها الشرعية (السلطة التشريعية).

ب- تطبيق الأحكام على الموارد الخاصة (السلطة القضائية).

ج- تنفيذ الأحكام بإجراء الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العقائد الدينية وما أشبه مستفيدا في ذلك من كافة الوسائل الإعلامية والتربوية الجماعية.

د- تنظيم حياة الناس بتحديد الثروات وتوجيه التجار وجباية الضرائب وبناء المشاريع العامة كالمساجد والطرق والجسور والسدود، وكل ما هو في صالح المجتمع والتي نسميها اليوم بالخدمات الاجتماعية.

أما سائر ما تبنته الدول اليوم، فالإسلام لا يأمر بها.. ذلك:

1- لان الجيش ـ مثلا ـ تابع في كافة شؤونه للشعب، والحكومة هي التي توجه الشعب إلى ما يجب عليهم القيام به.

2- والتربية والتعليم والتثقيف العام (الصحف، الإذاعة، التلفزيون، دور النشر) مؤسسات اجتماعية يجب ان يقوم بها الناس أنفسهم بتوجيه من الحكومة، فإذا عجزوا قامت بها الدولة.

3- وتصنيع البلد أمر يناط بالناس أنفسهم تحت إشراف الدولة ولا تنتج من ذلك المضاعفات التي نتجت في الدول الرأسمالية، ذلك لأن الإسلام يحدد الثروات ويمنع الاحتكار، ويفرض الضرائب كما سبق الحديث في ذلك.

4- والتجارة الخارجية والداخلية أيضا من حق الشعب أنفسهم بعد ان تنظمها الدولة وفقا للمصالح العامة.

5- والزراعة كالتجارة ترتبط بالشعب، ومنها استغلال الثروات المعدنية.

وبصورة موجزة:

ان الدولة في الإسلام منظمة لأمور الناس وحافظة على توازنها، وليست غاصبة لحقوقهم مستقلة بشؤونهم.. نعم، إذا عجز الناس عن إدارة شؤونهم تتدخل الدولة وذلك إما بالاستقلال بها أو بإنشاء تعاونيات شعبية أو شركات عامة.. علما بأن أوامر الدولة في الإسلام مطاعة من قبل الناس.

فإتباع الجيش لأوامر القيادة ليس ذلك رغما على أنفه، بل وفقا لحريته، وخضوعا لما اتبعوه من تعاليم دينهم.

وفلسفة الإسلام في حصر مسؤولية الدولة في الأمور السابقة، يتلخص في ان تدخُّل الدولة في الشؤون الاجتماعية يوجب تحديد المجتمع وسلب حريته وخنق روح الابداع فيه، وأخيرا لا ينتج منه الا الضعف والعجز، كما انه يوجب تضخم مسؤوليات أجهزة الدولة، وتعقد علاقاتها، مما يسبب عدم قيامها بواجباتها الضرورية الهامة، كما نرى ذلك في أكثر الدول القائمة اليوم.

القسم الثالث عن الإنسان والمجتمع

البحث الثالث :

ميزات النظام الإسلامي

كلمة البدء
الحق
يوم الدين
لكل مناحي الحياة
لكل أفراد البشر
تطور الإنسان
تنفيذ الأحكام
التجربة الكبرى

كلمة البدء

لقد بحثنا في فصل سابق الفلسفة العملية في الإسلام، وعرضنا الخطوط العريضـــة لأحكام الدين، وكان طبيعيا ان يشـــمل ذلك العرض شـــيئا من ميزات الإســـلام، بيد انه لم يكن كافيا لفهم أدق وأوســـع لأنه كان يفقد نوعا ما عنصـــر المقارنة. والآن، وبعد ان كملت جوانب الفلسـفة العملية في المنهجين الإلهي والبشـري، نود ان نعرض ميزات الإســـلام عرضـــا موجزا وشـــاملا، بمقدار ما تسـمح به صـفحات هذا الكتاب لأن الموضـوع يسـتدعي أسـفارا ضخمة.

والميزات الرئيسـية في الإسـلام هي: ان الإسـلام احق، وأجدر بالإنسان ان يتبعه، وانه منهج الله رب العالمين، وانه شامل لجميع نواحي البشــر، وشــامل لكل أفراد البشــر، وشــامل لكل أدواره ومراحل تطوره، وانه ينفذ احكامه وتعاليمه في حين لا يمكن غيره من تنفيذها، ينفذها بالإيمان والضـــغط الاجتماعي وقانون العقوبات وما أشبه.. وانه مجرب قد أوسع فهما ودرسا.

الحق

في الفلسـفة النظرية حصـلنا على تعريف دقيق للحق وهو: ان الحق هو (مـا يطـابق الواقع) وفي الفلســـفـة العمليـة عرفنـا ان الإسلام، بما له من معارف تطابق فطرة الإنسان وتنسجم مع سنن الكون، هو الحق.. دون سواه.

وهذه ميزة للنظم الإســـلاميـة.. لأن الحق يجـب ان يتبع ومن يعارض الحق تكون عاقبة أمره خُســـرا. وهذا أمر وجداني نذكر به عبر أمثلة.

1- الحق يقول: ان الله خالقنا الكريم أعرف بحالنا منا وأولى ان يتبع أمره وتنفذ شرائعه، والذي يخالف هذا الحق ماذا سوف يكون مصـيره؟ أليس انه يتبع منهجا يضـعه هو؟ منهجا ضـحلا خاطئا يرديه ويحل عليه كل يوم قارعة جديدة؟

2- الحق يقول: ان نفس البشـر تهوى الشـر، ومن إتبع نفســه جرته إلى الفســـاد، وان عقله يهديه إلى الرشـــد ، ومن اتبعه بلغ الســـعادة، ومن خالف هذا الحق واتبع نفســـه وأعرض عن عقله كانت عاقبته خسرا.

3- الحق يقول: ان الأخلاق الفاضـلة وتحقيق الحرية البشـرية يخلقـان المجتمع الكريم، ومن خـالف هـذا الحق أبتلي بـالمجتمع الفاسد.

4- الحق يقول: ان تيار الكهرباء مضـــيء، وان القنبلة الذرية تدمر. فمن اتبع هذا الحق اســتنار بالكهرباء وحذر من اســتعمال القنبلة الذرية، ومن أعرض عنه (فأعرض عن الكهرباء واستعمل القنبلة الذرية) أليس يخسر نفسه بغير جدوى؟

يقول الله ســـبحانه [أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ] ؟ (يونس 35) .

يوم الدين

عرفنا في فصـــــل العقائد ان بعد الموت حياة باقية يثاب فيها المحســن ويعاقب المســيء ؛ [يَوْمَئِذٍ يَصْـدُرُ النَّاسُ أَشْـتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ](الزلزال 6-8) .

ولنقارن إذن بين الدنيا والآخرة. ان حياتنا الدنيا لا تتجاوز في أحســن الفروض الســبعين عاما: نصـــفها نوم وطفولة ومرض وأعمال ضـــرورية لا نملك الا فعلها، والباقي (35) عاما.. ولنفرض اننا نستطيع ان نتمتع فيها بكامل التمتع بعيدين عن منهج الله سبحانه (وهو مستحيل طبعا)[1]. فماذا يحدث؟

نخسر الآخرة التي ليس لها إنتهاء وانها حياة خالدة لا يمكن ان تحدد حتى بكلمة مليون ومليار أو ما شـــابه ذلك. (خالدين فيها أبدا).

وإذا خيرنا بينهما: فأي عاقل يبيع أكثر من مليون ومليار عاما وأكثر في سبيل 35 عاما فقط؟!

1- قال الله سبحانه: ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا. راجع فصل (الإيمان بالله) في العقائد لتعرف ذلك جيدا.

دع عنك ان عمر الدنيا كلها لا تساوي ساعة من متعة الآخرة ؛ انها متعة لا تقاس بالدنيا.. (فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر بقلب بشر)..

يقول الفيلسوف البريطاني برتراند رسل: (أنا لا اعتقد بالآخرة، ولكن حق على الذي يعتقد بها ان يصرف كل عمره في سبيل تحصيلها. ذلك لأن تسعين سنة لا قيمة لها ازاء حياة خالدة)[1]. أليس من الأفضل ان نتبع الإسلام لنحرز حياة خالدة في الآخرة تطفح بالنعيم والآلاء؟

ولو فرضنا ان الإسلام يسبب لنا شقاء طويلا في الدنيا (وهو فرض غير واقعي طبعا)، أليس من الخير لنا ان نتحمل هذا الشقاء مثلما نتحمل متاعب ليالي الامتحان لنحظى بنعيم الأبد، كما نحظى بنجاح السنة؟

قال الله سبحانه: [إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا * جَزَآءً مِن رَبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً](النبأ 31-36).

ان نسبة السبعين إلى ما لا نهاية، أقل من نسبة ساعة واحدة إلى عمر الأرض كلها.. فلو قيل لك: انك لو تعبت في هذه الساعة عشت مدى العمر سعيدا ، وبصورة عكسية لو تمتعت فيها شقيت مدى العمر.. ماذا سوف يكون اختيار العاقل الحكيم؟ ان الذين يتبعون أهواءهم من الماديين يخالفون ولا شك عقولهم التي تلومهم على ترك الحق والتعرض لعذاب الله الاليم.. ولكن هل ينفعهم الإنكار؟ هل ينقذهم من عذاب الله؟ ام يستطيعون خلودا في الدنيا وتمتعا بها؟

1- راجع كتاب (في التربية) تأليف راسل.

[قُلْ إِنَّ الْخَـاسِـــرِينَ الَّـذِينَ خَسِـــرُوْا أَنفُسَـــهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ](الزمر15).

لكل مناحي الحياة

للبشــر جوانب مختلفة: فله عقل وجهل، وله جســم وروح، وله حاجات ورغبات وتطلعات وغايات، وله فوق ذلك أطوار؛ فهو جنين في رحم أمه، وصبي في المهد، ويافع وشـاب، وله علاقات بعائلتـه، وأهل بلدتـه، وأهل مهنتـه، ولـه مئات من الشـــؤون الأخرى..

والغريب ان كل ناحية من نواحي الإنســان ترتبط ارتباطا وثيقا بســائر نواحيه. فلجســمه تأثير على روحه وبالعكس لروحه تأثير على جســـمه كما ان لعقله تأثيراً في هواه وبالعكس. والفرد يؤثر في المجتمع والمجتمع يؤثر في الفرد، وهكذا[1].

وليس في العالم نظام شـــامل لجميع هذه النواحي، ليس هذا ادعاء بل لم يأت نظام واحد يدعي انه يضـــع تعاليم للروح وتوجيهات للنفس وقوانين للمجتمع وأحكاماً للفرد و..و..و..

فالنظام الرأسـمالي مثلا، لا يدعي انه شـامل لتعاليم صـحية أو خلقية أو بيتية أو ما اشبه؛ والنظام الاشتراكي وان ادعى الشمولية

1- وكان هذا ســببا رئيســيا لغموض الإنســان؛ ذلك لأن التفاعل الموجود بين نواحي الإنسـان المختلفة بعضـها مع بعض لا يدع الفرد يختص ببحث ناحية معزولة عن سـائر النواحي. وإذا أراد فرد واحد ان يعرف شـؤون كل واحد من جميع النواحي حتى يكون طبيبا ومهندسا وقانونيا و.. و.. في وقت واحد، كان ذلك مستحيلا. راجع للتوسع كتاب (الإنسان ذلك المجهول) تأليف الكسيس كاريل.

الا انه جعل أكثر أحكامه مستوحاة من ارادة الرؤساء المرتجلة القائمة على انكار وجود الروح والاخلاق السامية للانسان ولقد اثبتنا سابقا وجودهما ولم يبق الا الإسلام، الذي هو منهج للتفكير، وفلسفة للكون، وأحكام للجماعة، وتعاليم للفرد منذ ان يكون جنينا وإلى ان يصير ميتا، وتصحيح للسلوك وتهذيب للنفس و.. و..

وفي كل فصل يتعرض الدين لكل ما يمكن ان يقع من احتمالات وفروض[1].

وفي هذا عدة فوائد:

1- انه يبعث قوة في النظام الإسلامي حيث يغني الفرد من تجشم متاعب نظام آخر.

2- انه يجعل بناء حياته متكاملا وعلى نسق واحد ولا يكون أمره فرطا يناقض بعضه بعضا، كما نجده في الرأسمالية. مثلا: يؤمن بالله بينما لا يؤمن بشرائعه، ويؤمن بالإنسان بينما ينسى نظامه بعيدا عنه.. وهكذا..

3- وأخيرا انه يجعل النظام قويا يمسك بعضه بعضا. فمثلا: الإسلام يقول في فصل المعرفة: ان الخطأ في التفكير ناشئ من اتباع الهوى، وانه لابد لمن يريد الحق ان يخالف هواه.. وهو يقول في فصل الأخلاق: لابد من اتباع العقل بدل اتباع الهوى، ويضع كل المناهج الخلقية على أساس هذه الفكرة.. وفي فصل السياسة يقول: لابد ان يكون الرئيس تابعا لعقله وليس لهواه، ولابد ان يكون انتخابه من الناس في هدى عقولهم لا في ظلمات أهوائهم. وفي فصل العبادات: يجعل الصلاة والصوم والحج وما

1- في الإسلام: (واجبه ومندوبه) تعاليم للزواج وللنكاح وللحمل وللولادة وللرضاعة وللتربية وللتعليم وللتجارة وللعلاقات العامة.

أشـــبه، وســـيلة لدعم عقول الناس وطمس أهوائهم. وهكذا ان مثل الإســلام كمثل شــجرة طيبة أصــلها ثابت تتفرع وتتوســع وترتفع حتى تشمل العالم كله.

وكل حكم منه يرتبط بكل شـــؤون البشـــر، والأحكام الأخرى ترتبط بهذا الحكم.

لكل أفراد البشر

1- لا يصلح أي نظام في العالم ان يسود البشرية جميعا.. ذلك لأن النظام الرأسمالي انما هو منبثق من اهواء طبقة الأغنياء، وكل ما فيه موضوع لحمايتهم فقط. انه نظام الأغنياء ويضطر الفقراء إلى اتباعهم.

والنظام الاشتراكي منبثق من اهواء طبقة الفقراء (كما يقولون) ولا يخدم الا مصلحتهم فقط.. ولابد عندهم من سحق سائر الطبقات. ونظم الأرض كلها تميز طائفة على أخرى، سواء على أساس طبقي أو قومي أو إقليمي أو ما شابه.

2- ولا يمكن ان يأتي نظام يشرعه بشر ثم يكون شاملا لهم جميعا وذلك للأسباب التالية:

أ- ان الإنسان يتأثر بمحيطه وبيئته مهما حاول الترفع عنهما فإن اختياره لابد ان يتأثر بذلك ولهذا نرى ان المشرعين والفلاسفة في العالم ينطبع كل منهم بطابع محيطه و بيئته.

ب- ان الإنسان يتبع هواه، فهو ان كان يحب بلده رفعه في النظام درجة وان كان يهوى طبقة معينة مال إليها ميلة. وهكذا.. ومن هنا نجد طابع القومية أو الطبقية باديا على كل نظم الأرض.

ج- ان الفرد الواحد لا يمكنه ان يحصل على المقاييس الدقيقة التي تخضع لها الجزئيات الصغيرة في كل بلد، ولذلك فهو يضع

حكما شــاملا دون مراعاة حالات الاســتثناء.. فيســبب ذلك شــقاء طويلا.

د- ان أنظمة البشـر مادية تسـتوحي كل واقعها من المادة، وبما ان للمادة في كل منطقة وفي كل يوم شـــكلاً جديداً وصــــيرورة خاصة، فإن الأنظمة تتأثر في كل مكان بما لها من ملامح.. فمثلا: لا تعترف نظم الأرض بالعقل.. ولذلك فإنها تضــــع كل أحكامها على أســاس المصــلحة. والمصــلحة تابعة لنوعية وســائل المعاش التي تختلف باختلاف الأماكن فيختلف النظام.

والإسلام يعترف بالعقل، ويستوحي منه كل أحكامه. و واضـح ان العقل واحد في كل مكان ولا يخضــــع لبيئة دون أخرى، ولا لحالة دون حالة.. فحينما يقول النظام الغربي للكاذب: أصـــدق! لا يقوله الا بعد ان يرى مصلحته في هذا ولا تكون مصلحته في ذلك الا في أحوال خاصــــة. بينما النظام الإســـلامي يقول للناس كلهم: أصــدقوا وفي كل الأحوال، ويتوسـل لذلك بعقولهم لا بمصــالحهم المختلفة.. وهكذا.

والإسلام شريعة الله الخالق لكل العباد الذي لا يخضـع في ظله شــــعب لشــــعب ولا طبقة لطبقة، مما يؤدي إلى اختلال التوازن ونشوب الأزمات.

الاســلام شــريعة الله الذي لا يفضــل أحدا ولا شــعبا، ولا طبقة على غيرها.

شريعة الله الذي لا يتأثر بمحيط وبيئة.

شـــريعة الله العالم بكل المقاييس التي تخضـــع لها حياة البشـــر ولذلك فهي صـــالحة لأن تطبق على كل البشـــر على نحو مســـاو ودون قلاقل.

تطور الإنسان!

في واقع البشـــر جوانب ثابتة، وجوانب متطورة. فما يتعلق بروحه وعقله ورغباته وحاجاته وتصـــوراته وأخلاقه ووجدانياته فإنه لا يتغير.. أما ما يرتبط بكيفية بروز الرغبات وسـد الحاجات وامتداد التصورات فهو الذي يتطور.

جوهر الإنسـان والمقاييس العامة التي يخضـع لها لا تتغير، فلا يمكن ان يكون هناك إنسـان لا يحب نفسـه أو لا يحب الخير أو لا يعرف ان الصدق والوفاء والايثار أمور حسنة.

وما سوى هذا الجوهر خاضع للتطور، ذلك لأن جوهر الإنسان ونظامه لا يرتبط بالمادة فلا يتغير. أما سوى ذلك فهو أمر مربوط بالمادة ولذلك يتطور بتطورها.

والنظم البشـرية، تلاحظ مادية الإنسـان، ولذلك فهي خاضـعة للتطور والتغيير. أما أحكام الإسـلام فهي موضـوعة وفقا لجوهر الإنســان ومقاييســه الروحية ولذلك فهي لا تتغير.. وكما يصــرح علماء القانون البشــري – ســواء الغربي أو الشــرقي- ان نظمهم مســتوحاة (على أفضـــل وجه) من ظروف البلد الذي يســن له

القانون، فإذا تغيرت تغير القانون. أما الدين فيقول: (حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة[1]).

1 - الكافي ،ج1، ص58 ، باب البدع و الرأي ، ح19 .

تنفيذ الأحكام

ويمكن ان يكون في النظام الغربي أو الشرقي (الجاهليين) قبسات ضوء أو ومضات خير، ولكنها لا تطبق الا في حالات نادرة. وماذا تغني لائحة حقوق الإنسان في مكتبة الأمم المتحدة، إذا ساد الشقاء، وعم العداء كل أرجاء العالم؟

المهم تطبيق النظام، والمهم ان يملك النظام ضمانا للتنفيذ وان تكون فيه صلاحية ذلك.

والسبب في عدم تطبيق نظم الأرض هي ثلاثة أمور:

1- إنها من صنع البشر أنفسهم وما صنعته يد البشر تنقضه يده أيضا.

2- انها لا تصلح في كثير من فروعها للتطبيق.

3- انها لا تملك قوة كافية للتطبيق ذلك لأنها في الواقع تعتمد على قانون العقوبات، الذي ان كان صحيحا - وهو غير صحيح - ، فهو غير كاف لما سيأتي.

أما النظام الاسلامي:

أ- فهو ليس من صنع البشر حتى يملك البشر نقضه. فليس هناك قوة في الأرض – ومنها قوة السلطة – تملك تغيير حكم الله. فالبشر يشعرون بالتضاؤل أمام قانون الله لأنه قد وضع من لدن حكيم عليم.

ب- أضــف الى ذلك أنه صــالح للتطبيق، وقد طبق في التاريخ مرات كثيرة. وقد استمد صلاحيته هذه من عدة أسباب:

1- انه يلائم فطرة الإنسان، فإذا هي تنسجم مع طبيعته إنسجاما عجيبا.. فهو مثلا: يحكم بما يهوى إليه العقل، ويشـبع رغبة النفس ويسد حاجات الجسم.

2- انه ميسـور باعتبار ملاحظته للضـعف البشـري وليس أدل على ذلك من ان الحكم مرفوع في الدين عن المكره والمضــــطر والمجنون والصبي والنائم والجاهل، وكل حكم فيه ضرر أو عسر أو حرج أو اختلال نظام فهو مرفوع.

3- انه مبســط ويســتطيع أقل المســلمين فهما ان يطلع على ما يحتاجه من أحكام في عمره خلال أشهر معدودة.

ج- إن النظام الاســـلامي يملك قوى كثيرة للتطبيق، ولابد ان نشــــير قبل بيان تلك القوى إلى ان النظام مهما كان شــــاملا فإنه يحتاج إلى قوة إجرائية أكبر من النظام نفســه.. والإســلام بما هو نظام كامل شــــامل وفيه مئات الآلاف من الأحكام فإن تنفيذه يدل على ان قواه الإجرائية أكبر وأعظم من كل نظام آخر.

والقوى الإجرائية في الإسلام هي:

1- الإيمان.

2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3- التربية.

4- الحدود والقصاص والديات.

ولابد ان نعرض كلا منها بشيء من التفصيل

1- الإيمان.

والإيمان بالله – المحيط علما وقدرة – وباليوم الآخر الذي يجازي فيه بالخير خيرا وبالشر شرا قوة لا مثيل لها في دفع الفرد إلى عمل الخير وتتميز عن غيرها بأنها:

1- تستطيع ان تهذب النفس من الداخل وتنظم مشاعر الإنسان وتحفظه من الحسد والحقد والجبن والقلق وما أشبه.

2- تتمكن من حفظ الفرد عن الخروج عن أحكام الله حيث لا مراقب ولا دولة ولا جزاء.

3- ان عمل الخير الصادر عن النفس المؤمنة يكون عملا متقنا باعتباره صادرا عن إرادة الفرد ورغبته وليس مكرهاً عليه.

وبصورة معكوسة تماما نجد القوانين البشرية (الجاهلية):

1- لا تتمكن من تهذيب النفس من الداخل، ولذلك يشيع القلق النفسي في الدول الغربية وتطفح النفوس بالعقد الجنسية والحضارية.

2- وهي لا تستطيع ان تنظم سلوك الفرد الداخلي فلا تستطيع مكافحة الاجرام الذي كثيرا ما يرتكب سرا.

ومن هنا فإن البشر عاجز عن توفير حياة طاهرة عن الإجرام لنفسه وان صرف المبالغ الطائلة.

3- وحيث ان الفرد يريد من الداخل الشر ويجبر على عدم فعله من الخارج، فإنه يعيش أزمة داخلية بإستمرار أو ينمو فيه بغض متزايد للشعب والقانون وينتهي بالعصيان والتمرد اللذين نجد نماذج منها في دول العالم الراقية اليوم.

2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

صــفة الحياء صــفة فطرية في الإنســان. ومن هنا فالفرد تابع لمجتمعه وقليلا ما يخرج عن عاداته التي يعاب من خرج عليها.. والدين يستخدم هذه الصفة حيث يجعل العمل بأحكام الدين صبغة اجتماعية يعاب من تركها، وتبرز هذه السمة حينما يوصــي الدين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويفرض على كل مسـلم: ان يراقب الناس جميعا فإذا رأى مروقا أو خروجا على حكم ديني أو أخلاقي سارع إلى انكاره، أرأيت كيف يكون حال مجتمع كل أهله رجال أمن وشرطة؟.. ومن الطريف ان الآمر بالمعروف قد يكون مأمورا به غدا من قبل نفس الذي يأمره اليوم.. ذلك لأن المسؤولية في هذا الصــــدد تجري على الكل بصـــفة متســـاوية.. فالمؤمنون يتواصــــون بالخير.. وهذه القوة لا تبلغ في حجمها القوة الإيمانية ولكنها في نفسها قوة كبيرة إذ ان مراقبة الجماهير أقوى بكثير من مراقبة طائفة خاصــــة (كرجال الأمن والشـــرطة) في القانون البشــري في حين انه لا يكلف الشــعب مالا ووقتا ولا أي شـــيء آخر.

3- التربية.

والتربية (التي سبق الحديث حولها في فصل اصلاح الناس[1]) عامل آخر مساعد لإجراء أحكام الدين..

ومع ان ســائر النظم قد اســتخدمت هذه القوة الا ان ترابط نظم الدين وتفاعلها مع النفس الإنسانية لا مثيل لهما في النظم الأخرى. ولذلك فإن التربية في ســائر النظم لا تســتطيع خدمة النظم مثلما

1- وهي: مجموعة تعاليم من شأنها تزكية النفس وتطهيرها عن الرذائل.

تفعله في الإسـلام، بالإضـافة إلى ان التربية الإسـلامية تتميز بعدة سمات تجعلها أقوى من غيرها:

1- اسـتخدام كافة الطاقات الكامنة في جوهر الإنسـان كالعاطفة والعقل وحب الذات وحب الأقرباء وهكذا..

2- تقوية أواصــر الأســرة والقرابة مما تؤثر في انطباع الفرد بخلقهم.

3- تنقيـة الجو المحيط بـالأطفـال بحيث يجعل الطفل لا يفكر مجرد تفكير في الجريمة. وقد لا نســـتطيع ان نعرف مدى تـأثير التربيـة في تطهير نفس المؤمن وعملـه من الرذيلـة والجريمـة، ولكن الواضح ان لها تأثيرا بالغا جدا.

4- العقوبة.

والعقوبة المفروضــة في الإســلام.. ليسـت فقط تكميلا لنواقص الإنسان بل انها حصن منيع للمجتمع عن الجريمة أيضا.

والعقوبات الإســلامية التي تشــمل كلا من الحدود والقصـــاص والديات تتميز بالسمات التالية:

1- انها لا تثبت بشبهة أو سوء ظن، بل تدرأ بالشبهات[1].

2- وبعد ان تثبت الجريمة ويثبت ان مرتكبها قد ارتدع عنها طوعياً، فللإمام ان يعفو عن صـــــاحبها، فتحا لباب التوبة أمام المجرمين.

3- ولكن ان لم يثبت انه قد تاب، فمن المستحيل قبول الشفاعة فيه أبدا.

1- قال الرسول (ص): (تدرء الحدود بالشبهات).

4- بما ان الجريمة يجب ان تحسـم مادتها بعزم وإصـرار فإن الإسلام يضع عقوبات مناسبة لكل جريمة دون ان يرحم المجرم.. ومن هنا كان قطع اليد والاعدام والقصـاص في النفس والأطراف مشروعا في الإسلام. وقد ثبت ان وضع هذه القوانين الحاسمة هو العلاج الوحيد لقطع دابر الجريمة، وان تماهل القوانين الأخرى حول الجريمة هي التي سـببت ازدياد نسـبة الجريمة في كل بلاد العالم.

في حين ان انحسـار مادة الجريمة عن المجتمع الإسـلامي كان الى حدٍ ما بفضل هذه العقوبات.

كلمة الختام

هذا هو الإســلام .. وهذه هي مزايا، أفلا يدعونا العقل و إيماننا بالحق إلى العمل على تطبيقه في واقع الحياة ؟

وحينما يقول القرآن الكريم: (اهدنا الصراط المستقيم) يشير إلى حقيقة هامة ،هي ان الإســـلام فقط يمثل الطريق الوســـط الذي لا تطرف فيه ولا انحراف، يجمع فيه كل محاســـن اليمين واليســـار ويرفض كل مساوئهما.. وهذه أمثلة في ذلك:

1- في مجال الفلســـفة؛ لم يتطرف الإســـلام إلى جانب الروح فينكر الجسد ولا إلى جانب الجسد فينكر الروح، بل قال بهما. كما لم يقل ان الإنســـان خير محض ولم يقل انه شـــر محض (كما تطرف آخرون) بل قال بهما معاً.

2- وفي الاجتماع؛ كان التأكيد على التعاون وتحقيق نظامه ميزة من تطرف إلى جانب الجماعة ونســـي الفرد. وكان تحمل المســـؤولية والنشـــاط والابداع ميزة من تطرف إلى جانب الفرد ونسـي الجماعة. وكان لتطرفهما مسـاوئ ولكن الإسـلام جمع بين

الميزتين، وقال: ان الفرد مسؤول في حين انه يجب عليه التعاون أيضا.

3- وفي الاقتصاد؛ توجد في الرأسمالية حرية ولا ضمان للفقراء ، وفي الاشتراكية ضمان بلا حرية، فجمعهما الدين وقال بالحرية والضمان معا.

4- وفي السياسة؛ كانت قوة التنظيم وشدة الانسجام وإطاعة الأوامر كلها من ميزات حكومة الحزب الواحد والديكتاتورية ؛ وكان البعد عن الخطأ واجتماع العقول والرضا والحرية من ميزات الديموقراطية، فجمعهما الدين وقال: لابد من إطاعة الرئيس وعلى الرئيس أن يستشير، وقال [وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ](آل عمران 159) . فهناك عزم من جهة ومشورة من جهة ثانية. ثم هناك حرية إذ ان الناس يتبعون قرار الرئيس بمحض إرادتهم التي اختاروا بها هذا الدين.

5- والإسلام لا يتطرف إلى جانب الدنيا فينسى الآخرة كما صنعته اليهودية ولا يعكس كما صنعته المسيحية في الرهبنة بل قال: (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا[1]).

وإذ نأتي على آخر ما ذكرنا من مزايا الإسلام فلا يعني اننا قد بلغنا فيها المنتهى، بل لا ندعي الا اننا قد عرضنا شيئا يسيرا منها.

نسأل الله ان يوفق العالم إلى تطبيق هذا الدين الذي ينقذهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

---

1 - وسائل الشيعة ، ج12 ، كتاب التجارة ، ابواب مقدماتها ، الباب 28 ، ص49 ،ح2 .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

كربلاء المقدسة - العراق

1389-6-25 هجرية

الفهرس

كلمة في البدء

مقدمة الطبعة الرابعة

القسم الأول: عن العلم والفلسفة

البحث الأول عن:

المعرفة بين الإسلام والتصورات البشرية

منهج البحث

العقل وتقييم الأفكار

العقل ومصادر الفكرة

البحث الثاني: نقد التصورات البشرية

آراء في المعرفة

آراء في قيمة المعرفة

كانت والنسبية الذاتية

النسبية التطورية

البحث الثالث عن:

العالم بين الرؤية الإسلامية والتصورات البشرية

المدخل

الديالكتيك فلسفة عامة

الفلسفة الميكانيكية

الإسلام وفلسفة النور

تعاريف لابد منها

القسم الثاني عن: العقيدة والإيمان

البحث الأول عن: الدليل إلى الله

كلمات في البدء

أي رب ندعو إليه

الدليل إلى الله

التذكر بالله

مغالطات مفضوحة

الإيمان بالله

معطيات الإيمان

الإيمان نبع لا ينضب

البحث الثاني عن: الرسالة
الرسالة والرسول
محمد رسول الله
البحث الثالث عن: الولاية
الحاجة إلى الإمام
كيف نعرف الإمام؟
مسؤولية الناس تجاه الامام
البحث الرابع عن: الحياة بعد الموت
الدليل على البعث
الجبر والاختيار
القضاء والقدر
الغاية من الخلق
القسم الثالث عن: الإنسان والمجتمع
البحث الأول عن: الإنسان والمجتمع
كلمة في البدء
آراء وملاحظات
البحث الثاني عن: الإسلام والإنسان والمجتمع
كلمة في البدء
المجتمع الإسلامي
الاقتصاد الإسلامي
الأخلاق الإسلامية
السياسية الإسلامية
البحث الثالث عن: ميزات النظام الإسلامي
كلمة البدء
الحق
يوم الدين
لكل مناحي الحياة
لكل أفراد البشر
تطور الإنسان
تنفيذ الأحكام
كلمة الختام